من آثار

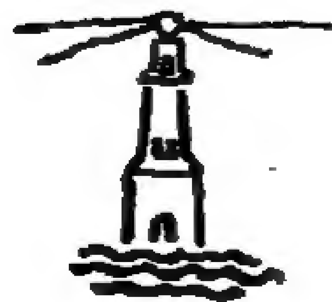
مصطفى عبد الرازق

صدرها بنبذة عن تاريخ حياته شقيقه

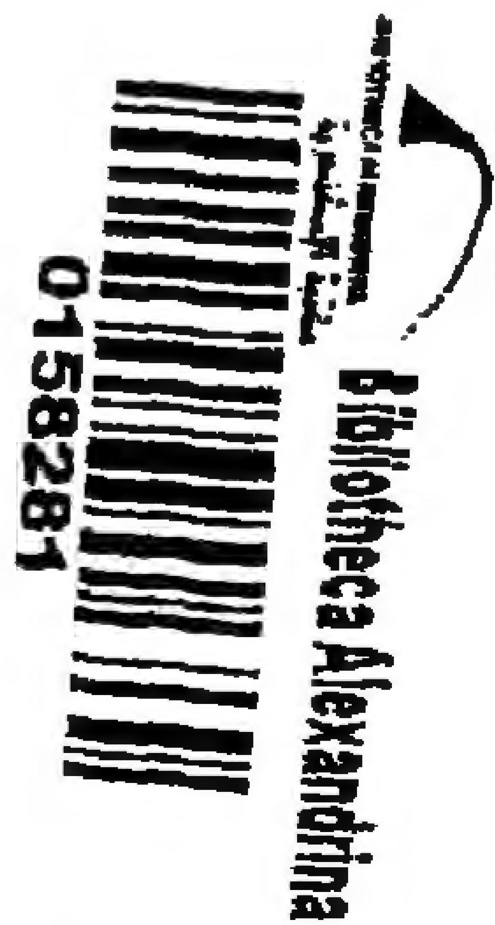
علي عبد الرازق

مقدمة بقلم

طه حسين



دار المعارف بمصر



من آثار

مصطفى عبد الرازق

صفحات من سفر الحياة ومذكرات مسافر
ومذكرات مقيم وآثار أخرى في الأدب والإصلاح

صدرها بنبذة عن تاريخ حياته شقيقه

علي عبد الرازق

مقدمة بقلم

طه حسين



دار المعارف بمصر

١٩٥٧

الفهرست

مصطفى عبد الرازق كما عرفته

..

كنت فى السادسة عشرة حين لقيته لأول مرة حين أقبل زائراً لثلاثة من رفاقه فى الأزهر ، بينهم أخى . وكانوا جميعاً يقيمون فى غرفات متقاربة فى ربع من تلك الربوع التى كان طلاب الأزهر يحتلونها فى حوش عُطَىّ . وكانوا يجتمعون فى غرفة أحدهم حين يزورهم الزائرون ، وقد كان الاجتماع فى غرفتنا تلك المرة . وقد لقيت منه شاباً حارّ الصوت ، صادق اللهجة ، عذب الحديث ، لا يرفع صوته إلا بمقدار ؛ وكان قليل الحركة ، معتدل النشاط ، يمتاز من رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادئ المطمئن الذى لا يتسم به الشباب عادة ، وإنما هو سمة الشيوخ ومن يجرى مجراهم من الذين تقدمت بهم السن . وكان جمّ الأدب ، موفور التواضع ، لا يتجاوز القصد فى قول أو عمل ، يفرض عليه طبعه ذلك ، ويفرضه هو على الذين يجالسهم أو يتحدث إليهم ، كأنما كان يلقى فى نفوسهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم ، فضلا من وقاره وهدوء نفسه . فهم يتحدثون مثله فى أناة ، ويضحكون مثله فى قصد ، ويرون معه أحاديث الجد ، وربما عبثوا شيئاً بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر . ومضى وقت غير قصير قبل أن تقوى الصلة بينه وبينى .

كان قد أشرف على الخروج من طور الطلب إلى طور العلماء ، وكنت فى أول عهدى بالدرس ، لم أنفق فى الأزهر إلا عامين أو ثلاثة . وكان أولئك الرفاق يلقونه فى درس الأستاذ الإمام ، ويزورونه — إذا أقبل الليل — فى داره بعابدين . فإذا عادوا تحدثوا عنه وعن إخوته ، وعمن كانوا يلقونه فى تلك الدار

من أصحاب المنازل الرفيعة ، يملؤون أفواههم بهذه الأحاديث ، ويشعرون بأنها ترفعهم درجة عن أمثالهم من الطلاب .

وكان أولئك الرفاق يمتازون من زملائهم بالذكاء ، وحسن التحصيل ، والبراعة فى مجادلة الشيوخ . وأكبر الظن أن هذا هو الذى لفت إليهم زميلهم مصطفى عبد الرازق ، فقد كان شديد الحرص على أن يصل أسبابه بأسباب الذين يحبون العلم ، ويمتازون فيه ، كأنه أخذ هذه الخصلة عن والده وعن أستاذه الإمام ، فكلاهما كان يرى حب العلم نادراً فى مصر ، ويبحث عن الذين يتصفون به بين طلاب الأزهر وغيرهم من الشباب . وقد ظلت هذه الخصلة ملازمة لمصطفى عبد الرازق حياته كلها ، وقد وصلت أسبابه بكثير من الذين امتازوا فى طلب العلم بين الأزهريين وبين المختلفين إلى مدرسة القضاء وبين الجامعيين آخر الأمر ، على اختلاف بيئاتهم وطبقاتهم .

وكان لا يعرف محبًّا لطلب العلم مخلصاً فى هذا الحب إلا سعى إليه واتصل به وقربه منه وفتح له قلبه وعقله وداره أيضاً . ومهما أنس فلن أنسى تلك الجماعة التى ألفها من بعض أولئك الممتازين من طلاب العلم فى الأزهر ، ونظم لها اجتماعاً برياسته مساء الجمعة من كل أسبوع . وكانت هذه الجماعة تلتقى فى غرفة من غرفات الطلاب فى ربع من ربوعهم أيضاً بخان الخليلى ، ويلقى أعضاؤها أحاديث فى موضوعات مختلفة تدور كلها حول الإصلاح الذى كانت مصر كلها تتحرق ظمأ إليه ، وإلى إصلاح الأزهر خاصة بعد أن شب الأستاذ الإمام فى قلوب الممتازين من شبابه جذوة الثورة على ذلك الركود الذى اطمأن إليه الأزهر قروناً طوالا .

وكان افتتاح مصطفى عبد الرازق لجلسات تلك الجماعة هو أشد ما يعجبنى ويروعنى ، فهو لم يكن يزيد على أن يسمى الله ويقرأ الفاتحة ، ثم تأخذ الجماعة

فيما تريد أن تدير بينها من الحديث . وأىّ افتتاح أبلغ وأوقع فى القلوب من اسم الله وفاتحة الكتاب المجيد ! وقد عرفت بعد ذلك أن مصطفى عبد الرازق كان يذهب فى ذلك مذهب الوفاء الصادق لأستاذه الإمام الذى افتتح رسالته فى التوحيد نفس هذا الافتتاح .

وإذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هى الخصلة الأولى من الخصال التى لزمته حياته كلها، فخصلة الوفاء هى الخصلة الثانية من خصاله . فقد عرفته محبًّا للعلم وطلابه كأشد ما يكون الحب وأصدقه وأعمقه، يسعى إليهم ويقربهم منه ويؤثرهم بالخير وينزلهم من نفسه مكانة الصديق؛ وعرفته كذلك وفيًّا لكل من أحب من الناس لا يفرق بينهم فى ذلك مهما تكن الظروف ومهما يبعد بهم الزمان والمكان ومهما تلم الأحداث وتدلهم الخطوب .

كان وفيًّا للشافعى ، رحمه الله ، لأنه كان يذهب مذهبه فى الفقه ، ويرى الوفاء له ديناً عليه . ومن أجل ذلك ترجم رسالته وعنى بدرسها وترجمتها وقتاً غير قصير . وأثر هذا الوفاء للشافعى فى حياته العقلية نفسها وفى نهجه الفلسفى تأثيراً شديداً، وفتح له أبواباً من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين . فدراسته لرسالة الشافعى فى الأصول ألقت فى روعه رأياً خصباً لم يستغله تلاميذه بعد ، وأرجو أن يتاح لبعضهم تعمقه واستقصاء آثاره الخطيرة فى تاريخ الحياة العقلية للمسلمين . فقد رأى أن الشافعى يفلسف فى أصول الفقه وما يتصل به من المشكلات المختلفة فى الدين واللغة واستنباط الأحكام من النصوص ، فارتقى برأيه هذا إلى من سبق الشافعى من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا فى أصول الفقه وحدها ، بل جادلوا فى أصول الدين أيضاً، فأولئك الزعماء القدماء للأحزاب الإسلامية الأولى، حين كانوا يجادلون فى مذاهب أحزابهم وآرائها فيمن ثاروا بعثمان ومن تابعوا عليًّا ومن خاصموه ومن وقف من هذه الفتنة موقف الحياد، وحين كانوا يجادلون فى مقترف الكبيرة أمؤمن هو أم كافر أم هو يصير إلى

منزلة بين منزلتين من الإيمان والكفر أم هو مرجأ إلى الله يقضى فى أمره بالحق ؟ وحين صاروا من هذا الجدال إلى الجدال فى أمور أخرى أعمق من هذه الأمور، فجادلوا فى العدل والتوحيد، إنما كانوا يفلسفون فى مسائل الدين قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية ، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين واليهود . ومعنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم ، وكانت فلسفة يسيرة سمحة كالإسلام نفسه ، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها ما فى هذه الفلسفة من العسر والتعقيد .

وكذلك جره الوفاء للشافعى ، رحمه الله ، إلى استكشاف مذهب جديد فى الفلسفة الإسلامية له خطره العظيم إن عرف تلاميذه كيف يتعمقون وينتهون به إلى غايته .

وكان وفيًّا للذين عرفهم وحسنت الصلة بينه وبينهم من الأساتذة الفرنسيين حين أقام فى فرنسا طالباً للعلم الحديث ، بعد أن أخذ بحظه من العلم القديم فى مصر .

عرف أستاذاً فرنسيًّا شابًّا فى إحدى الجامعات هناك واشتد الإلف بينهما ، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى ، ودعى ذلك الأستاذ الفرنسى إلى أداء واجبه العسكرى ، فاستجاب للدعاء وترك زوجه وليس لها عائل ، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه بالنصيب الأوفر مما كان يصل إليه من المال ، لا يتردد فى ذلك ولا ينقطع عنه حتى عاد إلى مصر . والله يعلم ماذا فعل بعد عودته . وقد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسى نفسه ، وقد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث ، وظل وفيًّا لهذا الأستاذ ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، ومضى شىء من الوقت ، وخلا منصب فنى من المناصب فى مصر ، ولم يكن بين المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب ، وأخذت الحكومة تبحث عن أجنبى — جد مصطفى حتى اختير صديقه ذاك لهذا المنصب . وسألته عن

عنايته الخاصة بهذا الأستاذ وجده فى السعى له ؛ فأنبأنى بأنه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولا ، وبأنه فقد زوجه وجزع لفقدها ، فمن الخير أن يترك وطنه ومدينته ويشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد فى ذلك عزاء وتسلية .

وربما جرعليه وفاؤه ذاك بعض ما كان يضيق به من الأمر ، ولكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيراً أم شرًّا ، بل لم يحفل قط بعواقب الواجب وما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه . كان سعد زغلول منفيًّا عن وطنه وكانت زوجه تعيش فى دارها بالقاهرة يبرها المصريون والسعديون منهم خاصة ، وكان مصطفى من أسرة تذهب مذهب الأحرار الدستوريين الذين كانوا يخاصمون سعداً أشد الخصام، وكان مفتشاً قضائيًّا بوزارة العدل ، وأقبل عيد من الأعياد، فلم يتردد مصطفى فى أن يذهب إلى دار سعد ويترك بطاقته هناك .

وانقضت أيام العيد ، وذهب مصطفى إلى عمله ، فلم يكد يستقر فى مكتبه حتى دعى للقاء الوزير . فلما لقيه قال له الوزير : ألم أعلم أنك ذهبت إلى دار سعد وتركت فيها بطاقتك يوم العيد ؟ قال مصطفى : قد كان ذلك . قال الوزير : أولم تعلم أن سعداً يناوئ الحكومة القائمة وأن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى : تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة ولا بالحكومة . قال الوزير : فأنت مفصول منذ الآن . قال مصطفى : أنت وما تريد . وعاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان . ولكن رئيس الوزراء ثروت باشا ، رحمه الله، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه ، وترضى ذلك الوفىّ الذى وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء .

والبر بطلاب العلم خاصة ، وبكل من كان يحتاج إلى البر عامة ، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق . فلم أعرف قط قلباً أبر بفقير ، ولا نفساً أرق لذى حاجة، ولا يداً أسرع إلى العطاء، من قلب مصطفى عبدالرازق ونفسه ويده .

كان أستاذاً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكنت لها عميداً في بعض الأوقات . وكان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية في الكلية إذ ذاك ، فكان يسعى إليّ في بعضهم ، فأجتهد له في ذلك حتى لا أجد سبيلا إلى الاجتهاد ، فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد . وكلمته في ذلك ذات يوم وقلت له : توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر ؛ فضحك ضحكة حلوة ، وقدم إلي سيجارة من نوع جديد ، كما كان يقول ، ثم ألقى بهذه الكلمة التي لم أنسها قط ، والتي ينبغي أن يذكرها كل قادر على العون : وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب ؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى ؟

ولم أره غضب قط ، إلا مرة واحدة حين تدخل بعض الأساتذة الأجانب فيما لا ينبغي للأجانب أن يتدخلوا فيه من شؤون كلية الآداب ، وألحّ في تدخله ، فأخرج مصطفى عن طوره واضطره للمرة الأولى – فيما أعلم – إلى أن يرفع صوته ويظهر غضبه ويكفّ ذلك الأستاذ عما لم يكن له أن يدخل فيه .

كان وفيّاً وكان أبيّاً وكان برّاً وكان سمح الطبع والنفس والقلب. لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت . وكان لهذه الخصال كلها تأثير أي تأثير في حديثه إذا تكلم ، وفي فنه إذا كتب . واقرأ ما شئت من فصول هذا الكتاب : ما كتبه منها أيام شبابه الأول ، وما كتبه منها بعد أن تقدمت به السن ؛ ما كتبه منها حين كانت الأيام هينة لينة ، وما كتبه منها حين كانت الأيام شداداً ثقالا .

لم يكن شيء قادراً على أن يغير من خصاله تلك شيئاً . كان سمحاً في جميع أطواره وفي أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف . كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه ، والحديث العذب ألزم شيء له . وكان يضيف

إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب ، وهي خصلة العناية الدقيقة جداً بالتفكير أولا وبالتعبير بعد ذلك عما فكر فيه . كان لا يكره شيئاً كما كان يكره العجلة فى القول والعمل والمشى أيضاً .

كان شديد الإيثار للأناة . وكان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق والزملاء . فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات ، ويحضر أعضاء هذه الاجتماعات فى الموعد المقدر لا يتأخرون عنه إلا الدقيقة أو الدقائق القليلة إلا مصطفى ، فكان يأتى دائماً متأخراً جداً . وكان زملاؤه لا يحبون أن يأخذوا فى العمل قبل حضوره . فكانوا ينتظرون وينتظرون ، وربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق ، ولكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة تلك ، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له ، ولا يأخذون فى عملهم إلا بعد دعابة لا تمل . . .

وكان لهذه الأناة أثرها فى كتابته ، فأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافراً أو فجاً لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه . وأنت لا تجد فيما يكتب لفظاً نابياً عن موضعه ، أو كلمة قلقة فى مكانها ؛ وإنما كان كلامه يجرى هادئاً مطمئناً كما يجرى ماء الجدول النقى ، حتى حين يداعب صفحته النسيم . وكنت أشبه له كتابته بعمل صاحب الجواهر : يستأنى بها ويتأنق فى صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة تثير فيمن يراها المتعة والرضى والإعجاب . كان يتأنق فى فنه كما كان يتأنق فى حياته كلها ، وكما كان يتأنق فى سيرته مع الناس جميعاً ، سواء منهم من كان يألف ومن كان يجفو . فلست أعرف أن أحداً سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه . كان راضى النفس ، يبعث الرضى فى نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرءون له .

وإنى لأذكر حديثاً له ألقاه فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين فى مدينة « ليدن » ، وكان المؤتمرون كثيرين ، وكانت أحاديثهم كثيرة متنوعة ، وكان رئيس الجلسة مضطراً إلى أن يقدر للمتحدثين عشرين دقيقة لا يعدوها أحد مهما

يكن حديثه . وقد التزم المؤتمرون ذلك ولم يخالف عنه أحد منهم . فلما أخذ مصطفى فى حديثه فى صوته ذاك الهادئ العذب الرقيق أصغت إليه الآذان ، ثم صغت إليه القلوب ، ثم اتصلت به النفوس. وكان يقطع حديثه بين حين وحين ويلتفت إلى الرئيس مبتسماً كأنه يسأله : أيمضى فى حديثه ! فيشير الرئيس إليه : أن نعم ، حتى إذا أتم حديثه كان قد جاوز الأربعين من الدقائق . لم يحس أحد أنه قد أطال ، وأخذ من الوقت أكثر مما كان ينبغى له .

واقرأ هذا السفر الضخم الذى تختلف فيه الأحاديث والموضوعات اختلافاً شديداً ، فستراه على ذلك مؤتلفاً أشد الائتلاف يؤلف بين مختلفاته ما تفيض عليه نفس الكاتب الهادئة السمحة الرزينة من هدوء سمح رزين . ولو أنى أرسلت نفسى على سجيتها لما وجدت لحديثى عن مصطفى غاية أنتهى إليها أو حدًّا أقف عنده .

فأشهد ما مر بى يوم دون أن أفكر فيه يقظاً ، وأشهد ما مر أسبوع دون أن أراه فيما يرى النائم ، كما كنت ألقاه أثناء الحياة .

فلأخلص أنا للتفكير فى هذا الصديق العزيز ، ولتخلص أنت لقراءة أصدق حديث لأخ عن أخيه أولاً ، وأسمح كلام كتبه كاتب فى هذا العصر الحديث بعد ذلك .

طه حسين

مصطفى عبد الرازق

نبذة عن تاريخ حياته

بيت عبد الرازق

يتنسب المغفور له مصطفى عبد الرازق وأهله إلى عبد الرازق الذى ولى قضاء البهنسا .

البهنسا بلد العائلة الأول

والبهْنسا — بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء بعدها وفتح النون وألف مقصورة — بلدة على بحر يوسف كانت قاعدة ولاية كبيرة تسمى باسمها بالصعيد الأدنى بمصر ، وكانت كثيرة الدخل . ولها ذكر مشهور فى تاريخ الفراعنة القديم ، ثم فى تاريخ المسيحية فى مصر ، ثم فى تاريخ الفتح الإسلامى . ويقوم الآن فى موضعها ، أو قريباً منه ، قرية صغيرة باسمها تابعة لمركز بنى مزار بمديرية المنيا . ولا ريب فى أن البهنسا كانت الوطن الأصلى لبيت عبد الرازق ، فيها آثار مبان قديمة ، من ضمنها بقايا بيت تلوح فيه بعض مظاهر النعمة ، والمعروف أنه كان مسكناً للعائلة .

نسبه

وعبد الرازق الذى ينتسب إليه أهل هذا البيت هو فى أغلب الظن الجد الثالث لمصطفى . فهو مصطفى بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الرازق . تلك سلسلة نسب مقطوعة الثبوت ، ولكن آل عبد الرازق يتناقلون فيما بينهم أن بعد هذه السلسلة سلسلتين متتابعتين ، أو أكثر من سلسلتين ، باسم أحمد بن محمد بن عبد الرازق ، فيكون لمصطفى حينئذ الجد السادس والجد التاسع وهلم جرًّا باسم عبد الرازق ؛ وهم يتناقلون أيضاً أن قضاء ولاية البهنسا كان متوارثاً

فيهم فى أثناء تلك الأجيال إلى أن كان آخرهم أحمد المذكور آنفاً الذى هو الجد الأول لمصطفى ، وسيأتى الكلام عنه .

وتدل بعض الأوراق المحفوظة فى العائلة على أن قاضياً اسمه عبد الرازق كان على قضاء البهنسا فى سنة ١٢١٣ هـ (سنة ١٧٩٨ م) ، فذلك بلا شك هو عبد الرازق الجد المذكور .

عبد الرازق الجد السادس

وتوجد أوراق أخرى فى العائلة باسم السيد أحمد القاضى سنة ١١٦٥ هـ (سنة ١٧٥٢ م) ، وربما كان أحمد هو أبو عبد الرازق الجد الثالث السابق ذكره ، وهو بداية السلسلة الثانية ، فيكون أبوه ، محمد بن عبد الرازق كما تروى العائلة ، ويكون عبد الرازق هذا هو الجد السادس للمرحوم مصطفى . ولكننا لا نعرف شيئاً من أمر عبد الرازق هذا ، ولا نروى من أنبائه حديثاً . ولقد بحثنا مبلغ جهدنا عن اسم عبد الرازق فى علماء مصر وقضاتها الذين كانت لهم صلة بالبهنسا ، فلم نجد اسم عبد الرازق ، ولكن وجدنا باسم عبد الرزاق « زين الدين عمر بن محمد بن عبد الحكيم بن عبد الرزاق البلفيانى من إقليم البهنسا ، كان إماماً فى الفقه . . . مات فى ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة بالطاعون ، وكان والده أيضاً عالماً »[1] .

وجاء اسم عبد الرازق فى قصة فتوح البهنسا الغراء : « وفيها أماكن يستجاب فيها الدعاء . . وعند قبر عبد الرازق ابن (؟) . . داخل الباب والجبل ، إلخ . . . »

قلنا إن من الثابت أن عبد الرازق الجد الثالث كان على قضاء البهنسا فى سنة ١٢١٣ هـ (سنة ١٧٩٨ م) . وأغلب الظن أنه كان يسكن البيت الذى ذكرنا أن آثاراً من بقاياه لا تزال قائمة فى البهنسا ، ولا يعرف على التحديد تاريخ وفاته ، وإنما يعرف أنه توفى بالبهنسا ودفن بها .

---

(١) « حسن المحاضرة » للسيوطى ج ١ ص ٢٠٠ .

محمد عبد الرازق الجد الثانى

ثم ولى قضاء البهنسا من بعده ابنه محمد ، وقد توفى بمدينة الفشن من أعمال مديرية المنيا ، ودفن بها . وكانت الفشن يومئذ قاعدة كورة من كور مصر ، وكان واليها رجلا اسمه طاهر باشا ، وكان صديقاً لمحمد عبد الرازق الذى ذهب إليه ليزوره ، فأدركته الوفاة عنده ، فبنى له الباشا مقبرة فى المسجد الذى أنشأه بها ، ودفنه فيها إلى جانب المقبرة التى بناها لنفسه ، ودفن فيها أيضاً ، والقبران معروفان هناك إلى الآن . ولا يعرف تاريخ وفاته بالتحديد .

أحمد عبد الرازق الجد الأول

وقام ابنه أحمد من بعده قاضياً على ولاية البهنسا ، وكان أحمد فيما يروى على جانب ملحوظ من الثقافة والذكاء وحسن الأدب ، ويقال إنه تعلم اللغة التركية وصحب الخديو سعيداً باشا فى رحلة دراسية إلى إستامبول عاصمة الخلافة الإسلامية ، فتوثقت بينهما صداقة متينة . ونقل أحمد كرسى القضاء من البهنسا إلى بلدة أبو جرج التى تبعد عن البهنسا إلى الشرق بنحو خمسة عشر كيلو متراً ، وهى تابعة لمركز بنى مزار بمديرية المنيا ، وبينها وبين بنى مزار نحو خمسة كيلومترات ، وهى بلدة قديمة تذكر فى تاريخ الفراعنة .

ويقال إن اسمها الفرعونى « بوجرج » بدون ألف فى أولها. أما الآن فاسمها أبو جرج ، وأهلها وأهل البلاد من حولها ينطقونها بكسر الجيم الأولى لا بضمها . استقر أحمد فى أبو جرج ، وبنى فيها داره للسكنى والقضاء، وأنشأ فى ربض القرية حديقة تبلغ نحو خمسة أفدنة ، بنى لها ساقية ترويها بالماء ، واختار لها أطيب أنواع الفاكهة والأزهار ، فكان فيها أصناف شتى من نخيل وأعناب ، وفيها الأنبج (المانجو) والتين والليمون والبرتقال واليوسفى إلخ . . .

صلته بمحمد سعيد باشا خديو مصر

وقد زاره صديقه الخديو سعيد باشا فى أبو جرج أكثر من مرة ، وكان يرسى ذهبيته بجوار هذه الحديقة ، حيث يجرى نهر صغير كان يومئذ يأخذ مياهه من النيل مباشرة إلى أن فصلت بينه وبين النيل ترعة الإبراهمية ، ولايزال جزء منه باقياً إلى اليوم . .

وتحتفظ عائلة عبد الرازق ببعض خطابات من سعيد باشا بخط يده إلى صديقه أحمد أفندى .

ثورة العرب واتهامه بأنه اشترك فيها

ولكن حصل ذات مرة أن قام أعراب مصر المغاربة بحركة ضد سعيد باشا ، فجرد عليهم الجيش يتعقبهم تشريداً ونكالا ، وكان لبعض زعماء أولئك الأعراب صلة بأحمد أفندى القاضى ، فالتجأوا إليه ليكون لهم شفيعاً عند سعيد باشا ، وظن القاضى أن تكون شفاعته مرجوة القبول ، وأن فيها خيراً لصديقه سعيد باشا ولأصدقائه من العرب ، فأراد أن يقوم بدور الشفيع ، ولكنه لم يكد يبدأ فى ذلك حتى كانت ألسنة الوشاة قد سبقت إلى سعيد باشا ، فوسوست إليه أن صديقه أحمد القاضى يناصر العرب ويؤويهم . ولقيت هذه الدسيسة قلباً فارغاً فتمكنت ، وملأته غيظاً من صديقه وغضباً عليه ؛ غير أن سعيداً باشا لم يأخذ صديقه بالعقاب أخذاً وبيلا ، بل اكتفى بأن يأمر بنفيه من أرض الصعيد إلى مصر السفلى ، حيث استقرت به الغربة فى مدينة طنطا حقبة من الزمن ، لعلها بلغت نحو عامين . ثم عفا عنه فعاد إلى بلدة أبو جرج ، واستأنف عمله فيها إلى أن توفى بها ، ودفن فى بيته الذى توفى فيه ، وكان ذلك يومئذ نوعاً من التكريم . والبيت الذى دفن فيه كان يجاور مسجداً قديماً فى أبو جرج يعرف بمسجد أولاد زيد . وقد أزيل هذا البيت من زمن قريب ، وأضيف جزء كبير منه إلى المسجد المذكور لتوسعته وتحسينه ،

فاتسع حتى شمل مدفن أحمد أفندى الذى صار يحتل من المسجد ركناً فيه غربياً قبلياً تحيط به غرفة صغيرة . ولا يعرف على التحديد تاريخ وفاته ، ولكنه توفى عن خمسة أبناء وثلاث بنات .

كتب إلىّ الأستاذ الشاعر مرسى شاكر الطنطاوى أنه وجد فى الصفحة رقم ٥٠ من ديوان محمود صفوت الساعاتى ما نصه :

« وقال على لسان أحمد أفندى عبد الرازق قاضى أبو جرج مؤرخاً ولاية ولى النعم الخديو الأعظم سنة ١٢٧٠ هـ :

لو أن أبناءَ القريضِ جميعَهم هاموا بأوْدية الكلام البارعِ
واستخلصوا مادَقَّ منه وماانتهتْ منه البلاغة فى مقامٍ واسعِ
لم يبلغوا نَعْتَ السعيد محمدٍ كلاّ ولم يأتوا ببعض الواقعِ
من بعد ما نادى السرور مؤرخاً بالسعد وافى نطق هذا الطالع »

ويسألنى الأستاذ مرسى عن أحمد أفندى عبدالرازق المذكور وصلتنا به. وظاهر أن أحمد أفندى المذكور هنا هو أحمد أفندى الذى نتحدث عنه، وهو الذى نقل القضاء من البهنسا إلى أبوجرج، وأن الخديو الأعظم هو محمد سعيد باشا .

ويتبين من ذلك أن أحمد أفندى هذا قد عاش غير قليل بعد سنة ١٢٧٠ التى ولى الحكم فيها سعيد باشا الذى توفى عن اثنتين وأربعين سنة ، فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ (سنة ١٨٦٣ م) ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام . وكان سعيد باشا قد أمر بتجنيد أولاد العمد والأعيان والأعراب فى الجيش المصرى، وكانوا قبل ذلك يُعْفَوْن من الخدمة العسكرية .

تجنيد أكبر أنجاله أحمد الصغير

فجنِّد أكبر أنجال أحمد أفندى القاضى، وهو المعروف باسم أحمد أفندى الصغير ، واستمر فى الجندية إلى أن توفى أبوه ، فعُفِيَ عنه ليتولى شؤون إخوته الصغار ، فتولاها بعد أبيه .

وكان أحمد عبد الرازق الصغير ، فيما يُرْوى ، شابًّا أديبًا محببًا إلى القلوب . تلقى العلم فى الجامع الأزهر بضع سنين . ويقال إنه كان ينطق بالشعر أحياناً . ولم يعش أحمد الصغير بعد وفاة أبيه إلا قليلا .

حسن والد مصطفى

ولما توفى أحمد اجتمع رأى إخوته كلهم وأسرته على اختيار أخيهم حسن رئيساً عليهم ، يتولى تدبير شؤونهم العائلية ، ولم يكن حسن يومئذ أكبر إخوته ولا عائلته ، ولكنه جاء الرياسة إذ كانت له قَدَراً ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة . وكان مولد حسن هذا فى حدود سنة ١٨٤٤ م ، والتحق بالأزهر وسنه نحو اثنى عشر عاماً ، وكانت سنّه يومَ تولى أمور أسرته نحو عشرين سنة ، فكانت دراسته فى الأزهر نحواً من ثمانى سنين أو تسع .

شيوخه فى الأزهر

وكان من شيوخه الشيخ الخضرى الدمياطى ، والشيخ الأشمونى ، والشيخ نصر الهورينى ، والشيخ منصور كساب ، وكلهم من أكابر العلماء . وكان مجيداً لعلوم الأدب والنحو وعلوم اللغة ، وعرف بكثرة حفظه لجيد الشعر ، ولم يكن يخلو مجلسه غالباً من الاستشهاد والتمثيل بالشعر عند كل مناسبة وفى أى موضوع ، وكانت له قريحة سيّالة بنظم المعانى اللطيفة حتى قيل إنه لو جمعت منظوماته لجاءت ديواناً وكان ينشد كثيراً فى مناجاته ويوجه وجهه إلى الله :

رجوتُكَ يا شاهداً لا يغيب ... على حُسن ظنى وقلبى المنيب
لـدهرٍ دهتْنى ملمـاته ... وفَوَّق نحوى سهام الخطوب
وليس سوى بابك المرتجى ... لنيل الأمانى وكشف الكروب

ومن آخر ما فاض على خاطره فأرسله لسانه منظوماً قوله :

أمة يدّعى الزعـامة فيها ... فاسدوها جـديرة بالـرثاءِ

انتخابه عضواً فى مجلس النواب فى عصر إسماعيل

واستطاع رحمه الله فى فترة وجيزة أن يوجه إخوته وأهله توجيهاً حسناً ، وأن ينمى ثروة العائلة ويرفع اسمها ، فكبر شأنه ، وعلا مقامه بين أهالى مديرية المنيا ، وأصبح موضع احترامهم وتقديرهم ، فناطوا به ثقة لم يكد ينالها إلا قليل من معاصريه . ولما ألف مجلس النواب فى عهد إسماعيل باشا انتخب عضواً فيه ، نائباً عن مديرية المنيا ، وكان يتلو خطبة الخديو التى يفتتح بها جلسات المجلس السنوية .

فى مجلس شورى القوانين

ثم حل مجلس النواب ، وأنشئ بدله مجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٤ ، فانتخب عضواً فيه أيضاً عن مديرية المنيا ، وبقى فيه أكثر من ثمانية عشر عاماً ، يتجدد انتخابه عن مديرية المنيا كلما انتهت مدة الانتخاب ، ولم يسقط فى الانتخابات إلا مرة واحدة على ما أتذكر ، وكان ذلك بتدخل الحكومة لظروف سياسية ليس هنا موضع بسطها .

صداقته لسلطان باشا

كان حسن باشا رحمه الله صديقاً حميماً للمرحوم محمد سلطان باشا ، وكانا يضيقان ذرعاً بمظالم الخديو إسماعيل باشا التى أرهقت الشعب ، ونشرت بينهم الضجر والنكير .

ثورة النفوس ضد إسماعيل باشا

ويظهر أن المرحوم سلطان باشا قد حاول كثيراً أن يشير فى رفق ولين إلى إسماعيل لينبهه إلى ما يستنكر الناس من أعماله ، وظاهر أن سلطان باشا لم يكن ليستطيع مع رجل كإسماعيل باشا إلا أن يقول له قولا ليناً ، ويشير

إليه إشارة رفيقة ، ولكن إسماعيل فيما ظهر لم يكن ليتذكر من القول اللين والإشارة الرفيقة أو يخشى ، لذلك ذهبت سُدًى أقوال سلطان باشا وإشاراته ، وأخذت مظالم إسماعيل تتضاعف ، وأخذت القلوب تزداد بها ضيقاً وحرجاً ، وأخذت أحاديث الشعب الشاكى الألم تصير نجوى السمار وحديث المجالس والنوادى ، بعد أن كانت لا تسمع إلا همساً . ويقال إن خطابات كثيرة ، وعرائض مجهولة ، أخذت تنثال على إسماعيل ، فيها شكوى ، وفيها إنذار ؛ وكان من بينها عريضة يظهر أنها قد استفزت إسماعيل وزلزلته زلزالا شديداً .

صدور أمر إسماعيل باشا بنفيه إلى السودان

ويقال إن هذه العريضة كانت من وضع المرحوم حسن باشا عبد الرازق ، بالاتفاق مع سلطان باشا ، أو كذلك ظن إسماعيل ، أو علم ، فأمر بنفى حسن باشا إلى السودان . وكنت أسمع أن المكلفين بتنفيذ قرار النفى هذا ذهبوا إلى أبو جرج يطلبون حسن باشا ، فوجدوه قد ذهب مع إخوته إلى بلدة القيس ، ليشاركوا أختهم زوجة المرحوم محمد بك جلال فى فرح أقيم هناك لمناسبة ما . فأدركوه هناك ، وذهبوا به إلى محطة بنى مزار ، ينتظرون القطار الذى يقله إلى السودان ، وربما كان يقل غيره ممن حكم بنفيهم أيضاً إلى السودان لهذا السبب أو لغيره . وطال الانتظار ساعات بعد ساعات دون أن يصل القطار ، وأخيراً أعلن المنتظرون أن القطار لن يصل لأن إسماعيل قد عفا عنه . ويقال إن توفيق باشا ابن إسماعيل قد توسط عند أبيه حتى استصدر منه هذا العفو ، ويقال إن المرحوم الشيخ على الليثى كان هو الواسطة أيضاً .

فى الجمعية الخيرية الإسلامية

واشترك المرحوم الوالد مع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وجماعة من إخوانهم ، فى إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة ، وقام هو بالدعوة إلى

جمع التبرعات ، لإنشاء مدرسة فى بنى مزار ، وأنشأها فعلا ، وألحقها بمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وافتتحها المرحوم الشيخ محمد عبده فى احتفال كبير .

وكيل حزب الأمة

واشترك أيضاً مع المرحوم محمود باشا سليمان وعلى باشا شعراوى وإبراهيم باشا سعيد ، وجماعة من إخوانهم ، فأنشأوا حزب الأمة ، فى أوائل سنة ١٩٠٧ ، واختاروا محمود باشا سليمان رئيس الحزب ، واختاروه هو وكيله ، وكان هو الذى يتولى الحديث والكتابة باسم الحزب ، فألقى خطبة الافتتاح التى أعلن فيها مبادئ الحزب ومناهجه ، وكتب إلى بعض الجرائد الإنجليزية باسم الحزب أيضاً .

حقيقة حزب الأمة

وحزب الأمة هذا حزب سياسى ، أنشئ ليقف بالأمة المصرية موقفاً وسطاً ، لا يميل بهم ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وكان يتجاذب الأمة يومئذ سلطان الإنجليز المحتلين للبلاد من جانب ، وبيدهم القوة بالفعل ومصائر الأمور ، وسلطان الخديو عباس من جانب آخر ، مستظلا باسم السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، وباسم الدين الإسلامى . ونفوس المصريين يومئذ حيرى بين هؤلاء وهؤلاء ، وشؤونهم مضطربة كذلك ، وأهواؤهم موزعة ، وآراؤهم مختلفة ، وقلوبهم شتى . والحق الذى لا مرية فيه أن كلا من الإنجليز والخديو كان شرًّا على مصر والمصريين ، وأن كليهما لا يبغى من الحكم إلا توطيد سلطانه وتمكين يمينه من رقاب المصريين . وكانت المصلحة الحقيقية للوطن يومئذ فى أن يتخلص من الإنجليز والخديو معاً . ولم يكن أمام المصريين سبيل إلى ذلك اللهم إلا إن كانت الثورة ، ولكن للثورة ظروفاً وأسباباً لم يكن شىء منها يومئذ مواتياً فى مصر ، ولم تكن النفوس قد استعدت لها ، وهى حديثة

عهد بثورة عرابى التى ابتدأت فاشلة وانتهت بفشل أشد ، فلم يجد أولو الرأى من المصريين يومئذ من سبيل إلى الإصلاح الحق إلا أن يعملوا على السير بالبلد إلى غاية هذا الإصلاح سيراً وئيداً لا يفزع الإنجليز ولا يفزع الخديو ولا يملقهما . ولكن الخديو فزع من هذا الحزب فزعاً شديداً ، فتصدّى للكيد له سرا وجهاراً ، وهب أنصاره يناضلون الحزب ، وينشرون عنه ظن السوء ، ويزعمون أنه يمالئ الإنجليز على حساب مصر ، وهبوا يقاومون هذا الحزب بالدعوة إلى الاحتماء بحمى الخلافة الاسلامية التى يحمل علمها سلاطين آل عثمان ؛ ولكن الواقع أن الإنجليز كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصلحته من الخديو الذى شوهت المطامع والشهوات عقله وخلقه ، وباعدت بينه وبين قلوب العارفين من المصريين ، وربما كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصلحته من سلاطين آل عثمان وعمالهم .

وفـــاته

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ م توفى الوالد رحمه الله ، ودفن فى المقبرة التى بناها لنفسه ولأهل بيته فى مقابر الإمام الشافعى ، غير بعيد من مقام الإمام الشافعى نفسه .

وكان فى الأيام الأخيرة من مرضة ينشد كثيراً :

إن ختم الله بغفرانه فكل ما لاقيته سهل

أبنـــاؤه

ورزقه الله فى حياته ذرية كثيرة ، توفى بعضها فى حياته ، وتوفى هو عن زوجة واحدة ، وبنتين ، وسبعة أبناء ، وهم على ترتيب سنهم : حسن باشا الصغير ، وحسين بك ، ومحمود باشا ، ومصطفى المؤرخ له — رحمهم الله — وعلىّ كاتب هذه السطور ، وإبراهيم — رحمه الله — وإسماعيل ، وكلهم من أمّ واحدة ، ما عدا إبراهيم وأختيه .

والدة مصطفى

وأم مصطفى وإخوته هى السيدة خدوجة بنت الحاج عبد السلام بن الحاج عثمان الشريعى ، من عائلة الشريعى بسمالوط ، وهى شريفة من جهة أمها ، على ما يقال . وأمها من عائلة الدمرداش المشهورة ببلدة القيس التابعة لمركز بنى مزار .

مولده

ولد فى أبو جرج ، ولا يعرف على وجه قاطع يوم مولده ولا شهره ولا سنته ، وتدل القرائن ، وما تتدواله العائلة من أخبار وأحاديث ، على أن مولده كان حوالى سنة ١٨٨٥ م .

فى الكتاب

والتحق بكتّاب من كتاتيب البلد فى سن مبكرة من سنى طفولته ، ربما كان فيما بين السنة السابعة والثامنة ، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئاً من القرآن الكريم .

فى الأزهر

ثم بادر والده فأرسله إلى الجامع الأزهر ليتلقى العلم فيه ، وسنه بين العاشرة والحادية عشرة .

مرضه

وفى السنين الأولى من دراسته فى الأزهر أصابته نزلة شعبية اشتدت وطأتها عليه ، وكان من أثرها أن تعثر فى دراسته بضعة أشهر ، استجابة لأمر الطبيب الذى حمله فرط عنايته بالمريض وحرصه على نجاته على أن يصور له المرض فى أبشع صورة وينبهه إلى أخطر عواقبه . وكان لهذا المرض أثر بالغ فى نفسه

فظل طول حياته يحاذر هذا المرض ويخشى بوادره وعواقبه . ومضت سنى دراسته الأولى فى سيرها الطبيعى ، ينتقل من كتاب إلى كتاب ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، على سُنّة الدراسة فى الأزهر التى كانت متبعة فى تلك الأيام .

عناية الوالد به

وكان الوالد — عليه رحمة الله — يوالى رعايته وتوجيهه فى مستهل دراسته ، فيقرأ معه فى الإجازة بعض الكتب الأزهرية ، ويتدارس معه أشعار المتنبى خاصة ، ثم غيره من الشعر ، فى دواوين الشعر وكتب الأدب . وبفضل هذا التوجيه أخذت تتجلى فى سن مبكرة ملكة الأدب التى كانت كامنة فى طبيعته . ولعلها كانت من أسرع ملكاته نماء وأقواها فى نفسه رسوخاً .

نزعته إلى الأدب والشعر

ولقد أخذ منذ السنين الأولى يمارس الكتابة الأدبية وقرض الشعر ، وكان ما يصنع من ذلك فى أول الأمر لا يخلو بالضرورة من حاجة إلى تعديل وصقل كان المرحوم الوالد ينشط للقيام بهما فى أكثر الأحوال ، على أنه لم يكن يخلو من لمحات تنبئ عن ذوق ممتاز وطبع شديد الصفاء .

صحيفة عائلية

وحدثته نفسه ذات مرة أن يصدر صحيفة ينشرها خاصة بين عائلته ، تتناول الشؤون العائلية الخالصة ، فى أسلوب يجمع بين الفكاهة والجد ، أصدر منها أعداداً قليلة ، كان يطبعها على مطبعة « البالوظة » . وكانت عائلته تتداولها بشغف وإعجاب .

جمعية غرس الفضائل

ولعل فكرة الجريدة هذه هى التى تطورت بعد ذلك إلى إنشاء جمعية من

شباب العائلة سميت « جمعية غرس الفضائل »، تجتمع مساء الجمعة من كل أسبوع ، ويتناوب أفراد العائلة الخطابة فيها . واستمرت هذه الجمعية سنوات عديدة ، فيما بين سنة ١٩٠٠ و سنة ١٩٠٥ ، وكان هو يتولى أمانتها .

كتابته فى جريدة المؤيد ومجلة الموسوعات

وأغلب الظن عندى أنه — رحمه الله — قد اتصل بجريدة المؤيد التى كان يصدرها بالقاهرة المرحوم الشيخ على يوسف ، فكتب فيها . وكذلك كتب شيئاً من شعره ونثره فى مجلة الموسوعات التى كان يصدرها بالقاهرة المرحوم محمد بك فريد ، رئيس الحزب الوطنى .

وكذلك استمرت نزعة الأدب التى ركبت فى طبيعته تدفعه دفعاً إلى تلك الميادين لتستكمل غايتها من النماء والنضوج ، فلم تكن إلا دورات قليلة من دورات الزمن حتى استوت وبلغت أشدها .

انصرافه عن قرض الشعر

ولا شك عندى أن ملكة الشعر عنده كانت قوية غاية القوة كملكة الكتابة سواء بسواء ، ولو أنه استمر يمارس الشعر كما فعل فى النثر لكان مجده فى الشعر والنثر شرعا ، ولكنه بعد أن مضى فى قرض الشعر بضع سنين أعرض عنه ، ثم لم يرجع فيما أعلم إلى محاولته . ولقد كتبت إليه ذات مرة ، وهو يطلب العلم فى فرنسا ، أسأله عما صرفه عن الشعر ، فكان فيما أجابنى به : « إننا شغلنا هنا بالحقيقة عن الخيال ! » . ولعل معين الشعر الذى كان فى نفسه صافياً ودفاقاً لم ينضب بإهماله ، بل اتخذ سبيله إلى معين الكتابة الأدبية يمده بقوة إلى قوة وصفاء إلى صفاء . وكذلك صار أسلوبه الكتابى يتميز بديباجة يتآلف فى ثناياها ركانة النثر وظرف الشعر ، وقلما اجتمع لأديب غيره ما اجتمع له من ذلك . وليس هنا مجال الحديث عن مزايا وخصائص أسلوبه الكتابى . ولعل القارئ لبعض آثاره الأدبية سوف يتجلى له منها بنظرة عاجلة

كثير من دلائل العبقرية السامية .

ومن الملاحظ أن كثيراً من أهل النبوغ فى الأدب الذين اجتمعت لهم ملكتا الشعر والنثر أضاعوا ملكة الشعر وغلبوا ملكة النثر عليها سواء فى ذلك القدماء والمحدثون .

علم جمع شعره

ولا شك فى أنه — رضى الله عنه — قد أعرض عن قول الشعر إعراضاً تامًّا ، بل لعله قد أراد أن يتناسى هذا الجانب من حياته فلم يتجه إلى جمع آثاره فيه ، ولا إلى إحياء ما قد كان جديراً بأن ينشر منه ، وهو غير قليل . ولقد هممت بأن أبذل جهدى فى جمع ما يتيسر جمعه من هنا وهناك ، ثم صرفنى عن ذلك أننى وجدته هو لم يرد ذلك ، وما كنت لأنشر شيئاً لم يرد هو أن ينشر . على أننى قد وجدت مع ذلك أن تلك الآثار قد تفرقت أشتاتاً وذهبت أيادى سبأ ، وكان جمعها يرهقنى من أمرى عسراً ، ثم وجدتنى عاجزاً عن تذكر كثير مما كانت وعته ذاكرتى ، إذ مضى عليه نصف قرن أو يزيد ، فلم يبق منه فى الذهن إلا رسوم وأشباح . وعسى أن يمر بك فيما يأتى قليل من شعره الذى يعود إلى الذاكرة عند عروض المناسبة .

اتصاله بالشيخ محمد عبده

علاقة الوالد بالأستاذ الإمام

كان المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية عضواً بمجلس شورى القوانين ، ومن الأعضاء الدائمين الذين تعينهم الحكومة ، وكان المرحوم الوالد من أعضاء هذا المجلس الذين ينتخبهم الشعب ، كما سبق القول . وأظن أن حبل التعارف بين المرحومين : الوالد والأستاذ الأمام ، لم يتصل إلا منذ عين الإمام عضواً فى المجلس سنة ١٨٩٩ ، وهى السنة التى ولى فيها منصب إفتاء الديار

المصرية . ويبدو لى أن العلاقة بينهما بدأت يومئذ علاقة تعارف بسيط وتقارب يشوبه شىء من الحذر والتحفظ . وسبب ذلك قريب ، فلعل الوالد — رحمه الله — لم يكن بعد قد عرف من الأستاذ الإمام إلا ما يشيع عنه خصومه السياسيون من أنه متهم فى وطنيته ، وما يشيعه عنه خصومه الدينيون من أنه متهم فى دينه . ولعل الأستاذ الإمام لم يكن قد عرف بعد من أمر الوالد إلا ما كان متهماً به يومئذ من التشدد والجرأة فى إنكار الوضع السياسى فى مصر ومفاسد الحكم فيها ، لا يبالى بمن غضب من ذلك وبمن رضى . وربما كان ذلك مذهباً يعده الأستاذ الإمام يومئذ تطرفاً فى الوطنية لا يتلاءم ومزاجه السياسى الذى اتجه أيامئذ نحو سياسة الملاينة وإيثار التقريب بين مختلف المذاهب والأغراض . وكذلك لم يكن الأستاذ الإمام قد عرف بعد من أمر الوالد إلا أنه وثيق الصلة بكثير من جلة المشايخ الأزهريين الذين كانوا معه أيام دراسته فى الأزهر شيوخاً أو أنداداً ، وكلهم أو أكثرهم ، خصوم فى المذاهب الدينية للأستاذ الإمام . فإن لم يكونوا له خصوماً فلا أقل من أنهم لم يكونوا من حزبه ولا من مقدرى دعوته . ولم يكن الأستاذ أيضاً ينظر إلى أكثرهم ، أو كلهم ، إلا بمثل ما ينظرون إليه فهو يراهم خصوماً له على أى حال .

أخذ العمل المشترك بين الوالد والأستاذ الإمام فى مجلس شورى القوانين يقتضى بينهما بالضرورة تبادل الحديث وتداول الرأى وتدافع الحجة والأخذ والرد ، وفى خلال ذلك كله يزداد كل واحد منهما كشفاً لدخائل صاحبه ووقوفاً على حقيقة نفسه ، ولا تكاد تمضى عليهما فى هذا الدور سنة أو سنتان حتى يصبحا صديقين حميمين كأخلص وأقوى ما تكون الصداقة .

عوامل الاتصال بين الفقيد وأستاذه الإمام

فى ظلال هذه الصداقة المتينة نشأت العلاقة بين أخى مصطفى وبين أستاذه الإمام . ولا يبعد أن يكون لصداقة المرحوم الوالد أثر كبير فى ذلك كأثر

الوراثة التى لا يدرى مسراها . على أنه لا شك فى أن هناك عوامل أخرى غير تلك الصداقة الوثيقة قد عملت أيضاً على ربط التلميذ بأستاذه .

لم يكن أخى مصطفى فيما قبل ذلك ممن يرشحه ظاهر حاله لأن يلتحق بمدرسة الأستاذ الإمام أو يأنس إلى تعاليمه ، فقد بدأ دراسته فى الأزهر على مشايخ أزهريين أقحاح ، وظهر عليه منذ السنين الأولى الطابع الأزهرى . لأنه أحب شيوخه الأولين واحترمهم ، فصاروا فى ذهنه مثلا يحتذى .

نفور الأزهريين من الشيخ محمد عبده

وليس فى مشايخ الأزهر يومئذ فيما عرفنا إلا زارٍ على الشيخ محمد عبده ، وكلهم يخافه، فهم بين ساكت يُغْضى على القذى ، وبين همّاز غمّاز يورى بالطعن ويسعى بالدسيسة ، إلا فريقاً من المؤمنين . طبيعى — وهذا هو جو الأزهر — أن يسوء رأى طلبة الأزهر وظنهم بالأستاذ الإمام ولو إلى حين .

الحياء والرفق كانا من خلق الفقيد

كان أخى مصطفى فوق ذلك مطبوعاً منذ الطفولة على فطرة رفيقة . فهو لا يحب الأذى ولا العنف . وكان خلقه الحياء — والحياء خير كله . والرفق والحياء إذا استمكنا من نفس كما استمكنا من نفسه تولّد عنهما من الفضائل ومكارم الأخلاق ما يرفع إلى أسمى الدرجات .

يشابه أباه خلقاً وخلقاً

وكان منذ الصبا يتأثر خطوات المرحوم الوالد، ويقتفى سنَنَه. ولعل ذلك جاءه اضطراراً لم يتكلفه ولم يكن له فيه اختيار ، ولكنه فطرة فطر عليها . فقد خلق على صورة الوالد ، لا يختلف عنه فى الطول أو العرض إلا قليلا . كلاهما ربعة لا بالسمين البدين ولا بالنحيف الهزيل ولا بالقصير ولا بالطويل . وله لونه القمحى يضرب إلى السمرة ، ونبرات صوته الندىّ القوىّ السليم ، ووجه كل منهما — كرم الله وجهيهما — مسفر ضاحك، حبيب إلى القلوب وقرة للعيون .

وله سمت كسمته ، وفيه كثير من ملامحه وشياته، وحركات كحركاته. وكذلك نشأ على سنن الوالد وقوراً مهيباً ، كما كان رفيقاً حليماً .

رفق وحلم ووقار ، وما يلازمها من صفات وملكات ، تلك هى المهاد الأكمل الذى تترعرع فيه العواطف الدينية وتنمو الأخلاق الصالحة . لذلك ظهرت على أخى مصطفى فى صباه مخايل الصلاح .

كان صبياً مباركاً

فكان صبياً مباركاً ، تلوح فى أعطافه بواكير الإيمان الساذج الصافى الذى هو ثمرة ما ركب فى طبعه من صفات وملكات . على أنه فى تدينه وصدق إيمانه كان يتأثر طريقة المرحوم الوالد أيضاً ويقتفى سنته .

وسط بين الجمود والتخلخل

لذلك كان منزعه الدينى أيامئذ كمنزعه : لاهو بالجامد المتحجر ، ولاهو باللين المتخلخل ، بل كان بين ذلك قواماً .

هو رجعىّ فى أكثر نواحيه ، ولكن فى حدود النظر الذكى والفطرة السليمة ، فلا تتسرب إليه خرافة ، ولا تشوبه شائبة من شوائب الشرك الخفى ، ولا يلازمه ما يلازم الجامدين غالباً من التزمّت وحرج الصدر من كل رأى مخالف . وهو تقدمى فى بعض نواحيه ، ولكن مع الاستمساك بكثير من التقاليد الموروثة ، ومع الرجوع إلى سنن من سلف ، واتباع أحسنها . ولعله كان فى جملة الأمر أدنى إلى المذهب الرجعى وإلى حب القديم .

وسواء أكانت منازعه الدينية الأولى رجعية أم تقدمية أم بين بين ، فلا ريب أنها على أى حال لم تكن لتبلغ أن تتقارب ومنازع الأستاذ الإمام الدينية ، أو ما زعم الناس يومئذ أنه منازعه الدينية ، ولا أن تتلقاها بالرضى والقبول .

فذلك تأويل ما قلنا آنفاً من أن أخى مصطفى لم يكن ممن يرشحه ظاهر حاله لأن يلتحق بمدرسة الأستاذ الإمام أو يأنس إلى تعاليمه . ولعل بعض ذلك

كان من الأسباب التى جعلته لا يتصل بأستاذه إلا من بعد أن قطع التلميذ أكبر مرحلة من مراحل التعلم ، ومن بعد أن قطع الأستاذ أكبر مرحلة من مراحل التعليم . بدأ حوالى سنة ١٩٠٣ يحضر دروسه التى يلقيها بعد صلاة المغرب فى الرواق العباسى بالجامع الأزهر ثلاث ليال من كل أسبوع فى قراءة كتاب « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى ، وليلتين فى تفسير « القرآن الكريم » ، ثم يلتقى وإياه تارة فى بيتنا حين يجىء الأستاذ لزيارة المرحوم الوالد ، وتارة فى بيت الأستاذ نفسه ، حيث تجتمع وفود الزائرين من الطلبة وغيرهم . وسرعان ما امتلأت نفسه تقديراً لشيخه وثقة به واحتراماً وحبًّا له ، وسرعان ما التفت الأستاذ إلى تلميذه يتعهده ويرعاه .

طريقة الأستاذ الإمام فى الإصلاح ومدرسته

لم يكن الأستاذ محمد عبده من مشايخ الطرق الصوفية يعطى تلاميذه العهود ويلقنهم أسرار الطريق ، ولم يكن صاحب دعوة خفية يدس تعاليمها وراء الحجب والأستار ، ولكنه كان حين عرفه أخى مصطفى رجلا يملأ اسمه البلاد ، ويتردد ذكره فى محافل الإصلاح الدينى والسياسى ، وتتجه إليه الأنظار فى ميادينهما . فهو موفور النشاط ، وله فى كل ناحية من نواحى الحياة مشاركة ، وهو حيثما كان عامل على الإصلاح مرعىّ الجانب مسموع الرأى كان رجلا واسع العلم ، واسع آفاق الفكر . وله فى علمه الواسع منهج سليم ، وله فى فكره البعيد الآفاق ونظره الحكيم مذاهب طريفة ، آمن بعد طول البحث وكثرة التجاريب أنها أقوم السُّبُل إلى ما تعلقت به نفسه من إصلاح فى الدين وفى شؤون الحياة الدنيا .

وطريقته فى الدعوة إلى منهجه العلمى ومذاهبه الإصلاحية هى المحجّة السمحة الواضحة ، فهو فى العلم لا يعمل شيئاً أكثر من أن يختار الكتب التى يأنس فيها الخير ، ثم يأخذ فى تدريسها على أسلوبه الخاص به فى دروس

عامة يحضرها من يريد من الطلبة ، على طريقة التدريس التى كانت يومئذ جارية فى الجامع الأزهر . وهو فى مذاهبه الإصلاحية لا يعمل شيئاً أكثر من أن يتجه فى كل ما بيده من أمر وفى كل ما يشارك فيه من شأن وجهة الإصلاح كما يجب أن يكون الإصلاح . فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا ثم بالقول الصريح يصدع به أنى كان فى المحافل العامة وفى مجالسه الخاصة ، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث ، وفيما ينشر فى الجرائد والمجلات ، وفى رسائله العامة أو الخاصة .

فدعوة الأستاذ الإمام كما ترى دعوة عامة تتوجه إلى كل من بلغته الدعوة على أى وجه فوعاها . ومدرسته كما ترى ليست مدرسة يحدّها زمان ولا مكان ولا أشخاص ، ولكنها مدرسة تتلاقى الأرواح فيها جنوداً مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . والنجاح فى هذه المدرسة لا يكون بكثرة الدرس ولا طول التلقى عن الأستاذ الإمام ولا بالقرب منه ، وإنما يكون بالتعارف بروحه والائتلاف معه ، وعلى قدر ذلك يكون التلقى عنه والاستمداد منه . وكم من أستاذ كأستاذنا الإمام ، كثر مريدوه وملازموه ، ثم لم ينجح من بينهم إلا أقلهم ملازمة له وأضعفهم اتصالا ظاهراً به ، إذ كان أحسنهم استعداداً ، وكان روحه أمكن تعارفاً بروحه وائتلافاً . وكذلك لم يذهب أخى مصطفى إلى دروس الأستاذ الإمام إلا قريباً من نهايتها ، ولم يغش مجالسه إلا لماماً ، ولكن لم ينشب روحاهما إذ التقيا أن يتعارفا أقوى تعارف وأن يتآلفا أصدق تآلف .

ولا غرو أن يهتف يومئذ بمدح أستاذه بالشعر يهنئه فيه بعودته من رحلته إلى أوربا ، وقد نشرته مجلة المنار فى الجزء الخامس عشر (٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٣) كما يأتى :

« لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته فى هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء فى الأزهر وغيره ، ونذكر هذه الأبيات للشاب الذى زاحم فى بدايته أهل النهاية تنشيطاً له على العناية بالأدب ، وهو الشيخ مصطفى

نجل حسن بك عبد الرازق ، قال :

أقبِلْ عليك تحيةٌ وسلامُ ... يا ساهرًا والمسلمون نيامُ
تطوى البلاد وحيث جئت لأمةٍ ... نُشِرَت لفضلك بينهم أعلامُ
كالبدر أنّى سار يُشرق نوره ... والحق أنّى حلّ فهــو إمامُ
إن يقدروا فى الغرب قدْرك حقّه ... فلمِصرُ أولى منهمُ والشام
فيك الرجاء لأمةٍ لعبتْ بمــا ... يُلهى الصغار وجدّت الأيامُ
لا زلت غيظاً للضلال وأهله ... والله يرضى عنك والإسلامُ

اضطراب نفسانى

ولعل أخى مصطفى قد كان أيامئذ يجتاز حالة نفسية زادته تعلقاً بالأستاذ والتجاءً إليه ، فلقد تجاوز المراحل الأولى والوسطى للدراسة الأزهرية أو كاد ، وأشرف على مرحلة المنتهين ، وأخذت تتراءى لعينيه ما تنتج أشجار الدراسة فى الأزهر من ثمر ، بل لعله قد بلا شيئاً من طعم هذا الثمر ، ولعله لم يجده سائغاً . ولقد تجاوز بعد سن الصبا الغافل ، وخطا نحو مشارف الرجولة الواعية الحساسة متفتحة العواطف قوية النزعات . ولقد استوت عنده فوق ذلك كله ملكة الأدب وبلغت أشدها وتكشفت للذوقه الناضج دقائق ما فى هذه الحياة من بهجة وجمال .

ذلك وقد عرفت أن حياته فى الواقع أزهرية صميمة ، وتدينه أميل إلى التشدد الرجعى ، وأخلاقه كأخلاق عائلته محافظة صارمة . لا ريب أن هذا المركب الذى تصطرع فيه المطامح المتوثبة والحياء المكبوت ، وتضطرب فيه نزعات الشباب قوية عنيفة ، مع أنظمة الحياة الدينية كما يرسمها شيوخ الأزهر وكما تسنها تقاليد البيوت المحافظة قيوداً وأغلالا — لا ريب أن هذا المركب المضطرب يترك فى نفس صاحبه أثراً بالغاً من الاضطراب والحيرة ، فإذا

هو فى حيرته قلق متردد ، يريد الأمر ثم يعرض ، ويهم به ثم ينكص ، ويقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، لا يهتدى فى أمره إلى سبيل ، ولا يطمئن إلى وجهة يوليها ، فهو من ذلك فى قلق لازم وهم مقيم . ذلك طور قد وجدنا كثيراً ممن عرفنا من طلاب العلم قد مروا به ، وجربنا أنه من أشد ما يمر بالطالب الشاب من أزمات نفسية ، وجربنا أنه من أخطر ما يمتحن به الشاب فى دراسته ، وعرفنا أن الذين فتنوا بهذا الامتحان ثم صبروا على فتنته حتى انقضى بسلام أقل كثيراً ممن ناء بهم ثقله فانقطعوا دون الغاية .

كان أخى مصطفى أيامئذ يجتاز حالة نفسية كالتى وصفنا أو قريبة منها . وهو كما عرفنا يمتاز بإحساس بالغ الرقة ، وعاطفة كاملة القوة ، فلا غرو أن كان مالقيه من الحيرة والقلق شديداً ممضًّا . وفى غمرات هذا التردد الحائر التقى بأستاذه الإمام وتعارفا فتآلفا ، وآنس من جانب أستاذه نوراً قد يجد عليه هدى ، فتوجه تلقاءه يلتمس عنده ما يضىء له الظلمة ويدفع عنه الحيرة ، ويأخذ بيده إلى الصراط السوى ، ثم يغلبه حياؤه الشديد فيعجز عن أن يتقدم إلى أستاذه وجهاً لوجه ، يكشف له عن دخيلة نفسه ويقص عليه ما يلقى من حيرة واضطراب ، فيؤثر أن يودع ذات نفسه طى خطاب يحمله البريد إلى أستاذه ، فيقرأ فيه ما يشكو إليه تلميذه من بثه وحزنه .

خطابه إلى الأستاذ الإمام

ولا شك أن الأستاذ الإمام قد طابت نفسه بأن يلمح بين تلاميذه مثل هذا الطالب ، يتفتح نظره فيرى من عيوب الطرائق الأزهرية بعض ما يرى أستاذه ، ويضيق صدره بها كما يضيق صدر أستاذه ، وتهتف بين طوايا نفسه نوازع الثورة على هذه العيوب كما ثار عليها من قبل أستاذه . ولا شك أن سرور الأستاذ بذلك قد كان بالغاً . ولا سرور أبلغ من سرور العالم المصلح بأن يصادف بين تلاميذه لقناً يعى عنه ويهتدى بهديه ويسير على نهجه لذلك دفع

الأستاذ الإمام بهذا الخطاب إلى منشئ المنار السيد محمد رشيد رضا ، فنشره فى ص ٢٠٠ من الجزء الخامس من المجلد الثامن من مجلة المنار ، ولم ينشر اسم كاتبه . ولعل ذلك كان برغبة الأستاذ الإمام نفسه إشفاقاً على كاتبه من شرور الفتن التى كانت يومئذ ترج جوانب الأزهر والأزهريين ، وانتهت إلى خروج الأستاذ الإمام من الجامع الأزهر وهذا نص ما جاء فى المنار :

نابتة الأزهر والأستاذ الإمام

لقد كبر على نابتة الأزهر ترك الأستاذ الإمام له ، وذكرت الجرائد اليومية أن نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ منهم كتبوا إليه عريضة يستعطفونه بها ليعود إلى التدريس فيه . ونقول إن منهم من كتب يسترشده فى أمره ، وقد اطلعنا على صورة كتاب لبعضهم ، فرأينا أن ننشره على انتقادنا قوله « كلهم شر » ، ليرى القراء حسن عبارة وأفكار تلامذته الذين يشكون الجهل . قال بعد رسم الخطاب :

« إننى نظرت فى أمرى بعد أن قضيت ما قضيت فى الجامع الأزهر ، وأضعت ما أضعت من صحتى وشبابى فى طلب العلم ، فلم أجد ثمناً لما بذلت إلا حشداً من الصور والخيالات لا يضىء البصيرة ولا يبعث العزيمة ولا يعد للسعادة فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة .

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت ... منى بعلمى الذى أعطت وتجريبى

طلبت السبيل إلى الكمال والعلم النافع فما وجدت الدليل ولا اهتديت إلى السبيل . وكيف أطلب الخير من بين معشر — أعيذك يا مولاى — كلهم شر ! وقد هدتنى إليك خاتمة المطاف وفاتحة الألطاف ، فجئتك أسألك أن تعلمنى مما علمك الله وأن لا تكلنى إلى رأيى .

وهأنذا أبسط يد الرجاء إليك ، ولم أبسط لغيرك يداً ، وأرفع إليك أمنيتى فى الحياة ، وقد وضعت أملى ببابك ، ومثلك من لا يخيب ببابه الأمل » اهـ.

ولم يكتف الأستاذ الإمام بهذا ، بل أسرع مغتبطاً مسروراً إلى المرحوم الوالد ، يعلن إليه اغتباطه بابنه الطالب ورضاه عنه وتوسمه النجاح له .

ومن قبل هذا كتب الأستاذ الإمام إلى أخى مصطفى كتاباً رقيقاً ينبئ عن إعجابه به وإقباله عليه وتوسمه الخير فيه ، وكان ذلك رداً على قصيدة من عشرة أبيات بعثها إليه مدحاً وثناء ، وكنت أظن أن تلك القصيدة قد نشرت يومئذ فى مجلة المنار ، ولكنى راجعت أعداد المنار فلم أعثر عليها ، ووجدت فى ذاكرتى من أولها هذه الأبيات :

أرْضيْت ربك لاتخْش المريبينا ... يا خير من خدم الإسلام والدينا
صدَعْت بالحق والأصواتُ خافتة ... ودُسْتَ ماشيّدت أيدى المضلّينا
بحجةٍ تملأ الألباب موعظةً ... كالشمس تملأ أبصار البصيرينا
. . . . الخ .

فأجابه الأستاذ بهذا الكتاب المنشور فى الجزء الثانى من « تاريخ الأستاذ الإمام » للسيد محمد رشيد رضا (ص ٦٢٧) على هذا الوجه : «وكتب إلى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبد الرازق ما يأتى، ومنه يعلم سببه :

ولدنا الأديب :

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا . تلك أبياتك العشرة رأيتنى والحمد لله متربعاً فى سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ، وما بقى كأنه الشهب نور للأحياء رجوم للأشقياء . ما سررت بشىء سرورى بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك . فلله أنت ! ولله أبوك ! ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء ، ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله من نهايتك بما تفرسته فى بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ، ويقدرك على الهداية إليه ، وينشط بنفسك لجمع قومك عليه، والسلام » .

ثم أخذ الأستاذ الإمام يشير على الوالد بأن يمد أخى مصطفى بكتب اختارها هو له ، ليشتغل بقراءتها .

وأذكر أننا كنا فى إجازة سنوية من إجازات الدراسة الأزهرية نقضيها كالعادة فى بلدنا ، فحمل المرحوم الوالد إليه ذات مرة جملة من تلك الكتب المختارة ، فيها «حماسة أبى تمام» بشرح التبريزى ، و« نهج البلاغة » بشرح الشيخ محمد عبده . وأقبل أخى مصطفى على هذه الكتب يكثر مطالعتها ويحفظ منها عن ظهر القلب ما يتسر له . ولم يكن يفوته عدد من مجلة المنار للمرحوم الشيخ محمد رشيد رضا ، ولا درس من دروس الأستاذ الإمام وآثار قلمه مما ينشر فيها .

وكان له شغف خاص برسالة التوحيد للأستاذ الإمام ، يكثر مراجعتها حتى حفظ عن ظهر القلب كثيراً من فصولها .

كان من دأبنا دائماً أن نقضى فى البلد كل مسامحة دراسية ، فأخذ يشركنى معه فيما يشتغل به من دراسة ، فكانت كلها أو معظمها دراسات تتصل من قريب أو من بعيد باسم الأستاذ الإمام. قرأنا معاً «تفسير جزء عم» « للشيخ محمد عبده » ، وشطراً كبيراً من « دلائل الإعجاز » و « وأسرار البلاغة » و « البصائر النصيرية » و « العقائد العضدية » ... إلخ .

طريقة دراسته لعلوم الأزهر

كل ذلك وأخى مصطفى يسير فى دراسته الأزهرية على سنن الأزهريين المألوفة لا تبديل فيها . ينتقل من كتاب إلى ما يليه ثم إلى ما يليه ، وهلم جرا ، ويرتقى من علم إلى علم كما تقضى التقاليد الأزهرية . بدأ على عادة الأزهريين بدراسة النحو وفقه المذهب الشافعى الذى هو مذهبه ومذهب الوالد من قبل ، ثم أضاف إليهما الحساب والجبر ومبادئ الهندسة والجغرافية ، ثم أبدل بالفقة والنحو أصول الفقة وعلوم البلاغة ، ثم أضاف إليهما المنطق والتوحيد والفلسفة وتفسير القرآن والحديث . وعلى هامش هذه الدراسات درس الأدب والعروض

والقافية . . . إلخ ، فى نظام كما قلنا ليس فيه غريب يلفت النظر ، ولا جديد يستحق التسجيل .

شيوخه

أما شيوخه فأذكر منهم فى الفقه الشيخ بسيونى عسل — رحمه الله — ، وهو من علماء الشافعية الذين عرفوا بالصلاح والتصوف ، وعليه سمت الصالحين ووقارهم ، ولعله أول أساتذته فى الفقه . وقد أحبه أخى مصطفى وتأثر به . وقبيل اليوم الذى عين لامتحانه لشهادة العالمية فى الأزهر زار أستاذه ذلك فى منزله ، وكنت معه ، يلتمس بركته ودعاءه ، فاجتنى به الأستاذ وسرّ به ودعا له وأوصاه بزيارة مقام الشيخ الدرديرى ، كما يفعل عامة المقدمين على الامتحان ، ففعل .

ثم الشيخ محمد حسنين البولاقى ابن حسنين باشا ، وهو والد أحمد حسنين باشا الذى كان رائد الملك فاروق الأول ملك مصر السابق ورئيس ديوانه — رحمه الله — . وكان الشيخ محمد حسنين — فيما يقال — ذكىّ الذهن رضىّ الخلق كريم النفس ، وأحسب أنه كان زميلا للمرحوم الوالد فى دراسته بالأزهر ، وله كتاب فى الرد على كتاب « تحرير المرأة » لقاسم بك أمين رحمه الله . ولما توفى رثاه أخى مصطفى . ومن أساتذته فى النحو الشيخ محمد شقير من بلدة نوى من أعمال أسيوط ، وكان أخى مصطفى يتحدث عن ذكائه ويعجب بعلمه .

والشيخ محمد الغرينى ، وكان ذكيًّا عالمًا أيضاً . وأظن أن الأستاذ الإمام قد أثنى عليه ، ويظهر أنه كان من أهل التدين والصلاح الذين تغلب عليهم سلامة القلب وبساطة النفس . وهو ممن أشار إليهم أخى مصطفى فى بعض مقالات مذكرات الشيخ حسان الفزارى .

ومن أساتذته فى البلاغة الشيخ محمد الحلبى ، وهو ممن عين فى هيئة كبار العلماء . ثم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ومن أساتذته فى أصول الفقه الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى — رحمه

الله – شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد بخيت – رحمه الله – مفتى الديار المصرية .

ومن أساتذته فى المنطق والحكمة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى ، والشيخ أحمد أبو خطوة ، وشيوخ غير أولئك كثيرون ، وفيهم من كانت عشرته للفقيد أطول أمداً من عشرة الأستاذ الإمام ، وأكثر خلطة ، ولكن أحداً من أساتذته وخلطائه لم يحل من نفسه ما حله الأستاذ الإمام من نفسه ، فقد أصبح محط نظره ومعقد رجائه ومثله الأعلى الذى ليس له نظير . ولكن لم يطل العهد بينه وبين أستاذه ، فلم يستطع الأستاذ أن ينتهى بتلميذه إلى ما كان يطمع فى أن يهيئه له ولم يستطع التلميذ أن يملأ يديه حتى يرتوى من منبع العلم والحكمة الذى فجره أستاذه أمام عينيه وأشرف به على ساحله المترامى الجوانب ، حيث أخذ يرتشف من فيضه رشفات مثل حسو الطير ماء الثمار .

ولا شك أن إعجاب أخى مصطفى بالمرحوم الشيخ محمد عبده قد بلغ الغاية ، بل أكاد أقول إنه قد جاوز الغاية . فهو لم يترك أثراً من آثاره إلا بذل الجهد فى الاطلاع عليه وادخاره . وبلغه أن للشيخ – رحمه الله – مؤلفاً عن ثورة أحمد عرابى لم يكن طبع ، وما كان ليمكن طبعه ، لأن فيه حقائق لو نشرت لابيضت لها وجوه واسودت وجوه ولاتضعت مراكز أناس عالين وارتفعت مراكز أناس لم يكونوا شيئاً مذكوراً . وكثير ممن تعرض لهم الشيخ فى تاريخه لا يزالون أحياء هم أو أبناؤهم وشيعتهم ، وفيهم من تخشى قوته ولا يؤمن من سطوته ، ولم يترك أخى مصطفى وسيلة قريبة أو بعيدة لمطالعة هذا التاريخ إلا ابتغاها وأغلب الظن أنه قد وصل إلى مطالعته ، إما بواسطة المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان أو المرحوم السيد محمد رشيد رضا . وقد اقتنى أخى مصطفى لنفسه مجموعة كاملة من مجلة « العروة الوثقى » التى تولى إصدارها كل من السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ، كلف من ينسخها له خاصة ، ولا تزال محفوظة فى مكتبة آل عبد الرازق .

وقد أشرنا إلى عنايته برسالة التوحيد التى كان يحفظ كثيراً منها عن ظهر القلب والتى ترجمها إلى الفرنسية مع صديقه الخواجه ميشيل برناد ، كما عنى بكل مؤلفاته وكتبه . وهو الذى كان له فضل المسعى فى اتخاذ منزل الأستاذ الإمام فى عين شمس متحفاً لذكراه .

وكان دائم الذكر والبر لإخوة الأستاذ الإمام وأقاربه . ومقالاته ومباحثه ومحاضراته عن الأستاذ الإمام كثيرة لا يسهل حصرها . وقد كان من أثر تعلقه بالأستاذ الإمام وإعجابه به وعنايته بتتبع تاريخه وآثاره أنه عنى عناية كبيرة بتاريخ السيد جمال الدين الأفغانى أستاذ الشيخ محمد عبده . وقد وجدت فى بعض ما كان يحفظ من جذاذات ومذكرات كتاباً مخطوطاً عنوانه « الشيخ جمال الدين الأفغانى ودخائل صاحب الجلالة الإمبراطورية السلطان عبد الحميد الثانى » لجورج كوتشى المصرى، وأغلبها بخط المرحوم أخى مصطفى ، وهى رسالة مختصرة فيها كثير من أسرار ودخائل حياة المرحوم الشيخ جمال الدين الأفغانى . كما وجدت صورة مقال كتبه السيد جمال الدين الأفغانى بالعربية إلى مدير جريدة « الديبا » . وقد كتب أخى مصطفى فى آخر هذا المقال ما نصه :

« نشرت مقالة السيد جمال الدين فى جريدة « الديبا » بعد محاضرة رينان ببضعة أسابيع » . وتقع هذه المقالة فى نحو ١٥ صفحة ، ثم تليها مقالة مخطوطة أيضاً عنوانها « رد إرنست رينان » فى خمس صفحات ، وفى آخرها كتب أخى مصطفى بخطه ما نصه : « كتبت هذه الأسطر فى ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ » .

خروج الأستاذ الإمام من الجامع الأزهر

اشتد الخصام بين الأستاذ الإمام وبين خديو مصر عباس الثانى ، وهو خصام ذو قصة تروى وتاريخ طويل وأطوار مختلفة ، وقد بسطه المرحوم السيد

محمد رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، فليرجع إليه هناك من أراد . والذى يعنينا منه هنا هو أن هذا الخصام قد بلغ مداه فى خلال سنة ١٣٢٢ هـ (سنة ١٩٠٤ م) ، وكانت نهايته أن أكره الأستاذ الإمام على ترك الاتصال بشؤون الأزهر والمشاركة فى تدبيرها فاستقال هو ورفيقـه المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارة الأزهر بعد نحو ستة أيام من صدور الأمر الخديوى فى ١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ١٩٠٥) بتعيين المرحوم الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخاً للأزهر ، على أثر استقالة المرحوم السيد على الببلاوى فى ٩ محرم بسنة ١٣٢٣ « ١٥ مارس سنة ١٩٠٥) من مشيخة الجامع الأزهر .

يقول أخى مصطفى عن هذه الاستقالة ما نصه : « وتغير بعد ذلك قلب الخديو عباس على الشيخ محمد عبده وعلى الإصلاح الذى يريده للأزهر ، وأخذ يضع له العقبات ، ويؤلب عليه الشيوخ ، فاضطرب حبل النظام ، وذوى غصن تلك النهضة العلمية الجميلة ، وانتهى الأمر باستقالة الشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارة الأزهر فى سنة ١٣٢٣ هـ (سنة ١٩٠٥ م) بعد استقالة شيخ الجامع الأزهر السيد على الببلاوى .

وأذكر أننى كنت أسير مرة مع الأستاذ الشيخ محمد عبده عقب استقالته من الأزهر ، فقال فى حديثه — رحمة الله عليه — : يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيباً لشهواتهم ترتع حيث تشاء ، إلا أننى ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفىء ، إن لم تلتهب اليوم أو غداً فستلتهب فى ثلاثين عاماً وستكون ضراماً . » ا هـ .

تفكير الأستاذ الإمام فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى

إنى لأذكر جيداً أن زيارة الأستاذ الإمام للمرحوم الوالد قد كثرت عقب هذه الاستقالة ، حيث كان يلتقى جماعة من خلصاء الأستاذ الإمام أولى

الرأى الذين هالهم ما حصل ، وكانوا بالضرورة يتداولون النظر فى مصادر الأمر وموارده وفى تدبير مصائره وعواقبه . وما كان لى يومئذ أن أعرف ما يجرى بينهم من تدبير أو تفكير . وكل ما نمى إلى من ذلك هو أن الأستاذ الإمام يوشك أن ينشئ قسماً خاصا يختار له صفوة من طلبة الجامع الأزهر ، ليتولى هو إعدادهم للقضاء الشرعى ، ليكون على أيديهم إصلاح هذا القضاء والنهوض به إلى الكمال الذى يدعو إليه منذ أمد بعيد . وفى الحق أن إصلاح المحاكم الشرعية وتوطيد أركانها كانا من أهم خطط الإصلاح التى رسمها الأستاذ الإمام لنفسه قديماً ، وما برح يتعلق بها أمله ، وما برح يعمل لها من قريب أو بعيد ؛ فلا جرم أنه وجد الفرصة مهيأة لإقناع إخوانه وأنصاره بأن يدفعوا الحكومة دفعاً إلى المبادرة بتحقيقها ، سواء رضى الخديو أم لم يرض . ولاغرابة فقد كان أغلب إخوانه وأنصاره ، أو كلهم ، لا يرضون عن خطة الخديو ولا يناصرونه ، وكان فيهم كثيرون لهم فى الحكم مشاركة وسلطان يستطيعون معهما أن يخالفوا عن أمره فى بعض الأمور. وأظن أن مشروع قسم القضاء الشرعى كان يسير بالفعل بين الأستاذ الإمام وأنصاره ، وبين دواوين الحكومة سيراً ثابتاً وسريعاً وأن إنشاءه كان جد وشيك ، وأن بعض أسماء الطلبة الأزهريين الذين سيختارهم الأستاذ الإمام لهذا القسم كانت تتهامس بها الألسنة ، وكان فى أولها اسم أخى مصطفى .

هذا ولا شك فى أن الأستاذ الإمام كان يرى فى إنشاء مدرسة القضاء غرضاً أهم وأبعد من إصلاح القضاء الشرعى فى ذاته . ذلك هو تخريج فئة مثقفة ثقافة دينية سليمة تستطيع أن تحقق الغرض الأكبر الذى كان يعمل له الأستاذ الإمام ، وهو النهوض بالمسلمين من طريق الدين ، فقد كان رأيه — رحمه الله — أن السبيل الوحيدة لإصلاح حال المسلمين هى الرجوع إلى الدين الخالص . وكان أخى مصطفى فى هذه الأثناء كثير الاتصال بأستاذه ، يستقبله كلما جاء منزلنا ، ويودعه كلما خرج ، وربما رافقه بعض الطريق ،

أوزاره فى بيته . ولا ريب فى أن استقالة أستاذه قد وقعت من نفسه موقعاً شديداً إذ يرى معها أن حبل النظام قد اضطرب ، وأن غصن تلك النهضة العلمية الجميلة قد ذوى . ولكن لا ريب أيضاً فى أنه قد طاب نفساً بما سمع عن قسم القضاء الشرعى ، وما كان يتوقعه له من نظام لا اضطراب فيه ، ونهضة علمية جميلة نضيرة الأغصان .

مرض الأستاذ الإمام ووفاته

ولكن الأقدار تسير فى طريقها دائماً أبداً مرسلة الأعنة — والله غالب على أمره — فإذا الأستاذ الإمام تدبّ فى أوصاله نذر مرض أليم مخشى العواقب ، قيل — والعياذ بالله — إنه السرطان . ثم لم يلبث إلا قليلا حتى لحق بالرفيق الأعلى فى ١١ يولية سنة ١٩٠٥ .

ولا شك أن وفاته كانت مفاجأة قاسية صدمت تلميذه صدمة عنيفة . ولا شك أنه كان صادقاً فى حزنه ، وكان مخلصاً فيما أخذ يلهج به من المراثى المتتابعة :

إن قلباً أصفاك بالود حيًّا   صدعته بموتك الأيام
كان فى هذه الحياة رجاء   قد دفناه يوم مات الإمام !

وكان صادقاً حين يكتب فى تعزيته للمرحوم السيد محمد رشيد رضا :

« غلبت على النفس فورة الهم حتى أنكرت كل ما عرفت من شأن الصبر ، واسترسلت مع الأكدار ، واستعصت على الناصح ، ونسيت وعد الله للصابرين . . . ولقد خشيت أن تجمح فى بيداء الجزع فلا يردها رادّ ، ولا يصدها صادّ ، ولا يدفعها عن الغى رشاد . لكن أبت عزيمة الإسلام ، وأبى يقين ورثناه عن الأستاذ الإمام ، إلا أن يؤوب الرشد من غيبته ، ويصحو العقل من سكرته ، على عظم الرزية وشدة البلية . . . . » إلخ .

ولا شك أن تلك الحيرة التى ذكرنا آنفاً أنها غمرت نفسه يوماً ، ثم انجلت

أو كادت على يد الأستاذ الإمام وبهديه ، ارتدت إليه ، فملأت قلبه هلعاً وقلقاً ، وأن الطريق التي أوشكت أن تستنير أمام عينيه قد عادت ظلاماً .

انصراف الفقيد إلى الاستعداد للامتحان لنيل شهادة العالمية من الأزهر

ولكنه على ذلك لم ينكص على عقبيه ولم ييئس بل مضى فى دراسته الأزهرية . وما كان له إلا أن يمضى فيها طوعاً أو كرهاً حتى يصل إلى غايتها ، وغايتها محدودة ليس فيها خفاء ، فهى أن يدخل الامتحان وينال شهادة العالمية . وكذلك انصرف إلى الاستعداد للامتحان على الوجه الذى يستعد به المتقدمون من طلبة الأزهر لأداء الامتحان .

ولقد كانت وفاة الأستاذ الإمام مفاجأة شديدة الوقع على قلوب أصدقائه وتلاميذه ، وكأن أحداً منهم لم يحسب أنه يموت ، أو أن الموت يختطفه اختطافاً ؛ فلما أفاق أصدقاؤه وتلاميذه انصرفوا جماعات ووحداناً إلى العمل على إحياء منهجه واتباع طريقته وتحقيق آماله ، كل يعمل على شاكلته وفى نطاق قدرته .

الاهتمام بمشروع مدرسة القضاء

وكأن حياة الأستاذ الإمام وآماله وهمته قد توزعت بين أصدقائه وتلاميذه ، فنهض كل منهم يمشى على أثره بمقدار نصيبه . وإنما يعنينا فى هذا المقام أن نسجل من هذا النشاط ظاهرتين اثنتين تتصلان بموضوعنا . فأولاهما اهتمام أصدقائه بمشروع مدرسة القضاء ، وتوليتهم تحقيقه برغم ما فى سبيله من عقبات . ولعل المرحوم سعد باشا زغلول — وكان يومئذ وزيراً للمعارف — قد أبلى فى ذلك بلاء حسناً .

واستمر الجهاد فى تذليل العقبات ووضع أنظمة قسم القضاء الشرعى إلى أوائل سنة ١٩٠٧ حيث صدر القانون بإنشائها ، وكنا نرتقب ظهوره بشغف ، وقد وجدنا أن الشروط التى اشترطها ذلك القانون الجديد لمن يريد أن يلتحق بهذه المدرسة لا تنطبق على أخى مصطفى ولا على كاتب هذه السطور ،

وبذلك أوصدت أبوابها دوننا .

ومع أن ذلك قد ساءنا ، غير أن موقعه على النفس لم يكن شديداً ، فقد أدركنا أن المدرسة التى أنشأها ذلك القانون ليست هى المدرسة التى أراد الأستاذ الإمام أن ينشئها ، ليكون هو مرشد الطلاب فيها ومربيهم ، والتى كانت من أجل ذلك تهوى إليها الأفئدة وتتعلق بها الآمال . وكذلك انصرف عنها عدد غير قليل من إخواننا الأزهريين الذين كانت أسماؤهم تذكر دائماً مع الأسماء التى تدخر للالتحاق بهذه المدرسة .

نهضة بين الطلبة الأزهريين لإصلاح الأزهر

والظاهرة الثانية التى أحب أن أسجلها من مظاهر النشاط لإحياء منهج الأستاذ الإمام وتحقيق آماله ، هى الحياة الجديدة التى أخذت تدب رويداً فى أوصال الأزهريين من شيعة الأستاذ الإمام ومن أبنائه الصادقين ، وجلهم من طلبة الأزهر المتقدمين . فقد أخذ أولئك الطلبة يتعارفون ويتواصلون ، وأخذت تربطهم وتؤلف بين قلوبهم أبوة مشتركة ، هى أبوة الأستاذ الإمام ، وغرض مشترك هو إصلاح الأزهر . وكان أخى مصطفى من العاملين على تأليف هذه القلوب وتوجيهها وجهة الإصلاح ، بل لعله — رحمه الله — كان هو العامل الأول فيها . وأول ما اتجه إليه نظر هذه الجماعة من الطلبة هو أن تجد بين علماء الأزهر من يتولى إتمام تعليمهم وتخريجهم على مثل طريقة الأستاذ الإمام أو قريباً منها . ولم يكن يومئذ فى علماء الأزهر من يتجه إليه النظر ليقوم هذا المقام المرجو غير الأستاذ الشيخ أحمد أبو خطوة — عليه رحمة الله — فلبى رجاء الجماعة ، وشرع يقرأ لهم كتاب « طوالع الأنوار » للبيضاوى ، وهو كتاب يعتبره الأزهريون من كتب الحكمة ، وفيه ذكر مذاهب الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم . واختار الأستاذ أبو خطوة وقت قراءة الكتاب بعد صلاة المغرب فى منزله بعيداً عن الأزهر ، ولعله قدر فى نفسه أن الذين سيحضرون

هذا الدرس هم هذه الجماعة القليلة من أبناء الأستاذ الإمام . وكذلك بدأ يقرأ الكتاب لثلة من أولئك الطلبة يعرفهم ويعرفونه ، ومنهم أخى مصطفى ، وكنت منهم . ولكن لم يمض إلا أيام قلائل حتى أخذ الأزهريون ينسلون من كل حدب إلى درس الشيخ أبو خطوة حتى امتلأت وضاقت بهم ساحة المنزل على سعتها . واستمر هذا الدرس شهراً أو نحوه ، وإذا الأستاذ أبو خطوة ينقطع فجأة عن متابعته .

وجرى الحديث يومئذ أن الخديو عباساً قد نمى إليه حديث هذا الدرس وما لقيه من رواج بين طلبة الأزهر ، فخشى عواقبه ، وأظهر غضبه منه ، وما كان لأحد من شيوخ الأزهر ، ولا من غيرهم ، إلا من عصم الله ، أن يتعرض لغضب الخديو يومئذ ، ومصرع الأستاذ الإمام لا يزال حديثاً جديداً ، ورأس الذئب الطائر عن جثته ماثلا أمام العيون ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ولكن أخى مصطفى ، وزملاءه من أبناء الأستاذ الإمام ، شباب لا يقدرون الأمور ولا يخشون عواقبها كما يقدرها ويخشاها أهل السن والتجاريب ، فهم لا يرجعون عما صمموا عليه من إتمام دراستهم على منهج الأستاذ الإمام ، وهم لا يجدون أمامهم غير الأستاذ أحمد أبو خطوة ، فذهبوا يشاورونه فى أمره وأمرهم ، ثم اتفقوا على أن يقرأ لهم الأستاذ فى غرفته من بيته بعد صلاة العصر درساً خاصا لا يؤذن بحضوره إلا لنحو عشرة من الطلبة معروفين له بأسمائهم وأشخاصهم ، ومنهم أخى مصطفى ، وكنت أيضاً منهم . وكذلك بدأ الأستاذ أبو خطوة يقرأ رسالة الجامى فى الصفات ، وهى رسالة فى صفات الله تعالى ، على أسلوب يجمع بين الفلسفة والتصوف .

الجمعية الأزهرية

وأتم قراءتها فى نحو ثلاثة أشهر ، ولم يلبث أن توفى عقيب ذلك ، رضى الله تعالى عنه ، فلم يبق أمام أبناء الأستاذ الإمام من وسائل النشاط إلا أن

يجمعوا جهودهم حول الجمعية التى أنشأوها باسم « الجمعية الأزهرية » ابتغاء العمل على جمع شملهم وتوكيد الترابط بينهم والنهوض بالأزهر كما أراد أستاذهم الإمام .

واختارت الجماعة أخى مصطفى رئيساً لها ، وساروا بالجمعية سيراً حميداً ، حتى ارتفع ذكرها بين الأزهريين ، وتطلعت إليها الأنظار ، وتعلقت بها الآمال ، وإن اختلفت فيها الظنون ، وأحاطتها بعض الشبهات . على أنه لم يكن لها فى الواقع من عمل تقوم به ، غير أن أعضاءها كانوا يجتمعون فى كل أسبوع أو اثنين ، فيخطب بعضهم ، ويتناقشون فيما بينهم مناقشات علمية أو أدبية أو إصلاحية ليس فيها خطر ولا لها عواقب تخشى .

وكانت الاجتماعات تحصل أول الأمر فى أية غرفة من غرف بعض أعضائها ، فلما كثر عديدهم استأجروا لها محلا خاصا . ولم يستمر نشاط الجمعية طويلا ، فقد توزع أعضاؤها فريقين ، لكل فريق ما يشغله عن القيام بحق الجمعية . فريق أخذ يستعد لامتحان الدخول فى مدرسة القضاء ، وفريق آخر آثر البقاء فى الأزهر ، وكان أخى مصطفى من هذا الفريق الذى وجه همه إلى الحصول على شهادة إتمام الدراسة الأزهرية ، وأخذ يعمل دائباً على أداء الامتحان اللازم لها . وكذلك انصرف الفريقان عن هذه الجمعية إلى الدرس والتحصيل .

وبذلك أصبح خط السير واضحاً أمام أخى مصطفى ، محدود المعالم ، محدود الغاية ، لا مجال فيه لتردد ، ولا متسع فيه لتغيير ولا تبديل . وكذلك مضى يشق سبيله إلى هذا الامتحان مع ثلة من إخوانه المصطفين الأخيار فى جد وعزم .

مرض المرحوم الوالد

من المصادفات السيئة أن المرحوم الوالد بدأ يشكو مرضه الأخير ، فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٠٦ إلى آخر سنة ١٩٠٧ حيث توفى إلى رحمة الله تعالى فى صباح ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٢٥ (٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧) .

كانت سنة حزينة مليئة بالقلق والاضطراب . ولا بد أن أثرها كان شديداً على أخي مصطفى ، بنوع خاص فقد كان المرحوم الوالد فيما يظهر يضمر له شيئاً من الإيثار ويحله من قلبه محلا ممتازاً دون أن يظهر تمييزه على إخوته فى شىء من المعاملة ، بيد أنه كان فى أيام مرضه كثيراً ما يطلبه ليكون إلى جانبه فى السفر أو الإقامة ، يجد فيه أنساً وعنده راحة واطمئناناً .

لا جرم أن وفاة المرحوم الوالد كانت عليه أشد وقعاً وأحد لذعاً . ولقد تحس مقدار ألمه لهذا الحادث من قصيدتين فاضتا على لسانه رثاءً له ، وقد نشرتا يومئذ، ولعله لا بأس من نشرهما هنا قال — رحمه الله — فى القصيدة الأولى :

تكدَّر هذا العيشُ بعد صفائه	وبدّل يأساً ما مضى من رجائه
ألا مَنْ لنفسى أدنَفَ الهمُّ قلبها	فأضحى عليلا لا طبيب لدائه
خليليّ لا تستكثرا فيْض عبرتى	فوالله مـا وفَيْت حق بكائه
لى الله يوماً شيّبتنى خطـوبه	وحمّلت ما حمّلت من برحائه
بنفسى من لا خير فى العيش بعده	وأوّاه كيف العيش بعد فنائه
أبى الدهر إلا أن يروع بماجد	ثوى الفضل والمعروف يوم ثوائه
رُويْدكما ياصاحبيّ فإننى	أخو حسرات ثاكل لعزائه
ويا دهر رفقاً بامرئ لم تدعْ له	رجاءً فقد قطّعت حبل رجائه
فتًى صدّعتْه النائبات فأوجعت	وحال قضاء الله دون قضائه
سقى الله بالصحراء قبراً معظّماً	وددت لو انى مودع بفنائه
أبى عشت حرًّا لا تقيم على أذًى	وعشت وفيًّا صادقاً فى وفائه
وأسلمت للرحمن وجهك مؤمناً	ولم تأل جهداً فى سبيل رضائه
بكتك بلادٌ كنت تحمى ذِمارها	بصارم عزمٍ مخلصٍ فى بلائه
وفداك قوم لم تزل ناصحاً لهم	أميناً جزاك الله خير جزائه
تولاك رضوان الإله وفضله	فقد كنت نوراً يهتدى بضيائه

وقال فى الثانية :

وقيت الردى يأيها الرجل الفرد ... بلى رزئت فيك المروءة والمجد
سلكت سبيل الرشد فى نفع أمة ... أضرّ بها قومٌ يغيظهم الرشد
وجلّيْتَ وجه الحق للناس ساطعاً ... وقد لعبت بالحق ألسنة لدّ
لك الله ما وفّرت للنفس راحةً ... وجاهدت حتى نال من نفسك الجهد
بلوناك فى جدّ الزمان وهزْله ... فما كنت إلا السيف فى حده الحد
فقيدَ العلى طابتْ حياتك كلها ... فأولها حمدٌ وآخرها حمد
لقد كنت طود الفضل فاندك طوده ... وكنت نظام العقد فانفرط العقد
نعوْك فحاقت بالبـــلاد رزيّة ... وطاف بها جنحٌ من الخطب مسود
وأضحت قلوبٌ لا تفيق من الأسى ... وباتت عيون لا يزايلها السهد
بكى الشيبُ والشبان يوم مصابه ... فما دفع المقدور شيبٌ ولا مرد
نسير بنعش حوله الناس خُشّعاً ... وجندٌ من الأملاك يتبعه جند
شققْنا بصحراء الإمام ضريحه ... وثمت ألقى رحْله الأسد الورد
دفنّاك فى قبرٍ وعُدْنا بأنفس ... يقوم بها وجدٌ ويقعدها وجد
لعمرك ما فى العيش بعدك لذةٌ ... وما ساءنى نحس ولا سرنى سعد
تساوى ظلام الدهر عندى ونُورُه ... وسيّان صابٌ ما تذوقت أو شهد
أروح وأغدو موجع القلب ليتنى ... صريع حمامٍ لا أروح ولا أغدو
أدور بعينى لا أرى غير لحده ... كأن جميع الكون ذلكم اللحد
إذا قلت لان القلب للصبرِ ساعةً ... غذته تباريح الهموم فيشتد
ألا أيها المولى سقى قبرك الحيا ... ففى كبدى من لثم تربته برد
وفيت بعهدى والوفاء سجيتى ... وفى الناس قوم لا يصان لهم عهد

* * *

حصوله على العالمية

ولم تكن هذه الشواغل المضنية لتعوقه عن مواصلة الجد فيما تعلقت به همته من الاستعداد لامتحان العالمية ، فأتم هو وإخوانه الاستعداد له ، وتقدموا إليه فى أوائل سنة ١٩٠٨ ، ودعى هو إلى مجلس الامتحان فى ٢٥ يولية من هذه السنة ، فأداه بنجاح وتفوق ، ونال الدرجة الأولى ، وهى أرقى درجات العالمية الأزهرية فى تلك الأيام ، ولم ينلها معه فى هذه السنة إلا واحد أو اثنان من جميع المتقدمين للامتحان ، وكان عددهم كبيراً .

وقبل أن يمضى على نجاحه شهر واحد انتدب فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى هو وقليل من زملائه الذين تخرجوا معه فنهضوا بعملهم نهوضاً مشكوراً .

ثورة الأزهر

وفيما حوالى شهر نوفمبر من تلك السنة بدأت الدراسة فى الجامع الأزهر على نظام جديد ، رسمه قانون جديد صدر حوالى شهر مارس سنة ١٩٠٨ ، سمى قانون إصلاح الأزهر ، وهو قانون أراد الخديو أن يرضى به الأزهريين ، بأن يخرج الأزهر عن نظامه القديم الذى ظنوا أنه هو مثار الشكوى ، إلى نظام مدرسى حديث ، يوزع فيه الطلبة توزيعاً إجبارياً على سنين متتالية ، وعلى أساتذة معينين ، وعلى أزمان محدودة وساعات معينة . كل ذلك تحت مراقبة دقيقة وامتحانات دورية . . . الخ .

وزعموا أن ذلك الإصلاح الظاهرى كافٍ فى إرضاء دعوة الإصلاح التى يتناجى بها دعاة الإصلاح من الأزهريين ، ولكن حينما أخذ القائمون على هذا القانون فى تنفيذه عجزوا عن ذلك عجزاً فاضحاً رجّ الطلبة والمدرسين رجّاً عنيفاً ، وأشاع فيهم الخلل والاضطراب ، فامتلأت نفوسهم حنقاً ، وأخذت بوادر الثورة فيهم تتراءى لأعين الناظرين .

وتوالت النذر بهبوب العاصفة . وكان شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت هو الشيخ حسونة النواوى — عليه رحمة الله — وهو رجل مؤمن ، قوى فى دينه وفى خلقه ، سليم القلب ، طيب النفس ، يحبه من الأزهريين الطيبون المخلصون .

فرأى جماعة من شباب العلماء ، وفيهم أخى مصطفى ، أن واجب البر بشيخهم والإخلاص له يقتضيهم أن يضعوا أنفسهم تحت أمره ليعاونوه — إن أراد — على ضبط الأمور قبل أن يفلت زمامها ، وليتولوا عنه من العمل ما ينتدبهم له . فقبل الشيخ منهم ذلك راضياً عنهم ، واثقاً بهم . ثم وكل إليهم أن يتخذوا من الوسائل ما يشاؤون لتنظيم الدروس داخل الجامع الأزهر ، وشجعهم كثيراً ، ومهد لهم كل سبيل . فشرعوا يبحثون الأمور ويتعرفون مواردها ومصادرها ، ولكن الحوادث لا تنتظر ، فهى تمر مرّ السحاب ، وتتعاقب تعاقب المطر الغزير ، فما هو إلا شهر أو أقل حتى هب طلبة الأزهر ثائرين ، وأضربوا عن الدراسة ، فتعطلت تماماً . وأخذوا يخرجون إلى الشوارع متظاهرين يهتفون بإصلاح الأزهر ، و يجتمعون فى ميادين القاهرة وداخل الجامع ، يتبادلون الخطب فى شرح حالهم ، ويتواصون بالثبات والعزم حتى تجاب مطالبهم . ولقيت حركتهم هذه عطفاً عاما ، وكان صداها يسرى فى أرجاء البلاد مدويا .

قصة الحركة الأزهرية

وقصة هذه الحركة الأزهرية ذات تاريخ طويل دقيق . ولسنا نريد هنا أن نشرحها إلا بقدر ما يمس أخى مصطفى منها ، حتى لا يشط بنا الحديث .

رأيت آنفاً كيف خرج المرحوم الشيخ محمد عبده من مجلس إدارة الأزهر . ولعلك أدركت أن ذلك الحادث لم يمر على الأزهر من غير أن ينبه عقولهم إلى أن هناك قوة تريد أن تتجاذبهم ذات اليمين ، وقوة تريد أن تتجاذبهم ذات الشمال ، وأن هناك صراعاً عنيفاً بين القوتين لا يأذن للأزهر أن يستقر له قرار .

نبه ذلك الحادث من غير شك عقولا فى الأزهر وفتح عيوناً . ثم مات الأستاذ الإمام – رضى الله عنه – ولعلك أدركت أن وفاته قد حركت بين الأزهريين نوازع النهوض ، ودفعتهم نحو الحياة والحركة دفعاً . وكانت دروس الأستاذ الإمام من قبل ذلك كله ، وكانت طرائقه فى الحياة وفى الإدارة ، قد هيأت من الأزهريين نفوساً قابلة للفهم والعمل . وأنت تستطيع أن تلتمس فى ذلك كله بذور الحركة الأزهرية ، وأن تضع يدك على منابتها الأولى .

ثم صدر قانون مدرسة القضاء الشرعى فى أوائل سنة ١٩٠٧ كما سبق . وأعتقد أن هذا القانون هو الذى ألقى على نفوس الأزهريين الحرى المضطرمة شعلة من النار لم تزل تسرى فى تلك النفوس حتى ألهبتها وجعلتها ناراً مسعرة وثورة هائجة عنيفة . وبيان ذلك أن مدرسة القضاء التى أنشئت بقانون سنة ١٩٠٧ قامت على أساس الفصل بينها وبين الأزهر فصلا تامًّا ، على الرغم من أن شيخ الأزهر جُعل رئيس مجلس إدارتها ، وعلى الرغم من أن طلبتها يختارون من طلبة الجامع الأزهر ومن أن الشهادة التى يعطاها المتخرجون فيها تعتبر شهادة عالمية الأزهر ، وعلى الرغم من كثير غير ذلك مما أفيض عليها ليعطيها صورة الانتساب إلى الجامع الأزهر . ولكن المدرسة برغم ذلك كله قد جعلت تابعة لوزير المعارف ، فهو صاحب الرأى الغالب فى تكوين مجلس إدارتها ، وفى يديه ميزانيتها ، وقد أفيض عليها المال بسخاء ، فجعل للطلبة إعانات شهرية ، وقدم لهم طعام الغذاء مجاناً ، كما جعل راتب المدرسين فيها فوق راتب أمثالهم من المدرسين فى الأزهر . واختير ناظر المدرسة من غير الأزهريين وكذلك كثير من مدرسيها . واختير لها مكان فسيح فى حى يبعد عن الأزهر كثيراً . وفى الحق أن الذين قاموا بإنشاء المدرسة قد أحسنوا وضع قانونها ، وأحسنوا ترتيبها وإدارتها ، وأحسنوا اختيار مدرسيها وطلبتها ، وأبرزوا صورتها مرضية محمودة ، وأشاعوا ذكراً جميلا ، وخصّوها بكثير من المزايا التى لم يكن للأزهريين منها نصيب .

ذلك وقد أنشئت المدرسة من أول يوم لتزاحم الأزهر على تخريج المرشحين لتولى القضاء الشرعى ، فلا غرو أن أثار ذلك منافسة عنيفة بين الأزهر القديم المتداعى والمدرسة الجديدة المستحكمة ، ولا غرو أن ينظر الأزهريون إليها نظرة الضعيف إلى قوى يغير عليه ليستلب من يديه حقاً كان خالصاً له . وقد اختلف الرأى يومئذ فى موقف الأزهريين فرآه قوم حسداً وغيرة غير لائقين ، ورآه آخرون حقاً مشروعاً وإنصافاً لا حيف فيه . ولعل خير ما يعتذر به الأزهريون فى موقفهم هذا قول شاعر الأندلس :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بى   سوارح لا سجن لديها ولا كبل
ولم تك والله المعيذ حسادة   ولكن حنيناً أن شكلى لها شكل

ولا يبعد عندى أن يكون أولئك الرجال البررة الذين أنشأوا مدرسة القضاء الشرعى استجابة لدعوة الأستاذ الإمام قد غلوا فى حماستهم لتلك الدعوة فجاوزوا الحد الذى لو كان الأستاذ الإمام حاضرهم لوقفوا عنده ، ولتجنبوا بذلك خطر العواقب التى رجّت نفوس الأزهريين وحركت حفيظتهم ، والتى قضت آخر الأمر على مدرسة القضاء نفسها .

تلك هى مجمل العوامل التى أدت إلى قيام الحركة الأزهرية ، وكانت يوم بدأت حركة جادة لا هزل فيها ، وصادقة ليس فيها تكلف .

جماعة من أهل الأزهر الصادقين فى حبه يؤمنون بأن الأزهر يحتاج إلى إصلاح عاجل ، إذا لم يتداركه القادرون فخراب عاجل يترك الأزهر مقفر العرصات . يؤمن الأزهريون بذلك كما يؤمنون بأن ذلك القانون الذى وضع لإصلاح الأزهر ، وأريد تنفيذه يومئذ ، قد أصيب بإخفاق لا رجاء فى تلافيه ، وأنه قد جاء خراباً على الأزهر فوق خراب .

مطالب الأزهريين

لذلك كان أول ما طالب به الأزهريون الثائرون أن يلغى هذا القانون .
ولكن هذا المطلب – على عدالته – لم يكن فيما يظهر كافياً فى نظر الجمهور لأن يكون وحده سبباً للثورة ولا أساساً للإصلاح الذى ينادون به . وكان لابد للأزهريين أن يحددوا – ولو على نوع من الإجمال – معانى الإصلاح الذى يبتغون ووجوهه ، حتى تكون ثورتهم مفهومة عند الناس ، ويكون دعاؤهم مسموعاً . ولكن الذين بدأوا حركة الإضراب الأزهرى لم يفكروا فى شىء من ذلك ، بل كان مطلب إلغاء القانون الجديد يملأ قلوبهم ويغطى على سمعهم وأبصارهم ، وكان ذلك نقصاً ظاهراً فى الحركة .

لجنة الاتحاد الأزهرى

ولولا أن جماعة منا – نحن الطلبة الأزهريين – تداركوه من أوله لأصيبت الحركة بإخفاق سريع ، فقد اجتمع عدد منهم ، ووضعوا مطالب للأزهريين حدودها تحديداً كاملا على أساس تفكير سليم ، وألفوا لجنة الاتحاد الأزهرى من جماعة مختارة من الطلبة قاموا قياماً حسناً بتدبير الإضراب وتوجيهه وجهة مرضية استحقت من الرأى العام عطفاً وتشجيعاً .

جمعية تضامن العلماء

لم يكن مستساغاً أن يقف علماء الأزهر موقفاً محايداً من هذه الحركة البريئة التى لا تريد إلا خير الأزهر وإصلاحه ، ولم يكن مستساغاً أن يترك العلماء طلبتهم يتعرضون وحدهم لما أصابهم به الإضراب من عنت ومن إرهاب ، فأحاط جماعة من شباب العلماء بأخى مصطفى وألفوا جمعية تضامن العلماء ، ليعملوا على شاكلتهم لخير الأزهر وإصلاحه . وكان لهذه الجمعية صدى مدو فى جهات الحكومة وفى الرأى العام أيضاً . لم يكن أخى مصطفى رئيسها ، ولكنه

كان بلا شك من أهم عقولها المفكرة .

عرفت آنفا أن أخى مصطفى قد صار مدرساً بمدرسة القضاء الشرعى ، وقد عرفت أيضاً ما بين مدرسة القضاء الشرعى وبين الأزهر . وأنت ترى الآن أن أخى مصطفى — وهو مدرس بمدرسة القضاء الشرعى — يقود حركة الإصلاح الأزهرى أيضاً ، فهل فى ذلك عجب ؟ قد يبدو ذلك عجيباً . أما أخى مصطفى فهو من غير شك لم يكن يرى فيه غرابة ولا عجباً . وهو فى ذلك على حق فقد علم هو ، وعلم العارفون يومئذ ، أن إلغاء مدرسة القضاء — كما ينادى به طلبة الأزهر — مطلب جائر لا يتوقف عليه خير الأزهر ولا إصلاحه ، وأن التوفيق بين الأزهر وهذه المدرسة غرض غير بعيد . ولعله لو مكن جماعة العلماء من توجيه ثورة الأزهر كما يريدون لاستطاعوا أن ينتهوا بها إلى نهاية طيبة ترضى الأزهر ومدرسة القضاء معاً .

ولكن حرباً عنيفة قامت ضد جماعة تضامن العلماء ، وكان شخص أخى مصطفى هو الغرض الأول الذى اتجهت نحوه أنظار أولئك المحاربين وصوبت إليه سهامهم ، وبذلك أصبح غرضاً لخصومة قوية إذ يقبل التدريس فى مدرسة القضاء ، وأصبح غرضاً لخصومة أقوى إذ يؤسس جمعية تضامن العلماء .

والآن أنقل للقارئ شيئاً عن هذه القصة من بعض مذكرات خاصة كنت يومئذ أدونها تباعاً :

الجمعة ١٥ — ٨ — ١٣٢٦ (١٢ — ٩ — ١٩٠٨) « أبو جرج »

حضر اليوم من مصر أخى مصطفى ، وكان سافر إليها يوم الثلاثاء ليحضر تعيينه مندوباً للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى وليستشير الشيخ حسونة فى قبول ذلك أو رفضه . وقد تم تعيينه البارحة ، ويظهر أن الشيخ حسونة كان يختار له ألا يقبل ، ولكن أخى مصطفى كان شديد الرغبه فى التدريس بها ، وما كان تجاهله إشارة الشيخ وتلويحاته والشيخ أبى الفضل

الجيزاوى إلا عن عشق لها برغم محاولة ستره . وربما كان له فى مدرسة القضاء أمانى عالية قد تكون ممكنة قريبة . أما أنا فقد كنت قبل استشارته الشيخ حسونة أخاف أن تبعد علاقته بالأزهر كلما قرب من مدرسة القضاء ، لما بينهما من التناقض والتعادى إلى الآن .

وقد صرت — بعد أن عرفت ميل الشيخ إلى عدم القبول — أخاف كثيراً جداً ألا يجد مصطفى من المدرسة خيراً . لست أحب مدرسة القضاء لأنها اعتدت على حقوق الأزهر ، وفى دخول مصطفى وإخوانه الذين هم صفوة المتخرجين فى هذا العام إليها تقوية لها ، ولا سيا إذا سقوا فيها كأساً روية فنصروها على الأزهر ، وما ذلك ببعيد . وأيضاً فإن ما أعرفه عن المتصرفين فى الأزهر من معاكسة بقاء المدرسة يخيفنى أن يعاكسوا العاملين فيها . وإن ناشئاً يؤسس لنفسه شرفاً علمياً دينياً كأخى مصطفى إذا عوكس من الآن ، فلم يقدم له مكان بين مدرسى الأزهر ، ولم يفسح له فيه مجال ، أخاف إن فاته مقام فى العلماء ولم يبن الشرف فى الأزهر ألا يصل إلى ما أحبه له . والله يختار له ما فيه الخير .

الأحد ٢٣ — ٢ — ١٣٢٧ (١٥ — ٣ — ١٩٠٩) « مصر »

أول أمس تكلم عاطف بك بركات ناظر مدرسة القضاء مع أخى مصطفى فى شأن انضمامه إلى جمعية تضامن العلماء ، وذكر له أن ذلك مما أغضب الخديو وجعله يعتقد أن سبب الحركة الأزهرية هو مدرسو المدرسة من علماء الأزهر . وفهم أخى مصطفى من كلامه أن عاطفاً يعرض عليه الاستقالة من المدرسة أو الجمعية ، فقدم إليه بالأمس استقالته من المدرسة ، فأظهر له عاطف تلطفاً وشبه رد جميل لاستقالته ، ولكن يظهر اليوم أن المسألة اشتدت عند الخديو .

فعاد عاطف يشاور أخى مصطفى فى قبول استقالته ، وربما انتهت غداً ، وربما استقال كذلك سائر العلماء أعضاء الجمعية ، فلا يبقى من علماء

الأزهر بعدهم إلا قليل .

الاثنين ٢٤ — ٢ — ١٣٢٧ (١٦ — ٣ — ١٩٠٩) « مصر »

تمت اليوم استقالة أخى مصطفى من مدرسة القضاء الشرعى ، والمسألة نفسها بسيطة جدا لا تستحق التفاتاً ، ولكنها مهمة من أجل سببها الحقيقى . وهى أعظم دليل على ضرر الحكم الاستبدادى . . . إلخ .

* * *

أرجو أن يكون هذا القدر كافياً فيما أردت أن أشرحه من علاقة أخى مصطفى بالحركة الأزهرية أما كيف سارت تلك الحركة بعد ذلك وكيف انتهت فحديث خارج عن موضوعنا ، على أن مصير هذا الحادث قد يمكن تلخيصه فى تلك الجمل القليلة أنقلها من مذكراتى :

فى يوم السبت ١١ — ٤ — ١٣٢٧ (١ — ٥ — ١٩٠٩) « مصر »

دخلت المسألة الأزهرية فى حال جديدة ، فإنها قد انعكست علينا من يوم أن اشترك فيها بعض معية الخديو مع بعض العلماء وبعض أعضاء لجنة الاتحاد الأزهرى ، وكانت النتيجة أن الخديو استمال إليه قوة الطائفتين ، واندفع الأزهريون فى تيار الثقة بالخديو والاعتماد عليه وتفويض الأمور كلها إليه . . وإذ كانت هذه السبيل غير مبدئى ومبدأ أخى مصطفى أصبحنا بمعزل عن إخواننا الذين كنا عمدتهم ومرجعهم فى استمرار الرأى ، وتركونا إلى سبيلهم الجديد يتخطبون فيه ولا يهتدون . وفى سنة ١٩٠٨ أنشئت جمعية سميت جمعية ترقية اللغة العربيـــة ، وغرضها واضح من اسمها ، وأنشأها جماعة من العلماء والأدباء ، وكان أخى مصطفى عضواً فيها ولكن هذه الجمعية لم تعمل شيئاً ولم يستمر بقاؤها إلا قليلا .

ومن الحوادث التى تحسن الإشارة إليها أن المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش كان قد اتفق مع بعض الهيئات التى تعمل على نشر اللغة الفرنسية وبث الثقافة الفرنسية فى مصر على أن تنشئ مدرسة تكون ذات نظام خاص يجعل

للأزهريين الحق فى أن يلتحقوا بها فيتعلموا اللغة الفرنسية وبعض العلوم ليستطيعوا أن يوفدوا إلى فرنسا فيتموا دراستهم فيها .

وقد اختار المرحوم الشيخ شاويش لإدارة هذه المدرسة مجلس إدارة كان من أعضائه أخى مصطفى . وقد استمرت هذه المدرسة تعمل نحو سنتين فيما أظن ، ولعل بعض الطلبه ، الذين تعلموا فيها قد أرسلوا فعلا إلى فرنسا فأتموا دراستهم بها .

سفره إلى فرنسا

على أثر استقالة أخى مصطفى من مدرسة القضاء ، وتفاقم الفتنة فى الأزهر ، وكثرة الاضطراب والإرجاف ، نشأ التفكير فى أن يسافر أخى مصطفى إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم هناك . وكانت هذه الفكرة موضع بحث طويل بينه وبيننا ، نحن إخوته ، وكثيراً ما تداولنا وقلبنا وجوه الرأى ، ولقد قضينا يوم الخميس ١٠ — ٦ — ١٩٠٩ بأكمله فى التروى والبحث .

ثم اتفقنا على أن يسافر إلى باريس ليقيم فيها سنة كاملة ليتعلم اللغة ويحضر بعض دروس الفلسفة فى السربون . وشرعنا على الأثر فى تجهيزه للسفر .

وفى يوم الثلاثاء ٢٢ — ٦ — ١٩٠٩ سافر من مصر إلى بورسعيد ، وكان مودعوه فى المحطة جمعاً كبيراً من أهل العلم والجاه . وفى الصباح الباكر من يوم الأربعاء أبحرت به السفينة إلى مرسيليا ليأخذ القطار منها إلى باريس ، وكان يرافقه فى هذه الرحلة الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وهو يومئذ رئيس تحرير « الجريدة » لسان حزب الأمة ، وقد كان له فى هذه الرحلة معيناً نافعاً صحبه إلى باريس ومهد له الإقامة فيها تمهيداً .

قضى فى هذه الرحلة ثلاث سنوات متتابعات ، فلم يعد إلى مصر إلا فى شهر يوليو سنة ١٩١٢ . ولا شك فى أن حياته فى تلك السنوات قد غيرت فيه كثيراً وأنها كانت ذات أثر خطير فى تاريخه . غير أنى لا أستطيع أن أتتبع

حياته فى هذه الفترة المهمة بدقة وبتفصيل ، وإن كنت أعتقد أنه قد حدثنى بها ورواها لى بدقة وتفصيل ، لكن الذاكرة قد ضعفت فهى تكاد تعجز عن استعادتها ، إلا قليلا مما لم تمح الأيام خطوطه .

وقد جاء فى مذكرات المرحوم محمد كرد على ، فيما يختص بتاريخ أخى مصطفى فى هذه الفترة ، ما نصه : « سافر إلى باريس سنة ١٩٠٩ فتعلم الفرنسية وحضر دروس الأستاذ دركهايم فى الاجتماع ودروساً فى الآداب وتاريخها. وفى سنة ١٩١١ تحول إلى مدينة ليون ليشتغل مع الأستاذ إدوارد لامبير فى دراسة أصول الشريعة الإسلامية ، وحضر فى جامعة ليون دروس الأستاذ جوبلو فى تاريخ الفلسفة ودروساً فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وتولى تدريس اللغة العربية فى كلية ليون مكان مدرسها الذى كان ندب للتدريس فى الجامعة المصرية » اهـ .

وظاهر أن هذه المعلومات مستقاة من أخى مصطفى نفسه . وجاء فى ملف خدمته بالحكومة المصرية ما نصه : « كلف أثناء إقامته بمدينة ليون بالتدريس بدلا من جناب الأستاذ ڤييت الذى كان منتدباً للتدريس بالجامعة المصرية القديمة ، وقد أعد رسالة للتقدم بهـا لامتحان الدكتوراه فى الآداب ، موضوعها الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام . وقد أخرج بالاشتراك مع المسيو برنار ميشيل ترجمة دقيقة بالفرنسية لكتاب الشيخ محمد عبده موضوعه العقيدة الإسلامية . . . » إلخ .

مذكراته اليومية

وإننى لأعرف أنه هو نفسه قد شرع — فى خلال إقامته فى فرنسا — يدون مذكرات عن حياته اليومية يستودع فيها ما يجده جديراً بأن يسجل من الحوادث ومن خواطر نفسه . وقد دأب على تدوين هذه المذاكرات سنين كثيرة من حياته ، ثم شغل عنها ؛ وقد كان يبذل فى كتابتها عناية غير قليلة ، فجاءت

سجلاً حافلا بالتاريخ والأدب . وكثيراً ما كان يرجع إليها فى المناسبات ، وكثيراً ما كان ينقل منها قطعاً ينشرها فى الصحف مقالات كأنها كتبت ليوم نشرها . والمؤرخ لتلك الفترة من حياته سيجد فى هذا المذكرات كل ما يحتاج إلى معرفته من عناصر التاريخ وأكثر مما يحتاج ، وقد عنى بحفظها إلى آخر حياته ، ثم تركها وديعة مصونة فى بيته .

إننى لم أحاول ، ولم أرد ، أن أطلع على هذه المذكرات من بعده ، إذ رأيت أن ذلك حق خالص لأولاده وذريته ، وإن كان هو — رحمه الله — قد اعتاد أن يقرأ لى فيها كثيراً ويحدثنى بها . وقد يبدو لذراريه — بارك الله فيهم — أن ينشروا يوماً من الأيام ما يكون صالحاً لأن ينشر منها . ويمكن إذ ذاك لمن يعنون بمتابعة تاريخه أن يتداركوا ما فاتنى ذكره عن هذه الحقبة وأن يصلحوا ما قد أكون وقعت فيه من خطأ فى أى موضع من مواضع هذا البحث .

أثر هذه المرحلة فى حياته

أعرف أن أثر هذه المرحلة فى حياته كان كبيراً جداً ، أكبر مما كنت أتوقع ، وأكبر من أن تطيب به نفسى يومذاك، وأكبر من أن يستسيغه عقلى. وأذكر أننى نازعته غير قليل فى بعض ما حسبته يومئذ تغيراً غير جميل ، وإخالنى قسوت أحياناً فى مجادلته . وكان هو فى أكثر أحواله يحسم الجدل بيننا بابتسامة هادئة ونظرة حانية وكأنه يقول : « رويدك حتى ترى وتعرف ، كما رأيت وعرفت » . وكان فى ذلك — عليه رحمة الله — صادقاً وحكيماً .

كانت السيدة الوالدة يوم رجع أخى مصطفى من سفره تعانى آلاماً مبرحة من مرضها الأخير الذى ألزمها الفراش أياماً كثيرة قبل ذلك . ثم لم يمض إلا شهر تقريباً بعد عودته حتى توفيت السيدة الوالدة رحمها الله وتغمدها برضوانه .

كان من رأى أخى مصطفى أن يعود إلى فرنسا لإتمام دراسته التى بدأها هناك ولما يتمها ، وعلى هذه النية حضر إلى مصر يريد زيارة قصيرة ثم يعود .

وبعد أن مضى على وفاة السيدة الوالدة زمن فرغنا فيه من تدبير ما شغلنا من ذلك الحادث ، أخذنا — نحن الإخوة — نتداول فى سفر مصطفى ثانياً ، وطال تشاورنا فى ذلك بين لا ونعم ، وأخيراً استقر الرأى على أن يسافر هو إلى فرنسا ، وأن أسافر أنا إلى إنجلترا ، كما كان الوالد — رحمه الله تعالى — يريد لى ويتحدث به كثيراً . وفى مساء الاثنين ٧ — ١٠ — ١٩١٢ أبحرت بنا الباخرة من بور سعيد إلى مرسيليا ، فوصلنا إليها صباح السبت ١٢ — ١٠ ، ثم خرجنا منها صبح الاثنين ١٤ — ١٠ — إلى ليون ، وغادرنا ليون يوم ١٧ — ١٠ إلى باريس ، فأقمنا فيها معاً إلى يوم السبت ٢٤ — ١٠ ، إذ خلفته فيها ، وذهبت وحدى إلى مدينة لندن .

لم يكن بيننا من سبيل إلى الاجتماع بعد ذلك إلا الكتب نتبادلها متواصلة . وقد زرته مرة فى باريس ، فأقمت معه فيها من ٤ أغسطس سنة ١٩١٣ إلى ٢١ منه ، ثم عدت إلى إنجلترا نتكاتب كدأبنا من قبل .

إصابته بمرض صدرى وذهابه إلى مستشفى

وفى ١٩ — ٢ — ١٩١٤ تسلمت منه رسالة يقول فيها إنه اشتكى سعالا يعتاده ، وإنه ذهب إلى ضواحى ليون ليسأل طبيباً اختصاصيا فى أمراض الصدر ، وقد رأى أن عنده « حالة غير عادية فى الرئة ، قد تكون بداية مرض صدرى . ولكن هذه الحالة من البساطة وقلة الشأن بحيث يحتاج الحكم فيها إلى تدبير ورأى من الحكمة ، وإن لم يكن ضرورياً أن أذهب إلى المستشفى فأكون بين يدى مراقبته وملاحظته نحو شهر » .

وفى ٢٤ — ٢ تسلمت برقية من مصر يُطلب منى فيها أن أزور مصطفى وألزمه الرجوع إلى مصر ، فغادرت أكسفورد مساء ٢٦ — ٢ إلى باريس ثم إلى المستشفى . وصلت إلى المستشفى ظهر يوم الأحد ٢٩ فبراير ، بعد رحلة طويلة لم تخل من مشقة وكتبت فى مذكراتى عن تلك الرحلة ما نصه :

« كنت أظن أن سيفجعني ما أرى فى مصطفى من نحول وضعف ، فإذا به فى صحة ظاهرها أحسن من المعتاد ، وإذا العائد أقل فى مظاهر الصحة من المعود .

« لذلك لم ألبث — إذ نظرت وجه مصطفى — أن تبدل خوفى كله إلى طمأنينة كاملة ، وتبددت غياهب الجزع بما أشرق فى جوانب قلبى كله من السرور والبشر ، ولكأننى قد أسرف بى الفرح حتى لم يدع لى منفذاً إلى الخوف ، وقد كان — ولا يزال — ثمة له موضع ، فإن الطبيب يرى أن أخى مصطفى مصاب بمبادئ السل ، وأنه لا بد له من العلاج زمناً غير قصير » ا هـ .

ورأينا أن يذهب مصطفى إلى ليون لنستأنس برأى اثنين من أطبائها ذوى شهرة واسعة ، فلما قابلهما اتفق كلاهما على أن عنده حالة بسيطة من حالات السل ، وأن من الخير له أن يعود إلى المستشفى لعلاجها ، فعاد إليها .

وكنت أيامئذ قد أدركتنى مسامحة جامعة أكسفورد لعيد شم النسيم (Easter) ، فقضيت أكثرها ما بين ليون وجنيف حيث أستطيع أن أزوره من غير مشقة لقرب المستشفى من البلدين .

وصف المستشفى

يقوم بناء المستشفى فى قاصية من العمار تقطع العربة طريقها إليه من أقرب محطات سكة الحديد فى ساعتين أو أكثر بين نجاد ووهاد ، وتضيق الطريق أحياناً فى منحدر من الجبال يكاد الناظر إلى عمقه يغشى عليه من الخوف ، وربما اتسعت الطريق واستقامت ، وربما مررت هنا وهناك بربوة فسيحة فيها بعض مساكن لأهل هذه البقاع ، وقد تلقى فيها محلا تستطيع أن تتناول فيه ما يصلح زاداً للمسافر .

فإذا انتهيت مصعداً إلى المستشفى وجدت ربوة من الأرض تشرف عليها من كل جانب غابات متفرقة من أشجار ذات ألوان مختلفة وهضاب منثورة تكسوها أصناف شتى من أزهار الجبل ونباته ، وقد تراها يوماً مكسوة بالثلج

الأبيض المتجمد ، فإذا أشرقت عليه الشمس أخذ يذوب ، فتنحسر تلك الغلالة البيضاء رويداً رويداً عن وجه الأرض طيباً مشرقاً .

والمستشفى بناء متوسط الفخامة ، ونظيف كامل النظافة ، ومرافقه صحية ، وأسباب الراحة فيه موفورة ، ونزلاؤه وموظفوه متآنسون متقاربون يتبادلون بينهم مودة وتحية وسلاماً .

لا شك أن أخى مصطفى قد لقى فى هذه الحياة البديعة حظاً عظيماً من الراحة والطمأنينة ، فحسنت صحته ورضيت نفسه وانشرح صدره ، وكان لذلك أثره الظاهر فيما أخذ يتولى من أعمال يتسلى بها ويشغل بها نفسه .

فانصرف إلى تحبير مذكراته اليومية يودع فيها ذات نفسه ودخائل حياته وحوادث يومه .

صفحات من سفر الحياة

وفى هذه الأثناء بدأ يكتب مقالات « صفحات من سفر الحياة » ، وهى لمن تأملها تحكى إلى حد كبير قصته هو إذ تساوره هواجس الإصابة بمرض السل ، وإذ يخيل إليه أن مذاكرته هو سوف يكون أكثرها قابلا للإذاعة والنشر .

أما الحوادث التى ذكرها فى هذه المقالات وأشخاصها فهى مقتبسة من غير شك مما حدث له هو أو لبعض أصحابه الذين أكاد أعرفهم بأسمائهم وأشخاصهم اللهم إلا قليلا .

وفى أثناء اجتماعى به فى المستشفى قرأنا ما أحزننا من نعى المغفور له أحمد فتحى زغلول باشا فكتبنا معاً رثاء له نشرناه فى الجريدة بإمضاء الأخوين ، وكان رحمه الله صديقاً يبادلنا المودة .

عودته إلى الوطن

قامت الحرب التى يسمونها الحرب العالمية الأولى فى يولية سنة ١٩١٤ ، ومصطفى لا يزال فى المستشفى ، وأخذت جذوة الحرب تشتعل فى مملكة بعد مملكة ، وفى قارة بعد قارة ، وشمل الاضطراب والقلق جميع مرافق الحياة فى أرجاء العالم كله تقريباً ، وتعسرت وسائل الانتقال فى البر والبحر ، وضاقت أسباب العيش ، وامتلأت كل البلاد ذعراً وفرقاً ، وطار أكثر الغائبين عن بلادهم يلتمسون العودة ، وألح المصريون يستعجلون أقاربهم فى أوربا بالفرار إلى مصر قبل أن تنقطع بهم السبل . وكذلك خلت معاهد الدرس فى أوربا من المصريين إلا قليلا . واستطاع أخى مصطفى بشق الأنفس أن يجد له محلا فى سفينة حملته إلى مصر ، فوصل إليها فى الشهرين الأخيرين من عام ١٩١٤ .

وفى أخريات ذلك العام أعلنت إنجلترا أنها أدخلت مصر تحت حمايتها وعزلت الخديو عباساً الثانى ، وأقامت عمه الأمير حسين كامل بن إسماعيل سلطاناً على مصر ، وكان ذلك مما رجّ الإحساس السياسى بين المصريين ، وألهب قلوبهم غيظاً وألماً ؛ ولكن الحكم العسكرى يأخذ بألسنتهم ويربط أقلامهم .

توقف « الجريدة » عن الظهور

وكان حزب الأمة يصدر صحيفته اليومية « الجريدة » ، فلم يستطع يومئذ ، أو لم يرد ، أن يتابع إصدارها . وشعر جماعة من شباب مصر المنتسبين إلى حزب الأمة أو الموالين للجريدة ومديرها أحمد لطفى السيد أن « الجريدة » توشك أن تتوقف عن الظهور ، وشق ذلك على أنفسهم ، فنهضوا يتقدمهم أخى مصطفى يتدبرون الأمر رجاء أن يصلوا إلى تدارك ما يخافون من توقف « الجريدة » ، ولكن غلبتهم الظروف فتعطلت « الجريدة » نهائياً . وأبى أولئك الشباب أن

يقيموا بعد ذلك ساكتين ، فاتجهوا اتجاهاً جديداً ، ذلك أن صاحبنا الشيخ عبد الرحمن البرقوقي — عليه رحمة الله — كان يصدر يومئذ مجلة « البيان » ، فشكا من أن إصدارها قد أصبح يكلفه من أمره عسراً . وبدا للجماعة أن يتخذوها لأنفسهم شركة بين الأعضاء يتعاونون على إصدارها .

مجلة السفور

وطالت المفاوضة بينهم وبين المرحوم الشيخ البرقوقي فلم يتيسر لهم أن يتفقوا على رأى ، فانصرف رأى الجماعة إلى أن ينشئوا مجلة جديدة يصدرونها ، وكذلك ظهرت مجلة « السفور » ، فكانت إلى مدة طويلة لسان حال تلك الجماعة ومظهر نشاطهم . وكان أخى مصطفى يوالى الكتابة فى كل عدد من أعدادها تقريباً ، كما كان مع بعض الأعضاء يراقبون تحريرها وشيئاً من إدارتها . ولا شك أن مجلة « السفور » قد أحدثت رجة مذكورة فى القطر المصرى وفى غيره ، وأن اسمها « السفور » قد صدم الذوق العام ، وأثار حفيظة جمع كبير من دعاة الإصلاح الدينى الصادقين منهم والكاذبين ، فحسبوا أن جماعة السفور يدعون إلى الإلحاد فى دين الله ، بل لقد زعموا أن من ورائهم يداً قوية للمبشرين المسيحيين تحرضهم وتؤيدهم .

وكان من المصادفات الغريبة أن أكثر الذين نهضوا للكتابة فى « السفور » كانوا شباباً ذوى حظ من الثقافة العالية ، وفيهم نصيب كبير من سعة الفكر وسماحته ، فلا يضيق صدرهم برأى ولا يحاربون كل جديد لأنه جديد ، بل كان فيهم — فى واقع الأمر — مجددون لهم مذاهبهم فى استحداث أساليب فى الأدب العربى وفى استنباط بعض نظريات فى الحياة الاجتماعية وفى الدين وفى الأخلاق وفى غيرها .

وقد لقيت مدرسة « السفور » نجاحاً ملحوظاً ، وأخذت طريقها تتغلغل حثيثاً فى أرجاء البلاد . فكان ذلك يزيد خصومها حماسة ويلهب قلوبهم

غيظاً . ولم يستمر ظهور « السفور » إلا سنوات قلائل ، فقد ظهر العدد الأول من « السفور » فى ٢١ مايو سنة ١٩١٥ ، والغالب أن عدداً من أعدادها لم يخل من مقال لأخى مصطفى ، وكان آخر عدد ظهرت له فيه مقالة يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، وقد تولى هو فى حياته جمع هذه المقالات وتهيئتها للطبع ، ثم شغلت الجماعة بشواغل أخرى من شئون الحياة فافترقوا .

تعيينه فى مجلس الأزهر الأعلى

فى أوائل أكتوبر تقريباً سنة ١٩١٥ عين أخى مصطفى موظفاً فى مجلس الأزهر الأعلى، ولم يخل تعيينه فى هذا المركز من صعوبات ومن عراقيل . صاحب الرأى الأول والأخير فى هذا التعيين هو بلا شك السلطان حسين — رحمه الله تعالى .

صلة قوية بينه وبين السلطان حسين

كان السلطان حسين يعرف المرحوم الوالد معرفة متينة إذ كان هو رئيساً للجمعية الزراعية ، وكان الوالد — رحمه الله — من أعضائها الأولين . ثم كان السلطان حسين رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية ، فعرف فيها معرفة قوية أخانا حسن باشا عبد الرازق الذى كان سكرتير الجمعية ، وقويت الصلة بينهما ، فلما أصبح سلطان مصر اتخذه وكيل الديوان العالى السلطانى .

فى بعض أسفار السلطان حسين إلى فرنسا ، قبيل الحرب العظمى الأولى ، قابله أخى مصطفى فحل من نفسه مكان الحب والإعجاب والثقة ، واستمرت تلك الصلة بينهما فى مصر أيضاً ، حتى لقد انتدبته الأميرة قدرية — إحدى بنات السلطان — لترجمة كتاب لها من الفرنسية إلى العربية ، فقام بذلك . وقد طبع من الكتاب عدد محدود ، وكان عنوانه العربى « طيف خيال ملكى » .

أراد السلطان حسين — حين ولى السلطنة المصرية — أن يعين أخى مصطفى سكرتيراً للمجلس الأعلى للأزهر وللمعاهد الدينية ، وكان يشغل هذه الوظيفة يومئذ المرحوم عبد الغنى شاكر بك .

ويظهر أن رغبة السلطان حسين لم تلق قبولا حسناً لا بين الأزهريين ولا بين كثير غيرهم ، ولعل مرد ذلك إلى مقام مصطفى الظاهر بين جماعة السفور ، وإلى شيء مما كان يجرى به قلمه فى مجلتها ويزعمه المعارضون تطرفاً وإسرافاً ، ثم إلى ظاهرة أخرى فى حياته الخاصة ، فقد كان لا يتحرج من الاتصال بأصدقائه الأوربيين رجالا ونساء والأنس بهم ، كما يتصل بأصدقائه الشيوخ الأزهريين وغيرهم ويأنس بهم ، ولا يتحرج من غشيان بعض المجامع العامة أو إجابة الدعوة إلى بعض الحفلات الخاصة كما يتحرج المتزمتون والجامدون الذين يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

ثم لعل مرد ذلك أخيراً إلى أن المرحوم السلطان حسين كان فى أول أيامه فى السلطنة يعانى كثيراً من إعراض الرأى العام ونفوره ومعاندة رغباته . وإن كانت الآية قد انعكست فى أواخر حياته ، فقد استطاع — رضى الله عنه — أن يكسب محبة الشعب ويجذب نحوه القلوب ، فتوفى مرضياً عنه مأسوفاً عليه .

قامت عقبات فى سبيل تعيين مصطفى سكرتيراً للمجلس . وأهم ما ظهر من تلك العقبات أن هذا المركز لم يزل مشغولا بصاحبه ، وكان المخرج الذى الذى استطيع تدبيره حلاً مؤقتاً لهذه العقبات هو أن يكتب إلى أخى مصطفى جواب بتعيينه كاتباً للمجلس براتب قدره عشرون جنيهاً — وراتب السكرتير يومئذ خمسة وأربعون جنيهاً — وبأن يكون مبدأ عمله فى وظيفته يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩١٥ لمدة سنة تحت التجربة . ثم بعد أن كتب له الجواب طلب منه شفوياً أن يباشر عمله ابتداء من ٤ أكتوبر لمدة شهر مجاناً .

وقد هم مصطفى بأن يرفض هذا التعيين ، لولا أنه وثق بأن فى قبوله مجاملة كبيرة للسلطان حسين تطيب بها نفسه ويرضى لها ضميره .

أصبح بيته ندوة علم وأدب

وبعد فترة قصيرة أقيل عبد الغنى بك شاكر من عمله ، وحل محله أخى مصطفى . واستطاع أخى مصطفى خلال عمله بالسكرتارية أن يصل حبال التعارف والتآلف بينه وبين كثير من الأزهريين ، وأن يكسب قلوب كثير منهم ، وأصبح (بيت أولاد عبد الرازق) فى مصر مثابة لوفودهم ، يجتمعون فيه كما يجتمع فيه غيرهم من أصدقاء العائلة وزوارهم ، وفيهم المسلم والمسيحى والعربى والعجمى والرجال والنساء . وبذلك صار بيته ندوة فى القاهرة يقصدها أهل العلم والأدب من أهل مصر ومن الوافدين عليها من غيرهم ، ويدور الحديث فيها ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، حول أطراف من الدين أو الأخلاق أو الفلسفة أو السياسة ، ومن الجد والهزل وبلسان عربى وأعجمى .

لا جرم أن هذه الندوة قد أمدت النهضة المصرية بلون طريف من العلم والأدب ، وأظهرت بين المصريين طائفة ذات طابع خاص من الثقافة يمتزج فيه القديم بالحديث ، وتتألف عنده الفلسفة والدين ، وتتفتح فى رحابه آفاق البحث ، وتنطلق تحت ظلاله مذاهب الفكر . ولا شك أن أخى مصطفى كان — من حيث يريد أولا يريد ، ومن حيث يدرى أولا يدرى — هو مدار هذه الحركة وقطبها .

استغضب فى مجلس الأزهر الأعلى فغضب واستقال

فلا غرو أن يكون قد تعرض من أجل ذلك لأنواع شتى من المكاره ، وأن يكون عمله فى الأزهر لم يخل من منغصات الأزهريين ومكايدهم ، ومن منغصات غير الأزهريين أيضاً . حدث مرة فى أثناء جلسة من جلسات المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية أن كان الأعضاء يتناقشون من موضوع من المواضيع ، ورأى أخى مصطفى أنهم فى حاجة إلى مزيد بيان فى هذا الموضوع

وأن عليه — وهو سكرتير المجلس — أن يبين لهم ما يحتاجون إلى علمه ، فأراد أن يتكلم فيه ، فلم ينشب أحد الأعضاء أن هبّ فى وجهه هبة عنيفة فيها زجر وغلظة ، ونهاه أن يتكلم لأنه لاحق له فى أن يشترك مع الأعضاء فى الحديث ، فثارت نفسه غضباً ، ولكنه — رحمه الله — كان صبوراً حليماً ، فتمالك نفسه ، واستأذن فى الحال رئيس الجلسة فى الخروج ، فخرج وعيناه تفيضان من الدمع ، فكتب استقالته من السكرتارية وأرسلها إلى الرئيس وذهب إلى بيته . ولكن المسألة سويت بعد ذلك بما أرضاه ، حين تداخل فيها حسين باشا رشدى رئيس الوزراء بإيعاز من السلطان حسين فى أغلب الظن .

فى الجمعية الخيرية الإسلامية

وفى سنة ١٩١٦ اشترك فى الجمعية الخيرية الإسلامية عضواً عاملا ، وفى سنة ١٩٢٠ انتخب عضواً بمجلس إدارتها ، ولم يزل يتجدد انتخابه فى مجلس الإدارة إلى سنة ١٩٤١ ، حيث انتخب وكيلا لرئيس الجمعية ، ثم انتخب رئيساً للجمعية فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٦ بعد وفاة رئيسها المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وبقى فى رياستها إلى أن توفى إلى رحمة الله .

الجامعة الشعبية

فى أواخر سنة ١٩١٧ أنشأ رجل من أهل السويد اسمه پروزدر ، كان موظفاً فى صندوق الدين بمصر ، جمعية صغيرة اختار لعضويتها صفوة من شباب المصريين والأوربيين ليدبروا ما أسموه جامعة الشعب ، وكان من أظهر أعضائها أخى مصطفى ، والغرض منها إلقاء محاضرات عامة لتثقيف الجمهور ، ورفع مستوى الشعب العلمى . وقد لبّى دعوة هذه الجامعة ثلة من أهل العلم ألقوا فيها محاضرات قيمة . ولقيت هذه المحاضرات رواجاً عظيماً ، فأقبل على استماعها جموع كثيرة . وقد ألقى فيها أخى مصطفى محاضرات كثيرة.

فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى التى نشبت

فى يوليو سنة ١٩١٤ — كما سبق — وأعلنت الهدنة بين الأمم المتحاربة ، وأخذ الجانب الظافر يفاوض الأمم المغلوبة فى شروط الصلح . والجانب الظافر هو جانب الإنجليز وحلفائهم ، والجانب المغلوب هو الألمان وشيعتهم من الترك وغيرهم .

بداية ثورة المصريين سنة ١٩١٩

وقد كان انتصار الإنجليز خيبة أمل فاجعة للرأى العام المصرى الذى كان يرجو أن تنتهى هذه الحرب بخروج الإنجليز من مصر .ومن أجل ذلك وحده كان يرجو أن ينتصر عليهم الألمان ، لا حباً للألمان ، ولكن بغضاً للإنجليز ، وميلا عاطفاً إلى الترك . خاب ذلك الأمل الذى كان قوياً يزيده تقدم الألمان ونجاحهم قوة ورسوخاً . فلما انهارت فجأة معاقل الألمان وحصونهم انهارت كذلك آمال المصريين ، لولا أن شعاعاً جديداً من الرجاء طلع عليهم من سماء أمريكا ، حين أعلن المستر ولسن — رئيس الولايات المتحدة الأمريكية — مبادئه الأربعة عشر التى جعلها أساس الصلح بين الدول المتحاربة ، فتعلقت بالرئيس ولسن الآمال التى تعلقت من قبل بالإمبراطور غليوم عاهل الألمان ، وتحولت شطر واشنطن الوجوه التى كانت تولى شطر برلين . وانتقل الرئيس ولسن إلى باريس ، حيث يجتمع المؤتمرون لوضع قواعد الصلح ، يحمل معه أطناناً من المستندات السياسية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية ومن مباحث علم الشعوب ووفوداً من أهل العلم وذوى الرأى . . . الخ . إذن فى باريس ، وبين أيدى أولئك المؤتمرين ، معقد الرجاء للمصريين ومناط آمالهم . فى خلال ذلك كله أخذت المشاعر السياسية فى مصر تنتبه من سباتها ، وأخذت قلوب المصريين تغلى حنقاً على الإنجليز وغيظاً ، وعاطفة الوطنية تلهبهم نشاطاً وحماسة ، وتشملهم صغاراً وكباراً ، نساء ورجالا ، فظهرت الأحزاب السياسية ما بين قديم منها وجديد ، ونشطت من عقالها جماعات كانوا لا يتحركون .

وكان من ذلك أن تألف الحزب الديموقراطى ، وأكثر رجاله كانوا من جماعة « السفور » وشيعتهم . لا جرم أن أخى مصطفى كان فيهم عضواً بارزاً وعاملا مرموقاً . ثم تألفت جماعة سعد باشا زغلول ، وجماعة الأمير عمر طوسن وغيرهم . قامت جميعها أحزاباً متمايزة . ولكن حزب سعد باشا زغلول — وتؤازره وزارة حسين باشا رشدى — أخذ يقوى ويتسع حتى غطى أو كاد يغطى على كل جماعة غيره . بيد أن الحزب الديمقراطى لم يشأ أن يندمج بسهولة فى حزب سعد باشا ، إذ وجد فى نفسه من القوة ووفرة النشاط وكثرة الأنصار ما يهيئه لأن يبقى قائماً بنفسه يمضى فى سبيله ويواصل العمل لغاياته . وقد حصل أن سعد باشا زغلول شرع يؤلف الوفد الذى يسافر إلى أوربا فى صحبته للدفاع عن قضية مصر والسعى فى تحقيق آمال المصريين ، فأرسل إليه الحزب الديمقراطى جماعة من أعضائه ، فيهم أخى مصطفى ، يطالبونه بأن يختار فى وفده الذى يؤلفه من يكون ممثلا لشباب الحزب الديمقراطى.

وقد جرى بينهم يومئذ وبين سعد باشا شىء من الحوار كان فيه شدة وكان فيه لين ، ولكن يظهر أن سعد باشا رأى أخيراً أن يعترف بالحزب ، وأن يجيب طلبه ، فعرض أن يأخذ أخى مصطفى عضواً فى الوفد الذى يؤلفه . وكانت تقاليدنا نحن عائلة عبد الرازق تقتضى يومئذ أن نجتمع فى مثل هذه الشؤون لتقرير الرأى فيها ، فاجتمعنا ، وبعد بحث طويل وتشاور استقر الرأى على ألا يدخل مصطفى عضواً فى الوفد ولا يسافر . وأظن أن سبب ذلك يرجع إلى بعض اعتبارات عائلية ، وربما اقترن ذلك بشىء من عدم الاطمئنان إلى صدق هذه الحركة التى استأثر بها سعد باشا زغلول .

هذه الحركة الوطنية الثائرة التى حفزت قلوب المصريين جميعاً ، وهذه الرجة الفكرية التى أوجدها الحزب الديمقراطى ، وهذه الحياة الزاخرة بالنشاط

التى يحياها أخى مصطفى ، كل ذلك وظروف أخرى غير قليلة ، أوغرت على أخى مصطفى صدر الملك فؤاد الأول الذى ولى سلطنة مصر بعد السلطان حسين ، والذى كانت علاقته من قديم بأخى مصطفى علاقة رضا وتقدير ، ولكنه أنكر منه تلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية .

وبناء على ذلك صدر قرار من مجلس الوزراء فى ٤ — ٩ —١٩٢٠ ، بناء على رغبة السلطان فؤاد طبعاً . بتعيينه مفتشاً بالمحاكم الشرعية ، لإبعاده عن الأزهر ، وحرمانه الاتصال برجال الأزهر الذين كانوا يومئذ يؤيدون الثورة تأييداً كبيراً . وقد كتبت يومئذ فى مذكراتى ما نصه :

« سمعت بعزم الحكومة على ذلك القرار منذ أيام ولم أعرف بعد السبب فى ذلك ، وأرجح أن . . . . غضب على أخى مصطفى ، ولم يرض بموقفه فى مسائل البلد وحوادثه السياسية ، فنقله من سكرتارية مجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية ، حيث هو حر لا يسرى عليه قانون الموظفين ، وحيث هو فى مركز قد يكون ذا أثر كبير ، إلى حيث تقيده الوظيفة ويقل أثره . وليس لمصطفى علم بالمحاكم الشرعية ، ولا هو من مذهب القضاة الشرعيين ، ولا مناسبة بينه وبين عمل التفتيش ، ولكنى مع ذلك نصحت له أن يقبل الوظيفة اعتقاداً أنها محنة لا تلبث أن تزول إن شاء الله » .

ذهب أخى مصطفى إلى إدارة المحاكم الشرعية يباشر فيها عمل المفتشين الشرعيين ، وكان نصيبه من العمل بالطبيعة ضئيلا ، لا يأخذ من جهده ولا من وقته إلا قليلا ، وقد مكن له ذلك أن يوسع دائرة نشاطه العلمى والأدبى ، فانصرف إلى الكتابة والدرس ، كما مكن له من توسيع دائرة نشاطه الاجتماعى فى شتى الأوساط من أزهرية ومدنية وأوربية ، دينية وغير دينية ، وأحياناً سياسية .

زواجه

وفيما بين شهرى يولية وأغسطس من سنة ١٩٢٢ . تزوج أخى مصطفى من إحدى بنات عمنا المرحوم أمين عبد الرازق . تم عقد الزواج فى أبو جرج وهو غائب فى مصر . وكان شقيقنا المرحوم حسن باشا عبد الرازق كتب ينصح له بأن يتزوج وأن يختار الزوجة التى يريدها ليتولى هو إتمام ما يريده ، فكان جواب أخى مصطفى أن أرسل إليه توكيلا رسميا يفوض له فيه أن يختار له الزوجة التى يرضاها وأن يعقد له زواجه بها . فاختار له أخونا حسن بنت عمه تلك وزوجه منها وهو غائب . ومن المؤكد أن مصطفى كان يميل فعلا منذ أمد أن يتزوج منها ، وأن أخى حسن كان من بعيد قد فطن إلى ذلك منه أو من غيره .

اشتراكه فى ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده إلى الفرنسية

وفى خلال هذه الفترة اشتغل أخى مصطفى مع صديقه الأستاذ ميشيل برنارد فى ترجمة رسالة التوحيد للمرحوم الشيخ محمد عبده من العربيه إلى الفرنسية وقد طبعت هذه الترجمة فى سنة ١٩٢٥ بباريس .

يظهر أن عمله فى التفتيش الشرعى كان يسير سهلا عاديا على طريقة « الروتين » الحكومى ، ليس فيه ما يلفت النظر أو يثير ملاحظة ، ولا أجد فيه ما قد يستحق الذكر ، إلا حادثاً حصل فى سنة ١٩٢٤ ، فقد سافر أخى مصطفى بإجازة خارج القطر فى صيف هذه السنة قضاها فى أوربا .

مخالفته لبعض لوائح الحكومة

فلما عاد منها إلى عمله لاحظت وزارة الحقانية أنه قد تأخر سبعة أيام أكثر من الإجازة التى يستحقها والتى صرح له بها ، وأراد الوزير أن يتخذ ضده الإجراآت الرسمية التى تقضى بها لوائح الحكومة فى مثل هذه المخالفة ،

وأقل جزاء لها أن تخصم من راتبه تلك الأيام . وكان عذره هو أنه لما أراد العودة وجد أن أماكن السفر فى السفن قد شغلت جميعها مقدماً حتى لم يستطع أن يجد له محلا فيها بعد جهد إلا فى الموعد الذى عاد فيه . وطال الأخذ والرد فى هذا الموضوع بين وزارتى الحقانية والمالية ، وبينه هو وبين الوزير ، وصمم هو على أن يرفض أى نوع من الجزاء كبيراً أو صغيراً ، وأعد استقالته من وظيفته إن لم يكن ما يريد . وكذلك انتهى هذا النزاع بأن المسألة كلها طويت طيًّا وذهبت نسياً منسيًّا .

انتقاله إلى جامعة القاهرة أستاذاً مساعداً

وفى أواخر عام ١٩٢٧ عرض عليه أن ينقل من تفتيش المحاكم الشرعية إلى وظيفة أستاذ مساعد للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة . ولقد كنت من الذين ترددوا كثيراً فى الرضا له بهذا المنصب ضنًّا به أن يخوض غمار التدريس ، وهو فى تقديرى مضطرب بعيد الأرجاء عميق الأغوار ، يكلف السالك فيه جهداً مضنياً ، وقلما يصل به إلى غاية تكافئ ما فيه من مشقة وعناء.

أما هو فكان أميل إلى القبول وأدنى إلى الانشراح له ، وكذلك قبل . وقرر مجلس الجامعة نقله من أول نوفمبر سنة ١٩٢٧ ، ولكن مسألة تقدير مرتبه وتعيين درجته كانتا موضع بحث طويل ، انتهى باستصدار قرار من مجلس الوزراء فى ١٨ يناير سنة ١٩٢٨ بتعيينه بمرتب قدره ٧٢٠ جنيهاً سنويا من تاريخ نقله للجامعة ، وذلك على ربط الدرجة الثالثة .

ولا شك عندى فى أن إقدامه على قبول التدريس بالجامعة قد كان يومئذ مخاطرة من جانبه مخشية العواقب عليه وعلى صحته ، ولكنى لا أشك الآن فى أنه قد كان ملهماً فى ذلك وموفقاً إلى طريق الخير والرشاد . . فإنه لم يلبث أن أخذ سريعاً يشق سبيله فى معترك التدريس بنجاح وتفوق أحلاه فى الوسط الجامعى محلا مرموقاً .

أسباب نجاحه فى التدريس

وأخذت تتجلى مواهبه التى هيأت له أن يكون مثلا أعلى لأستاذ الجامعة ، تلك المواهب التى كان عمله فى غير مجال التعليم الجامعى يلقى عليها ظلالا تكاد تخفيها . وكذلك تفتحت له مناهج الحياة مستقيمة سليمة ، وأخذ هو يتدرج فى مراقيها ناجحاً موفقاً بإذن الله .

النجاح فى هذه الحياة الدنيا من الظواهر التى يحير العلماء أن يحيطوا بأسبابها الحقيقية . ومهما ذهبت فى إدراكها الظنون فلا بد أولا وآخراً من تفويضها إلى الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . بيد أن هنالك ما قد يبدو لعقولنا أنه من الأسباب التى يهيئها الله لمن يريد أن يكون من الناجحين . وقد توفر لأخى مصطفى كثير من تلك الأسباب التى رشحته لأن يكون أستاذاً ناجحاً .

شغفه بالقراءة

كان رحمه الله يحب القراءة حبًّا يكاد يغطى على كل هواياته ، فهو لا يفتأ يقرأ فى جميع حالاته . وقد كنت أعجب له إذ أراه يقرأ وهو فرح أو حزين ، غاضب أو راض ، مريض أو سليم ، كلما تيسرت له القراءة . وهو الذى علمنا أن نقرأ ونحن نقطع الطريق مشاة بين بيتنا والجامع الأزهر فى مطلع كل صباح قرابة ساعة، وفى مساء كل يوم كذلك . وقد خصص هو هذه الفترة لحفظ بعض المختصرات العلمية التى جرت عادة المجدين من الأزهريين بحفظها عن ظهر قلب ، كما استخدمها لحفظ ما يروقه من الشعر والنثر وقد حفظ منهما كثيراً . ولهذه المناسبة أذكر أنه حفظ من فنون العلوم الأزهرية متن أبى شجاع فى فقه الشافعية كما حفظ أو كاد متن المنهاج أيضاً ، وحفظ فى النحو متن الأجرومية وألفية ابن مالك ، وفى علوم البلاغة كان يحفظ قدراً كبيراً من متن التلخيص ، وفى العروض والقافية منظومة

الصبان ، وغير ذلك فى العلوم الأخرى . أما الذى حفظه فى آداب اللغة العربية فقد يعسر حصره . ولكنى أعرف أنه كان — كما سبق القول — يروى أكثر شعر المتنبى ، وكذلك يروى أكثر شعر البحترى ، وشعر الحماسة لأبى تمام . وكان من رأيه أن يقيد فى كراسات عنده ما يروقه من الشعر بيتاً أو بيتين غالباً ، ويداوم مراجعته . وقد حفظ فى صغره كثيراً من شعر البهاء زهير ، وكتب بحثاً فيه ونشره .

وأما النثر فقد قرأ منه مقامات الحريرى وحفظ أكثرها ، ومقامات البديع الهمذانى ، ومقامات الزمخشرى وحفظ منهما ، وكتاب الحصرى « زهر الآداب » .

أما القرآن فقد حفظ منه فى الكتاب كثيراً من صغار السور ، ولكنه اتباعاً لنصحية الأستاذ الإمام داوم منذ صباه على أن يقرأ عقب صلاة الصبح وصلاة العصر من كل يوم قدراً من القرآن يبلغ ربعين أو ثلاثة . فإذا ما صام فرضاً أو نفلا فعادته على سنة المرحوم الوالد أن يديم تلاوة القرآن . وكان فوق ذلك كثير الرجوع إلى القرآن فى جميع مباحثه العلمية والدينية أو الأدبية. لا جرم أنه قد وصل من العلم بالقرآن إلى درجة الحافظين الدارسين .

ويبدو لى أن ملكة الحفظ عنده لم تكن من القوة بحيث تستمسك بكثير مما يختزن فيها ، وليس ذلك غريباً ، فإن ملكة الحفظ فيما لاحظت تضعف كلما قويت ملكة الفكر والبحث ، وكأنما هما كالليل والنهار ، إذا طال أحدهما فعلى حساب الآخر !

شغفه باقتناء الكتب

وكان من نتيجة شغفه بالقراءة — كما قلنا — أنه صار مشغوفاً باقتناء الكتب وجمعها ، لا يدخر فى ذلك مالا ولا جهداً . وهو الذى رتب فى بيت عبد الرازق مكتبة آل عبد الرازق ، فاختار لها غرفاً رحبة من الدار أحاطها بدواليب الكتب ، فرتبها ، ووضع فيها المناضد ، والمكاتب ، والأوراق ، وجمع

فيها ما تفرق عند كل واحد منا من الكتب ، وما خلفه الآباء من قبل .

ثم كان يواصل إمدادها بما يستحدث من الكتب ، وما يشترى ، حتى صارت مكتبة كبيرة من المكاتب المعدودة فى القاهرة . وقد رتبت ترتيباً حديثاً ، ووضعت لها الفهارس الجامعة .

عضو فى مجلس إدارة دار الكتب المصرية

وكان يتتبع باهتمام حركة التأليف والنشر ، لايكاد يفوته كتاب منشور ، ويعنى كذلك بالكتب المخطوطة والنادرة، لايبالى ما ينفق فيها من مال ، وما يكلفه تفحصها من جهد . وبذلك أصبح واسع الاطلاع فى هذا الباب حجة فيه . ولذلك اختير عضواً فى مجلس إدارة دار الكتب المصرية شطراً كبيراً من حياته .

فهذه الصلة التى توثقت بينه وبين القراءة والمطالعة ، وشغفه بالكتاب والدرس ، قد هيأته لأن يكون أستاذاً فى الجامعة يملأ كرسيه ويقوم بين إخوانه مقاماً عالياً .

ومما تسهل ملاحظته للمتأمل أن جل كتبه ومباحثه العلمية كثيراً ما تذكر فيها مراجع متنوعة من كتب وفنون شتى على وجه يدل دلالة ظاهرة على سعة اطلاع وإحاطة شاملة .

منهجه الخاص فى التعليم

ذلك ، وقد كان له أسلوب خاص فى التعليم الجامعى لا يكاد ينهجه غيره من الأساتذة ، خصوصاً فى مصر . فالتعليم عنده لم يكن مجرد إلقاء الدرس على الطلاب وتلقينهم إياه ، ولكنه عبارة عن صلة عقلية ينشئها بينه وبين طلابه ، فهو يشركهم معه فى بحث الموضوعات واستخراجها من مظانها ، وفى مناقشة المسائل وفهم النصوص وتحرير الآراء . وهو فى كل ذلك يراجعهم ويراجعونه ، ويعينهم ويعينونه . وكلهم لكلهم أساتذة ، وكلهم لكلهم طلاب !

وهكذا يصير درسه عبارة عن مجتمع تتقارب فيه الأرواح وتتآلف فيه النفوس ، وتنبث فى جنباته عواطف الصدق والإخلاص . وبهذا المنهج الجامعى كان — رحمه الله — يربى طلبة يحبهم ويحبونه ، وينشأون على ما عودهم إياه من سنن العلماء وآدابهم ، ومن الجد فى طلب العلم لذاته والمثابرة عليه .

والواقع أنك لا تكاد اليوم تجد أحداً من طلابه الذين تخرجوا على يديه إلا وهو يحفظ له ذكراً جميلا ويكنّ له حبًّا صادقاً واحتراماً وإخلاصاً .

وإنك لتكاد تميز بين الأجيال الأخيرة من رجال الجامعة من كانوا من طلابه بما تلمح فى آثارهم وأعمالهم من نفحاته وتوجيهاته وطريقته . وطريقته هذه فيها من غير شك لمحة مما شاهده فى جامعتى باريس وليون ، وما عرفه عن بعض الجامعات الأوربية الأخرى ، من توثيق الرباط بين بعض الأساتذة وبعض الطلبة ، حتى يوجهوهم التوجيه العلمى القويم ، ويراقبوهم فى تطورهم فلا يضلون . ولكن ليس كل الذين شاهدوا هذا المنهج الأوربى وعرفوه ، كما شاهده هو وعرفه ، بل أكثر مما شاهده هو وعرفه ، قد استطاعوا أن يحتذوه كما استطاع هو أن يحتذيه . بل إننى لأستعرض فى نفسى أسماء الذين عرفت ممن أتموا دراستهم الجامعية فى أوربا من المصريين ، ثم تولوا التدريس الجامعى فى مصر بعد ذلك ، فلا أكاد أعد منهم إلا قليلا جدًّا قد ساروا على نحو هذا المنهج أو قاربوه . والسبب فى ذلك واضح ، فطبائعه التى جبل عليها ، وأخلاقه التى اكتسبها وعاداته التى استقرت فى حياته . كل ذلك لاءم بين نفسه وهذا المنهج وقارب بينهما ، فأحبه وأعجب به ، فصار ما فيه من صعوبة سهلا ، وما فيه من عسر يسراً ، وما فيه من مرارة عذباً سائغاً .

تعيينه أستاذاً للفلسفة

ولم يكن إلا قليل حتى غدا بين طلاب الجامعة أستاذاً يحبهم ويحبونه ، ويأوون من حدبه عليهم وبرّه بهم وإخلاصه لهم إلى أب رحيم وأخ كريم .

وبعد برهة خلا كرسى أستاذ الفلسفة فى جامعة القاهرة فلم يختلف أصحاب الشأن فى اختياره له ، ومنح لقب أستاذ الفلسفة فى أول اكتوبر سنة ١٩٣٥ ، ومنح رتبة البكوية من الدرجة الثانية فى ٢ فبراير سنة ١٩٣٧ .

عين وزيراً للأوقاف

وفى أبريل سنة ١٩٣٨ دعى المغفور له محمد محمود باشا لتأليف الوزارة ، فاختار أخى مصطفى وزيراً للأوقاف ، تولاها فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ إلى يونية سنة ١٩٣٨ . ثم أعيد تأليف وزارة محمد محمود فى ٢٥ يونية سنة ١٩٣٨ ، فبقى هو فيها وزيراً للأوقاف مرة ثانية إلى ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٩ . ثم تألفت وزارة حسن باشا صبرى فى ٢٨ يونية سنة ١٩٤٠ فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة ثالثة . وفى سنة ١٩٤٠ صدر مرسوم بتعيين عشرة أعضاء جدد من بينهم أخى مصطفى، فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية زيادة على أعضائه الموجودين من قبل ، وكانوا عشرين عضواً يوم أنشئ المجمع فى سنة ١٩٣٣ فزيدوا فى سنة ١٩٤٠ إلى ثلاثين عضواً . ثم تألفت وزارة حسين سرى باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ ، فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة رابعة لغاية ٣١ يولية سنة ١٩٤١ ثم سقطت وأعيد تأليفها فى اليوم نفسه، فدخل وزارة الأوقاف مرة خامسة إلى ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ .

منحه رتبة الباشوية فى سنة ١٩٤١

وفى سنة ١٩٤١ منح رتبة الباشوية . وكتب إليه لهذه المناسبة صديقه المرحوم محمد كرد على هذا الخطاب :

« سيدى الأخ الحبيب

وقع توجيه رتبة الباشاوية عليك موقعاً حسناً فى قلب الدانى والقاصى . وتساءلت عما تكون حالة الأستاذ فى مظهره الجديد ، وهو الذى ما كان يرضى

عن التلقب بالشيخ بديلا ، وقلت :

ها قد اتصل القديم بالحديث ، وجمع أخى بين العظامى والعصامى ، فطاب الأصل والفرع .

والمهم فى هذا الباب ألا تقيد إخوانك بلقب الباشا كل حين. تطلق لهم حرية التلقيب ، ولو إلى أجل مسمى . من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا . وهذا لا يضيرك ما دام لقب شيخ يولى الملقب به صفة رجل دين ، ولقب باشا يومى إلى أن صاحبه رجل دنيا ، والرجل كل الرجل هو الذى أسعده الله فى الدارين وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا !

إذا تقرر هذا فلا حرج على من يلقبك فى المجالس الخاصة بلقب شيخ ، حتى إذا كنت فى الأندية الرسمية خاطبوك بالباشا ، وبالنعت الأول يذكرونك بمجدك القديم ، وبالثانى بمجدك العظيم . اعمل هذا ولا تبال الناقدين ، فأنت تذكر مالقى شقيقك على بك من مرارة التخلى عن لقب الشيخ ، وكيف ندبه ورثى العمامة . وتفضل واسأله هل يعاقب القانون من يسبقه لسانه إلى تلقيب مخاطبه عن غير عمد بما لا ينطبق على ما يرضيه من كل الوجوه . فقد شهدت خصومات شديدة نشبت بين أناس أطلقوا على صاحبهم لقب « أفندى » ، وهو يحرص على أن يخاطبه قومه بلفظ « بك » . وعندى أن ليس ما يمنع من إتباع لفظ الباشا بشيخ أو الشيخ بباشا . وإن قل ذلك فى مصر ، فالملقب أيضاً قليل أمثاله فى المصريين ، هذا على شرط أن تنبه على الحافين بك من أتباعك وخدامك ألا يلوموا من يغلط من أحبابك عند ما يقول لك يا شيخ ، فإن عادة اعتدتها أنا معك ثنتين وثلاثين سنة مثلا يصعب على نزعها بين عشية وضحاها ، خصوصاً والشيوخ مثلى هم من المحافظين على الأغلب ، وحافظتهم قد تخونهم ، وليست كذاكرة الشبيبة والكهول .

هذه مشكلتك بالباشا مع نفسك ومع الناس . بقيت مشكلة أخرى تحتاج

أن يبت فيها فى حدود العقل ، وأنا المستهدف لها أكثر من غيرى فيما يستقبل من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية ، هذا إذا انفسح الأجل وشهدت جلساته ، وإلا فالاجتماع فى جنة المأوى عند سدرة المنتهى. فى علمك أيدك الله أنه كان فى الأعضاء القدامى «باشاوات» فأصبحوا اليوم بمن ضموا إليهم من إخوانهم الحدث ثمانية ، عدد «أبواب الجنة» ، وربما لا يطلع فجر العام المقبل حتى يصبحوا عشرة مبشرة باللغة وأدبها . اللهم زد وبارك فيغدون نصف الأعضاء من ساداتنا المصريين فى هذا المجلس العلمى . فماذا تكون معهم حال أتاوى مثلى يا ترى ؟ وهو ما تشرف حياته برتبة ولا تحلى بلقب ، وقصاراه من دنياه أن تتكرم عليه أرضه بلقب « سيد » ، كلمة تطلقها على راعى البقر وراعى البشر سواء !

الله يحب الحق ، إن روعة لقب باشا دونها كل روعة فى الألقاب ، على نحو ما كان فى الغابرين لقب شهاب الدين ، وكل لقب كان فيه « الدين » . ومهما قيل فى ثقل ظل بعض من يطلق عليهم لقب شيخ فإنه ينطوى على معان جليلة محببة إلى القلوب . أما كلمتنا التى استأثرنا بها وهى السيد فما زلت أقلبها علىّ ألمح فيها ما لفقوا لها حتى أخرجوها عن أصل معناها ، وأخذوا منها معنى السيادة ، فلا أهتدى إلى وجه مرضى فى التعليل . ويؤلمنى أن أسجل هنا أن السَّيِّد كَكَيِّس هو المسنّ من المعز ، أى التيس والجمع تيوس !

والغالب أن واضعى اللغة كانوا يوم إيجادهم معنى التشريف للسيد فى ظرف كالظرف الذى وضع فيه المجمع اللغوى لفظ « فنان » لأرتيست ، والفنان فى الأصل « حمار الوحش » . وغفر الله لأخى الجارم كم حرص على إقرار هذه اللفظة حتى خشيت يومئذ إذا لم يقر المجمع كلمته ، أن ينتهى الأمر بحدوث أزمة مجمعية كما تحدث ، وقاك الله الأزمات الوزارية ! ورأيته مغتبطاً لما وافقه إخوانه على إطلاق حمار الوحش على المصورين والمصورات ، والشاعرين والشاعرات ، والمسمعين والمسمعات ، والراقصين والراقصات ، وما أدرى هل كان بينه وبين هذه الفئة الجميلة طائلة من الطوائل ، وعهدى به

ابن الشعر وربيب الأدب غير مطعون عليه فى سلامة ذوقه ! ألتمس عفوك لإشارتى إلى معان كان الأولى أن أصون كتابى عن التعرض لها . ولكن هل نحن رعاك الله ، إلا فى صدد مجمع لغوى ، ولا حياء فى الدين ولا فى اللغة . وأسأله تعالى أن يجنبنا مصارع السوء ، دعاء أدعو به فى كل ممسى ومصبح ، منذ قرأت ما قاله أحد علماء الأمراض العقلية من أن ثلاثة أشياء تورث الجنون : العشق ، والتعمق فى اللاهوت ، والبحث فى أصول اللغة !

وسلام عليك وعلى رصفائى المشايخ منهم والباشاوات » .

وقد رد أخى مصطفى على هذا الخطاب بما يأتى :

« حضرة صديقى الجليل الأستاذ محمد كرد على بك .

حياك الله بأحسن تحياته . أما بعد ، فقد تشرفت بكتابك الذى يحمل إلى التهنئة برتبة الباشوية ، وأسارع أولا إلى شكرك ، وكم لك عندى من عواطف ود تستحق الشكر منى وتستحق الثناء . ثم أبادر إلى الإجابة عما تساءلت عنه من حالى فى مظهرى الجديد . ولو رأيتنى لما رأيت مظهراً جديداً ، فإننى لا أزال شيخاً معمماً يؤكد أسباب شيخته اشتعال الرأس مشيباً ، ولا يهولنك يا صديقى ما تقدر من روعة اللقب ، فما تخفض الألقاب حراً ولا تُسمى ، على حد قول الباشا البارودى . وإذا كنت لم تنل رتبة فى حياتك ، ولم تتحل بلقب كما تقول ، فإن لك من آثارك العلمية ما يحيط اسمك العظيم بهالة دونها كل الألقاب والرتب ، أما المجمع اللغوى فهو يذكرك كلما عن له بحث طريف أو أدب شريف ، فإذا بحث فى أصول اللغة تجنب أن يذكرك ، ما دمت تخاف من البحث فى أصول اللغة . وكلنا نذكر عهدك بأحسن الذكريات ، ونحييك بأطيب التحيات » .

ثم تألفت فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، وزارة أحمد باشا ماهر ، فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة سادسة . وتألفت على إثرها وزارة محمود فهمى النقراشى وبقى فيها إلى أن عين شيخاً للجامع الأزهر فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

وكان دخوله الوزارة أول حادث تاريخى من نوعه ، إذ لم يسبق لشيخ أزهرى قبله أن ولى الوزارة فى مصر ، وطالما كانت تغريه ظروف الحياة بأن يخلع العمامة ويتخذ اللباس الأوربى ، كما فعل كثير غيره من قبل ، ولكنه أبى كل الإباء أن يخلعها ما دام فى مصر .

تعيينه شيخاً للجامع الأزهر

ولقد أقيمت فى سبيل تعيينه شيخاً للأزهر عقبات مستندة فى ظاهر أمرها إلى قانون الجامع الأزهر . أما فى باطن الأمور فردها من غير شك إلى أن الأزهريين — ولا أعنى جميعهم، وإنما أعنى جماعتهم الذين مردوا على النفاق — قد نفسوا عليه ذلك المقام الذى تتعلق به أرواحهم وتنتهى إليه آمالهم وأبصارهم ، وكلهم ورم أنفه أن يخرج هذا الأمر من يديه ، فحاصوا حيصه عارمة ، وحاولوا أن يشعلوها فتنة طاغية ، يتصايحون باسم القانون ، ويخلطون معه اسمى الخلق والدين ، ولا خلق ولا دين !

كان قانون الجامع الأزهر يقضى بأن يختار شيخ الجامع الأزهر من هيئة كبار العلماء ، ولا يعين فى هيئة كبار العلماء إلا من تكاملت فيه شروط عديدة ، أن يكون العالم الأزهرى قد تولى وظائف معينة فى القضاء الشرعى أو التدريس مدة معينة فى بعض المعاهد الدينية ، ولم يكن هذا الشرط متحققاً فى أخى مصطفى ؛ إذ لم يكن قد باشر التدريس فى الجامع الأزهر إلا فترة قليلة . أما المدة التى تولى فيها التدريس بالجامعة المصرية فكانت طويلة ، وكانت جديرة بأن تهيئه ليتولى مشيخة الأزهر ، لولا أن قانون الأزهر قد نص صراحة على اشتراط أن يكون التدريس فى الجامع الأزهر خاصة . من أجل ذلك رأى أولياء الأمر إصدار تشريع جديد يقضى بأن يكون التدريس فى الجامعة مساوياً للتدريس فى المعاهد الدينية فى الترشيح لمشيخة الجامع الأزهر .

وهكذا انحل الإشكال القانونى الذى كان السبب الظاهر للمعارضة ، وكان علالة الناقمين . وكان صدور هذا القانون بموافقة البرلمان كافياً فى إخضاع الداعين إلى الفتنة ، فخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همساً . ولم ينقطع همس أولئك الناقمين ، بل مضوا يتخافتون بالفتنة ، ويبيتون دسائسهم ، ويدبرون مكايدهم التى أتقنوا صنعتها ، ويغرون به السفهاء ، ويضعون فى سبيله العراقيل .

وقد جاء فى مذكرات المرحوم محمد كرد على ، نقلا عن المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ما نصه :

« حدث عقب توليه مشيخة الأزهر أن عزت إليه جريدة الموند الباريسية حديثاً اتخذ منه خصومه آلة للنيل منه . وخلاصته أن فرنسا أحرزت مكاناً ممتازاً بما بذلت من الجهود الكريمة فى نشر الثقافة بين المسلمين ، ورجا أن لا تتخلى عن خطتها لتحتفظ بالحب الذى يكنه لها العالم الإسلامى . فقامت صحف مصر والشام تغالى فى تزييف رأيه فى مدح فرنسا ، واتفق أن أهدته حكومتها فى غضون ذلك وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير ، فزاد ذلك فى الطين بلة . وأغلب الظن أن الأستاذ الأكبر لم يتعارف إلى هذا الوسام ، وما عبأ بتكذيب ما نقل على لسانه من حب المسلمين فرنسا » — ا هـ . وفى الحق أنه كان — رحمه الله — يأخذ خصومه الأزهريين وغير الأزهريين بما جبل عليه من الأناة والاحتمال وجميل الصبر وحسن الحيلة .

اختياره أميراً للحج

لم يمض عليه حول كامل فى مشيخة الأزهر ، حتى اختير أميراً للحج ، فخرج لأدائه فى ٢٨ أكتوبر سنة١٩٤٦ . ولبث فى رحلته تلك شهراً واحداً وأياماً ، وعاد منها فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٤٦ . فأخذ يعالج من شؤون الأزهر ما يعالج شهرين اثنين ونصف شهر .

ولعله قد استطاع بعد لأى أن يمهد لنفسه شيئاً فشيئاً بين دسائس الأزهريين

مواقع خطوه، وأن يرسم مناهج الإصلاح الذى كان يرتجيه للأزهر والأزهريين.

ولكن الأزهريين لا يريدون لأنفسهم ولا لأزهرهم خيراً ولا صلاحاً ، فما انفكوا يوصدون كل باب يفتح لإصلاحهم ، ويتربصون الدوائر بكل من تحدثه نفسه بأن يرتجى لهم الخير والإصلاح . بل لعل الله جلت حكمته قد قضى ولا راد لقضائه بألا يتم للأزهر ولا للأزهريين خير ولا إصلاح .

فنى يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧ ، ذهب إلى الأزهر كعادته ، فدبر من عمله ما دبر ، ثم رأس جلسة المجلس الأعلى للأزهر إلى ما قبل العصر ، ثم عاد إلى منزله فتغدى ونام القيلولة ، ثم استيقظ فتوضأ وصلى ، وأخذ يلبس ثيابه ، فشعر بإعياء وهبوط ، فأوى إلى فراشه ، ودعى الطبيب من قريب لإسعافه فحضر ، ولكنه وجد قضاء الله قد نفذ ، ولا مرد لقضاء الله .

وفى أصيل اليوم التالى صلى عليه فى الجامع الأزهر ، ثم دفن بمقابر الإمام الشافعى ، بالمدفن الذى بناه المرحوم الوالد فى حياته ، وجعل فيه مقبرة للرجال وأخرى للنساء . وقد هيأنا لجثمانه موضعاً فى مقبرة الرجال ، حيث يرقد بجوار المرحومين الوالد والأشقاء حسن وحسين ومحمود، تغمدهم الله برحمته ورضوانه .

لو جمعت رسائل التعازى ، وما كتب فى رثائه ، لملأت مجلدات ضخمة عديدة، وفى الحق أنها جديرة بأن تجمع ، لأن أكثرها من غير شك خليق بأن يدخر مثلا من أمثلة الأدب الجميل ، فضلا عما تحتوى من تسجيل لتاريخ الفقيد وشمائله وأعماله ، ولكن جمعها يحتاج إلى عصبة أولى قوة ، فضلا عن أن ذكراه لا تزال تتجدد عاماً بعد عام ، فتتجدد التعازى فيه والمراثى .

وقد أقيم لتأبينه حفل فى الجامعة المصرية بتاريخ ٢٧ مارس سنة ١٩٤٧ تناول الخطباء فيه جوانب التاريخ المختلفة من حياة الفقيد ، فأردت أن أثبت هنا ما ألقى فى ذلك الحفل ، فربما كان فيه تدارك ما فاتنى ذكره ، وتفصيل لبعض ما أجملت ، ولكن لم يتيسر لى جمع تلك الخطب والمراثى جميعها

فبعضها فيما يظهر لم ينشر ، وبعضها نشر مفرقاً فى جرائد مختلفة ومجلات ، لذلك اكتفيت بنشر ما يتيسر لى جمعه منها .

وكذلك أقيم لتأبينه حفل فى مدينة المنيا ، لم أجد مما ألقى فيه إلا أثراً واحداً أو اثنين .

على عبد الرازق

صفحات من سفر الحياة *

١

هذا هو عنوان كراسات بخط صديقى المرحوم الشيخ حسان عامر الفزارى (١) دفعها إلى وهو يجود بنفسه ، وأوصانى أن أصون سرها سنين ثلاثاً ، ثم أنشر منها على الناس قطعاً وضع عليها علامات بخطه ، وأتبع ذلك بطبعها جميعاً فى كتاب مستقل .

خليلى المأسوف عليه شاب نشأ فى بيت من البيوت الطيبة بمديرية بنى سويف ، بيت محفوظ الحرمة ، بالرغم مما أصابه من الفقر بعد الغنى ، وقد تعلم فى الأزهر وانتفع فيه بدروس المرحوم الشيخ محمد عبده ، ثم دخل مدرسة دار العلوم ونال شهادتها ، وكان منذ صباه ممتازاً بذكاء وافر وذوق مصقول وولع بالدرس وشهوة إلى المعرفة ، وكانت دائماً آماله كبيرة وهمته عالية ونفسه شماء .

كان أحد « باشاواتنا » الكرام يعرف الشيخ حسان ويقدر تفوقه الطبيعى ، ويحترم فضله وأدبه ، ويرجو لمصر خيراً على يديه .

قال له يوماً — وهو حديث عهد بإتمام دراسته فى دار العلوم — : « ياشيخ حسان ! قد لا تجهل مكانك عندى وعظم رجائى فيك ، وإنى لأرى لك أن تقضى فى أوربا بضع سنين تنضج فيها مواهبك العقلية ويتسع بها المجال

---

* الجريدة — القاهرة فى السبت ٧ جمادى الثانية ١٣٣٢ ، ٢ مايو ١٩١٤ .

(١) الشيخ حسان الفزارى شخصية خيالية محضة وإن كان الكاتب يلقى عليها أحياناً بعض ظلال من شخصيته هو .

بين يدى طموحك العلمى وتفيدك فى إحساسك وإدراكك وتجاربك ، وعندى لك ما ينبغى من النفقة حتى تستكمل حظك من البقاء هناك » . فتحركت فى نفس الشيخ حسان الرغبة فى الكمال ، وتحركت معها حماسة العزة التى يفيض بها شباب أبىّ .

قال الباشا — وهو يروى لى هذا الحديث — : عندئذ رأيت فى أسارير الفتى الحساس ملامح ألم تصاحبها بشاشة العرفان للجميل ؛ ثم أجاب بصوت تنتابه هزة يفسرها ما كان يبلل تلك النظرات الزكية الحية من قطرات تكاد تسيل : أشكر للباشا الكريم نخوته وعنايته بخيرى عناية والدٍ بارّ ، وأتلقى ما يعرضه علىّ بأحسن ما تلقى به مروءة شريفة عالية . كأن سعادتك تتطلع إلى ما فى أعماق صدرى من أمنية يقوم بها نزوع نفسى ، ويقعد بها ضيق ذات يدى .

ثم فكرت فى أن أذهب إلى أوربا ثقة بأن الغرب خطا بالعلم خطوة كبيرة ، وأننا أصبحنا عيالاً عليه فى نهضتنا ، فلا غنى لنا عما عند القوم من مدنية وعرفان ، واشتغلت بقليل من اللغة الفرنسية مع صاحب لى من تلاميذ مدرسة الحقوق استعداداً لهذا الغرض ، ولكن العقدة المالية هى التى تحلل من عزيمتى .

يا سيدى الباشا : إنك عندى بمكانه الوالد حباً واحتراماً ، ولكن فى نفسى أنفة لا أستطيع أن أليِنها ، فإن شاء الباشا أن يخادعها معى فعل ، وما كان ذلك لينقص من قيمة نعمته ، بل هو يعليها ويغليها . أرجو أن يأذن لى الباشا فى أن أجعل كل ما ينفقه فى سبيل تعليمى ديناً أكتب به صكا ، ثم أؤديه متى فرغت من حياتى المدرسية واتخذت للكسب سبيلا .

وقد كان من لطف الباشا فى كرمه أن طيب عزة الشاب وجعل له ما سأل .

كنت أتمنى لو أن الباشا أذن لى فى نشر اسمه حتى يعرف له الناس حقه من شرف الإحساس وكرم النفس ، ويشكروه معى ومع صديقى المرحوم الشيخ حسان الذى فاض آخر نفس من أنفاسه يحمل فى تضاعيفه الراجفة اسمه الكريم .

حرم على الباشا أن أبوح باسمه ، وسأقف عند رغبته وإن كنت أحسب أن القراء سيفهمون أى رجل فى مصر يمكن أن يكون هكذا لطيف الإحساس عند أريحية الكرم .

جاء الشيخ الفزارى إلى فرنسا عام ١٩٠٩ ، وأقام فى بار يس عاكفاً على الاستفادة من دروس السربون وحسن المراقبة لكل ما يمر به فى وسطه الجديد ، يسكن إلى زاوية من شارع سان جاك ، ويعيش واصلا ليله بنهاره فى العمل ، حتى لقد كان من يعرفه من الطلاب المصريين اثنين .

فى شهر مارس من عام ١٩١١ أصيب صديقى المرحوم بروماتيزم فى الضلوع ، فجئنا له بأحد أصدقائنا من طلاب مدرسة الطب ليداويه ، ولم يلمح ذلك الطبيب الشاب بوادر الخطر .

دخلت فى عشية يوم ٢١ مارس إلى حجرة الشيخ فاستقبلنى كعادته بسام الثغر ، من غير أن يكون فى نظراته المفكرة تهلل سرور ، ورأيت بين يديه كراسات دفعها إلىّ قائلا :

كتبت فى هذه الأوراق خواطر وملاحظات ووقائع خاصة بحياتى وحوادث عامة ، وقد كانت عزيزة عندى تلك الصحف التى تحفظ تذكار مسراتى وأحزانى وخواطر طفولتى وشبابى ، وما أظنها خلواً من فائدة ، لأنها حقائق لم يلعب بها هوى . وقد اخترت لك منها أجزاء تنشرها بعد ثلاث سنين ، لتختبر حكم الرأى العام فيها ، ولتسترعى الأنظار إليها ، ثم اطبعها فى كتاب ، واجعل ما يأتى من ربحها إلى فلان باشا أداء لدينه . وأعطانى ورقة فيها مفصلات ذات الدين .

أخذت من صاحبى ما أعطانى ، وحاولت أن أصرفه عن هذا الحديث مخافة أن يهيضه إلى ما به . ولم يقبل الليل حتى استطالت يد الآلم إلى القلب ، فخرجت نفس الفتى فى زفرة هادئة .

دفنا الشيخ حسان عملا بوصيته فى مقبرة بيرلاشيز ، بين تلك الأزهار

الباسمة فى ما يفيض حولها من دموع .

فى يوم ٢٢ مارس من هذا العام، عام ١٩١٤، ذهبت إلى قبر صديقى العزيز أحمل باقة من الورد وأحييه بمناسبة مضى العام الثالث من موته ، ووقفت ساعة إلى جانب صاحبى أستعيد تذكار الأوقات الحلوة التى كنت أقضيها معه ، وأندب زهرة شبابه التى ذبلت عند متهلل الربيع ، وهنالك ذكرت عهد الشيخ حسان إلى من صحائفه .

وها أنذا أنشر منها على الناس ما أشار بنشره فى سلسلة مقالات .

ولا شك عندى فى أن القراء سيعرفون لتلك الصحائف موقعها من دقة الملاحظة ولطف الأسلوب ، وسيقبلون عليها إقبالا يضمن لها الرواج الذى يشجعنى على الإسراع بطبعها ، تحقيقاً لأمنية صاحبها المرحوم وتخليداً لاسمه الجدير بالخلود .

باريس

٢

يوم ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣١٩*

قال لنا الشيخ المفتى [١] البارحة فى درس دلائل الإعجاز وذكر صناعة الإنشاء وتهاون الأزهريين بها ما يأتى :

« باطل ما يقولون من أن ملكة البيان سهلة التحصيل هينة الخطر وأنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا ويكتبوا فيجيدوا .

لا وربك ، إنهم لأعجز شىء عن أدنى مراتب البلاغة ، وإن أدمغتهم

---

* الجريدة — القاهرة فى يوم الخميس ١٢ جمادى الثانية ١٣٣٢، ٧ مايو ١٩١٤ .

(١) يريد بالشيخ المفتى المرحوم الشيخ محمد عبده ، وتلاميذه يعرفونه غالباً بهذا الاسم ، كما كان الشيخ رشيد رضا صاحب المنار يلقبه بالأستاذ الإمام — الناشر .

المحشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته ، ولكنها خلو من ذوق البيان ، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة . تلك علالات يخدعون بها أنفساً ضعيفة ، فلا تسمعوا لهم ، واعلموا أن فن الإنشاء فن عزيز المنال شريف الفائدة .

قضيت فى تعلم الإنشاء خمسة عشر عاماً ، وما أظن أن ملكة كاتب تنضج فى أقل من هذا الزمن مع حسن الاستعداد والأخذ بجد فى تحصيل الوسائل والإكثار من التمرين .

اقرأوا كتب الأدب ، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر ، وحركوا أفكاركم وخيالاتكم ، وهزوا ألسنتكم وأقلامكم .

إن أحدكم ليستطيع أن يجعل لكل يوم صحيفة يقيد فيها ما يمر به من الخواطر والملاحظات ، وما يسترعى نظره من الحوادث ، أو يقص فيها ما عمله فى يومه .

ولهذه الطريقة فوائد جمة ، لأنها فوق نفعها فى تمرين ملكة الإنشاء ، تحمل الإنسان على مراقبة نفسه وتصفية حسابها فى منتهى كل يوم » .

هذه الكلمات التى سمعتها من الشيخ المفتى البارحة هى التى تحملنى على أن أسرع منذ الآن فى كتابة صحف يومية أضمنها ما له شأن فى نفسى من حوادث اليوم .

* * *

فرغ من نحو أسبوع ما كان عندى من عسل وجبن ، ولم تصلنى الدراهم التى أنتظرها من والدى ، فأنا أتبلّغ بجرايتى التى أتناولها من وقف أوتوزبير طعاماً من غير أدم .

جاشت إلى النفس أول مرة ، وحسبت هذا العيش الخشن لا يكفى لقوام بنيتى ، ولكننى ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطوى الحجر على بطنه من الجوع ، وأن مثل ابن الخطاب – رضى الله عنه – كان يكتفى فى كثير من حياته ، وهو أمير المؤمنين ، بخبز أغلظ من خبزى

المصنوع من مخبز الرمالى ، فذلت نفسى لما وطنتها عليه ، ووردت على مكروهها فاستقرت .

وبينما أنا فى حجرتى أصيل اليوم ، إذ دخل علىّ الشيخ قاسم ، وهو رجل أرتجى بركة دعائه واليمن بوجهه ، وإن كنت لا أقبل شهادته[1]، سلم فجلس فقال : جئت لأتعشى معك يا شيخ حسان .

قلت : مرحباً وأهلا .

ثم نهضت إلى كتبى ، فاخترت منها سفراً لم يذهب تناول الأيدى رونق جدته ، وكان هو كتاب « حاشية الدسوقى على أم البراهين » ، وذهبت إلى دكان الحاج صالح ، فابتعت رغيفاً بمليمين ، وطحينية بأربعة ، وزيتوناً بأربعة أخر ، وقدمت الكتاب رهناً حتى أملك أداء دينى .

غضب الرجل وقال : هل صرنا خواجات يا شيخ حسان ؟ وهل ذهبت الأمانة من دار الإسلام ؟ لاحاجة بى إلى رهن ، ولست أخاف منك المطل عند القدرة ، خذ إليك كتابك ! ودفعنى بلطف .

سرت إلى دارى متأثراً بمروءة الحاج صالح إلى حد جعلنى أكفكف من دمعى حياء من أن يرانى الناس باكياً .

تناولت العشاء مع ضيفى الشيخ قاسم الذى انصرف بعد ذلك وهو يدعو لى بالستر .

وأخذت أرتب أمتعة لى ، فعثرت فى جيب صديرى لم أكن لبسته من زمن على قرش صاغ . عرفت أن تلك كرامة من الشيخ قاسم ، وأسرعت إلى الحاج صالح أروى له الحكاية وأفيه دينه .

باريس — مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

---

(١) إشارة إلى كلمة مروية عن أبى أيوب : «من أصحابى من أرجو بركةدعائه ولا أقبل شهادته » — الناشر .

٣

٩ من ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ *

تقام فى بيت شيخ الرواق حفلة ذكر ليلة الجمعة من كل أسبوع يحضرها كثير من المجاورين وبعض العلماء ، ولم يكن من عادتى أن أذهب إلى تلك الليالى ، لأننى لست كثير التردد على الشيخ ، ولكننى أزوره حيناً بعد حين منصرف درس الفقه صبح الخميس . أدخل عليه فى مجلسه العادى قبالة الباب ، وبيده سبحته لا تفارق يده . أصافحه وأجلس عن يمينه إلى الدكك المرتفعة المطبقة بجدر المكان ، فيصيح : يا أبا سيف ، هات قهوة .

ثم تتحرك شفتاه ، وتدور السبحة فى يمينه ، حتى إذا انقضت دقائق التفت إلىّ غير باسم كدأبه ، وقال : أوحشتنا .

أقول : الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ .

وبعد ساعة ينظر إلىّ جهتى مرة أخرى قائلا : أوحشتنا .

— الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ .

ويأتى أبو سيف بالقهوة ، فيقطع الشيخ تسبيحه لحظة ، ويقول لى : تفضل ! فأقول : الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ .

وبعد أن أشرب فنجان القهوة أنتظر وقتاً يكرر الشيخ تحيته : أوحشتنا ، وأكرر أنا : الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ . ثم أستأذنه فى الانصراف ، فيمد إلى الأستاذ يمينه وسبحته قائلا لآخر مرة : أوحشتنا . وأجيب مسرعاً إلى الباب : الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ .

قال لى أمس الشيخ جاد : إن الشيخ محمود الصعيدى حضر لزيارة

---

* الجريدة — القاهرة فى يوم الأربعاء ١٨ جمادى الثانية ١٣٣٢ ، ١٣ مايو ١٩١٤ .

سيدنا الحسين – رضى الله عنه – وسينشد هو بنفسه فى حلقة الذكر .

ولما كنت أحب السماع ، وكنت أعلم بالتواتر أن ذلك المنشد هو بلبل الحلقات – كما يسمونه – فقد أسرعت قبيل العشاء إلى دار الشيخ .

وبعد أن صلينا جماعة انتظمنا عقداً محور دائرته الحاج على أبو يابس ، الذى كان يدير الحلقة ، وابتدأنا الطبقة الأولى جلوساً على هيئة التشهد ، نهبط برؤوسنا إلى الأرض ، موقعة حركاتنا البطيئة المرتبة على صيحاتنا الواضحة البسيطة بهذا الذكر : الله . الله .

وأخذ المنشد يهتف بنغمات متشابهة : مآدد . مآدد .

ثم وقف مدير الحلقة ووقفنا ، وانتقلنا إلى طبقة ثانية نهتز يمنة قائلين : أه أه الله ، ونهتز يسرة قائلين أيضاً : أه أه الله . وأخذت النغمات الساذجة التى كان يرددها الشيخ محمود الصعيدى من غير تنويع تؤلف لحناً موسيقيًّا ، وجلعنا نستمع أنات ابن الفارض الغرامية موقعة توقيعاً إن فاتته مهارة الصناعة لم يفته جمال الصوت ولا حسن البديهة . وبعد ساعة حمى وطيس الذكر ، فأخذنا نهز رؤوسنا هزًّا سريعاً متوالياً تصاحبه صيحات : الله اللى . الله اللى .

وعلا صوت المنشد ، واشتد ، فدوى صريخاً رناناً غير متمايز النغم ، وصرنا من نشوة الذكر وحماسته بحيث ترتج بنا جوانب المكان ارتجاجاً ، ولم يعد من نفوسنا المملوءة بحرارة الهزات العنيفة والصرخات العاتية موضع للطرب بصياح الشيخ الصعيدى : منى لحبك منى . أرضى ما تمنى . . .

ثم أوقف الحاج على أبو يابس رحى الحلقة ساعة ليستريح الذاكرون ، فتسربت من خلال الصفوف مجهوداً مصدوع الرأس آسفاً على ما أضعت من ليلتى .

أعوذ بالله أن تكون من دين الفطرة تلك الهزات المضطربة وذلك الهدير تفيض به الحناجر . ولوددت أن أولئك المساكين إذ لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه نفعاً لأجسامهم ، فنظموا حركاته على وجه يمرن

عف لاتهم العاملة حتى يصير نوعاً من الألعاب الرياضية المفيدة ، وحتى يمكن أن يلتمس له من الوجهة الدينية شبهاً بالرمى والوثب على الخيل ، وقد ندب إليهما الشارع صلى الله عليه وسلم وكثير من صحبه من بعده .

كلا إنهم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الإنسانية ونظامها ، وتشوش التناسب فى النمو بين أعضاء البدن ؛ وإنك لتعرف المدمنين على تلك الأذكار بعلامات لا تختلف ، إذ تغلظ رقابهم وتندلق بطونهم وتربو أسافل ظهورهم . . .

باريس — مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

٤

٢٠ محرم سنة ١٣٢٠*

بعد أن تلقيت درس الحساب فى جامع المؤيد على أحمد أفندى عبد البر [1] انصرفت إلى مسكنى لآكل لقمة قبل أن أذهب إلى درس الشيخ المفتى ، وبينما أنا فى الكحكيين ، غير بعيد من مقام سيدنا الشيخ الدردير — رضى الله عنه — لمحت شيخنا السيد محمد عبد[2] . . . متلفعاً كعادته بردائه ، واضعاً دفيته على رأسه ، يسير أمامى تتبعه سيدة رابية الجسم . أسرعت إلى الشيخ وحييته ، فالتفت إلى السيدة وقال : قبلى يد الشيخ حسان واسأليه دعوة صالحة ، إنه رجل مبارك .

* الجريدة — القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٥ جمادى الثانية ١٣٣٢ ، ٢٠ مايو ١٩١٤ .

(١) أحمد أفندى عبد البر هو أستاذ المرحوم الكاتب فى علم الحساب فى جامع المؤيد .

(٢) الشيخ محمد عبد . . . شخصية حقيقية ، وهو من أساتذة المرحوم الكاتب فى علم النحو ، وكان عالماً ذكياً ورجلا صالحاً لا يبالى بالمظاهر ، وكان مزواجاً مطلاقاً .

لففت يمينى فى جبتى وناولتها للسيدة التى أنحت عليها تقبيلا . وتلك أول مرة تلقت فيها قبلة يمينى ، لذلك عرانى إحساس غريب من منظر تلك الشفاه الجميلة يندى بها ما يحيط بيدى من صوف الجبة ، ولم يكن فى السيدة شىء جميل إلا شفتاها تنحدر سفلاهما بقليل من الضخامة ، وتصعد الأخرى بلطف ، فينفرجان عن أسنان كالبرد . لا يخلو من لذة ما كان ينفصل إلى يدى من حر النفس مبللا بالريق ، وما كان يتصل بأذنى من صفير القبل ، ومع ذلك فقد كنت أراه وضعاً مؤلماً غير طبيعى أن تنحنى شفاه امرأة لتقبل يداً من أيدى الرجال .

انطلقت أدعو للسيدة بأن يفتح الله عليها ويبارك فيها .

ثم قال لى الشيخ : تعال معنا إلى دكان الشيخ سعيد المأذون الشرعى لتحضر طلاقها — وأشار إلى صاحبته — عسى أن تنالها بركة حضورك .

عندئذ عرتنى دهشة ، وقلت : لم تريد أن تفارق زوجتك يا سيدنا الشيخ ؟

قالت السيدة : سله يا عمى الشيخ حسان : هل قصرت له فى حق ؟ هل كان منى إليه ذنب ؟هذا حجرى وهذا طرفى .

أخذ الشيخ بيدى وقال : هى ولية طيبة ، وما أنكرت منها شيئاً منذ صحبتها ، وقد قضيت معها ثلاثة أشهر فى غاية الانبساط . . .

وهنا قاطعته زوجه قائلة : سامع يا عم الشيخ حسان ؟

ثم استمر الشيخ قائلا : غير أنها لم تحمل فى هذه المدة ، وما أريد بالزواج إلا تحقيق مادعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم من قوله : « تناكحوا تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة [1]» .

قالت المرأة المسكينة ، وهى ترتعد حنقاً وحزناً : إننا قضينا معاً ثلاثة

---

(١) بهامش الأصل بعد هذه الكلمات بين خطين : « وما أظن ابن عبد الله — عليه السلام — يريد أن يباهى الأمم بما يقذفه صلب سيدنا الشيخ ».

شهور ، كنا فى الشهر الأول منها أكثر عناية بإرضاء الحب فى ذاته من أن نفكر فى صنع أولاد .

ثم مرض الشيخ شهراً ، ولم يكد يبل حتى أصابت أخاه علة قضى منها نحبه ، فشغلنا بمرض أخيه وموته عما يؤاخذنى اليوم به .

صاح الشيخ عند هذه الكلمات مخاطباً صاحبته : أتظنين أن ثلاثة أشهر لا تكفى لحمل زوجتى مهما كانت الظروف ، وما انتظرت امرأة بالحمل عندى أكثر من خمسة عشر يوماً ؟

هنا لمحت عند متصل الكحكيين بشارع الباطنية الفتاة « زكية » بنت صاحب البيت الذى أسكن فيه ، فناديتها لأرجوها أن تحمل إلى الدار ما لا حاجة لى به من الكتب ، وكنت محملا كتباً . جاءت متهللة لعوباً مملوءة بمرح الشباب وبهجته ، فجعل الشيخ يرنو إليها ، ثم قال : ما شاء الله كان . أهى قريبتك يا حسان ، تلك الشابة التى عليها سيما الصلاح . وصدق الشيخ فإن الصبية جميلة !

قلت : لا ، يا سيدنا الشيخ ، إنها بنت ربة البيت الذى فيه حجرتى .

فهمس فى أذنى أن أسألها إن كانت تريده زوجاً .

قلت للفتاة : إن سيدنا الشيخ يخطبك يازكية ، فأنفذت إلىّ نظرات يخالط حياءها كبر لم تذله روعة الزواج والطلاق ، وقالت : وهل يريد شيخك أن يتزوجنى فى الشارع ؟ قل له يكلم (ماما) . . .

كان الشيخ استرق السمع ، فلم ينتظر أن أنقل إليه جواب الصبية ، بل جعل يهزّ إليها رأسه ويقول : إن شاء الله ، ربنا يتمم بخير .

أخرجت الغيرة وقتئذ رفيقة الشيخ من سكونها ، فأخذت تقول لزكية : لا تتزوجى هذا الرجل المطلاق ، ولا تجعلى عصمتك أيتها الشابة فى يد لا حرمة عندها للعصم . إنى أنصحك مجربة ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة .

استشاط الشيخ غضباً وغيظاً من هذه الكلمات ، وصرخ فى حليلته بصوت

قوى : إنك لتقولين إفكاً ، ولا يصدقك أحد فى أننى مطلاق ، والله ما طلقت فى حياتى كلها إلا ثمانى نسوة ، ويمكنك أن تسألى الشيخ سعيد المأذون والشيخ المباشر والسيد أحمد الجندى[1] وجميع علماء الأزهر الشريف .

إننى لم أعمل قط مثل ما عمل الشيخ بكر[2] الذى ذهب مرة إلى الصعيد فتزوج من بوش ، وكان نزل بها ضيفا ، ثم فى بنى مزار ، وتزوج فى أسيوط ، وعاد إلى القاهرة بعد أسبوع مطلقاً هذه وهذه وتلك . ثم خفض الشيخ من صوته ، وكنا دنونا من محل المأذون الشرعى فى الباطنية .

جلسنا ووقفت السيدة ، ودعا المأذون محمد الشامى العرقوسى ليشهد معى على الطلاق ، ثم رفع الشيخ يمينه وأشار إلى زوجته وهى تنتحب قائلا : أنت طالق ثلاثاً لارجعة لك .

وبعد ساعة أتم المأذون كتابة ورقة الطلاق وسلمها للمرأة التى انصرفت تصرخ فى الأستاذ: سيسألك الله عما انتهكت من ضعفى وحرمتى لقوتك وشهوتك. ثم أشار إلىّ أستاذنا وقال: هلم بنا ياحسان إلى صاحبة بيتك لنكلمها فى بنتها .

قلت باسماً : أكرمك الله يا سيدنا الشيخ ! إننى أشفق عليك أن تلقى الله بعظيمتين فى يوم واحد : طلاق وزواج .

كان الشيخ سعيد المأذون ناول علبة نشوق للشيخ ، وكان هذا قبص منها قبضة حشا بها منخريه ، حتى إذا سمع مزاحى تهلل بالضحك وجهه وهتفت به خياشيمه وحناجره ، فسال غبار من النشوق إلى بلعومه ومجرى نفسه . أخذت أشداقه تنفرج عن غلاصم متهيجة ، وهبط لسانه من فمه ، وصار زفيره

---

(١) السيد أحمد الجندى : شخصية حقيقية وكان فى ذلك التاريخ ملحقاً بوظيفة يقال لها جندى الأزهر .

(٢) الشيخ بكر شخصية حقيقية .

المكتوم فى حلقومه يخرج هديراً كحشرجة الصدور ، وجعل يرفس الأرض برجليه .

أما أنا فليط بى الأرض من الهلع ، وأما الشيخ سعيد فجعل يقرع بقبضته فى أعلا ظهر الشيخ ضرباً وجيعاً كنت أرى المسكين يتلوى منه غير قادر على تفريج كربه بصيحات الألم . وكان محمد الشامى أحضرنا ذهناً وأصوبنا رأياً : بادر إلى دكانه القريبة منا ، وعاد يحمل سطلا من العرقسوس قبض عليه أستاذنا وعبّه عبّاً ، حتى إذا استشفه نظر إلينا نظرة المستريح وقال : الحمد لله . والله إنه لعظيم هذا العرقسوس . ثم نظر فى ساعته وكانت الساعة ١٢ عربى إلا ربعاً ، فلبس مركوبه وهرول إلى زاوية الشيخ عبد العليم ليتهيأ لصلاة المغرب ، وأخذت سمتى إلى الرواق العباسى لأحضر درس الشيخ المفتى .

باريس مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

٥

١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٢٣ *[1]

كتب أحد إخوانى من المجاورين فى المؤيد رسالة يقترح فيها على الناهضين بإنشاء ناد للمدارس العليا أن يجعلوا لعلماء الأزهر وكبار طلابه حق الانتساب فى سلك أعضائه رجاء أن يكون فى مجاورة الأفندية للشيوخ إزالة الجفوة الموجودة بين العنصرين المكونين للطبقة العلمية فى مصر ، أعنى طلاب المعاهد الدينية

* الجريدة — القاهرة فى يوم الأربعاء ٢ رجب ١٣٣٢ ، ٢٧ مايو ١٩١٤ .

(١) نتبع فى نشر صحائف المرحوم الشيخ حسان الترتيب الذى رسمه لنا بنفسه وهو لم يعتمد دائماً تسلسلا زمنياً يقدم متأخراً ويؤخر متقدماً فى التاريخ — الناشر .

وطلاب المدارس النظامية ، إذ ينظر كل فريق إلى صاحبه نظرة سخط لاتغضى عن عيب ولا ترى حسناً .

سمعت من ع . بك . س . أنه كان مع جماعة من أصدقائه فى باريس فأثنى على شيخ طالب هناك . عندئذ صاح الباقون من البكوات : إنما هو أزهرى ، وسيبقى شيخاً ما عاش ، ولو قضى حياته كلها فى أوربا .

وكنت مرة فى دار الشيخ هـ . فقرظت علم أستاذنا . ر . أفندى ، فقال الحاضرون من الشيوخ — وكانوا عدداً — : هل يستطيع أستاذنا العالم أن يستخرج أوجه البسملة من أبيات الشيخ الأجهورى :

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا . . .

قلت : إنه خير مؤرخ وجغرافى فى مصر ، فضحك زعيم القوم ملء أنفه ، وقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر .

هكذا يحكم المدرسيون على الأزهريين وينظر الشيوخ إلى أبناء المدارس ، وقد أراد صاحبى باقتراحه أن يداوى داء عضالا يصل شره إلى نهضتنا العلمية نفسها .

لكن غارة شعواء ثار غبارها حول هذا الاقتراح حتى كتب افندى فى الجرائد يقول ما معناه : إن السماح للأزهريين بدخول نادى المدارس العليا شر لا خير فيه لأن عشرة المجاورين على ما بهم من قلة العناية بالنظافة وعلى ما فى أوساطهم الأولى من الضعف مخوفة العاقبة على شبان المدارس . وقد سألت عن ذلك الكاتب فتبين لى أنه ليس من ذوى الحسب المعروف ولا هو مشهور بين إخوانه بنظافة الثوب . على أن الغرض المقصود من الاقتراح ذهب سدى فى أثناء جدال غير نافع وبقى المتعلمون فى مصر أفندية وشيوخاً .

لو أمكن اعتبار الأزهريين رجال كنيسة إسلامية فوقف دورهم فى الحياة الاجتماعية عند حدود المظاهر الدينية ، وأمكن اعتبار المدرسيين علماء الدنيا حتى لايدخلوا فى الشؤون الدينية بيد ولا رجل ، لو أمكن هذا ، لهان الخطب ولما

كان لتنافر هؤلاء إلا أثر طبيعى فى حال الأمة . لكن أبناء المدارس يأبون إلا أن يحملوا مع راية العلم الدنيوى لواء الدين ليكونوا زعماء الدنيا والآخرة . وإنك لتجدهم أسرع الناس إلى الرمى بالإلحاد والكفر ومحاربة النزعة العلمية الحرة[1].

أما رجال المعاهد الدينية فهم أيضاً لا يقنعون بأن يكونوا حملة القرآن ورواة السنن بل يريدون أن يكونوا هم العلماء من غير قيد ولا حد . وكذلك تصدم حركتنا الفكرية الناشئة بهذا التشويش الغريب .

أما أنا فالذى يسترعى نظرى بوجه خاص هو أمر الانقسام الأخلاقى الواضح فى فتياننا من أثر التربية المدرسية والتربية الأزهرية . وأرجو أن يأتى يوم غير بعيد يخلص فيه شبابنا العلمى من حدة الأفندية وضعف الشيوخ ليتزينوا بالشمم والتواضع .

باريس مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

٦

٥ ذى القعدة سنة ١٣٢٣*

ذهبت إلى الشيخ المفتى أزوره فى دار الإفتاء الجديدة بشارع الدواوين ولم أكن رأيته من يوم أن ترك الأزهر .

دخلت إليه فى تلك القاعة الكبيرة عن يمين الداخل إلى الدور العلوى فوجدت مجلسه حاشداً بكبار الشيوخ ورؤساء الموظفين فى الأزهر يخيل إلى الناظر إليهم أنهم يفيضون إخلاصاً للرجل وودًّا وبينهم كثيرون يعلم الله ويعلم الشيخ عبده نفسه أنهم أشد الناس عداوة له وشماتة فيه . كان الشيخ متشاغلاً

---

(١) رحم الله الشيخ حسان ! إن الذى كتبه من عشر ستين لا يزال غير بعيد عما نحن عليه اليوم — الناشر .

* الجريدة — القاهرة فى يوم الأربعاء ٩ رجب ١٣٣٢ ، ٣ يونية ١٩١٤ .

بأوراق بين يديه يراجعها ، فلما لمحني قام إلى وأحسن تحيتى ، وأدنانى منه حتى زدت حياء على مابى من تهيب طبيعى .

أخذ يسائلنى عن حالى وعما اشتغل به من الدروس؛ فقلت: أما وقد سألتنى يا فضيلة الأستاذ عن دراستى فإنى قد سئمت دروس الأزهر ولم أعد أستطيع أن أستمر على الاشتغال بتلك الأبحاث العقيمة ، إننى أشعر بأنها تجنى على عقلى وذوقى . قال: يا بنى أنا أعرف ذلك السأم الفعلى وهو يدلنى منك على ما تفرسته من فطرة صالحة ، استعد لدخول دار العلوم فإنها على ما فيها من النقص أقل إضعافاً للغرائز القوية وإسئاماً للعقل السليم من الأزهر .

ولما رأى الحاضرون حفاوة الشيخ بى وتقريبه لى جعلوا يتطلعون إلى ويستبقون إلى تحيتى .

هذا يقول : الحمد لله على السلامة ، رافعاً يده بإشارة السلام مبتسما .

والآخر يخاطب الأستاذ المفتى هازًّا رأسه علامة التأكيد قائلا : الشيخ حسان رجل طيب . فيزيد الثالث: وهووالله من المخلصين لسيدنا الشيخ. ويصيح الرابع : لقد رأيته بعينى رأسى يبكى يوم قدم الأستاذ استقالته .

عندئذ أخذت أنظر بدهش إلى هؤلاء العلماء الأفاضل الذين لا يعرفنى منهم أحد والذى يتبرعون بتزكيتى عفواً ولو رآنى أحدهم خارج تلك القاعة لغض بصره عنى استهانة وكبراً . وكنت أرقب الشيخ المفتى يعطيهم نظره مملوءاً عجباً وألماً . ثم التفت إلى ناحيتى ومد إلى يمينه قائلا فى أذنى : انصرف يا بنى! إنى أخاف أن يعديك النفاق وزرنى وقتاً بعد وقت فى منزلى بعين شمس .

صافحت يده وبى شغف أن أقبلها إكراماً وعرفاناً بفضلها ، لولا أن الشيخ يكره أن تعنو له الوجوه .

وبمناسبة الشيخ المفتى قص علينا اليوم فى الدرس الشيخ م . . ر . . قصة تتعلق باستقالته من مجلس إدارة الأزهر قال :

لما حمل حمودة بك عبده أخو الشيخ الاستقالة إلى الأستاذ الشيخ

الشربينى فى الأزهر ، قال هذا : ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتى ؟ لقد كنت مغتبطاً بمعونته فيما نهضت له . ألا من سبيل إلى صرفه عن عزمه ؟

أجاب الرسول : إن الشيخ مصمم على تنفيذ نيته ، وهو على ذلك قد كلفنى أن أخبر فضيلتكم بأنه رهن إشارتكم فى كل ما تندبونه له .

تأوه أستاذ الشيوخ وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! وظهر عليه التأثر .

قال الشيخ م . . ر . . . وفى الحقيقة أن الأستاذ الشيخ الشربينى لم ينتبه للسبب الحقيقى لاستقالة المفتى من الأزهر . الشيخ عبده رأى أن التعريض القاسى الذى ورد فى خطبة الاحتفال بإلباس الشيخ الشربينى الخلعة يقضى عليه بالاستقالة .

قال الشيخ ر . . . كان المفتى مستمعاً للخطبة منصتاً . أما الشيخ الشربينى فلم يلق لها بالا . كنت قريباً منه تزاحم هتافته بالاستغفار رنات صوت الأمير فى أذنى وكان غاضاً من بصره حتى لقد نبهته عندما نهض الأمير مؤذناً بالانصراف فجعل يعتمد على بيده مكرراً ذكر الله حتى خرجنا من قصر الإمارة .

باريس — مذاكرات الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

٧
١٥ أبريل سنة ١٩٠٦ *

تقع حصة ع . . أفندى ما بين الساعة ١,٥ ، ٢,٥ بعد الظهر فيدخل إلينا فى أغلب الأيام متكاسلا يتثاءب على كرسيه ويتمطى ثم ترتق فى عينه سنة فينام حتى يدق الجرس ، ويشتغل منا جماعة بالمذاكرة وآخرون بالحديث ، ولكن أحداً لا يفتح كراسة خط ولا ينظر فى مشق .

* الجريدة — القاهرة فى يوم السبت ١٩ رجب ١٣٣٢ ، ١٣ يونية ١٩١٤ .

كنا فى الحصة اليوم ونام الأفندى فاستغرق حتى لقد ارتمى عنقه إلى الوراء واختل توازن جسمه فوق كرسيه فصار يغط شخيراً يرن صداه بين صيحات ضحكنا العالى، ثم قرع الباب زائر قرعتين بعنف واقتحم غير منتظر إذناً . ذلك هو البيك .

أيقظت الضجة ع . . أفندى من نومه فجأة ولم يكن متماسكاً ولا منتظم وضع البدن وهم بالنهوض فانبطح على الأرض، فلما أحس بأنه بين يدى الناظر وخاف وبال أمره تصنع الإغماء، وأعانه على ما أراد شحوب الذعر ورجفة البغتة .

جعلنا نصب على وجه الراقد كل ما يلقانا من قلل وأباريق وأسطال، وكان البيك يتولى ذلك معنا جاداً ونتولاه هازلين ثم حملنا الجثة إلى الشفخانة تتصبب عرقاً حاراً وماء بارداً، وهناك أفاق الأفندى من غشيته بين الأثير والنشادر إفاقة أحسبه لا يجد بعدها نعاساً حتى فى مخدعه .

أخاف أن يغلب على أسلوبى الكتابى نزوع جماعة اللفظيين بحيث تكون بهجة ما أكتبه لفظية أكثر منها معنوية. لا أدرى سبباً خاصاً لعروض هذا الخاطر لى الليلة، ولا تناسب بينه وبين حديث ع . . أفندى بوجه، ولكنى أراه خاطراً جديراً بالعناية .

هذا العيب الكتابى شائع عند قومنا حتى لتجد بين الأذكياء منا من يرى قيمة البلاغة كلها فى اختيار الألفاظ . وكنت أنا فى حداثتى بالرغم منى أجرى فى هذا التيار أنظر إلى ديباجة القول قبل أن أمتحن معانيه ، ثم ارتقى ذوقى الإنشائى قليلا فصرت أشعر بأن الجمال اللفظى ليس إلا زينة لحسن المعانى، ودخل فى أمانى العلمية أن أعدل ذوق قومى من هذه الجهة فإن عناية المنشئين منا باللفظ دون المعنى جعلت اسم الكاتب والشاعر منطبقاً على أناس لارقى فى معلوماتهم ولا أفكارهم ولا خيالهم ولا إحساسهم وهذا ضار بحركتنا الأدبية .

باريس . مذكرات الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

٨

١١ أغسطس سنة ١٩٠٦*

خرجت أصيل الأمس إلى الخلوات أطوف فى أنحاء المزارع حتى انتهيت إلى فجوة فى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن. فألقيت عباءتى فوق تلك الحشائش الندية واستلقيت إليها وكان معى الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه وبهامشه زهر الآداب للحصرى. جعلت أداول بين الكتابين فى القراءة وأقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة.

أعجبتنى من العقد الفريد هذه الأبيات لحبيب الطائى:

أعاذلتى ما أخشن الليل مركبا ... وأخشن منه فى الملمات راكبه
أعينى وأهوال الزمان أقاسها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه

ووقف نظرى عند هذه العبارة:

« روى أن مالك بن أنس كان يذكر عليا وعثمان وطلحة والزبير [1] فيقول: والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر! وذكر هذا محمد بن يزيد فى الكامل.

وعجبت لما قرأته فى فصل الحلبة والرهان من أن القوم كانت لهم حفلات يحضرها الخليفة ومن يليه من الكبراء والوجهاء.

وأضحكتنى هذه الحكاية فى زهر الآداب: « قال أبو العيناء ذُكرت لبعض القيان فعشقتنى فلما رأتنى استقبحتنى فقلت:

---

* الجريدة — فى يوم الأربعاء ٢٣ رجب ١٣٣٢، ١٧ يونية ١٩١٤.

(١) نسى إمام المدينة معاوية وهو لم يكن أقل تلك الحلبة جوعاً إلى الثريد الأعفر الذى ظفر به وحده. بهامش الأصل.

وشاطرة لمــا رأتنى تنكرت وقالت قبيح أحول ماله جسم
فإن تنكرى منى احولالا فإننى أديب أريب لاعيّ ولا فدم

فكتبت إلى : « إنا لم نرد أن نوليك ديوان الزمان » .

ثم جعلت أغنى أبيات أبى القاسم إسماعيل بن عباد :

وقد أغتدى للصيد غدوة أصيد أعاجل به أيدى الوحوش تقيد
فأدركتها والسيف لمعة بــارق ولم يغنها إحضارها وهى تجهد
وقد رعتها إذ كان فودى رائعاً وطرف مشيبى عن عذارى أرمد
وما بلغت حد الثلاثين مــدتى وهذا طراز الشيب فيه يمدد

ليس فى جوهر صوتى جمال وليس عندى علم بأصول الصناعة ولكن حنانا طبيعيا فى بعض ما أهتف به من النفحات يتناسب مع أشعار الحب والأناشيد المحزنة لذلك جعلت أردد هذا البيت الجميل :

يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتهــا فيعــود

وبينما أنا مشغول بمحاولة الإجادة فيما أشدو به متأثر النفس بمعانى الأغانى نفسها إذ أقبل فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رؤوسهن ثم جلسن إلى جانب يستمعن غنائى وكنت أراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لاينفرن ولما رأيت أنسهن بصوتى غنيت بيت أبى تمام :

لها منظر قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو فى خفارته الحب

ثم ما أنشده الأصعمى :

لا خير فى الحب وقفاً لا تحركه عوارض اليأس أو ينتابه الطمع

وختمت بهذا البيت :

هذا الشباب أخو الحياة وماله من لذة حتى يصيب غليــلا

لم يكن يبدو على جاراتى مظهر الفهم ولكننى كنت ألمح فى أسارير صغراهن علامات التأثر كلما جعلت فى نغماتى شبه أنين غرامى والتقت عينى بعينها عند منصرفى.

رجعت اليوم إلى مكانى بالأمس فعادت وحدها الآنسة الفتية. شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طولا، نحيفة من غير أن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئاً وما يهبط أهيف، من جسم كأنما صب فى قالب، فلست ترى فى خطوطه عوجاً، رشيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال الجمال النسائى. فى ثغرها وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والإحساس الرقيق.

دنوت إلى الفتاة يدفعنى شعور بأن لى جانبها حظا من سعادتى، ويربكنى الحياء ثم حييتها فردت غير نفور، قلت: وحيدة أنت اليوم؟

أجابت: إننى أحب الوحدة فى كثير من الوقت.

قلت: إن الميل إلى العزلة نزعة النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى الأنفس المعذبة السلوان وليكون فى ظلام الحياة نوراً.

تبسمت محدثتى تبسما لطيفاً تهلل به ذلك الوجه النضير كله ثم قالت: إذا كانت الوحدة آية الألم النفسى فما بالك تحبها وأنت منعم تعيش فى عز أبوين كريمين فى سعة من العيش وسعة من الأمل.

قلت: إن من وراء هذا كله مواضع للألم فى قلب غير جامد.

كانت الآنسة تصغى إلى هذه الكلمات بعناية تفهم ما وراء ألفاظها من شعور غير مصنوع ثم وضعت يمينها فى يدى.

ولبثنا ساعة سكوتا نتبادل نظرات ناطقة.

سمعنا ساعتئذ حفيف أوراق القصب تنحسر عن قادم فانتبهنا من تلك السكرة الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى.

باريس — مذكرات الشيخ حسان الفزارى

الناشر «ع»

٩

٢ رجب سنة ١٣١٣ هـ*

خبرنى زميلى الشيخ م. ع. ا. أن الأستاذ الشيخ س. كان قبل أن تفتح فى وجهه سبل المال محسوباً على السيدة زينب – رضى الله عنها – وشهد من مناقب بنت النبى – عليه السلام – عجائب لا تحصى .

دخل مرة إلى مقامها وهو ذو عسرة ، فأفضى بشكواه ثم صلى ركعتين وجلس مطرقاً .

وبينما هو فى سهوة إذ رأى السيدة خارجة من قبرها الزكى فى حلل من سندس وإستبرق تحمل صرة وضعتها بين يديه وأسرعت إلى مضجعها الأبدى.

قال الراوى – وهو عندى ثقة : ولا يزال الشيخ يحتفظ بالصرة وببعض تلك النقود تبركا [1] .

شاع بين الأزهر أن الأستاذ الشيخ م. ح. سيترك داره بشارع أم الغلام بعد أن عجزت حيله عن مصالحة عفريت يسكن إلى خرابة بجانبها . ذلك العفريت يقذف الحجارة فى وجه الشيخ حتى لقد كسر نظارته وأدمى أنفه ويقلب أحياناً الدكك والكراسى والمناضد ويبعثر الأوراق والكتب ويرمى القلل من أعلى إلى أسفل .

ذهبت بعد ظهر اليوم مع طائفة من إخوانى المجاورين إلى الأستاذ لنشاركه فى آلام هذا الخطب فوجدنا عنده وفوداً من العلماء والطلبة ما بين قارئ رقية

---

* الجريدة – القاهرة فى يوم الأربعاء غرة شعبان ١٣٣٢ ، ٢٤ يونية ١٩١٤ .

(١) نسترعى نظر العالم الكبير السيد على بهجت وكيل دار الآثار العربية إلى تلك التحفة الأثرية الجليلة، وما ينبغى لصرة زينب بنت على ونقودها أن تكون أقل كرامة على التاريخ من دواة الغزالى المحفوظة فى دار الآثار العربية – الناشر .

وتال عزيمة فأخذت أقرأ مع القارئين. بينما نحن متوجهون بكليتنا إلى الابتهال والتلاوة إذ لمح قط أسود فأرة تلقط بقايا طعام فى جانب من جوانب الحوش فوثب إليها فتسربت إلى القاعة التى نحن بها ودخلت فى مركوب الشيخ عبد . . .

التفت هذا على حين غفلة فوجد فردة مركوبه تطوف فى القاعة يتبعها القط. هنالك ظن أن العفريت يمشى إليه فزعق مبتدراً الباب : ياسيدنا الحسين ! وتبعه الجموع يدوس بعضهم أعناق بعض متصايحين فكانت ضجة عظيمة وخرجنا إلى الشارع حفاة هذا تمزق ثوبه وهذا انحل نطاقه وذلك انفرطت عمامته وأحاط بنا الجيران والمارة .

كان طفل من أولاد صاحب المنزل متتبعاً لحركات القط والفأر يلهو بها فلما رأى انزعاجنا وأدرك سره أسرع إلى مركوب الشيخ عبد . . . وجاءنا به تتطلع منه تلك الفأرة المسكينة المذعورة ويتبعه ذلك القط الأسود قط البيت واسمه بسبوس . ضحك الطفل ملء فمه الصغير اللطيف ، وتضاحكنا على استحياء ثم دخلنا إلى مجلسنا وعدنا إلى الرقى والابتهالات[١] .

باريس — مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

---

(١) مررت بعد أيام بشارع أم الغلام فسمعت صبية الحارة يتغنون بهذا النشيد :

يا بسبوس عفريت فى الدار — إن حشته أعطيك دينار
المشايخ طلعوا يجروا — بعد ما كانوا بيزوروا
وكل واحد وشه فى حجره — أوع دا المركوب فيه فار
يا بسبوس عفريت فى الدار — . . . .

١٠

غرة رمضان سنة ١٣٢٤هـ*

هذا أول يوم فى شهر الصوم ولم تسفر تباشير الصباح حتى بدت فى الناس حالة غير عادية فالوجوه كلها عابسة مظلمة والألسن سريعة إلى السباب والطلاق سرعة الأيدى إلى الضرب والملاكمة . ولقد جرى لى من الحوادث ما يكفى سرده لتمثيل أيام الصيام تمثيلا صحيحاً .

ألح علىّ جماعة من أصدقائى أن أخطب فى الجمعة قائلين إنها أول جمعة من رمضان يحتشد لها الناس من كل فج ويكونون أدنى إلى حسن الاستماع والاستعداد لقبول النصيحة فلبيت رغبتهم وهيأت فى نفسى موضوع الحديث .

جاءت ساعة الخطبة فأسرع الشيخ أبو حصوة إلى أبواب المنبر يفتحها وأخذ بيده السيف الخشبى ليناوله لى . تناولت تلك العصا المعوجة وتسلقت ذلك المركب العالى وكانت وطآت قدمى فوق سلالم المنبر تثير الغبار الراكد ، فأظل أعطس كلما نقلت قدمى من درجة إلى درجة وكان التراب ينتثر يمنة ويساراً فيجهش بالعطاس من حولى. وإن معظم الناس فى الريف بل فى القاهرة نفسها بين سمع الأوقاف وبصرها ليعتقدون أن تراب المساجد مقدس لا ينبغى أن يخرج منها، فإذا خرج جعل يصيح حتى تحمله الملائكة إلى موضعه! وهم معذورون أولئك البسطاء فى مثل هذا الاعتقاد لأنهم اعتادوا أن يروا دائماً هذه المعابد بيوتاً للشعائر الدينية وللتراب معا[1] . وقفت للخطبة فأتيت بالحمد

---

* الجريدة — فى يوم الخميس ٩ شعبان ١٣٣٢ ، ٢ يولية ١٩١٤ .

(١) من مبلغ الشيخ حسان فى قبره أن الأوقاف أصبحت وزارة لا تبقى فى المساجد ولا غيرها غباراً — الناشر .

والصلاة ثم جعلت أحدث الناس فى أمر الزواج لأبين لهم أن تعدد الزوجات يقلع الحب من أساسه لأن الحب موحد لا يقبل الشرك وإذا ذهب الحب فعلى السعادة العفاء فى هذا العالم كله .

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى وقف المأذون والفقهاء وعمى الحاج على الديب وصاحوا : هذا هو علم آخر الزمان لم يبق إلا أن نسمع من فوق منابر الوعظ الدينى الكلام عن النسوان والحب . وماذا جرى من خطب الشيخ البولاقى والشيخ السقا التى تذكرنا بالموت وتحبب إلينا الفقر ؟

أخذ أصحابى يدافعون عنى وقامت معركة بين الطرفين تقاذفوا فيها أحذيتهم وتقاذفوا معها جفاء القول فهبطت من فوق المنبر لأصلح بين خصمى وأنصارى معتذراً لأولئك شاكراً لهؤلاء. ولما هدأت ثائرتهم وأخذوا مجالسهم مرددين الصياح المسنون: إنى صائم ! إنى صائم ! إنى صائم ! عدت إلى موقفى وصرفت الحديث عن هذا الحب الذى يهيج العدواة والشحناء .

تركت المسجد بعد الصلاة وذهبت إلى السويقة أتلهى بحركة الناس فى ذلك السوق المزدحم .

انتهى بى المطاف إلى العمدة ومعه جماعة من أعيان البلد يطوفون بجزار يسلخ عجلا من الجاموس ويقطعه فرأيت من حسن الأدب أن أقف إليهم لحظة وإن كنت أستبشع النظر إلى تلك الحيوانات المسكينة تقتل تقتيلا إرضاء لشهوات إخوانها الحيوانات الناطقة ، ويدهشنى جداً أن أرى فى الناس من يعجبه هذا المنظر يقطع به وقته خصوصاً فى شهر الرحمة والتقى .

قال العمدة وهو يبتلع ريقه مخاطباً الجزار : اقطع لى العرقمة . فقال ز. بك متغيظاً : العرقمة أنا طلبتها قبلك ! ماهذا ؟ وعلىّ الطلاق لا يأخذها غيرى . غضب العمدة وحلف هو أيضاً بالطلاق لا يترك رغيبته ولو جرى حولها الدم .

فلما خفت الشر بينهما وأشفقت على زوجاتهما المحصنات الغافلات من عاقبة هذا النزق الصيامى قلت للجزار : اعط عرقمة لهذا وعرقمة لهذا : وكنت

أظن العرتمة (١) اسم للضلع أو الفخذ، فضحك الحاضرون وظن المتخاصمان أنى استهزئ بهما وأخذا فى عتابى بحدة لا تعرف الحلم فأعتبتهما وصرفتهما عن خصامهما الأول إلى الهتاف المشروع إنى صائم ! إنى صائم ! إنى صائم ! وهتفت معهما ثم دعونا المأذون ليحل مشكلة الطلاق فأفتى بأن تعطى العرتمة أولا للبك فيدفع ثمنها للجزار ، ثم يهبها له وهذا يبيعها مرة ثانية للعمدة ليتصدق بها ، وقد أهداها العمدة للشيخ المأذون وكان هو الفائز فى الحكاية كلها بالغنيمة .

بعد ذلك قصدت الدار فراراً من المجامع ومخاصماتها وما كدت أتخطى عتبة الحوش حتى رأيت عمّالى يغاضب زوجه وآية غضبه أن يرمى المتاع من الشباك صارخاً بين هدير الغيظ : إنى صائم . إنى صائم .

وقد كادت تصيبنى قاة فى أم رأسى فتقتلنى .

هنالك أحسست بأن المصيبة عامة فى الناس وأشفقت أن تصل إلى العدوى التى وجدت بوادرها حرجاً فى الصدر فأويت إلى حجرتى وأشعلت سيجارة .

دخلت والدتى فجأة ولما أبصرتنى مدخناً والشمس فى كبد السماء ضربت صدرها مذعورة وصاحت : أجننت ياحسان ؟

فأقنعتها بحالى ومقالى إننى كنت ناسياً فذكرت .

ولما خرجت قلت فى نفسى : لئن كان يرضى الله هذا الصيام الشغوب اللغوب فلن يغضبه هذا الفطر السلمى وتناولت سيجارتى .

---

(١) مفهوم من سوق الحديث أن العرتمة اسم لقطعة من اللحم ولم أهتد إلى فهم المراد بها على اليقين — الناشر .

١١

يوم الاثنين ٢ يولية سنة ١٩٠٠*(١)

جاءنى البارحة صديقى الشيخ محمد . . ومعه ورقة فيها أسئلة الامتحان وناجانى بالحكاية :

ذلك أن الحاج بيومى الفراش حينما حمل مطبعة البالوظة ليغسلها بعد طبع الأسئلة وضع عليها ورقة فخرجت حاملة سر الامتحان الذى ترجف له قلوبنا .

باع الحاج تلك الورقة الثمينة من صاحبى بريال ثم وعد بأن يبذل جهده فى الحصول على باقى الأسئلة .

فى الورقة امتحان الإنشاء وهو يحتوى على موضوعين يختار الطالب ما شاء منهما :

أولهما : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها .

اشرح الحديث شرحاً وافياً وبين معنى الحكمة لغة وشرعاً مع توضيح المناسبة بين المعنيين .

وثانيهما : العلم للعمل كالروح للبدن لا كمال لأحدهما إلا بصاحبه — ما وجه التشابه بين علاقة العلم بالعمل وعلاقة الروح بالبدن ولم يحتاج العلم فى كماله إلى العمل ولا يستغنى العمل عن العلم ؟

تشاورنا فى الأمر بيننا ثم اتفقت مع صاحبى على أن يختار هو ثانى السؤالين وأختار أنا أولهما وتفرقنا ليأخذ كل منا لموضوعه عدته .

وذهبنا فى الصباح إلى المدرسة بأقدام ثابتة لا يزلزلها رعب ودخلنا إلى قاعة

---

* الجريدة — فى ١٤ شعبان سنة ١٣٣٢ ، ٧ يولية سنة ١٩١٤ .

(١) وضعنا تاريخ العام على هذا الوجه تنفيذاً لرغبة الشيخ حسان رحمه الله — الناشر .

الامتحان وجلسنا فى أمكنتنا متباعدين ترعانا عيون أساتذتنا المنبثين فى كل جانب لمراقبتنا ثم فتح رئيس الامتحان الظرف المختوم بالشمع الأحمر وأملى علينا الأسئلة .

وما هو إلا أن نبهت ذاكرتى لتؤدى إلى ما استودعتها أمس ، ثم انطلقت يمينى فى القرطاس لا تتعثر وبعد ساعة دخل إلينا البك ، يرافقه وزير المعارف ، ووزير آخر وفى صحبتهم مفتش اللغة العربية .

وقفوا على مقربة من الباب وصعد ناظر المعارف نظره فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيرى ، ودنا منى يمشى رويداً حتى لا يشوش على الطلاب ثم جعل يقرأ ما كتبت بصوت خافت وكان يبتسم ابتسام مسرور فيردد الجمع ابتسامه ولما رآنى أذكر القاموس مراراً قال متحيراً: أفأنت تحفظ القاموس عن ظهر قلب .

قلت : لا ياعطوفة الباشا!— وقد كان بلغنى أن كلمة العطوفة تسر الوزير ولمحت فى أسارير وجهه لمعة ارتياح عند ما قلتها — أنا لا أحفظ القاموس ولكننى كثيراً ما أنظر فيه وأراجعه. قال : أنت إذن قوى فى اللغة؟ تبسمت ابتسام من يمنعه الحياء والتواضع أن يلفظ كلمة نعم وهى بين شفتيه تكاد تسيل .

قال : كيف تسمى ؟

قلت : حسان عامر الفزارى . فقال: ياشيخ حسان، أتعرف ما الابتيار ؟ وما الابتهار ؟ ومن حسن حظى أننى كنت سئمت من كثرة المذاكرة الليلة الفائتة وأردت أن أصرف السأم بقراءة فى كتاب أدبى ففتحت الجزء الأول من كتاب الأغانى وجعلت أطالع فى شعر عمر بن أبى ربيعة شاعر النساء الذى روى أن سليمان بن عبد الملك قال له يوماً : ما يمنعك أن تمدحنا ؟

قال : إنى لا أمدح الرجال إنما أمدح النساء .

قرأت حكاية التقاء عمر بجميل بن عبد الله بن معمر العذرى وتناشدهما القصيدتين اللاميتين قصيدة جميل التى منها :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى ... بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا ياجميل ، وإننى ... لأقسم مالى عن بثينة من مهل
خليلى فيما عشتما هــل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى
أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها ... وأهلى قريب موسعون ذوو فضل
أفق أيها القلب اللجوج عن الجهل ... ودع عنك جملا لاسبيل إلى جمل
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلى

وقصيدة ابن أبى ربيعة التى منها :

جرى ناصح بالود بينى وبينها ... فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى
فلما تواقفنا عرفت الذى بها ... كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل
فسلمت واستأنست خفية أن يرى ... عدو مقامى أو يرى كاشح فعلى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما ... معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب ... ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا ... وهى طبيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا ... نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثى ... نوافيك وانسبن انسياب مها الرمل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب إنما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

وقريب من هذا الموضوع فى الأغانى ما يأتى :

« . . . حدثنا الزبير بن بكار قال : أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعراً من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلى بمودته والابتيار فى شعره — والابتيار أن يفعل الإنسان الشىء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما يفعل » .

لما وجه إلى الوزير سؤاله حضرنى ما كنت راجعته بالليل فأجبت : ياعطوفة

الوزير وكررتها قصداً — الابتهار كما ورد فى صحيفة ٥٠ من الجزء الأول من الأغانى هو كذا والابتهار هو كذا وسقت جملة الأغانى بالنص، أشرق السرور عندئذ على تلك الجبهة العالية المتحلية بأمرات الذكاء ومظهر الوزارة وتجاعيد الكبر وصافحنى الباشا بقوة .

أما مفتش المعارف ففتح ذراعيه وأقبل إلى يضمنى إلى صدره وهو يقول : والله إنك للبازل الفحل ويرددها . وله الله ما زاد على أن جعلنى جملا كبيراً !

ولقد أدركتنى وخزة ضمير كدت أصيح بأنى غير أهل لهذا الإكرام لأننى حصلت على الأسئلة من طريق غير مشروع ثم قلت فى نفسى : كم من مذنب يمسح بيده الحجر الأسود وهو أكرم على الله من يد الوزير وصدر المفتش. ثم جاء دور الوزير الثانى فمشى إلى مسرعاً وأخذ ينظر فى ورقة الامتحان ويحرك شفتيه ببطء وهز رأسه بعنف فسقط طربوشه الذى أسرع إليه البك يتناوله ويمسحه ويرده إليه . وقد لاحظت أن الوزير كثيراً ما يهز رأسه فينزل الطربوش عن رأسه إلى الأرض . وياليته يتخذ اطربوشه مشابك تمسكه فقد لايجد دائماً رجلا ذا تواضع ومروءة ورشاقة فى تلقى الطرابيش الساقطة .

وبعد أن أطال النظر فى ورقتى من غير أن تتهلل غرته بنفحات الفهم خاطبنى بهذه العبارة :

إنت يعرف كويس الإنشا شىء جميل .

قلت : الله يبارك فيك يا سعادة الباشا — ولقد أعلم أن كلمة العطوفة ترضيه هو أيضاً ولكننى رأيتها كبيرة عليه — ثم انصرفوا جميعاً وأغلقوا الباب .

١٢
٣٠ مايو سنة ١٩٠٧*

التقرير السنوى للمعتمد الإنجليزى هو فى هذه الأيام ملء صدور الصحف وأفواه المجالس وتلك نوبة تأخذ الناس مرة فى مطلع الصيف من كل عام .

وجدير بمنشور قصر الدوبارة أن يسترعى عنايتنا شهراً لأنه ليس فقط بيانا لسير الأحوال الاقتصادية والإدارية فى مدى عام من حياتنا بل هو كثيراً ما يكون بحثاً علمياً يتناول مسائل اجتماعية من أخص مسائل العلم الاجتماعى التى تربك فحول العلماء كشرح طبائع الأمم فى تحديد الفروق الدقيقة بين آثار المدنيات من أخلاق المجاميع .

ولئن كنا لا ننصح للمتعلمين منا أن يجعلوا تلك التقارير مراجع لهم فى تربية أذواقهم فلقد يجب أن يدرسوها بإمعان ليتعارفوا بين ما يقرره العلماء وما يمضيه ممثل بريطانيا العظمى فى بلاد الأهرام .

ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الكتب الحولية تتضمن أيضاً الشهادة بمبلغ تقدمنا فى التربية السياسية على يد أبناء التاميز . ولقد تذكرنى مسألة الحكم فى كفاءتنا السياسية بحكاية تجرى عندنا فى الريف مجرى الأمثال ذلك أنه كان سالف العصر الأول رجل أدركه إغماء . فما بطلت حركته حتى عجل ذوو قرابته إلى تجهيزه على ما جرت به عادة قومنا إذ لا تراهم إلى شىء سراعاً إلا إلى الموتى يدخلونهم بين أطباق الثرى، ولهو أهون عليهم أن يلقوا فى القبر حيا تتردد أنفاسه فى صدره من أن يتركوا ميتاً ساعة بين الأحياء . غسل القوم صاحبنا ولففوه فى أكفانه وصلوا عليه صلاة الجنازة ثم ساروا بنعشه إلى المقبرة

---

* الجريدة – القاهرة يوم الأربعاء ٢٢ شعبان ١٣٣٢ ، ١٥ يولية ١٩١٤ .

يحدوه صياح القراء ويتبعه صراخ النساء . ومن العجيب أن نغمة المرتلين للأذكار والمرددين للعويل بين يدى الموتى لا تخالف نغمة الهاتفين بالأناشيد والزغاريد فى زفاف الأعراس . ذلك مصداق قول الحكيم المعرى :

وشبيه صوت النعى إذا قيـــ ـس بصوت البشير فى كل ناد

أفاق من غشيته محمول الآلة الحدباء فوجد نفسه ملففاً مسجى . مد يده فامتدت وحرك رجله فتحركت ورفع الغطاء عن وجهه فأبصر العالم بأرضه وسمائه. عندئذ مسته دهشة ولم يدر لم هو مضطجع فى لفائف محمول على أعناق الرجال مصحوب بنواح النساء .

قال لحامليه : أين تذهبون بى فى هذا الموكب ؟

قالوا : نذهب بك إلى مساكن الموتى فإنك ميت يرحمك الله .

صرخ الرجل : يا قوم ما أنا بميت إننى أتكلم وأتحرك وأشعر وأفكر وماذا تطلبون من علائم الحياة وراء هذا ؟

هنالك أقبل بعضهم على بعض يتغامزون : لا تسمعوا لجداله فقد أسبغنا غسله ووضعناه فى أكفانه وصلينا عليه . ثم أوثقوه بحبال مخافة أن يفر من نعشه وساروا به إلى اللحد وهو يدعو بالويل والثبور .

مر المشهد برجل على باب داره فناداه من فوق أعناق الرجال ذلك المشدود فى حباله ، أن أغثنى يا عم فإن هؤلاء يريدون أن يدفنونى حيا .

رقت نفس الشيخ وخاطب المشيعين : ما ذنب صاحبكم ؟ تريدون أن تدخلوه القبر من قبل أن يموت .

قالوا : لقد خدعك ما هو بحى إنه مات وجهزناه للدفن فلا تسمع لشكايته .

قال الميت : يا عم احكم بيننا بالعدل أفأكون ميتاً وأنا أنطق كما ينطقون وأعى ما يقولون ؟ قال الرجل: اذهب يا صاح إلى قبرك إننى لا أستطيع أن أصدق أنك حى وأكذب كل هؤلاء .

كذلك نحن نثبت بكل دليل أننا بلغنا رشدنا فتقول لنا السياسة ومن ورائها أسطول ضخم وجيش فخم: لم تصيروا بعد أكفاء . ولا يصدقنا أحد ليكذب كل هؤلاء .

باريس مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

١٣

٣ مايو سنة ١٩٠٥*

الشيخ المفتى مريض ويظهر أن داءه لسوء حظ المسلمين عضال . أتيته أعوده فى داره بعين شمس ضحوة اليوم وأذن لى فدخلت إليه وهو فى سريره شاحب اللون تزاحم البشاشة الفطرية فى وجهه لذعة الألم وهو على ذلك حلو الحديث حاضر البديهة . جرى ذكر الشيخ[1] م. ش . فقال الأستاذ: ما رأيت خيراً أثمر أذى كيدى عنده وأعوذ بالله أن آسف على معروف وإن وضعته عند من لا يحفظه ثم أنشد :

لو أن خيرك كان شرًّا كله عند الذين عدوا عليك لما عدا

* * *

أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعماً ولا أشعر بفائدة فى تكوين ملكة ولا تهذيب ذوق لهذه الأبحاث المجدبة التى أفنى فيها حياتى جاهداً .

أنا استيقظ من نومى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ

* الجريدة — يوم الأربعاء ٢٩ شعبان ١٣٣٢ ، ٢٢ يولية ١٩١٤ .

(١) الشيخ م.ش شخصية حقيقية .

إلى مشاركة رفيق فى مطالعة إلى انفراد بالدروس حتى آوى إلى مخدعى قبيل نصف الليل فاتر القوة متنبه عصب الدماغ محتاجاً إلى النوم ، غير واجد إليه سبيلا ، وليس لى من سلوة فى ثنايا هذا العناء المتتابع لا من لذة العمل فى نفسه ولا من ثمرته ، ثم إن فى أعماق نفسى قلقاً ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها من هذا الوسط . ذكر لى أن الشيخ م. ب. سيقرأ بعد العصر فى مسجد سيدنا الحسين كتاب المنار فى أصول فقه الحنفية . بالغ أصحابى فى الثناء على الشيخ حتى وضعوه فى صف الشيخ عبده ، وللأستاذ بين أهل الأزهر شهرة يمدها تاريخ حافل .

ذهبت عصر اليوم إلى جامع الحسين وجلست قريباً من كرسى المدرس الذى أقبل محاطاً بطائفة من الطلبة منهم من يحمل نعليه ومنهم من يحمل المحفظة وآخرون يسيرون فى عرض الموكب تكميلا للأبهة .

كان الأستاذ لابساً قفطاناً أصفر فاقعاً لونه فيه خطوط سوداء ويحيط بصدره الضيق نطاق من حرير أزرق واضح الزرقة مطرز بأعلام مخضرة من فوق ذلك جبة تضرب إلى لون الدم ويرتدى بدفية من صوف برتقالى لامع .

نظرت إلى الشيخ لأول مرة فألفيت جبهته الباهتة متجعدة تخزر من تحتها عيون ضيقة براقة ورأيت وجهه القليل المساحة يعوم فى لحية كثيفة محمرة الشعر إلا ما نصل عنه الخضاب من أطرافها وجذورها الشمطاء . جلس فى كرسيه ولبس نظارته ثم أخرج ملزمة المنار وقرأ عبارة المتن « أحمد الله أولا وثانياً » .

كانت الساعة ٩ عربى فما برح العالم النحرير يقتل هذه الجملة المسكينة بحثاً وتحقيقاً حتى أذن مؤذن المغرب ، ولما أضجرنا بإطالته على غير طائل فى تطريق الاحتمالات وتوجيه الاعتراضات ، قلت : يا سيدنا الشيخ . ألا يجوز أن يكون كل مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور :

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى ونبصر مالا نشتهى فلك الحمد

لوى الشيخ عنقه ووجم مفكراً ثم أجاب : هذا الاحتمال غير وجيه ، لأن الحمد فى المتن مطلق وهو فى الشعر مقيد ، ومضى فى ما كان فيه .

ولم يكد يفرغ الأستاذ من الدرس حتى تزاحم عليه الطلاب يقبلون يده كما تزاحموا عليها يمسونها بشفاههم فى مفتتح الدرس . ويارحمتاه للمجاورين : لا يفتأون يقبلون تلك الأيدى التى لا هى أيدى النساء الناعمة فنحيي فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب ، ولا هى مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها . وكم فى تلك العادة السيئة من مضار .

وإن أولئك الذين يمدون أيديهم طويلة إلى الأفواه لينشرون جراثيم الأمراض ويبذرون معها بذور الذلة فى أنفس طيبة ساذجة .

خرجت من الدرس مملوء النفس بالسأم ، والصدر بالحرج وصادفت فى السكة الجديدة صديقى الشيخ أحمد . ع . فخبرته بخبرى ، قال : يا أخى يغفر الله لك ، أتطلب علماً عن من يكتب فى الجرائد فى أسلوب أطفال ليقول : إن العلوم الحديثة لا فائدة فيها وإن إدخالها إلى الأزهر جناية على الدين وأهل الدين .

سألت : أذلكم ث بن م؟ أجاب : هو أستاذك مذ اليوم . حمدت الله أولا وثانياً واستغفرت لخطيئتى .

باريس — مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى
الناشر « ع »

١٤

١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦*

كان الشيخ أحمد أبو خطوة يدرس رسالة الجامى فى داره لجماعة من خاصته فلما فرغ منها أخذ يطالع معهم كتاب طوالع البيضاوى ثم شاع الأمر بين الأزهريين لا سيما طلاب المرحوم الشيخ عبده فأحاطوا بالشيخ أبو خطوة

* الجريدة — يوم السبت ٩ رمضان ١٣٣٢ ، أول أغسطس ١٩١٤ .

واضطروه إلى أن يجعل الدرس عاماً .

كان الشيخ يقرأ دروسه فى الحوش الفسيحة لدارة الجديدة بناحية الدرب الأحمر وجعلت حلقته تزدحم بأذكياء الطلاب حتى صارت صورة طبق الأصل لحلقة الشيخ المفتى فى الرواق العباسى ، وكان كثيرون منا تلاميذ دار العلوم يواظبون على تلقى هذه الدروس اغتناماً لفائدتها على ما كان يكلفنا ذلك من العناء لبعد مساكننا عن منزل الشيخ واضطرارنا للسهر مع أننا نتنبه من نومنا مبكرين .

انقطع الشيخ أبو خطوة عن هذه الدروس الليلية فجأة من غير سبب معروف وترك تلاميذه فى حيرة وأسف وقد أحاطت بهذه الحادثة إشاعات كثيرة وصارت سمر المجالس فى الأزهر ورن لها صدى فى المجامع . ويظهر أن الخبر اليقين هو ما رواه لى زميلى الشيخ ع . ع . الذى هو من أخص تلاميذ الشيخ أحمد أبو خطوة وأدناهم إليه ، ولأبيه صلة بالأستاذ ، قال : سألت الشيخ عن سبب مماطلته فى العودة إلى دروسه مطال من يريد أن يصرف الإلحاح عنه من غير نية فى الإنجاز ، فأجاب : إن التفاف طلاب المرحوم الشيخ عبده حولى واجتماعهم فى دارى واشتغالنا بقراءة كتب عزيزة بين الأزهريين أخذ يقلق أهل الحول والطول فى الأزهر وإن الذين وجدوا سبيلا إلى رمى المرحوم الشيخ محمد عبده بالإلحاد والتفلسف وهو يتلو كتاب الله ويفسره لا يعجزهم أن يتسقطوا الشيخ أبو خطوة وهو يدرس كتاب الطوالع ويزيد الأمر حرجاً أنى صديق لـ . . . وهم عصابة المرحوم المفتى .

قلت : ما للعلم وهذه الاعتبارات ؟

قال : نحن يا بنى فى بلاد العجائب .

ثم قال زميلى : وصادفت بعد ذلك ع . باشا فقلت له : ألا تعجب يا باشا للشيخ أبو خطوة ؟ يظن أن قراءة كتاب توحيد فى داره لجماعة من الطلبة أصبح مخوف العاقبة ؟ فوضع الباشا يمينه على كتفى وقال : تلك سنوات الثمانية

عشرة هي التي تتكلم! لا موضع للعجب فيما يقول شيخك، وستخاف مثلنا متى حنكتك التجارب وأدركتك رزانة السن وعرفت من أمر بلادنا ما نعرف .

زاد صاحبي : وعندئذ قلت فى نفسى : « اللهم إن كانت خطواتى فى سبيل الحياة تقربنى من الحذر وتجعلنى أخاف بشراً فى حريتى فاقبضنى إليك » ولا أفتأ أجعل هذه الكلمة وردى منذ سمعتها .

باريس مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر « ع »

١٥

٧ أغسطس سنة ١٩٠٧*

بينما كنا نتناول عشاءنا البارحة وصل إلى آذاننا دوى صياح يتزايد ويشتد فتسمعنا للصوت لنتبين أعويل نعى هو أم صيحة تنبيه إلى حريق أم صريخ استغاثة من لصوص ولكل من ذلك طريقة فى حناجر نسائنا . وسرعان ما تميزنا فى تلك الزعقات رنة ويك ويك ويك ويك، وهى دعوة إلى محاربة النار فتسابقنا إلى مكانها فى درب القطط وتركنا حريمنا يرددن : « يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » ، وتلك مناجاة تعلمنها من الشيخة ليدفعن بها عادية النار كلما لحن لهيباً من تلك المنافذ الضيقة فى بيوتنا سجون النساء .

وجدنا عند الحريق طائفة من الفلاحات يحملن الجرار على رؤوسهن مملوءة ماء يأتين به من ترعة الجاموس [١] وهن صائحات فى جيئتهن وذهابهن استصراخاً

* الجريدة — يوم الأحد ١٧ رمضان ١٣٣٢ ، ٩ أغسطس ١٩١٤ .

(١) أراجع هذه الصحيفة بعد زمن فتسترعى نظرى هذه الأسماء وإنه لمن عجائب بلادنا أن تنسب فيها الطرق والميادين والترع إلى حيوانات وأشباهها ثم لا يوجد فى مصر شىء باسم محمد عبده وقاسم أمين . بهامش الأصل .

للناس بينما أزواجهن يتلقون تلك الأوانى لصبها فوق اللهب المضطرم . هذه هى الطبقة الفقيرة العاملة بنسائها ورجالها، أما الأغنياء أو من نسميهم « ناس البلد » فنى يد كل منهم عصا يسوق بها الرجال إلى اقتحام النار ويسوق بها حلائلهن إلى ملتمس الماء وما هؤلاء ولا هؤلاء فى حاجة إلى من يدفعهم إلى واجب ينشطون له بفطرهم الطيبة .

وصل قبس إلى عشة عطية الطواب فاشتعلت وهناك شق الصفوف ذلك الفقير وترامى فى وسط اللهب إلى قفة فيها خبز فحملها وحال اللظى بينه وبين الباب فكان من المحرقين .

وأواه ! كم فى قومنا من أناس يبيعون هكذا حياتهم رخيصة . أطفئت النار بعد جهد فى مكافحتها وأبلغ الخبر إلى المركز وكان أول مبكر من ذوى الشأن الطبيب ، وبعد أن نظر نظرة فى جثة الميت المسكين التى كانت ملفوفة فى حصير وملقاة فى الساحة المجاورة لمحل موته أخرج عدة الجراحة كأنه يستعد لعملية التشريح وجعل يتلكأ فى ترتيبها وتنظيفها ويجرب أحياناً المقص فى الهواء بحيث يبصره أقارب الطواب ولحنا مزين الصحة يسار امرأة المرحوم ثم نظرت إليها فى جزع يزيد لوعته حزنها وتلهفها فدنوت منها أعزيها عندئذ قالت لى : إنهم يطلبون منى أربعة ريالات وإلا أنفذوا تلك السكاكين فى هذه الأشلاء الغالية فمزقوها كل ممزق ، وكل ما أملكه من المال هو عشرة قروش فدلنى بارك الله فيك ماذا أصنع ! قلت لها انتظرى قليلا . وذهبت إلى الحاج إبراهيم الملط والمقدس عوض عريان فجمعت منهما ومنى ما فرج كرب الأيم البائسة . وما هى إلا ساعة حتى ستر ما كان مكشوفاً من رمة الشهيد وطويت آلات الجراحة وعاد طبيب المركز من حيث أتى .

وبعد ذلك جاء المأمور ومساعد النيابة وجلسا فى مندرة العمدة ، وكنت من الشهود فساقونا إلى مجلس التحقيق زمراً أدخلنا إلى تلك القاعة الضيقة المستطيلة ذات المنافذ العديدة المغطاة بستائر من حرير مملوءة بالبقع ما بين

دهن ودم بق وبراغيث محاطة ببيوت العنكبوت وأعشاش الزنابير وخلايا النحل .

رأينا فى صدر المجلس فتى فى ريعان شبابه جميل المحيا تسيل فوق غرته الواضحة خصلة من شعر فاحم متجعد يرسلها على غير نظام عمداً وله نظرات فاترة طفلة يتكلف من ملامح الكبر مالا يتسع منه شبابه الغض وتغاب ملاحة سحنته فيعود ذلك الكبر دلالا لطيفاً ، وكان متكئا فوق كنبة على مخدات ينبطح عليها حتى ليعطى الجمهور من ظهره أكثر مما يرون من صدره . هذا هو مساعد النيابة وعن يمينه مأمور المركز رجل مستحكم ضخم جاحظ العينين مفرطح الأنف ضيق الجبهة واسع الفم وعن الشمال العمدة جالساً جلسة الخشوع التى تميز العمد فى مجلس الموظفين .

دعيت للشهادة أولا زوج عطية الطواب فأمسك بيدها العسكرى وتقدم بها بين يدي المحققين ووقف إلى جانبها .

كانت السيدة ترسل ذوب فؤادها المصدوع فى عبراتها الحرى فنظر إليها مساعد النيابة وقال بصوت الآمر : لاتبكى .

فوخزها العسكرى الواقف إلى جانبها وردد كلمة المساعد .

أجابت المسكينة بصوتها المرعود : أعذرونى يا أسيادى ليس فى وسعى أن أمسك مدامعى وبعلى جثة هامدة ملقاة فى الطريق .

صاح فتى النيابة بصوته الأغن اللين الذى كان يتصنع أن يجعله قاسيا : ومن هو زوجك حتى لا تملكين دموعك عليه ألم يكن طوابا ؟

فاستجمعت الأرملة الحزينة كل قواها المتداعية لتقول بين عبرة وزفير : إنه كان يحبنى وأحبه. وكنت أشعر كأن تلك الكلمات ينشق عنها فؤادها الموجوع. لكن المساعد تبسم ضاحكاً من قولها . وكان المأمور غفا إغفاءة فلما انتبه ضحك بصوت عال مجاراة لعضو النيابة . أما العمدة فقطب شفتيه بيده حتى لا يضحك ضحكاً ظاهراً بحضرة رؤسائه . وما أبعد هؤلاء عن لطف الإحساس

ليفهموا كل ما عبرت عنه السيدة بهذه الجملة البسيطة .

وجه مساعد النيابة عدة أسئلة إلى المرأة غريبة فى موضوعها وفى معنى التناسب بينها ثم قادها العسكرى إلى الباب. ودعيت بعدها فلما صرت بين يدى المحقق قال :

ما بالك متجملا بثياب العيد ؟ قلت : أرجوك أن تقيد هذا السؤال فى محضر التحقيق فإنى مجيبك عليه .

نظر إلى نظرة عجب وقال: يا سيدى أنت عامل أبوكاتو؟ قلت : إننى شاهد بين يدى محقق له على حق الاحترام فى حدود العمل الذى يؤديه باسم القانون فإن خرج عن حدود القانون فلا حرمة له عندى بأكثر مما يرعى كرامتى .

قال : قل ما رأيت .

ثم جعل يعتدل من رقدته حتى استوى جالساً .

وعند منصرفى سمعت مأمور المركز يقول : هذه هى آثار تعليم الفلاحين ونتائج تعويدهم الحرية .

كأنما يريد أولئك الحرية لأنفسهم ويأبون علينا نحن الفلاحين أن نكون أعزة أحراراً .

وياليت حكامنا يدركون أنما هم حراس على القانون الموجود لكرامة الناس لا لهوانهم .

وليتنا نحرص على عزتنا فلا نرضى بوجه أن تداس أطرافها .

وياليت كل أب فى مصر يلقن طفله فى المهد قول المتنبى :

واحتمال الأذى ورؤيـــة جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمـــام

باريس — مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

التاشر « ع » .

١٦*

مضطر بحكم هذه الظروف أن أدع إلى حين إتمام ما بدأته من مذكرات المرحوم الشيخ حسّان عامر الفزارى .

فإن ذلك الأسلوب الضاحك لا يتفق مع هذه الأيام المبللة بدموع الثواكل والمضرجة بدماء الشهداء .

قد يكون الشيخ حسان فى قبره إلى الجانب الأيسر من باريس لا يحس بما يملأ الأفق حواليه من هتاف الحمية بين جموع تسيل بهم الشعاب إلى ساحات الوغى بوجوه كالدنانير .

لا يرهبون مناياهم كأنهم لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا .

ولكن ناشر مذكرات الفزارى يعيش فى فرنسا فى هذه الساعات الجدبة العصيبة ويرى أمة الجمال والسرور واللطف فى سورة حماسية رهيبة ينسى الإنسان عندها كل شىء إلا شفاء الحزازات القومية وإلا الدفاع عن شرف الوطن .

أشهد لقد سمعت « التوقسان » يدق فى جوف هذه الجبال مؤذناً بالتجنيد العام فيطير إليه الناس زرافات ووحدانا وما هى إلا ساعة حتّى ينقلب هؤلاء الفلاحون الوادعون جنوداً كل همهم أن يقتلوا أو يقتلوا .

وأشهد لقد رأيت صاحباً لى يقعد به المرض عن السير إلى الحرب ، لا يلمح الذاهبين إلى القتال إلا بكى .

ورأيت مريضاً يوصيه الطبيب أن لا يترك فراشه وإلا عرض حياته للخطر يسير مع السائرين غير مبال بصحته ولا برجاء حليلته الشابة الجميلة الموحدة

* الجريدة — يوم الخميس ٥ شوال ١٣٣٢ ، ٢٧ أغسطس ١٩١٤ . .

التى قالت لى : « لقد أعلم ما يهدد حياته حتى من غير حرب ولكننى لم أسرف فى الإلحاح عليه عرفاناً لشرف العاطفة التى تجيش بها نفسه » .

وكم رأيت من مظاهر الوطنية فى هذه البلاد بين الرجال والنساء والأطفال حتى لقد خيل إلىّ أن السماء والأرض وكل ناطق وصامت يتدفق حمية وحماسة وحتى وجدتنى فى نشوة تحبب إلىّ أنا أيضاً أن أموت فى ظلال السيوف .

ليس فى نيتى أن أقف إلى جانب الراية المثلثة الألوان محارباً وإن كانت محببة إلى تلك الراية التى يرجع إليها حظ عظيم من فخار التاريخ الإنسانى ذلك بأن اعتبارات مقدسة تقضى على بأن أقف بعيداً عن هذه الحرب الطاحنة وعن كل عمل لا يتفق مع ما نرجو للإنسانية والسلام .

* * *

أنا من أولئك الذين يكرهون الحروب ويريدون للبشر رقيا منتظماً فى ظل السلام والحرية وآلم شىء لقلبى أن يفترس الإنسان الإنسان كما تصنع الوحوش فى البيداء غير أنى أنظر اليوم إلى العاطفة الحربية فى جهتها الشعرية فأحس بجمالها وجلالها .

نحن بين يدى حكومة عسكرية فى ريف بعيد عن الحركة لاتصلنا جرائد ولا رسائل ولا نعلم من أخبار الحرب ولا غيرها إلا ما يعلن إلينا رسميا صبح كل يوم .

ليست هذه البقعة غنية بمدخراتها ولا هى تستطيع أن تجد مدداً من الخارج لأن طرق المواصلات مشغولة كلها بنقل الجنود والذخائر . لذلك وجب التبلغ بالقليل والقناعة بالكفاف .

والمصارف لا تدفع مما عندها من الأمانات إلا شيئاً قليلا وحركة الأخذ والعطاء واقفة . ثم إنك لا تجد فى هذه القرى إلا المستضعفين من الشيوخ

والأطفال والمرضى وإلا نساء يحشن فى قلق بين رجاء النصر والإشفاق من الثكل .

مشهد أليم وعيشة ضنكى فى بلاد الابتهاج والنعمة .

كل ذلك صحيح ولكن روحاً كريمة ترفرف بأجنحة من نور فوق تلك المصائب والآلام السوداء .

تلك هى عاطفة الوطنية التى تعزى الثاكلات والواقفات على باب الثكل وتملأ صدور الذاهبين إلى ساحة الحرب الزبون أريحية وطرباً .

بارك الله فى الوطنية وحيا كل مجاهد فى سبيل الوطن .

فرنسا فى ٦ أغسطس ١٩١٤   ناشر مذكرات الفزارى

« ع »

كتاب الواجب

١ *

بين أصوات الهتاف التى تلقى الدكتور طه حسين من كل جانب يرتفع هذا الصوت الضعيف من بلد بعيد ليحيي الأستاذ بنغمة هى أحب الأصوات إلى أسماع العلماء ، نغمة النقد العلمى لذلك الأثر الطيب الذى أهداه إلى قومه راجيا أن يجد لديهم من القبول ما يحملهم على أن يدرسوه . أعنى كتاب الواجب تأليف جيل سيمون .

وصلنى الجزء الأول من هذا الكتاب فرأيت من حق هذه الهدية الثمينة أن أعنى بدرسها وأن أكتب ما يعن لى من الملاحظات عليها ، فإنه إذا لم يكن لأهل العلم المنتجين من قومنا — وقليل ما هم — مكسب مادى من وراء ما ينشرونه على الناس من ثمرات عقولهم لأن إقبال أمتنا على شراء الكتب وقراءتها لا يزال ضئيلا بعيداً عن أن يشجع طالب ربح بل طالب كفاف على الإقبال على صناعة العلم . وإذا كان هذا العزوف عن قراءة الكتب الجديدة يحرم المؤلفين أيضاً لذة النجاح التى يحتاج إليها كل عامل من البشر — إذا كان هذا كله فلا أقل من أن يجد المصنفون والكتاب منا نحن معشر المشتغلين بالعلم عناية تريهم أن تعبهم غير ضائع سدى .

* * *

وصلنى كتاب الواجب وأنا بعيد عن كتبي ومذكراتى بعيد عن تلك المنضدة

* الجريدة — يوم الأحد ٢٧ رجب ١٣٣٢ ، ٢١ يونية ١٩١٤ .

التى أحببتها وألفت منها وضعاً خاصاً لدفاترى وأوراقى وأنست بما يحيط بها من جو يخيل لى أن كثيراً من خواطرى وآمالى يرفرف فى ثناياه . ليس بين يدى نسخة من كتاب الواجب فى لغة مؤلفه . ولكننى بالرغم عن هذه الظروف التى لا بد أن تضعف من القيمة العلمية لما أريد أن أتهيأ له من النقد لسفر كبير الخطر ، أتكلف ما نزعت إليه نفسى وفاء بعهد العلم وأداء لحق أهله .

* * *

تعريب كتاب الواجب مبدوء بمقدمه جيدة بقلم ناقليه من اللغة الفرنسية الأستاذ محمد رمضان والدكتور طه حسين .

يبين المعربان فى مقدمتهما أن جيل سيمون أحاط فى مؤلفه بأطراف الحياة النفسية للإنسان من حيث هى مصدر العمل المادى ثم بحث عن العمل النفسى ، ويذكر أنه وضع مصنفه ليذكر الناس بواجباتهم التى شغلوا عنها بحقوقهم وليرفع من قيمة الأخلاق والحرية فى أنفسهم وليعمل على بسط سلطان الفلسفة على الحياة العملية واعتقاداً بأن الفلسفة هى علم الحياة وأن من الواجب عليها أن تتناول مسائل الاجتماع الإنسانى من حاضره ومستقبله وأن يكون للناس جمعياً حظ فيها . ثم بينا أن قومنا اليوم أشد حاجة إلى العلم بالفلسفة من أهل فرنسا لعهد صاحب الكتاب وأنهم فى الغالب يظنون أن الفلسفة حرب على الدين وكان من الحق عليهم أن يتخذوها له نصيرا وإلى تأييده وسيلة .

وقالا إنهما يريدان من تعريب الواجب لقومهما ما أراده المؤلف من وضعه لقومه . ثم عادا إلى ذكر موضوع الكتاب لبيان أنه ليس مظنة لأن يسخط أحداً ولبيان أن مصنفه مؤله متدين روحى يقول فى الاختيار بقول أهل السنة . كأن ذلك شعور بما يحيط اختيار العلماء فى بلادنا من قيود الجبر . وأهديا تعريبهما لذوى العقول المستنيرة غير كارهين نقد الناقد كما هو شأن العالم المخلص .

لا يسعنا إلا أن نشكر الأستاذين على نيتهما الشريفة إذ يريدان أن يزيلا

ما علق بأوهام الناس عندنا من سوء الظن بالفلسفة وأن يجعلا ذلك الفن صناعة عملية تشترك الطبقات كلها فى تناول مباحثها والانتفاع بها فى مضمار الحياة . ولست من رأيهما فى القول بأن حق الفلسفة أن تتخذ نصيراً للدين ووسيلة إلى تأييده فإن ذلك ضار بالدين والفلسفة جميعاً .

أما ضرره بالدين فلأنه يعرض عقائده وهى عواطف قدسية تتأثر بها النفس كما تتأثر بلهجة الجمال لمناقشات العقل ومناقضاته . وإنك لترى عقائد الدين فى سذاجتها كانت تملأ صدور الناس فلا تدع فيها موضوعاً لغير الله حتى ليهتف هاتفهم وهو يترامى إلى الهلاك والرماح شاجرات :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى !

كان ذلك البدوى يعتقد بدينه كما يحب ابنه . فأنت سائل أباً : لم تحب ولدك ؟

ولما صارت عقائد الدين فلسفة تكتسب بالأدلة وخرجت عن حكم المشاعر القلبية إلى حكم النظريات العقلية ، وجد فى خيار المؤمنين من يقول :

كل يعــزز رأيــه ياليت شعري ما الصحيح ؟

وأما ضرره بالفلسفة فلأنه يحدد لمقدماتها نتائج تقليدية ويجعل بحثها عن الحقائق موجهاً إلى غاية هى تأييد الدين فتأخذ هى أيضاً شكلا دينياً مقدساً لا يتناسب مع حرية البحث والنقد .

إن أقصى أمانى الدين والفلسفة أن يتعاونا على إسعاد الإنسان: هذا من طريق القلب والعواطف وهذا من طريق العلم والنظر لا أن يتلاقيا فى ميدان واحد وجهاً لوجه .

إننى أحب الحرية حباً يجعلنى حريصاً على أن تكون للعقول حريتها فى الفهم وللقلوب حريتها فى الإيمان .

ما كانت الفلسفة لتعادى الدين ولكنها أيضاً لا تخدمه .

ولست فى الحقيقة ممن يذهبون مذهب جيل سيمون إذ ينزع بالفلسفة نزعة دينية لم تقربه حتى من رجال الكنيسة . وما أريد بهذا أن أنقص من قيمة اختيار الدكتور طه حسين وصاحبه لكتاب الواجب فإنى أعلم أن حركتنا العلمية ينبغى أن يتسع لها المجال فتتناول جميع المذاهب الفلسفية بالدرس والمقارنة حتى إذا سلكت منها منهجاً سلكته عن بصيرة لا يضيق بها اختيار .

وقبل أن أختم القول فى مقدمة التعريب ألاحظ على قول المعربين أن جيل سيمون : « يرى من حق الفلسفة ومن الواجب عليها أن تتناول مسائل الاجتماع الإنسانى فى حاضره ومستقبله »[١] .

ذلك يفيد أن صاحب كتاب الواجب يريد أن يجعل علم الاجتماع الباحث عن عوارض الجمعيات من متناول الفلسفة . وهو مالم يرده لأن عبارته : « . . . أليس من التناقض أن يكون من شأن الفلسفة ومن الواجب عليها ومن الحق لها أن تبحث عن كل المسائل التى يتوقف عليها حاضر الاجتماع ومستقبله ؟ »[٢]

والمسائل التى يتوقف عليها حاضر الاجتماع ومستقبله ليست هى مسائل الاجتماع .

وكذلك ألاحظ على المعربين قولهما إن جيل سيمون متدين[٣] . وهو لا يؤمن بنبوة ولا يعتقد بدين من الأديان المعروفة وإن آمن بالله وبما بعد الموت كما سنبينه بعد .

بقى أن أسترعى نظرهما إلى أن ترجمة المؤلف التى صدرا بها الكتاب ليست وافية بالغرض الذى ينبغى أن يقصد من تراجم العلماء فإنها لا تبين لنا العوامل ذات الأثر من تكونه العقلى ولا ترينا بوضوح تطوره العلمى ولا موضع الجدة فى نمطه الفلسفى ؛ ومن الميسور تدارك ذلك فى ما بقى من أجزاء الكتاب .

---

(١) ص د مقدمة التعريب . (٢) ص د مقدمة المؤلف .
(٣) ص هـ مقدمة التعريب .

٢*

يحتوى الجزء الأول من كتاب الواجب على مقدمة وثلاثة فصول ، وسنبتدئ ببحث المقدمة ثم نجعل لكل واحد من الفصول الثلاثة مقالا خاصاً ونختم بملاحظاتنا العامة على تعريب الكتاب .

المقدمة

ذكر صاحب كتاب الواجب فى مقدمته أن الفلسفة لدى الفلاسفة هى : « طائفة من المسائل المجردة التى تتعلق بالمبادئ والنتائج العامة لجميع العلوم » .

وفى هذا التعريف غموض لا تكاد تخلو منه المقدمة كلها، ولا أفهم المراد بوصف المسائل فيه بالمجردة . ثم بين المصنف : أن عامة الناس إنما يطلبون من الفلسفة أجوبة مقنعة عن واجباتنا فى الحياة ومستقبلنا بعد الموت من غير أن يميلوا إلى تكلف التحليل والاستدلال وتشعيب النظر ، يطلبون نتائج الفلسفة بلا مقدماتها النظرية العويصة، ثم قال: أنا أريد من الفلسفة أن تكون سهلة التناول لكل العقول المستنيرة وأن تنزل إلى العامة معتزلة اصطلاحاتها الغامضة ومناقشاتها المذهبية تلطفاً فى الحيلة لاستمالتهم إلى ما ينفرون منه . وما كان هذا التنازل ليضر بالفلسفة بل هو يقربها من ميدان الحياة ويكسبها صبغة عملية .

وزاد ذلك توضيحاً بقوله : إن للذوق العام الذى هو مجموع الآراء المسلم بها فى كل عصر قوة « وإن العاقل بدون أن يكون رقا للذوق العام يستطيع أن لايتركه إلا شيئاً فشيئاً وأن يعيش معه على وفاق » .

ثم ذكر جيل سيمون أن الصلة بين العامة والعلم وبين العمل والنظر كانت

* الجريدة — فى يوم السبت ٤ شعبان ١٣٣٢ ، ١٧ يونية ١٩١٤ .

منشأ لبعض المذاهب الفلسفية فى القديم وربما صارت فى عصورنا الحاضرة مصدر الفلسفة . فلئن احتاج أهل الزمن الماضى إلى عزاء روحى وجدوه فى عالم الفكر فإن جيلنا المعذب بهذه الحياة العصبية الحادة ليس أقل حاجة إلى ذلك العزاء .

وتعرض بعد ذلك الفيلسوف الفرنسى للرد على أعداء الفلسفة : الذين يحتقرونها وينكرون نفعها لأنهم أهل مادة وحس لا يعرفون شرف السعادة العقلية ولذة الروح ، والذين يرغبون عن الفلسفة اعتقاداً بعجزها عن إيضاح كثير من الحقائق ، وهم محقون فى قولهم إن سلطان الفلسفة على كشف الحقائق مجهول ولكن هذا لا يبرر نفرتهم من الانتفاع بما تقدر الفلسفة على إيضاحه ، والذين يعتقدون أن الفلسفة خطرة وإن قررت من الآراء والمذاهب ما قرروه لأنهم كما يقبسون عقائدهم يقدسون المقدمات الموصلة إليها . وأولئك على ما فى أقوالهم من الخطر قد سكنت ريحهم بعد أن قررت مبادئ الحرية فى العلم على يد ديكارت وفى السياسة ببركة الثورة الفرنسية . وختم مؤلف كتاب الواجب مقدمته بما مضمونه : إن عدم الاهتمام بالفلسفة ربما كان معقولا من شعب متدين لأن كل الأديان تعطى حدوداً إلهية لما تحاول الفلسفة أن تحله بالعقل .

أما المجتمعات الجديدة فلا يعقل منها هذا لأنه لا صارف لها عن الله وعن العالم الآخر . وإذا لم نذكر الفلسفة للموت وما وراءه ذكرناها للواجب الذى لا يمكن الإيمان به بدون إيمان بالله والحرية والخلود .

إن جيل سيمون ليس متمسكاً بعقائد دين من الأديان المعروفة كما هو واضح من هذه المقدمة . هو يعنى بالطائفة الثالثة من طوائف أعداء الفلسفة جماعة الدينيين وقد بين أن ريحهم خمدت . وقال فى موضع آخر : إن عداوة الفلسفة تعقل من قوم متدينين لكنه يعتقد بوجود الله وبوجود الروح وخلودها وبأن الواجب من أمر الله لا من صنع البشر . يقرر تلك الأصول النظرية على

آنها مسلمات مقدسة ثم يبنى فلسفته الحرة على أساسها وهو بهذا ينزع نزعة لا تتفق مع الروح الفلسفية . نعم إن مباحث الألوهية والأرواح وما بعد الموت هى من مسائل ما وراء المادة التى لا خير فى العمل على تقريبها من آذان العامة فيما يريد الفيلسوف الغربى أن يقربه إليها من نتائج الفلسفة . ولكن اعتبار بعض هذه النظريات أصولا مسلمة ثم بناء فلسفة عملية عليها ليس احتراماً لطرائق الفلسفة ولا هو يرضى الدين كل الرضى . يبحث جيل سيمون مسألة الاختيار مثلا على وجه مفصل ويقرر أن لا تنازع بين سلطان الإله القاهر وإرادة الإنسان الحرة . فلا هو اعتبر مسألة تحديد قدرة الله من مسائل الدين التى تمسها الفلسفة العملية، فترك التعرض لها، ولا هو اعتبرها فلسفة وقررها من وجه نظرى . والحقيقة أن صاحب كتاب الواجب هو طالب إصلاح لحال البشر أراده من طريق بين الفلسفة والدين ليس همه هم العالم الذى يكشف من الحقائق كل ما تتسع له طاقته غير محدد نتائج بحثه قبل الشروع ، بل همه هم مصلح قرر فى نفسه غرضاً هو سوق الناس إلى أداء الواجب وعرفان قيمة الحرية ثم هو يحاول أن يتخذ طريقاً فلسفيا للوصول إلى هذا الغرض .

من أجل ذلك يدعو جيل سيمون إلى احترام ما يسميه الذوق العام وإلى التلطف فى الخروج عنه . كلمة لا يقولها الرجل العلمى الذى إذا وصل إلى حقيقة علمية أشاعها فى الناس غير ناظر إلى ما يكون من نتائج العلم بها ما دامت ثابتة من طريق علمى .

أولئك المصلحون يعنون بالوصول إلى غايتهم الشريفة أكثر مما يعنون بتطبيق وسائلهم على الأصول الفلسفية. ولهذا يحسن أن تنقد المبادئ التى يريدون تقريرها فى عقول البشر وأن يتسامح لهم فى ما عسى أن يكون من مجاوزة الأنماط العلمية .

وإن تقرير الحرية ودعوة الناس إلى أداء الواجب لهى أكرم المبادئ التى نتمنى مع المصلح الفيلسوف أن تسود فى الناس .

أشرنا إلى أن المقدمة لا تخلو من غموض . ونلاحظ أن شيئاً من تكلف الحرص على الترجمة الحرفية له مدخل فى هذا ونذكر على سبيل المثال الجملة الآتية :

« هم يكرهون كراهة مقدسة ما يسمى بالمذاهب لأنهم لم يكادوا يعرفونها إلا من مطولات أو مختصرات كاذبة ولأنهم يعلمون علما يشوبه الإبهام أن كل المذاهب يهدم بعضها بعضاً منذ نشأت الفلسفة »[١].

ولا يعجبنى كثيراً كلمة الدين الطبعى[٢] ولا أرى أنسب بتعريب Religion naturelle من التعبير المعروف « دين الفطرة » . ثم إن جملة « فنعتزل عندهم اصطلاحاتها الخ . .[٣] » من حقها أن تكون : « فنعتزل عنهم » .

طالب مصرى فى أوربا

٣

الفصل الأول

فى إثبات الاختيار *

بدأ جيل سيمون هذا الفصل ببيان أن هناك حرية مدنية للفرد هى تصرفه فى شخصه وملكه بلا تضييق ، وحرية سياسية للأمة هى أن تشترك الرعية فى وضع القوانين وفى إدارة البلاد وأن لا يكون لأحد من الأفراد امتياز على آخر وأن لا يحاكم أحد إلا طبقاً للقوانين وأمام قضاء منظم وبجرائم محدودة ، ثم إن المعنى الحقيقى للحرية وهو تصرف الإرادة تصرفاً غير مغلوب هو من وراء هذه المعانى التى هى فى الواقع نتائج للحرية نسميها تساهلا الحرية .

(١) ص ا من المقدمة .

(٢) ص ا من المقدمة .

(٣) ص ٢ .

* الجريدة — فى يوم الأربعاء الموافق ١٥ شعبان ١٣٣٢ ، ٨ يولية ١٩١٤ .

وقال الفيلسوف إن الروسى والعثمانى على حرمانهما متاع الحرية المدنية والسياسية يملكان إرادتهما فهما أحرار. وقد وضع الدكتور طه حسين وزميله الأستاذ هامشاً عند هذه النقطة يقولان فيه : إن العثمانيين نالوا الدستور بعد تأليف الكتاب . ولعمركما يا صاحبي! ما دستور الأتراك بأكثر ضماناً للحرية السياسية والمدنية من جمعيتنا التشريعية .

ثم بين صاحب كتاب الواجب أن كل إنسان يؤمن بحريته إيماناً لا مجال للشك فيه . هو يعجب بما يأتيه من خير ويشعر بذل وانكسار لما يكون عن عمله من نتائج سيئة .

يولد الناس ومعهم هذا الاعتقاد وهو يلازمهم حتى الموت ماعدا بعض السوفسطائيين .

« ولم توجد الحرية مع الإنسان منذ كان العالم فحسب بل هى طبيعة له لا تقهر »[1].

وقد وضع المعربان هامشاً عند هذه الكلمة قائلين: إن جيل سيمون يريد أن الحرية من ذاتيات الإنسان لا من أعراضه اللازمة . وبعيد أن يقرر الفيلسوف أن الحرية فصل من فصول الحقيقة الإنسانية أو جنس . وما أظنه يريد إلا أن ملازمة الحرية للحقيقة الإنسانية ايست مصادفة كعرض مفارق ليس من شأنه أن يدوم ، بل الحرية عارض ملازم لا يتصور انفكاكه .

وقال الفيلسوف الفرنسى : إن الذين ينكرون الاختيار يتكلمون ويعيشون ويشعرون كأنهم يعتقدون به فهم لا يرتابون ولكنهم يتكلفون الارتياب .

إن رسوخ الإيمان بالحرية حق لا ريب فيه كما أن وجود الأشياء التى أراها بعينى وألمسها بيدى ثابت ، لأن نوعاً من أنواع الغريزة التى لا تقاوم يدفعنا إلى الاعتقاد بوجودها ، وذكر بعد هذا جيل سيمون ملاحظة دقيقة فى إثبات حرية الإنسان قال : إن وجود معنى لكلمة الحرية فى أذهاننا دليل على أن

---

(١) ص ١٤ .

هذا المعنى ثابت فى أنفسنا إذ أن ترديدنا لكلمة لا يكفى لإدراك معناها بل لا بد أن يوجد هذا المعنى فى النفس أو خارجها ولو لم نكن أحراراً لما أدركنا عليه شىء لشىء لأن العالم الخارجى لايعطى إلا تبعية زمنية بين سبب ومسبب، فإذا حكمنا بأن حادثاً ما علة للذى يليه فما لذلك من مصدر إلا أن عندنا مبدأ التعليل لأننا نشعر بتأثير العلة الفعالة بين التفكير الذى يسبق الحركة وبين الحركة نفسها، فلو لم نكن أحراراً لما كان للعلة عندنا معنى أكثر من معنى اللون عند الأكمه . هذا وإنما يدعو إلى الإفاضة فى إثبات الاختيار، وهو غنى عن الاستدلال ،أن معرفة الواجب موقوفة عليه. والواجب هو التضحية، أى حياة لله وللناس لا لأنفسنا فقط .

الواجب قد يكون هيناً ولكنه غالباً محاط بالأخطار والآلام ومن أجل مصاعبه وتكاليفه قد نتزل عن الاعتراف بحريتنا مع بداهتها فراراً من التضحية . لذلك وجب إثبات الاختيار إثباتاً يمحق الشك ويصرع السوفسطائية ويصرع معهم الألم الذى يخيفنا من الواجب ويزلزل فى نفوسنا أساسه وهو الاعتقاد بالاختيار . والطريق إلى ذلك هو البحث فى أنفسنا ومعرفة كيف نعمل .

ثم حلل المصنف العمل الإنسانى الصادر عن بصيرة وروية من حين أن يكون خاطرا يتمخض به الذهن إلى أن يصير موجوداً خارجيا تتولاه القدرة . وجعله أربعة أجزاء : تصور العمل فى نفسه وتصور الأسباب ومناقشتها والتصميم والتنفيذ . وبين هذا الأجزاء الأربعة فى عمل معين ضربه مثلا وقال إنه لا سبيل إلى إنكار أن وجود الاختيار فى الإنسان، وإن نقص من سلطان الغريزة، يترك محلا للحركات الغريزية . وذكر أن من الأفعال الاختيارية مالا يطول بنا الوقت فى مناقشة أسبابه والتفكير فيه ، وأن حكم الناس على هذه الأفعال الفجائية ليس عدلا من جميع جهاته لأنهم يعتبرون عدم التروى مخففاً للإثم فى العمل السىء ومضاعفاً للثناء فى العمل الطيب. وهم محقون فى الأولى لا فى الثانية، لأن الفضيلة الصادرة عن التفكير أجدر بأن تكون فخاراً لصاحبها .

وعندى أن حكم الناس فى هذا أقرب إلى العدل من حكم الفيلسوف فإن مرانة النفس على الجميل مع حسن استعدادها لتمييزه يورثها ملكة تشبه الفطرة التى لا تدافع ، ولا أدرى لم يريد صاحب كتاب الواجب أن ينقص حظى من الثناء حينما تكون نزعة نفسى إلى الخير ماضية تشق إليه مسرعة حجب الشهوات ومناقشات العقل .

وختم المؤلف الفصل ببيان فضل الاختيار الذى يميزنا من الحيوانات الضعيفة الخاضعة للشهوات والأهواء .

* * *

نظرية الاختيار الإنسانى نظرية معضلة فى الفلسفة الحرة وفى علم التوحيد . وقد وجد فى كل جيل أنصار للاختيار وأنصار للجبر ولكل من الفريقين أدلة على تأييد مذهبه يضل العقل بينهما .

ولو شئنا أن نثبت من وجه علمى أن الإنسان حر فى تصريف إرادته بالرغم عما يناله من حكم الوراثة وأثر التربية وسلطان الوسط لما استطعنا أن نسمى مع الفيلسوف جيل سيمون جميع منكرى الاختيار سوفسطائية ، وأن نقول إنهم لا يرتابون فى حرية الإنسان ولكنهم يتكلفون الارتياب .

إن مسألة الاختيار ليست من البداهة بهذه المثابة خصوصاً مع الاعتقاد بألوهية مطلقة التصرف مختارة .

على أننا نحب لخير الإنسانية أن يشيع فى الناس الشعور بحريتهم واختيارهم لأن هذا الشعور ينعش النشاط البشرى ويدفعه فى سبيل العمل وهو يكبر فى المرء الثقة بنفسه ويجعل آماله عالية .

« هذه الحرية المقدسة هى الأساس الثابت لحريتنا المدنية والسياسية فإن من الواجب أن يكون لنا إرادة لنطالب باحترام إرادتنا » .

إننى أدعو مع صاحب كتاب الواجب إلى الإيمان بالحرية مقتنعاً بأن هذا الإيمان خير كله ولو أثبتت جميع البراهين الفلسفية أن نظرية الاختيار الإنسانى غير صحيحة .

كثيراً ما تسعد الأمم بقوة يقينها فى معتقدات شعرية حظ الأمانى فيها أكثر من حظ الحقيقة الثابتة .

بل لو شئت لقلت إنه لا بد للأمم فى نهضتها من عقائد حماسية تحرك عاطفة الكبر وأريحية الطموح إلى الأمد الأبعد وتخرج شعور المجاميع بين آن وآن عن جد الرزانة العلمية الفاترة . كذلك كان يعتقد العرب أنهم خير أمة أخرجت للناس . ويشهد الإنجليزى أن الأرض لم تقل حيواناً ناطقاً أشرف من قومه السكسونيين .

تلك معتقدات لا يؤيدها البرهان ولكنها على ذلك مكنت لبنى يعرب بن قحطان فى الأرض وهى اليوم تجعل لسكان الجزائر البريطانية الغلبة والبطش فى جوانب المعمورة .

وما أشد حاجتنا نحن أبناء مصر إلى الإيمان بأن لنا إرادة وأننا خلقنا أحراراً .

طالب مصرى فى أوربا .

٤

الفصل الثانى

فى البحث عن الاعتراضات المهمة على الاختيار *

هذا الفصل مبدوء بجملة مقتبسة من كتاب بوسيي الفيلسوف الفرنسى وفيها تحريف لا ينفذ فى أثنائه الفهم إلى معناها .

وقد حصر جيل سيمون الاعتراضات الموجهة على الاختيار فى ثلاثة ذكرها وناقشها تفصيلا .

* الجريدة — فى يوم الخميس الموافق ٢٣ شعبان ١٣٣٢ ، ١٦ يولية ١٩١٤ .

الاعتراض الأول :

هو أن الإنسان ليس مختاراً لأنه لاسلطان له على الطبيعة بل هو خاضع لحكمها . بيّن الفيلسوف بياناً وافياً أن ذلك خلط بين الإرداة وبين القدرة وأن الإنسان يملك دائماً إرادته التى تختار وإن كان النجاح فى تنفيذ ما عقد عليه نيته كثيراً ما يخرج من طوقه .

الإرادة هى كل شىء وإن كان العدل الإنسانى قد يقدر الجريمة بنتيجتها . وليس ذلك من خطأ فى التشريع ، بل لأن العدل وضع للحماية وتأييد النظام كما وضع للعقاب . فعلى المشرع أن يخفف من صرامة القوانين كلما استطاع الاجتماع احتمال التخفيف .

ثم إن هناك حرجاً فى تقصى نيات الإجرام ابتغاء العقاب عليها ولو عنيت القوانين بهذه التفاصيل لأعنتت الناس .

وما درى صاحب كتاب الواجب أن القرن المتمم للعشرين يتمخض فى مصر عن قوانين تأخذ الناس بما همت به نفوسهم .

ذكر الفيلسوف أن للمحافظة على الأمن والسكينة فى المجامع طريقين : أحدهما جعل الأفراد عاجزين عن ارتكاب الشر بالتضييق على مظاهر حريتهم . والثانى صرفهم عن إرادة الشر بتربية حريتهم . والإنسان على كل حال متمع باختياره المطلق فى تصريف إرادته .

ولقد أنشأ مالبرنش مذهباً فلسفيا جعل به الإنسان عاجزاً لا حول له ولا قوة ورد قدرته إلى قدرة الله المطلقة المنفردة بالوجود ومع أن هذا الفيلسوف جعل قدرة الإنسان وهما من الأوهام فإنه لم يستطع أن يخليه من الإرادة الحرة .

وإنا لنعجب لجيل سيمون كيف يقول إن رد قدرة البشر إلى قدرة الله كما هو مذهب مالبرنش يستبقى لهم إرادة حرة مع أن اختيارى لشىء هو علة لتعلق قدرتى به . وإذا كانت قدرتنا من الله وإليه فعلها، أعنى الإرادة، هى من الله حتما . وإلا لزم المحال وهو أن يكون الاختيار الإنسانى سبباً للقدرة الإلهية .

الاعتراض الثانى :

مبناه أن من المحال أن يوجد شىء بدون علة تامة سواء فى ذلك ما كان ذا خطر من الموجودات وما لا يعبأ به منها ، والحوادث النفسية شأنها فى ذلك كشأن الحوادث المادية . فنزوع إرادتنا إلى أمر من الأمور له علة تامة تقتضى وجوده حتما ولا تتصور حرية للإرادة مع هذه القوة التى تصرفها بالرغم عنها .

قال الفيلسوف : ولنا أن نلجأ فى رد هذا الاعتراض إلى بداهة الواقع التى لا يغالبها الاستدلال العقلى فإننا نؤمن بحريتنا إيماناً يثبت أن كل ما يوردونه على الاختيار من الاعتراضات إنما هو مغالطة . على أن هذا الاعتراض إنما يقوم على شبهة من السهل دفعها .

نعم إن مبدأ العلية مبدأ ثابت فلنسلم أن لكل كائن، بل لكل تغيير فى ذلك الكائن، باعثاً كافياً لوجوده وأن أعمال الإنسان الإرادية لا تشذ عن هذا القانون العام . فكلما أردت كان هناك علة لأن أريد ولأن أريد بصورة دون أخرى ولأن أبذل مقدارا معيناً من المجهود . فالإشكال كله فى معرفة هذه العلة . ألا تكون فى نفسى ؟

نحن أنصار الاختيار نقول إن الإرادة من العلل المشتملة على النقيضين وما بينهما من الدرجات ومن شأنها إمكان الإتيان بأيها شاءت مختارة .

ليس معنى ذلك أن الإرادة تتصرف من غير باعث بل معناه أن الإرادة تتحرك عند الباعث لا به . وخصوم الاختيار ينكرون وجود علة مستعدة لإحداث معلولات مختلفة بل متناقضة تبعاً لرغبتها الحرة . هم يقررون أن كل علة تشبه العلة الطبيعية .

وليس الأمر مقصوراً على أن دعواهم لا تستند على دليل، بل من الحوادث ما يدل على نقيضها . لنفرض أنى أمام الموقد فاتقيت حره بحاجز وضعته بينى وبينه . الحادث الأخير هو وضع الحاجز بينى وبين النار. وعلة هذا الحادث

هي حركة اليد التي أخذت الحاجز فوضعته موضعه . وحركة اليد هذه حادث وقع بإرادتي . وعلة توجيه إرادتي هي شعوري بألم بدا لي أن أتقيه . وعلة الألم هي النار .

تلك كلها علل متوالية لكن أحداً لا يستطيع أن يدعي أنها من طبيعة واحدة . فإن تلك العلل لا يمكنها أن توجد إلا آثاراً معينة محدودة بخلاف الإرادة فإن لها الغلبة على أمرها وهذا بديهي .

قال الفيلسوف : إن الأدلة التي يقيمونها على نفي الاختيار هي التي يقيمونها على استحالة وجود شيء من لا شيء فهم يتمسكون في الحالين بمبدأ العلة . وذلك شطط . إذ هو يقتضي أن يكون الخالق علة كسائر العلل . ويمكننا أن نقول أيضاً رداً على ذلك الاعتراض : إن ادعاء مناقضة العلية للاختيار على الإطلاق يقضي بأن يكون الله غير مختار وهو محال . ومتى ثبت اختيار الله، وهو علة العلل، ثبت عدم التناقض بين الاختيار والعلية .

وقد لاحظ المعربان بحق على قول المصنف : « إن تجرد الله من الاختيار ومشابهته لسائر العلل من المحال » أنها قضية لم يقم عليها دليلا وخالف فيها معظم الفلاسفة المؤلهين. وذلك مصداق ما قلنا من أن جيل سيمون ينزع أحياناً نزعة دينية في بحثه الفلسفي . وعاد الفيلسوف بعد ذلك يقرر أن من طبيعة إرادتنا أن تعتبر سبباً عند تصميمها وإن كانت مستقلة عن جميع الأسباب ، ورد قول بوسيي وريد بأن الإنسان يعمل أحياناً مختاراً لغير سبب قائلا : إن النفس متى راقبت حالها شعرت بسبب للترجيح حقا كان أم باطلا . وذكر أن الفيلسوف جوفروا استدل على أن الإرادة غير خاضعة للأسباب بأن ما يكون في أنفسنا بين تصور العمل والإتيان به هو أننا تارة نوازن بين أسباب مختلفة، وتارة يكون الجدال بين شهوات متباينة ، وأحياناً بل غالباً يتنازعنا سبب يدركه العقل هو شهوة تتسلط على الشعور . ومن السهل أن يرجح العقل بين سبب وسبب ، كما أنه يجوز أن تغلب شهوة على شهوة، لكن كيف يرجح العقل السبب الذي مرجعه

إليه على باعث الشهوة وهما أمران متمايزان يصدران عن ملكتين متباينتين؟ ليس فى أنفسنا على رأى جوفروا شىء يستطيع الموازنة بين قوة الشهوة وقوة الفكر . فى هذه الحال تعمل الإرادة حرة مستقلة . قال مؤلف كتاب الواجب : وقد فات مسيو جوفروا أن صورة تنازع الإرادة بين فكرة وشهوة صورة محالة لأن الفكر الذى يعتبر سبباً للإرادة لابد أن يقترن بشهوة وأن يمت إلى الشعور بسبب وإلا كان شأناً عقلياً صرفاً بعيداً عن التأثير فى الإرادة .

وختم الفيلسوف بقوله : لا حاجة بنا إلى الاعتماد على هذه المذاهب الفاسدة أو المتنازع فيها، لأن الضمير والذوق السليم يكفيان لإثبات أن الإرادة تملك تصرفها ولو تجاذبتها قوتان متساويتان، بل لو تجاذبتها قوتان متفاوتتان كان فى استطاعتها أن تميل مع الطرف المرجوح .

ولقد تفصح هذه المناقشات عن علم جيل سيمون ودقة نظره الفلسفى وإن كان ما يريد إثباته من أن الإرادة الإنسانية تنبعث من ذاتها وأن الأسباب موجودة لإرشادها لا لإلزامها مع تسليمه بمبدأ العلية فى جميع الموجودات لا يخلو من غموض .

الاعتراض الثالث على الاختيار :

هو أنه مناف لإحاطة علم الله القديم . فإن ماعلمه الله أزلا وهو سابق على اختيارى لامنصرف لإرادتى عنه . وقد رد الفيلسوف الفرنسى على هذا الاعتراض بأن منشأه اعتبار الزمنية فى علم الله، والله بوجوده وصفاته خارج عن الأزمنة والأمكنة . قال جيل سيمون : ولم يكتفِ خصوم الاختيار بالاعتماد على أزلية العلم فى اعتراضهم عليه بل هم متمسكون أيضاً بقدرة الله . قالوا : إن معنى القدرة ليس قوة لا يمكن لشىء ما أن يقاومها بل قوة لا تقاوم بالفعل . فإذا ما قلنا إن الله قادر لا نريد نفى حصول شىء رغم إرادته بل نريد إثبات أن كل ما يقع يجب أن يطابق إرادته بل يقع بإرادته . فإذا ما تقرر ذلك، فأين

الاختيار ؟ وما معنى قبح العمل ؟

ولا يكون هناك جواب على هذا الاعتراض إلا أن الله فوق الفهم وكذلك الإيجاد الذى هو لازم له[1]. وفى هذه الجمل التى نقلناها بالنص خلط ، وقد يكون هذا الخلط ظاهريا لأن كل ما يريده الله تتعلق به قدرته فتفسير إحاطة القدرة بإحاطة الإرادة تفسير باللازم ولا يخفى ما فى رد الفيلسوف من الإجمال والضعف .

طالب مصرى فى أوربا

٥

الفصل الثالث

فى السعادة

هذا الفصل الختامى للجزء الأول من كتاب الواجب مفتتح بكلمة أرسطو المشهورة : « العادة طبيعة ثانية » ، يتلوها تقسيم الأعمال الإنسانية إلى غريزية وإرادية وعادية . ثم ذكر المؤلف أن لاعلاقة بين الواجب وبين الغريزة التى لا مدخل لنا فى كسبها ، وأن الواجب ذو ارتباط بالأفعال الإرادية وبالعادة التى نسأل عن كسبها وعن عدم محاربة نتائجها أحياناً وبين أن جميع الأشياء خاضعة لقوانين ثابتة متشابهة وأن الإنسان من حيث هو جسم غير خارج عن قوانين الطبيعة والكيمياء كجميع الأجسام ، ومن حيث هو حى خاضع لقوانين الحياة كسائر الأجسام الحية . غير أن حاول الزائر المختار المريد فيه — يعنى النفس الناطقة — يوجد حركات إرادية ليست ذات أصل طبعى . لكن هذه الحركات نفسها مع ما يتصل بها لا تلبث أن تقع تحت سيطرة القوانين العامة المتحكمة فى جميع القوى غير الإرادية . والإرادة تستخدم هذه

(١) ص ٥٦ .

القوانين ولكنها لا تستطيع تغييرها .

قال جيل سيمون : وعلى هذا يكون للنفس قوانين قاهرة كما فى الأجسام ، « فليس لإرادتى دخل فى أن ترى عيناى الضوء مفتوحتين ولا فى أن أدرك صحة القضايا الأولية أو الاستدلال الصحيح أو ما فى إثبات الذكرى من قوة بل يبقى بعض الذكرى طى الذاكرة مهما حاولت نسيانه »[1] وقد نقلت هذه الجملة بنصها لأن تكلف الحرص على الترجمة الحرفية ردها محتاجة إلى تعمل فى الفهم وأخلاها من الرشاقة التى تزين التعريب الذى نحن بصدده وما نأخذ الأستاذين معربى كتاب الواجب بمثل هذه التفاصيل التى يتسامح فيها النقاد عادة إلا كما تلاحظ الدقائق المخفية على الصناع الماهر .

قال صاحب كتاب الواجب : كل أعمال الشعور والعقل لها قوانين عامة ومستقلة عن الإرادة كالقوانين التى تحكم الجسم وليس للإرادة من سلطان على تلك القوانين إلا لاستخدامها للخير أو الشر ، للربح أو الخسران .

وفى هذا الموضع أيضاً جملة « فالإرادة تعمل فى كل ما يكون الإنسان .... الخ » لا تخلص من صعوبة كأختها .

وبعد هذا فسر الفيلسوف الحركات الغريزية بأنها الحركات التى توجد منا بدون أن يلتفت عقلنا إليها أو إلى أسبابها . سواء صدرت من طفل لم تلح فيه مظاهر الإرادة أو من رجل مستحكم واضح الاختيار كغض الجفن للمحافظة على العين . ومن مميزاتها أنها تقع فى شكل واحد فى أحوال واحدة . هذه الحركات متحدة النوع غالباً فى جميع الحيوانات إلا أنه لما كانت الإرادة فى الحيوان غير ثابتة ولا منتظمة قامت مقامها الغريزة واقتضى ذلك أن يمتد سلطان هذه على كثير مما هو إرادى عند الإنسان . ولقد تقع الحركات الغريزية عند الإنسان على وجه إرادى ولكنها حين ذلك تكون أقل سرعة وسهولة وأقل إصابة .

---

(١) ص ٥٩ .

ولربما وددنا أن تكون لنا غرائز الحيوانات لو لم نكن قادرين على خلق غرائز صورية فى أنفسنا لا هى شئون إرادية محضة ولا هى من الحركات الطبيعية .

والفرق بين العادة والغريزة أن الطبيعة هى التى تودع فى الفطر طريقة العمل المسماة بالغريزة كمشى الحيوان من حين يولد والإرادة أو التربية هى التى تعطينا ملكة العمل التى نسميها العادة كمشى الإنسان بعد أن تمرن عضلاته على السير . فلا فرق بين مظاهر الغريزة ومظاهر العادة وإنما الفرق فى أصليهما .

قال الفيلسوف : ومن الواضح إن الإنسان لو لم تكن له إرادة لكان مخلوقاً ناقصاً يفكر ولا يستطيع الاستعانة بفكره على قضاء حاجاته . ولو كانت كل أعماله بإرادة وتفكير لما تعلقت قدرته بشيء كثير « ولكانت كل أعمالنا اللاشعورية والتى هى فى الحقيقة أكثر أعمال حياتنا تستغرق كل قوانا ولما بقى شيء منها للأشغال والكماليات والاختراعيات »[١] ولا أدرى ما وقع لفظ الأشغال هنا !

وقد بين سيمون نفع العادة فى تهوين أعمال الحياة بياناً جليا . وقال عند الكلام على أثرها فى الصناعة : «فتعلم الصناعة عبارة عن اكتساب العادة وهو الفوز بعد ذلك بصفات من رتبة أخرى تكون الصانع الماهر أو العالم أو الفنى ، ولكن بغير العادة ، أى الصناعة ، لا شيء من ذلك »[٢] وفى هذه الجملة ربكة أحسبها ناشئة من تحريف إن لم تكن عيباً فى التعريب . وقال الفيلسوف : إن مثل العادة فى الحركات النفسية كمثلها فى الأعمال المادية فلدينا مجموعة أفكار قديمة مكونة تجعلنا فى غنى عن إعادة التفكير فى الأحوال المماثلة ثم قال : « فإذا أثبتنا إمكان تعود الفضيلة أو سعة المعاذير ، أفلا يكون من أهم مسائل علم الأخلاق البحث عن أصل العادة وطبيعتها وقوانينها ؟»[٣] وكلمة «أو سعة » غير مفهومة الوضع فى الجملة .

---

(١) ص ٦٣ .
(٢) ص ٦٤ .
(٣) ص ٦٤ .

وبحث جيل سيمون عدة أمثلة من جزئيات العادات وبين أن تكرارها على النفس يخفف من حدة ما فيها من لذة أو ألم كتعود الرقة لذوى الثراء يضعف معه طعم النعيم فى أذواقهم واعتياد العيش الخشن عند الفقراء ينسيهم مرارته .

« لا نستطيع القول بأنهم يعتادون فلا يشعرون بالنفس فلا نسلى أنفسنا بهذه الفكرة بل يمكننا القول بأن القدرة تكلأهم فتكسر من حدة شعورهم حتى لا يؤذيهم الألم . . . » (١)

وأرى فى العبارة قلقاً قد يكون من أسباب التعبير بـ « لا نستطيع القول » ولعل الوجه أن يقال « وما يكون لنا . . . الخ » أو نحو هذا .

ثم قال صاحب كتاب الواجب: « ما هذه العادات إلا مشاعر متكررة يفنى بعضها بعضاً حتى تصير خفيفة أو غير مؤثرة ويمكننا أن نستخلص ذلك القانون العام وهو أن كل شهوة تكررت فمآلها إلى الضعف .

ثم وضح جيل سيمون الفرق بين العادة السلبية التى هى انفعال وتأثر والعادة الإيجابية التى هى عمل ، واستنبط بجانب القانون الماضى من قوانين العادة قانوناً آخر هو أن كل عمل يقوى بتكراره . ثم أجمل ما فصله قائلا : إن منشأ العادة هو التكرار وشكلها شكل الغريزة . وقانونها أن التكرار يضعف كل تأثر سلبى ويقوى كل عمل إيجابى .

وبين أن علاقة التعود بالأخلاق آتية من أننا نستطيع أن نمرن على الفضائل كما نستطيع أن نعتاد الرذائل .

وفى صحيفة ٧٠ عند الكلام على هذا الموضوع ما نصه: « ما أشد الذين بكثرة عملهم الخير أصبحوا مثله فجمعوا إلى مزايا الإرادة هدوء الطبيعة وصوابها » ولا أفهم لـ « أصبحوا مثله » معنى . وعقب ذلك جيل سيمون ببيان أن هناك عادات

---

(١) ص ٦٥ .

مركبة من شهوة وعمل وأن اقتران العادة الإيجابية بالعادة السلبية لا يكسبها إلا قوة ، وبين أن العادة تقتضى حركة ذاتية فهى من خواص الأجسام العضوية كالنباتات والحيوانات ، ومن المحال وجود عادات فى عالم الجماد . ثم ختم الفيلسوف هذا الفصل بقوله : يمكننا الآن إدراك مقدار مسؤليتنا عن الأعمال التى نأتيها بحكم العادة فإننا مسؤلون عن كسب العادة سلبية كانت أو إيجابية لأننا فى السلبية استسلمنا وفى الإيجابية أردنا ولأن العادة مهما قويت فلن تكون أقوى من الطبيعة التى يمكن مقاومتها بنجاح فى كثير من الأحيان . فنحن مسؤولون عن عدم مقاومة العادات القبيحة واستعمال كل قوانا لقتلها .

فى هذا المجمل معظم المباحث التى تعرض لها صاحب كتاب الواجب فى فصل العادة الذى هو من أجمل فصول الكتاب للفوائد العلمية . وإنه ليستعصى على الفهم ما يقدره الفيلسوف من أن العادة تكون سلبية أى تكون من شؤون التأثر والشعور الغريزيين ، فإن المفهوم أن العادة شأن إرادى يصيره التكرار غريزة صورية فالأمور الغريزية خارجة بالضرورة عن دائرة العادات . وكذلك أراه غامضاً ما يتعلق بالظواهر المركبة المتصلة بالعمل والشهوة معاً (ص ٧١) .

طالب مصر فى أوربا

٦

ملاحظات عامة*

فرغنا من درس الجزء الأول من تعريب كتاب الواجب [١].

وقد حاولنا فى ما كتبناه من الفصول أن نلخص أبحاث ذلك المصنف المفيد ليقف عليها قراء الجريدة .

---

* الجريدة — فى يوم الأربعاء الموافق ٦ رمضان ١٣٣٢ ، ٢٩ يولية ١٩١٤ .

(١) تلقينا الجزء الثانى والجزء الثالث من هذا الكتاب الجليل وسنقرؤهما بإمعان قراءة مستفيد مما أودعا من العلم والحكمة وحسن البيان وربما كتبنا ملاحظاتنا عليهما على نحو ما صنعنا فى الجزء الأول .

ذلك بأن من حق الجرائد التى تعنى بترقية النهضة الفكرية خصوصاً فى بلد كبلدنا لا توجد فيه مجلات ذات نفوذ علمى وانتشار بين طبقات الأمة، من حقها أن تعمل على جعل المباحث العلمية سهلة التناول مقبولة الطعم فى أذواق العامة ، وأن تعود قراءها وهم جمهور الأمة على حسن الفهم ولطف النقد . وليس واجب جرائدنا هو أن تدعو بالرواج والانتشار لكل كتاب يهدى إليها، فإن هذا الدعاء أجدر بأن يتلقاه الله من فم مشاريخ الطرق .

كأن ربك لم يخلق صحفنا إلا للدعوات الصالحات فهى تدعو للمواليد بطول العمر ، وللميتين بالرحمة ، وللمسافرين إلى أوربا بالسلامة ، وإلى الحجاز بالحج المبرور ، وتدعو للمتزوجين بالرفاء والبنين . وللنقابات الزراعية بالنجاح ، وللكتب بالرواج والانتشار . . . الخ .

وإن عليها لإثم هذه العادة عادة الدعاء فى كل موقف التى انتشرت عندنا انتشاراً مريعاً حتى لقد صمت آذان السماء فلم تعد تجيب منادياً .

خبرنى صديق حضر فى شهر نوفبر من العام الماضى افتتاح دروس الجامعة المصرية أن الأساتذة ما عدا متخرجى الإرسالية كانوا يبدأون دروسهم بالدعاء لرئيس مجلس الإدارة ووكيله وجميع أعضائه حتى قال شاب ظريف لم يبق إلا أن يقول هؤلاء : الفاتحة لمجلس إدارة الجامعة المصرية ولسائر أمواتنا وأموات المسلمين ! من حق الصحف أن تلخص ما يظهر بيننا من التأليف والتعريب تلخيصاً يكتفى به من لا تمنعه أطماعه العلمية إلى أكثر من قراءة الجرائد ويشوق أهل النزوع العلمى إلى المطالعة والدرس ، ومن حقها أن تكل إلى بعض أهل الاختصاص نقد ما يستحق النقد لتربى عند الناس ملكة التمحيص وحسن النظر .

* * *

درسنا فى ما مضى من المقالات فصول الجزء الأول من كتاب الواجب فصلا فصلا وأشرنا إلى ما عن لنا من الملاحظات على التعريب وعلى المؤلف نفسه .

والآن نختم بملا حظتنا العامة على التعريب كما وعدنا فى أول فصل من هذه المقالات.

* * *

يظهر للمطلع على كتاب الواجب، وإن كان مثلى ليس بين يديه نسخة من المصنف فى لغته الأصلية، أن الحرص على الترجمة الحرفية رده محتاجاً إلى تعمل فى الفهم وجنى فى بعض الأحايين على عذوبة أسلوبه.

يوجد صنفان من الترجمة:

أحدهما الترجمة الحرفية.

والآخر ترجمة المعانى.

والصنف الثانى شائع فى نقل الكتب الأدبية من لسان إلى لسان وفى كل ما يقصد بترجمته إلى الجماهير الذين لا صبر لهم على تفهم الصيغ والأساليب العلمية والذين يحتال لترغيبهم فى التعلم احتيالا.

والصنف الأول من أصناف الترجمة هو الترجمة العلمية التى تحرص كل الحرص على الأمانة فى النقل. والتى تضحى رشاقة العبارة بل سهولة فهمها فى سبيل التمسك بالصور التى أخرج المؤلف أفكاره فيها.

وإذا لم أستطع أن أضرب لهذين النوعين من الترجمة مثلا مما عندنا من المعربات فإننى أستطيع أن أمثل لهما بما ترجم إلى الفرنسية من كتب العرب.

ألف ليلة وليلة مترجم ترجمة معان ولكن القرآن والبخارى وكتاب التقريب للنووى كلها مترجمة بقدر المستطاع ترجمة حرفية محاطة بهوامش لتوضح ما قد يكون مظنة للغموض حتى لا يضل الفهم خصوصاً عند من لا علم له باللغة الأصلية. ولا غنى لهذا النوع من الترجمة عن الهوامش الكثيرة لكل ما يكون موضع خفاء ولكل ما يدعو الحرص فيه على الترجمة الحرفية إلى شىء من النفرة فى ذوق اللغة المنقول إليها.

سلك الأستاذان معربا كتاب الواجب طريق الترجمة الحرفية وما يكون لأحد أن يعيب عليهما هذا المسلك لأنهما عالمان يعربان للعلم ويحرصان على

أمانة النقل . ولكن الترجمة الحرفية خصوصاً بين لغتين مختلفتين فى صور التراكيب وفى مراعاة تفاصيل المعانى التى توضع لها المفردات والجمل وفى ذوق البلاغة تدعو حتما إلى غموض ووحشية .

والذى يؤخذ على معربى الواجب هو أنهما لم يضعا هوامش كافية لإخراج القارئ من الحيرة التى لا تسلم منها ترجمة حرفية فأخلا بأصل مقرر من أصول الأنماط العلمية الحديثة .

وأذكر أننى فى ما وقع إلى من معربات الأستاذ رفاعة بك رافع وجدت دقة فى تطبيق هذه القاعدة تدل على ما كان فى طريقة الأستاذ من نفحات العلم الحديث . وملاحظة أخرى على تعريب كتاب الواجب هى أنه جرى فى كتابة الألفاظ الأوربية بأحرف عربية على ما يجرى عليه الناس عندنا . والناس عندنا فى ذلك فوضى لا نظام لهم . ولقد رأيت مرة فى محطة صغيرة من محطات الوجه البحرى اسم البلد مكتوباً بأحرف لاتينية عن اليمين بصورة وعن اليسار بصورة أخرى . وجرائدنا تقع فى مثل هذا الخلط صباح مساء .

ذلك أيضاً إخلال بقاعدة من قواعد الأنماط العلمية المعتبرة اليوم وإنك لترى جميع المستشرقين الذين تقضى عليهم دراستهم برسم كلمات عربية فى حروف أفرنجية يقدمون بين يدى مؤلفاتهم مقدمة يبينون فيها طريقتهم فى رسم الحروف العربية بحروف لغاتهم ويسمون ذلك Système de Transcription

ولئن تصرفوا فى ذلك شيئاً فإن لكل منهم نموذجاً خاصا يلزمه فلا يحيد عنه .

ولقد احتذى هذا المثال مواطننا الدكتور محمود فتحى فى رسالته :

La Théorie de l'abus de Droit

وللإمام ابن خلدون فى مقدمته كلمة جليلة فى كيفية وضع الحروف التى ليست فى لغات العرب . ومهما يكن فى طريقته من مجال للنقد فإنها تدل على ما كان فى فطرته الممتازة من صدق الإلهام العلمى .

يوجد بين الباحثين فى النماذج الموضوعة لرسم الحروف الأجنبية من يميل

إلى اختيار صورة معينة لكل حرف مهما اختلفت كيفية النطق به بل حتى إن كان مكتوباً من غير أن يتلفظ به .

فهم يرسمون حرف (s) الفرنسى (س) فى العربية وإن أهمل فى النطق كما فى (Paris) وأن نطق (ز) كما فى (Lausanne) .

وهناك آخرون يراعون نطق الحرف (س) عند رسمه فهم يكتبون بارى من غير (س) ويرسمون (s) فى « لوزان » زاياً .

أما الطريقة المتداولة بيننا وخصوصاً فى الجرائد والتى نعيب على الأستاذين معربى كتاب الواجب اعتمادها فهى طريقة علمية لا تحتوى على شىء من التحقيق العلمى . يكتبون (Jules) « جول » و (Cousin) « كوزين » و (Spinoza) « إسبينوزا » فهم يرسمون (u) و (ou) و (o) بكيفية واحدة غير ملاحظين فى ذلك ضبط النطق الأجنبى ولا ضبط الرسم .

ومن الأشياء التى لا نفهم لها وجهاً والتى وقعت فى كتاب الواجب كتابة بوفييه وبوسييه بزيادة هاء فى آخر الكلمة وكتابة بروميتيه فى حين أن (Galilée) مكتوب غاليلى . . إلخ إلخ .

لا نتهاون لمعربى كتاب الواجب فى هذا وإن ظن أناس أنه متعلق بالشكل لأن العلم لا يعرف التهاون ولأننا نرجو سد حاجاتنا العلمية من مثل الدكتور طه حسين وزميله القادرين على أن يسدوا لنا هذه الحاجات .

وبعد فما يكون لى أن أختم القول من قبل أن أشكر للأستاذين خدمتهما الجليلة للحركة العلمية المصرية ومهنئاً لهما بالنجاح فى تعريب المؤلف النفيس الطائر الصيت بأمانة علمية وافرة وكفاية عظيمة .

وأدعو كل عالم ومتعلم فى مصر أن يتدبر الواجب مستفيداً ويدخره للمراجعة وتكرار المطالعة .

طالب مصرى فى أوربا

مقالات السّفور

الانتحار*

النحر الصدر ونحر الصدر أعلاه ونحر البعير ينحره طعنه فى منحره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر .

ويقال انتحر الرجل أى نحر نفسه .

هذا هو أصل استعمال المادة فى لغة العرب كما فى اللسان .

وقد استعمل الانتحار بعد ذلك فى قتل الإنسان نفسه بأى وسيلة من وسائل الموت .

ويظهر أن هذا الاستعمال جديد أريد به تعريب كلمة : (suicide) الفرنسية . ولم يكن بالناس من حاجة إلى تهذيب العبارات بهذا المعنى يوم كان إلقاء الإنسان نفسه إلى التهلكة حادثة شاذة إذا عرف بها الزمان مرة ، ضج لها التاريخ ضجة يبقى صداها فى الأعقاب .

وما أرى أننى اطلعت على ذكر لحوادث الانتحار فى كتبنا إلا ما ورد فى تاريخ مصر لابن إياس عند الكلام على سنة ٨٢٧هـ فى سلطنة الملك الأشرف أبى النصر برسباى الدقماقى وهذا نصه : « ومن الحوادث فى أيامه أن شخصاً من العوام شنق نفسه وسبب ذلك أنه كانت له زوجة يحبها فطلقها فتزوجت بغيره ووكلته فيه فشنق نفسه فى قهره منها فمات » .

---

* السفور جريدة اجتماعية نقدية أدبية تصدر مرة فى الأسبوع . العدد الأول ، السنة الأولى . يوم الجمعة ٧ رجب ١٣٣٣ الموافق ٢١ مايو ١٩١٥ .

ولو كان ابن إياس عليه رحمة الله حاضرنا لاسترعى نظره تبدل الحال حيث أصبح رجالنا أغلظ أكباداً على احتمال القهر من نسوتنا وصار نساؤنا ألطف حيلة فى غيظ الرجال .

تزداد عندنا حوادث الانتحار وتنتشر فى جوانب القطر وبين مختلف الطبقات . وإن المطلع على صحفنا ، المتتبع لأحاديث مجالسنا ليحس بارتياع الناس من شيوع ذلك العارض الاجتماعى أشد من ارتياعهم لتلك الحميات الوبائية الذاهبة فى طول البلاد وعرضها .

على أن الانتحار تغالبه فينا تقاليد راسخة وعقائد متقادمة وأخلاق موروثة ؛ أما هذه الحميات فلا تقاومها بنياتنا الضعيفة ولا تدافعها عناية بالوسائل الصحية من جانبنا ولا من جانب حكومتنا .

يعد قومنا قتل الإنسان نفسه مظهر ضعف أخلاقى ، ويخشون فتكه بأمة موفورة العدد نامية الذرية وددنا لو بورك فى تقدمها ما بورك فى حصاها .

أما نحن فعلى غير هذا الرأى نلمح فى حوادث الانتحار معانى قد يكون من حقنا أن نغتبط بها ونفرح ، نعلم أن أعسر أدوائنا علاجاً وأسوأها فى حالنا أثراً هو فرط الحرص على الحياة والإسراف فى الخوف من الموت وذلك هو الجبن أو منشأ الجبن بجميع معانيه وما نعرف فى رذائل الأخلاق ما هو أضر بأمة من الجبن .

فى الإقدام على الانتحار نوع من الاستهانة بالحياة لا نكره أن تعرفه معاشرنا فإن الحياة ليست بذاتها هى الأمنية الكبيرة للرجل الكريم .

نستبشر بأن يعتدل فى نفوس الناس مبلغ شحهم بأرواحهم حتى فى طبقة المتمتعين بالثروة والجاه أولئك الذين هم أحرص الناس على حياتهم ونعيمهم .

وإن إقدام السيدات على انتزاع أنفسهن من جسومهن الرقيقة بأيديهن لدليل على أن المرأة وهى بحكم نظامنا الاجتماعى كسيرة الجناح متهيبة خوارة العزيمة صارت هى أيضاً شجاعة تستقبل الموت بصدرها أحياناً .

ولقد يلاحظ الباحث فى تاريخ الانتحار عندنا أن الأسباب التى تحمل الناس عليه جعلت تتهذب وتأخذ معانى أدخل فى باب العواطف العالية .

كان المريض يقتل نفسه فراراً من ألم المرض والفقير ينتحر جزعاً من الفقر وكان الطفل الصغير يقضى على حياته الغضة خوف عتاب والديه حين يخطئه الحظ فى الامتحان فأصبحنا نسمع بأن فتاة فى بولاق كما ذكرته صحفنا اليومية من بضعة شهور قذفت بنفسها من نافذة فى ليلة عرسها لأن أهلها أرادوا أن يكرهوها على الزواج بمن لا تحب .

وأن شابة وشابًّا تحابا وودا لو يكونان رفيقى حياة فأبى عليهما ذوو قرابتهما تحقيق أمنيتهما . هنالك تداعى العاشقان إلى موعد وماتا متعانقين .

ولقد يؤلمنا أن نشير على ذكر هذه الحادثة إلى ما كان من أن أهل الشاب عرفوا جثة فقيدهم وشيعوها إلى منازل الأموات وأقاموا لها مأتما . أما أهل الفتاة المسكينة فأنكروها وضنوا حتى على تجاليدها بالمواراة فى الترب . ذلك من ظلمنا للمرأة نستبد بها حية ولا تسلم من آثار استبدادنا بعد أن تموت .

ولقد روى الرواة أن من نسائنا من تتناول السم زعافاً فرقاً من هول العار الصارخ أو ندماً على عثرة لم تقل لها الأقدار لعاً .

كل تلك عواطف نريد أن تنمو فى قومنا ولو شريناها بأنفس غير رخيصة .

لسنا نفزع أن يتجرع كأس منيته من لا يسيغ طعم الحياة ولكننا نتألم أشد الألم أن يحيا بيننا رجال كان من حسن الذوق أن يموتوا .

مواسمنا *

أظلنا فصل المواسم مفتتحاً بالجمعة الرجبية .

ولئن كان من سنتنا أن نزور المقابر فى جميع أيام المواسم فإن أول جمعة من رجب يوم موقوف على زيارة الموتى ليس له من مظاهر الأعياد غيرها فهو يشبه يوم الأموات عند الفرنجة .

والفرق بين الغربيين وبيننا هو أن أعيادهم ليست دائماً ذات صبغة دينية وليست زيارة الأموات من مراسم الأعياد عندهم حتى لا يخلو منها موسم كما هو شأننا . هم يذهبون إلى كنائسهم ليحيوا عيد الفصح بالصلاة والذكر ويقصدون إلى الميادين العامة ومواطن استعراض الجيوش ليحتفلوا بأعيادهم القومية فى ظل رايتهم المفداة وحول جنودهم الممثلين لمجد الوطن .

ويحملون باقات الأزهار إلى مضاجع الأموات فى يوم معين من العام .

ثم إن لهم وراء ذلك أعياداً يخلصون فيها إلى لهو نفوسهم ومسراتها،أما نحن فأعيادنا كلها مطبوعة بطابع دينى ولو لم ترجع إلى أصل ثابت فى الدين وهى بذلك تأخذ نوعاً من الصلابة والجد لا يلاين لما فى هذه النفوس البشرية من الضعف والنزوع إلى اللهو أحياناً .

كل أعيادنا من طراز واحد هو ذلك الطراز الدينى فى أبعد مظاهره عن التناسب مع طبيعة الأعياد التى تقتضى شيئاً من البهجة والمرح حتى لقد تلاشت أو كادت تلك المواسم العتيقة التى كانت تمثل روحنا القومية على وجه ما وتعطينا نفحة من اللهو الدنيوى . فأمثال عيد وفاء النيل وموسم شم النسيم لم تعد تحل من حياتنا الاجتماعية محل الأعياد العامة .

---

* السفور : العدد الثانى . السنة الأولى . يوم الجمعة ١٤ رجب ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ .

ليست لنا أعياد وطنية تكون متنفساً لنشاط العواطف وليست عندنا مواسم خلاعة ولهو تجعل فى حياتنا الكئيبة سلوة وعزاء . لذلك تمر بنا الأعياد متشابهة لا تختلف مظاهرها ولا تهز النفس ببهجتها نحيي جمعة رجب بمثل ما نحيي به عيد الفطر : زيارة للقبور وعملا للختم .

ولا تكاد تجد فرقاً بين الدار تدخلها ليلة العيد وتدخلها فى ليلة من ليالى المأتم تجد فى الحالين زوارا يحتشدون إلى طائفة من المسمين ظلماً فقهاء يستمعون نغماً متجانساً رخوا ويشربون القهوة ويدخنون حتى إذا كان الصبح سيق الكعك والخبز واللحم ركاماً يرضخ منه لأولئك العطل الذين يتخذون التسول حول المقابر حرفة لهم ونعينهم نحن بصنيعنا على الربح من ذلك المتجر الخبيث .

ما زلنا نسمع الشكوى من الفساد الذى يحصل فى المقابر أيام المواسم حيث يقضى كثير من العائلات ليالى فى تلك القصور المشيدة فوق تلك الجسوم المتهدمة . فيبيت هنالك إلى جانب المفجوعين والثاكلات من ليس مفجوعاً ولا ثاكلا .

وإذا كان التهتك شرًّا فى كل وقت وفى كل مكان فهو أعظم إثما حينما يكون فى بقعة محترمة يحج إليها الناس بدافع دينى فى يوم مقدس ولكن هذا الشر الشنيع أثر لازم لتقاليدنا الاجتماعية التى تريد أن تمنعنا فرصة للهو وتكظم فى نفوسنا كثيراً من النزعات البشرية التى لا يستطاع كظمها .

ووددنا لو أن لقومنا وراء المواسم الدينية أعياداً عامة ذات شكل غير دينى حتى يحفظ لشعائر الدين قدسها ، واحترامها ، ويكون للعواطف الدنيوية من حياتنا الاجتماعية جانب غير مضيع .

إن هذه الأنفس البشرية ضعيفة ينبغى أن تقاد برفق . إنها إذا لم تجد للهو منفذاً اتخذت جد الحياة لهوا .

عبرة بعد ابتسام*

كان من لداتى قريب تربطنى به وشائج الأرحام من جانب الأم والأب نعيش معاً فى النهار تلاميذ فى مدرسة واحدة ونعيش معاً بالليل سكان دار واحدة بل سكان حجرة واحدة. ولئن تفرقت بعد ذلك وجهتنا فى الحياة وأصبح من يرانا لا يحس بشىء يدل على أننا نشأنا نشأة واحدة ، وصببنا فى قالب من التربية غير مختلف فقد بقى لنا من آثار الطفولة ما يخفق لتذكاره قلبانا معاً .

كنا غلامين يافعين تتفتق أيام الطفولة عن شبابهما زهرة باسمة .

وكنا نأخذ طريقنا فى الصباح إلى مدرستنا من درب الجماميز إلى شارع محمد على مارين بدار راتب باشا وهو يومئذ قصر فى حديقة غناء إلى جانبها مزرعة لا تبرح مخضرة الجوانب بالنبات فى جميع فصول العام .

لم تكن السبيل مطروقة للمارة وذلك مما كان يحببها إلى رفيقى وإلىّ فوق ما فيها من الجمال الطبيعى . كنا نذهب فى هذا الطريق صبحاً ونرجع منه إلى منزلنا عصراً فنلتقى فى غدونا ورواحنا بصبيتين تلميذتين مدرستهما فى جهة مسكننا ومسكنهما فى ناحية مدرستنا .

استرعتا نظرنا ويظهر أن أنظارهما أيضاً لم تغب عنا . جعلت عيوننا تعرف فى مرأى وجهيهما الجميلين فى طلعة النهار معنى البشائر .

وكنا ننثنى فى عواقب اليوم متعبين من كثرة الدرس فتكون نظرتنا إليهما راحة ونشاطاً فإذا أبطأتا مرة عن موعدهما تريثنا فى السير ننتظر مرورهما .

نما معنى الأنس بالصبيتين فى قلبينا الصغيرين حتى أخذ من أشكال الحب ما يتسع له شباب جديد لم يخلص بعد من غرارة الطفولة .

---

* السفور : العدد الثالث . السنة الأولى – يوم الجمعة ٢١ رجب ١٣٣٣ هـ الموافق ٤ يونية ١٩١٥ .

كنا بادئ الأمر حيناً تتلاقى نظراتنا تضطرب قلوبنا فى الصدور وتغضيان حياء ونغضى ثم تماسكت تلك الأنفس اللينة واستطاعت أن تقوم بأعباء الغرام .

لست أنساها لذة ما حييت تلك الابتسامة الحلوة التى تلقتنى بها صاحبتى بين جنبات ذلك الميدان مزروعاً يومئذ نباتات نامية يسترنا ظلها عن العيون .

فهمت لأول مرة سر السعادة الروحية من تلك الابتسامة الطاهرة . فهمت معنى الحب الذى إن لم يكن جميعه لذة فإنى نعمت بلذاته وآلامه .

حياك الله أيهذا الصباح المنير أسعد لحظة فى عمر غير سعيد كله فقد ذقت فيك حلاوة الحياة وما ذقتها إلا مرة واحدة إذ تقبل تلك الإنسانة العزيزة مياسة ينحسر عن جبينها الذكى موفور من شعر ذهبى ترسله إلى الوراء منثوراً تمسكه عصابة من حرير أحمر وتنم عنه تلك الحبرة الرقيقة السوداء .

وإذ ترمى إلىّ من عينيها العسليتين نظراً ساحراً يفيض طفولة ويفيض لينا... عينين لم يفرطا فى سعة ولم يضيقا يعطيهما الحياء صورة من صور الجمال الهادئ الذى ينفذ رويداً إلى أعماق القلوب .

ثم إذ يتهلل نوراً ذلك المحيا النضير وتنبعث من ثغره المعسول ابتسامة فيها نفحة قدسية لأنها تعبر عن أشرف ما يملك المخلوق الآدمى من مواهب العالم العلوى . يعبر عن الحب حنانا طاهراً نقيا لا يمسه كدر من أثر العالم المادى .

أحببت الفتاة من ذلك النهار ، أستغفر الله بل شعرت بأنى أحبها إذ أصبحت على حد قول البحترى .

اليوم جاز بى الهوى مقـــداره فى أهله وعرفت أنى عاشق

لم يكن ذلك الحب نزوة طائشة ولا سورة من سورات الهوى بل كان عطفاً يملأ القلب وأنساً وحناناً ورحمة .

كانت لا تغيب عن ذاكرتى تلك الصورة المحبوبة أهتف بها فى يقظتى أمنية من أمانى الحياة الفانية وتمر بى حلماً لذيذاً .

وصارت تلك الابتسامة التى أتزودها من ذلك الفم الشهى فى مصبح كل

يوم وفى ممساه قوتاً لحياتى وأساساً لسعادتى لا أبتغى وراءها مطمعاً لإرضاء الغرام الناهض .

ظللنا هكذا سنوات أحباباً كل وسيلتهم إلى الحب أن يمروا ببعضهم باسمين حتى فرق الدهر بيننا وشببنا عن طوق ذلك الغرام فطواه الماضى البعيد فى ما طوى من حوادث الطفولة والشباب .

ولم تعد تلك الابتسامات تمر بالنفس إلا خيالا فنيا تزاحم الحسرة عليه ما قد يكون فى تذكاره من طعم حلو .

غبرت أعوام منذ ذلك العهد حافلة بصاب الحياة وشهدها ، وناء الفؤاد بأحمال الهموم على قدر ما ناء الظهر بأعباء السنين :

وما قصرت كبرا خطوتى ولكن أجر ورائى السنينا !

مررت مصادفة بذلك الطريق القديم وقد تغيرت معالمه وذبلت بهجته وبدت عليه هو أيضاً ملامح الهرم وكان إلى جانبى زميل طفولتى وشهيد أول هزة من هزات الغرام مرت بقلبى وكنا نخوض فى أحاديث من شئون الحاضر تشغل النفس عن ذكر الماضى .

هنالك فى تلك البقعة التى عرفتنى طفلا يدرج إلى معترك الحياة وأبصرتنى اليوم شيخاً يدب فى ميدان العمر دبيباً .

هنالك حيث تلقانى الحب لأول مرة بساماً بعيداً لمحت عن بعد مرأة فنى جمالها وأصابها ما يصيب كل مرأة فى مصر بسبب الإسراف فى النسل من ذبول الشباب فى عنفوانه وتشوه ملامح الحسن فى ربيعه ولما حاذيتها شعرت بنمزة فى أعمق نواحى القلب أثارت دفينا منسيا والتقت عيناى ببصرها خالياً من بشاشة السعادة وبهجة الحرية نظراً حزيناً ذليلا متعبا .

تبسمت كدأبها فى الزمان الأول تبسما ذكرنى عهد الشبيبة كله وشقت فى حركة ابتسام ثم مضت السيدة فى طريقها واتبعت سبيلى ولست أدرى هل بللت عيونها بعد التبسم تلك العبرة التى ملأت جفونى ؟

نقد السفور *

إذا كان صاحب هذه الجريدة وأصدقاؤه معه يغتبطون بما لقى السفور من حسن الوفادة ومن التشجيع بين أنصار الرقى وشيعة الإصلاح فى هذا البلد شباناً وكهولا فإنهم أشد اغتباطاً بما وجه إليهم من النقد المبنى على الإخلاص والرغبة فى تمحيص النصحية، وإنا لنشكر لأولئك الناظرين نظرة العطف والرضاء لهذه الصحيفة الوليدة وهى فى مهدها وهم أولى الناس بأن يحوطوا برعايتهم الحكيمة نهضة شابة مملوءة بالحماسة والأمل .

ونشكر لهؤلاء الناصحين حرصهم على كمالنا وعنايتهم بتنبيهنا إلى مواطن الضعف وسنحاول فى هذه الكلمة أن نسجل ما أخذوه علينا من العيوب تشجيعاً للقراء على مجاهرتنا بالنقد ونعقب عليه بما عسى أن يكون بياناً يقوم به التفاهم بين الناقدين وبيننا على أساس متين .

يقول بعض الفضلاء إن اسم السفور يخيل للناس أن هذه الصحيفة ليست إلا صيحة مكررة إلى تمزيق البرقع عن وجه المرأة المصرية ويرون أن البيان الذى صدر به صاحب الجريدة أول عدد من أعدادها ليس كافياً فى دفع هذا الوهم. وما يريد أنصارهذه الصحيفة أن ينكروا أنهم جميعاً من أعوان الدعوة إلى حرية المرأة ولكنهم يريدون أن يفهم الناس أن السفور معنى أشمل مما يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة التى جرت بها أقلام الباحثين فى مسألة المرأة المصرية .

وإن هذه الصحيفة تريد أن تكون مظهر التقدم الفكرى فى هذه البلد ومضماراً لكل دعوة حرة صالحة .

---

* السفور : العدد الرابع . السنة الأولى – يوم الجمعة ٢٨ رجب ١٣٣٣ هـ الموافق ١١ يونية ١٩١٥ م .

إذا كانت جريدتنا تنادى بإصلاح حال المرأة فهى أيضاً « صحيفة اجتماعية نقدية أدبية تنادى بالسفور الشامل فى كل باب من أبواب التقدم والإصلاح » .

ومما أخذه نقاد على السفور أنه أدبى صرف تغلب فيه نفحة الأدب فلا يكاد يلاقيك منه إلا أسلوب رشيق أو معنى شعرى . قالوا : ولم يكن من صواب الرأى أن يترك باب أخبار الأسبوع الذى تضمنه العدد الأول .

صحيح قد أمرنا من السلطة المختصة بعدم العودة إلى ما كنا شرعنا فيه من تلخيص حوادث الأسبوع وصحيح أنه ربما كان ذهب بنا الحرص على تربية الذوق الأدبى فى قومنا إلى الإكثار من تلك الفصول الشعرية التى ترسلها القلوب نغماً يحرك أوتار الصدور .

ولكننا بالرغم عن حكم البداية لا نألو جهداً فى جعل السفور مجالا لتمحيص النتائج العقلية وعرض ملاحظات المفكرين وافياً بحاجة أمتنا من جهة الرقى العقلى بجميع معانيه .

وجدير بنا أن نخص فى هذا المقام بالذكر وبالشكر معاً الآنسة الزهرة .

تفضلت بارك الله فيها فبعثت إلى السفور برقيم كريم فيه من اللطف وسلامة الذوق بمقدار ما فيه من النقد الدقيق .

نقتطف شذرات من كتاب الأديبة الأقصرية تلم بحكمها فى ما اطلعت عليه من أعداد هذه الجريدة وتعبر عن رغبتها فى نجاحها وتفضلها بمعاونة الناهضين بها مغتبطين بأن يكون لسعينا فى خدمة هذه الأمة العزيزة نصير من الشباب النسائى المرجو لأمانينا الاجتماعية كلها .

قالت الكاتبة الفاضلة :

« اطلعت على العددين اللذين ظهرا من صحيفتكم اليانعة الغضة فسرنى أن يسرى منها أرج تلك الغاية الأدبية الغالية التى يسعى لبثها وتحقيقها كل محب لرقى هذا الوطن المفدى ولقد استعذت تلاوة الافتتاحية بملء السرور معجبة ببلاغة معانيها ضارعة إلى الله أن يقيض لنا من ينتشلنا من وهدة ما كنا فيها

من الحقائق المريرة الواقعة . . . الخ » .

زادت الآنسة الزهرة :

« وإنى لأحيي اليوم صحيفتكم راجية أن يتمثل فيها باستمرار نشاط الشباب الذين فكروا فى إنشائها مع حكمة الشيوخ ودرايتهم وعزيمة الرجال وثبوتهم » .

ونحن نرجو أن يتمثل فيها أيضاً شعور النساء وذوقهن وما وهبن من صدق الإلهام ولطف النفوذ إلى القلوب والأحلام .

وكتبت حضرة الناقدة بمناسبة باب القصص :

« إنى أمتدح فيكم اعتزامكم على تخير قصة من أحسن القصص التى تتفق مع الأخلاق الفاضلة فى كل عدد من أعداد السفور فإن الإفادة لا تكون إلا حيث نقف على ميول الناس ونستهويها فنكتب لهم فى الأساليب التى يقبلون عليها وندس فيها نكهة الأدب والتهذيب السامى » وذكرت عن باب النقد : « وأعجبتنى تلك الخطة المعتدلة فى النقد الذى أعتقد أنه سلم الإجادة وميزان المجهودات » .

ثم وقفت الزهرة عند تلك « الجنة المنبعثة من وادى النيل إلى بلاد الغرب » آسفة متأثرة .

وانتهت بعد ذلك ناقدة السفور الأدبية إلى باب الاجتماع فوجدته « مما يستحق الإعجاب ويستلفت القرائح » .

غير أن ما جاء فيه بعنوان الانتحار أدهشها وأفزع قلبها الرحيم .

تقول الآنسة : « إن الانتحار مرض من الأمراض الجنونية الشديدة التى تداهم النفس ومظهر من مظاهر الجبن ، وما الشجاعة الحقيقية إلا الوقوف بثبات ورباطة جأش وسط عواصف الحياة ومصائبها وقبيح من الإنسان أن يحاول مشاركة البارى فى إرادته ومقتضيات أحكامه ... الخ » ثم تقول : « لم تكن التضحية البشرية شيئاً جميلا أبداً لكنها كانت فى الغالب من الأمور الضرورية » . ونبادر بأن نشرح للفتاة الكريمة مالم تنتبه له من وجهة الكاتب

الذى نظر إلى الانتحار باعتباره عرضاً اجتماعيا حادثاً فى أمة لم تكن تعرفه .

نريد أن الجرأة على إلقاء النفس إلى الهلاك التى نرى مظاهرها بيننا فى تعدد حوادث الانتحار تدل على أن الإسراف فى حب الحياة الذى تكرر القول بأنه هو الجبن أو منشأ الجبن بجميع معانيه أخذ يتعدل فى نفوس قومنا .

وإذا كانت ناقدتنا الأديبة ترى أن التضحية البشرية «لم تكن شيئاً جميلا أبداً لكنها كانت فى الغالب من الأمور الضرورية » ، فإننا مثلها لا نغتبط بالاستهانة بالحياة إلا باعتبار تلك الاستهانة خلقاً ضروريا لتماسك كل جماعة يريدون أن يعيشوا أعزة أو يموتوا كراماً .

ليس الحرص على الحياة فى ذاتها فضيلة من الفضائل التى يتمنى المصلحون شيوعها فى الناس .

إن الحياة ينبغى أن تكون سبيلا إلى أمنية عالية فمن ضحى فى سبيل أمنيته كل عزيز عنده حتى نفسه التى بين جنبيه فذلك الإنسان كل الإنسان والذين يضنون بأرواحهم ويضحون آمالهم وأغراض حياتهم أولئك لا يقام لهم وزن عند الله ولا عند البشر .

تقول الأديبة : « يجب أن نعمل على إنماء النفوس وجعل الحياة جميلة فى مظاهر آلامها ومناعمها معاً » .

أما العمل على إنماء النفوس فلا يصح أن يكون معناه أن نمنع الناس أن يموتوا حينما يكون الموت خيراً لهم ، وأما جعل الحياة جميلة فى مظاهر آلامها ومناعمها فلقد وددنا أيتها الآنسة أن يكون كل شىء فى الحياة وفى الممات جميلا فإننا لسنا دونك حبًّا للجمال وتقديراً له .

ولكن فى هذا العالم آلاما قبيحة ينبغى أن يراها الناس على وجهها ، وأن يدفعوا شرها حتى بأرواحهم .

أما بعد فإننا لا نلح فى هذا البيان إشفاقاً مما عسى أن تتأثر به نفس الآنسة

الزهرة التى نتمنى لها حياة سعيدة بنعيمها وبآلامها العذبة الجميلة دون المسرة البشعة .

وإنا — وإن كانت السيدة على غير رأينا — فما زلنا « لا نفزع أن يتجرع كأس منيته من لا يسيغ طعم الحياة لكنا نتألم أشد الألم أن يحيا بيننا رجال كان من حسن الذوق أن يموتوا » .

آدابنا*

يحزننا أن نقرأ فى كثير من الصحف أخباراً عن تعرض فتياننا فى الميادين والطرق للمحصنات من النساء على وجه خلو من الذوق ومن حسن الأدب حتى لبلغ التبرم من السيدات فيما يروى أنهن خرجن من حلمهن ورفقهن إلى صفع أقفية جامدة نشفق من مسها على تلك الأكف الناعمات، وحتى لروى فى بعض الجرائد أن طالباً انقض على فتاة فى العتبة الخضراء يقبلها فزحزحه الشرطة عنها ليقودوه إلى القسم .

يحزننا أن تكون مظاهر آدابنا على هذا المثال القبيح فى جيل ناهض نعتمد على وطنيته وأخلاقه فى تحقيق آمالنا القومية الكبرى . ولئن قلنا مع القائلين إن الذين يتعرضون للسيدات فى الطرق ليسوا إلا من السفلة الأدنياء فما هو بمانعنا أن نتألم لأنهم على كل حال من قومنا أولئك السفلة الأدنياء .

نتحسر لسقوطهم فى أنفسهم ونشفق من آثار عملهم السيئ فى تشويه سمعتنا الأخلاقية وفى الجناية على نفوس أطفالنا اللينة التى تتكرر عليها هذه المشاهد فى غدوها ورواحها وما كان يصح لنا أن نلجأ إلى السلطات الحكومية فى زجر أولئك الأشرار عن غيهم ووقاية آدابنا ونسائنا من أذاهم .

---

* السفور : العدد السادس . السنة الأولى — يوم الجمعة ١٢ شعبان ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٥ يونية سنة ١٩١٥ م .

وإن السلطة التى تسن الشرائع لإقفال المحال العمومية متى تمت الساعة العاشرة مساء حرصاً على بعض الجنود أن يسرفوا فى شرب الخمور وغشيان الملاهى لقادرة على أن تسن من القوانين ما هو أقل كلفة وأضعف مظهراً فى الحركة الاجتماعية لحماية السيدات الكريمات من مضايقة السفهاء من الرجال . ولكننا نكره أن تكثر القوانين قيوداً لحرية الناس ونحن فى هم من قيود كثيرة فما يكون لنا أن نتمنى لها مزيداً .

نكره أن يظهر طابع الرهبة والخوف من العقاب حتى فى آدابنا ولوددنا أن يفهم قومنا جمال الفضائل وقبح الرذائل فيرغب أبناؤنا فى الاحتشام والأدب بمثل الذوق الذى يرغبهم فى جمال الهندام ورشاقة الحركات . ولأبنائنا فى هذا المعنى ذوق مصقول . نعلم علماً ليس بالظن أن نظامنا الاجتماعى القاضى بحرمان المرأة والرجل من الاختلاط النافع فى غير ريبة والتعارف فى ميدان الحياة تعارف النظير إلى النظير ، كل ذلك جعل صورة المرأة فى خيال الرجل صورة متاع مادى ، ولا يخلو من هذا الشوب ما يقوم فى نفوس النساء من صور الرجال .

ولهذه المعانى بلا ريب عمل فى نقص آداب المعاملات عندنا بين الرجل والمرأة .

يا حبذا لو قدرنا على تفهيم رجالنا أن المرأة إنسانة لها إحساس وعقل إلى جانب ما فيها من لطف وجمال واستطعنا تعليم المرأة أن الرجل شريك لها يتعاونان معاً فى العمل على سعادة المجموع واحترام حرية الفرد .

لو استطعنا هذا لارتقى ما فى عقول الجنسين من معنى العلاقة بينهما فى الحياة ولزالت حدة الشره الجسمى اللاعب بتلك القلوب المريضة . ألا إن ذلك سعى المصلحين وهو — بإذن الله — سعى منجح ونحن نطلب المعونة عليه إلى كل غيور فى هذا البلد على الحرية والأخلاق والآداب . وننصح لفتياننا أن يرعوا كرامة أمتهم وكرامة السيدات ، بل أن يرعوا كرامة أنفسهم وكرامة الحرية الشخصية التى نسعى إليها جميعاً بحسن الأدب فى المجامع وملتقى الناس .

الشرف*

أول ما عرف هذا الناس من معانى الشرف هو القوة فى مظهرها الجسمى .

فكان الشريف بين طوائف البشر المستوحشة الأولى من قويت بنيته من الأفراد وخيفت صولته .

ثم صار الناس شعوباً وقبائل ونشأت بينهم فكرة الروابط الاجتماعية . هنالك عادت العصبية مظهر القوة وأصبح الشريف بالأصالة والحقيقة من ينتسب إلى قبيلة ذات منعة وعدد ، كذلك نبتت كرامة الأنساب فى أمم البداوة للنصرة والتناصر .

وأخذت أسماء النسب صورة من صور التشريف بل وجد نوع من الشرف لمن يتصل بأهل العصبية من الموالى سواء كانوا موالى رق أم موالى اصطناع وحلف .

ارتقى بعد ذلك الاجتماع البشرى وأحاطت به قيود ونظم جعلت شعوبه وقبائله دولا وممالك فدخل الشرف فى طور من النظام جديد حتى انتهى إلى هذه الألقاب والأوسمة التى تمنحها الحكومات أو الملوك .

منذ تألفت الممالك ونشأت الدول صار الملك هو مظهر الشرف الأكبر وشرفه مكتسب فى بادئ الأمر من عصبيته القاهرة الغالبة لكل عصبية سواها . ثم انتهى إليه التشريف فهو يحبو بالولاية والرزق من يشاء والشرفاء فى الجماعات المنظمة هم المميزون بالسلطان والغنى .

وكانت الطائفة المميزة بوصف الشرف عند قدماء الفرنجة هى فرقة أرباب العسكرية التى تأسست فى خدمة الملوك واكتسبت بشجاعتها التزامات وقيدت

---

* السفور : العدد السابع . السنة الأولى — يوم الجمعة ١٩ شعبان ١٣٣٣ هـ الموافق ٢ يولية سنة ١٩١٥ م .

فى دفتر المرتزقة ، وكان الرزق الذى يناله الإنسان يوقف عليه فى حال حياته ثم جرت العادة بنقله إلى ذريته إذا تعلقوا بخدمة الديوان، ومن كان فى دفتر المرتزقة كان ممتازاً عن غيره وهذا الامتياز هو معنى الشرف عند القوم .

وفى بعض البلاد تدرج الأغنياء إلى أن أقاموا بينهم طائفة ممتازة عالية المرتبة وانعزلوا عن مرتبة من دونهم فى الغنى فكان هذا هو شرفهم كأشراف البلاد الإيطالية .

وعند السلافيين كان السادات هم الملتزمين الأغنياء وما عداهم من الخلق ملك يمينهم ولا يؤذن عندهم إلى اليوم فى اتخاذ الفلاحين كالعبيد وتخديمهم إلا للملتزمين الذين هم أشراف هذه البلاد .

وعند الفرس رتب واختصاصات غير متوارثة . يلقبون بلفظ المرزا من كان غير دنىء النسب ولكن تأخذ الأمراء هذا اللقب بوضعه بعد الاسم ويختص غيرهم بوضعه قبله، ولقب الخان يختص به من يعطيه ملكهم إياه بخلعه عليه خلعة الشرف وهذا اللقب لا ينتقل إلى الذرية . وعادة بلاد الصين أن الإنسان إذا اكتسب لقباً أو دخل فى قائمة المرتزقة فإنه يشرف بذلك وينتقل الشرف إلى أصوله دون فروعه .

ولئن اختلفت على هذا النحو منازع الأمم فى ترتيب الطبقات فى منازل الشرف فإن الذى لم يختلف بين الناس هو الرجوع بالشرف إلى القوة وإلى المال .

وما الألقاب التى خلقتها الحكومات المنظمة على تنوعها إلا شبيهة بألفاظ الانتساب إلى عصبية منيعة كمولى بنى فلان فكأن الحكومة عصبية تمنح جاهها قوة لمن تمنحه ألقابها كما كانت تمنح القبائل الغالبة نصرتها لمن يتبعها من الحلفاء والموالى .

أما الشرف الدينى الذى وجد فى كثير من الأمم فهو أيضاً لم يكن بعيداً عن معانى القوة والغنى .

وإنما يكون الشرف للمناصب والألقاب الدينية فى الأمم التى يكون للدين فيها سلطان على الشؤون الدنيوية .

وكلما امتازت أمور الدين فى قوم عن أمور الدنيا تضاءل جلال المراتب المكتسبة جاهها من الدين .

نقول إن الشرف عند الناس قديمهم وحديثهم كان مبناه على قوة البطش ووفرة المال . ونعلم أن المدنيات الحديثة لاتفتأ تحاول أن تجعل التشريف مظهراً من مظاهر الكمال المستحق بالكفاية الذاتية والعمل المشكور ولكن معظم الأمم لم تفلح بعد فى جعل ألقاب الشرف وقفاً على الكفاية والفضل .

هذا وإنه إذا كانت الطبيعة فضلت بعض الناس على بعض تفضيلا قد لا يكون فى مقدور البشر تعديله ، فإن الأمنية العليا للمصلحين هى أن يجدوا جماعات الناس خلوا من التمايز المصنوع ليتحقق جهد المستطاع معنى التساوى بين الأفراد الذى هو فضيلة العدل .

وإن أحق شىء بأن يحاربه الإصلاح لهو تلك النزعة العتيقة فى البشر التى لا تريد أن تجعل فى الحياة جاها إلا للقوة المادية والثراء فإن ذلك هو الذى أبقى على جانب الوحشية والعدوان فى بنى آدم بالرغم من تقدم العلم والمدنية ومحاولتهما الذهاب بالإنسان فى طريق الكمال الإنسانى .

كل هذه الاعتبارات تجعلنا لا ننظر إلى التغير الذى حصل فى نظام الرتب والنياشين عندنا لهذا العهد نظرة سرور وابتهاج اللهم إلا من جهة واحدة هى أن النظام الجديد حذف ألقاباً ووسامات مما كان فى النظام القديم ونحن نغتبط بكل ما يحدث من النقص فى هذه المظاهر المصنوعة للشرف المادى. ولو كان بأيدينا لتعجلنا المسير إلى الغاية المرجوة للمصلحين بالتمنى على حكومتنا أن تزيل هذا التفضيل المتعمل جملة حباً فى العدل والمساواة ورغبة عن التمييز لأهل القوة والغنى .

إذا لم يكن هذا بأيدينا فإن لنا أن نتضرع إلى من بيدهم توزيع هذه الألقاب أن يجعلوها بما فى وسعهم مظاهر كفاية واستحقاق يتحلى بها أهل النفوس الشريفة وإن كانت النفوس الشريفة فى غنى عن الأوسمة والألقاب .

الجامعة المصرية*

لما قام محمد علي على ملك مصر لم يكن فى هذه البلاد من أنواع المدارس إلا الكتاتيب يحفظ فيها القرآن والأزهر وما على شاكلته لدرس العلوم الدينية وما يعد من وسائلها وكان كتاب الدواوين يلقنون طريقتهم فى الخط والحساب والإنشاء لمن يترددون عليهم من الفتيان لهذا الغرض .

هذا الحظ الضئيل من العلم كان مشبعاً لمطامع الأمة يومئذ يفى بحاجة حكومتها الساذجة المشوشة النظام ويرضى الشهوة العقلية لجماعة غافلين مغلوبين .

أراد محمد على أن ينهض بوادى النيل نهضة شاملة فعنى بوجوه الإصلاح المختلفة وخص الحركة العلمية بفضل عنايته .

قال الأستاذ رفاعة بك فى بعض كتبه : « وقد سارع ولى النعمة حفظه الله تعالى فى تحسين بلاده فأحضر فيها ما أمكنه إحضاره من علماء الإفرنج . وبعث ما أمكنه بعثه إلى تلك البلاد فإن علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية . وقد أنشأ رأس البيت السلطانى المدارس النظامية فى مصر على أرقى الأنماط الأوروبية وأحيا البلاد حياة علمية إن كان عرض لها من بعده عوارض أبطأت بسعيها إلى الغاية فإنها ظلت إلى اليوم أساساً لنظامنا فى التعليم .

وقد عاب أناس على محمد على باشا طريقته فى إيجاد المدارس النظامية إلى جانب المعاهد الدينية وقالوا : إنه بذلك أخل بوحدة التعليم فجعله دينيا وغير دينى وكانوا يريدون أن تصلح المدارس الدينية على وجه يجعلها كافلة بتحقيق الأغراض التى أنشئت لها المدارس الجديدة فيكون أطباؤنا ومهندسونا ورجال القوانين والصنائع عندنا ، بل قواد الجيوش وأمراء البحار شيوخاً كأهل الدين .

---

* السفور : العدد التاسع . السنة الأولى — يوم الجمعة ٤ رمضان ١٣٣٣ هـ الموافق ١٦ يولية ١٩١٥ .

ويظهر أن المصلح الأمى كان أبصر بمواقع الرشد من أولئك الناقدين فإن إصلاح الأنماط العلمية وتهذيب النظم فى مدارس الدين من غير إخراج لها عن موضوعها قد أعجز المرحوم الشيخ محمد عبده بعد أن قضى حياته الغالية فيه وما فتئ حتى اليوم مطلباً عسيراً .

أنشأ المرحوم محمد على مدارس جديدة تفى بمطالب المدنية الجديدة التى أخذ على عاتقه السير بالأمة فى سبيلها وأثمر غرس يده فى حياته فرأى فى مصر مدارس راقية وشباباً علميا نضيراً. ولو أن نهضة محمد على سارت فى سبيلها على النحو الذى بدأت به لكنا اليوم نزاحم الغرب بالمناكب فى مجال الرقى العلمى .

ولكن عوامل كثيرة شوشت بعد ذلك العهد حركات رقينا المنتظم فأبطأت خطواتنا إلى التقدم وانتهى الأمر بنا إلى المدارس الحكومية تعد للحكومة ما يلزم من العمال وإلى المعاهد الدينية تخرج من تحتاج إليهم وظائف الدين .

وأهملت العناية بتربية الروح العلمية فى الأمة وترقية المستوى العقلى .

لبثنا على ذلك دهراً . ثم وجد فى البلاد شعورمنساق إلى أمان من الرقى العلمى لا يقوم بتحقيقها تعليم الحكومة فى مدارسها ولا تعليم المعاهد الدينية . وفكر مفكرون فى تأسيس الجامعة المصرية لتكون مغرس العلم الراقى الحر من غير تقيد بنزعات الحكومة فى التعليم ولا تماحك بالدين وعواطفه .

وأنشئت الجامعة على هذا الأساس وسارت لأول عهدها سيرة مبشرة بتحقيق الآمال يومئذ ، كان ينتدب لها أساطين العلماء من جامعات أوربا ويختار لبعثاتها العلمية صفوة شبابنا .

ثم اضطرب أمرها وظهر الضعف فى كل شىء فيها وصغرت قيمتها العلمية وتأثرت وجهتها فى التعليم بالروح الحكومية ولا نزال نلمح مع الألم مظاهر الانحطاط فى الجامعة المصرية الوحيدة التى كادت تصبح ذيلا من ذيول المدارس الأميرية بعدما رجوناها للزعامة على حركتنا العلمية كلها .

ليس لنا أن نتعرض لكفاية القائمين على شأن الجامعة لما ندبوا له ولا لغلبة الصبغة الحكومية فى مجلس الإدارة . ولكنتا نريد أن نصيح ملء أفواهنا فى سمع الأمة بأنه من العار أن لا يكون فى بلاد الأهرام إلا جامعة واحدة ثم لا يستطاع صلاحها .

رمضان*

نترك السادة العلماء يتحاورون فى ما شجر بينهم من أمر الرؤية أيوثق فيها بحكم الآلات الفلكية أم لا ؟ وهل تثبت برواية التلغراف أولا بد فيها من الإخبار فما إلى فم .

وكل ما نتمناه هو أن يفرغ أسيادنا من حوارهم قبل أن يأتى رمضان القابل حتى لا نبيت الإفطار يومئذ ثم نمسك عند الزوال ونقضى اليوم بعد ذلك فنصوم رمضان ثلاثين يوماً ونصفاً .

ليست الثلاثون هينة على نفوس الناس فى هذا الزمن الصعب حتى يتبرع لها قضاتنا الشرعيون بمزيد .

وإنا لنرى عدد المفطرين يتزايد بيننا عاماً فعاماً حتى لبتنا نخشى أن لا يصوم فى الجيل القادم أحد من أبنائنا ولا بناتنا اللهم إلا جماعة الدينيين وهم كالشعرة السوداء فى الثوب الأبيض ، ولكن جماعة الدينيين ليسوا إلا ذُكراناً فقط ، فإن ترك لهم إحياء هذه الشعيرة بطلت بهجة المواسم الرمضانية التى يرجع الفضل الأكبر فيها إلى بشاشة النساء .

وما لنا لا نرجو أن يكون عندنا فى يوم من الأيام نساء دينيات إلى جانب الرجال الدينيين ؟

---

* السفور : العدد العاشر . السنة الأولى – يوم الجمعة ١١ رمضان ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٣ يولية ١٩١٥ م .

إذا كنا أخذنا نشعر بحاجة بناتنا إلى العلم وكنا لا نزال نعتقد بضرورة التعليم الدينى لأمتنا فمن الإنصاف أن نفكر فى إنشاء معاهد لتعليم البنات وجعلهن شيخات .

ربما كان لقب المشيخة لا يرضى ذوق سيداتنا وهن ينفرن من سماعه ومن النداء به ومن رؤية حامليه .

إن كان هذا النفور غير منصف فحضرات السيدات أولى الناس بالرجوع إلى العدل .

وإذا كانت المشيخة عبئاً ثقيلا فجدير بنا أن نطلب إلى المرأة الجديدة التى تريد حقها من الحرية والمساواة أن تؤدى للجمعية هذه الضريبة كما يؤديها الرجال .

من مصلحة الدين نفسه أن تأخذ المرأة بنصيبها من مدارسته وروايته والتصدر للإرشاد به والدعوة إليه فإن للطبيعة النسائية استعداداً خاصاً للتأثر بالخلابة الدينية ولها منافذ لطيفة إلى طيات القلوب وما أحق الدعوة الدينية وهى نور يشرح الله له الصدور أن تحملها إلى النفوس أكف النساء بين الجمال والحب وأثناء الرياحين.ثم إنه من الخير لرجال الدين أن يشتد ساعدهم بنصرة النساء كما اشتد بهن ساعد النبيين من قبل .

يحملنا على التفكير على هذا النحو ما نرى من تراخى الناس فى إحياء الشعائر الدينية فقد كان صوم رمضان إلى عهد قريب عادة مقدسة يستحى أن يجهر جاهر بمخالفتها وقلما نجد اليوم فى دار من دور المدن من يؤدى هذه العبادة،وعجيب أن يكون منا نحن الأمة الجامدة المستمسكة بقديمها هذه الرخاوة فى شؤون ديننا وفى تقاليدنا أيضاً وأخلاقنا .

لو وقف الأمر عند حد الصيام لهان علينا أن يأكل الناس ويشربوا فى رمضان .

ولكن الذى يروعنا هو أنك تجد ألسنة متحمسة فى النضال عن القديم

ومصادمة الجديد وتجد تحللنا فى العمل من كل أخلاقنا وتقاليدنا العتيقة هيناً ليناً .

فلا حرمة فى نفوسنا صحيحة لشىء مما ورثنا التمسك به جيلا بعد جيل .

وما كان ذلك ليسرنا وإن كنا من دعاة الإصلاح وأنصار الحرية والتقدم لأننا نحب أن يفهم الناس مذاهبنا الجديدة ويقتنعوا بصحتها فيحملهم التشبع بفائدتها على مفارقة قديمهم وفى أنفسهم حسرة عليه .

نحن نحب أن نجد صلابة من الأمة فى تقاليدها التليدة التى نريد أن نزلزلها ذلك بأننا نسعى إلى جعل أمتنا تأخذ الجديد بقوة ومن لا يعز قديمه فلن يعز الجديد .

أما هوان العقائد والأخلاق والمذاهب على الناس بحيث لا يجدون فى أنفسهم حرجاً أن يبدلوها كل يوم على غير هدى فهو داء نشفق على قومنا من شره .

لا جرم كنا ممن يود أن لو صام الناس حرصاً على تقاليدهم خصوصاً أولئك الذى تلتهب الغيرة على الدين فى صدورهم فتفيض من أفواهم شعلا يرمون بها كدعوة إلى إصلاح .

إذا قامت المعذرة لامرئ جنى نظره العقلى على عواطفه الدينية فى أن يهمل شعائر التدين فأى حجة لأولئك المتمسكين بالدين فى أن يستهينوا بأظهر شعائره المقدسة عندهم ؟

نعم يوجد بين مفطرى رمضان من يتصدقون عن كل يوم يفطرونه بإطعام مسكين اعتماداً على مذهب لهم فى قوله تعالى: « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » .

يا حبذا لو نهضت حجتهم فى تفسيرهم حتى نفطر مثلهم فنستريح من ألم الصوم ثم نتصدق معهم فنسد خلة المساكين وهم كثير فى هذا البلد .

الجريدة*

احتجبت الجريدة بعد أن عاشت ثمانى سنين وخطت إلى التاسعة واجتازت معظم العقبات التى تقوم بين يدى الأعمال العظيمة فى نشأتها حتى حسبنا أقدامها رسخت واستبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفى من شبابنا وتسير فى ظلها دعوة الحرية والتقدم بين جاه العلم والعقل وجاه العصبية والغنى . طويت صحيفة حزب الأمة وانطوى معها تذكار نهضة تعلقت بها آمال كبار .

لم يكن يقدر أحد ممن شهدوا بداية الجريدة إذ يفيض النضار حولها ويتهافت وجوه القطر عليها أنها تنتهى هذه النهاية فقيرة ذليلة يعوزها سداد ديونها ثم لا تجد لها وليا ولا نصيراً .

هنالك فى سراى البارودى حيث كانت تتراحم بالمناكب الجماهير من أرباب العشائر وأصحاب الثروات الضخمة ورجال العلم والأدب يجتمع اليوم التجار ليشتروا بثمن بخس متاع الجريدة ! وإنا لنشهد إفلاس شركة الجريدة والهم ملء الصدور لأن ذلك إخفاق لعمل قومى تهيأت له كل أسباب النجاح فهو دليل على الخرق وسوء التدبير ، ولأن المقاصد الوطنية العظيمة التى تعاون أصحاب الجريدة على العمل لها تفدى بالنفوس والأموال ولا ينهزم دون الوصول إليها إلا من ضعف فى نفسه حب الوطن .

وأى مصاب أشد وقعاً علينا من رؤية كبارنا وخيرتنا متخاذلين عن دعوة الوطنية وهم وافرون فى أموالهم وفى أنفسهم ؟

نشأت الصحافة فى هذه البلاد لأكثر من قرن، فهى من أقدم نهضات التقدم بيننا وها نحن أولاء نجد زمام صحافتنا بيد النزلاء والغرباء ولا تزال جرائدنا الوطنية صغيرة ضئيلة تتعثر فى خطواتها إلى الرقى، وكلما تجدد لنا أمل من هذه الناحية

---

* السفور : العدد الحادى عشر . السنة الأولى — يوم الجمعة ١٨ رمضان ١٣٣٣ هـ الموافق ٣٠ يولية سنة ١٩١٥ .

رزأنا الدهر فيه على مثال ما يرزؤنا فى صحيفة حزب الأمة اليوم . قد يكون موت الجريدة أكبر مظهر من مظاهر الخيبة لجيل الأمس فى سعيه إلى الحرية والتقدم، ونحن يؤلمنا أن نسجل خزياً ظاهر العار على ذلك الجيل الذى نعزه على علاته . ولكننا لا نيأس من جيل اليوم جيل الشباب الناهض ونتمنى أن يكون أثبت قدماً فى خدمة الأمة وأصدق عزيمة وإخلاصاً فى السعى إلى سعادتها وأكثر توفيقاً إلى الرشد فيما يحاوله من ذلك .

نتمنى أن يكون كبيراً فى نفوس شبابنا معنى الحمية للأمل القوى فلا يحتملوا ذل الهزيمة والخذلان ولا ذل الفرار من الميدان .

ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهر ألقابهم وأموالهم .

ومن العجيب أن جوانب القطر اهتزت لظهورها ثم هى تحتجب فلا يشعر بخلو مكانها ولا يُشيعها بالحسرة إلا جماعة الشبان الذين يتحسرون على كل نهضة فى هذا البلد تخمد أنفاسها .

إن المرزوئين فى الجريدة هم أهل الجد من فتيانها الذين كانت صحيفة الأعيان مظهراً لمذاهبهم الحرة وأفكارهم الجديدة ولن يعدموا بإذن الله وسيلة لنشر دعوتهم الصالحة فى جرائد إن كانت صغيرة ضعيفة فستمدها قوة الحق فتكبر وتقوى .

أما بعد فإننا فى هم من موت الجريدة يشغلنا اليوم عن التقدير لجريمة من أماتوها وعاشوا بعدها .

الأعياد*

العيد كل يوم يعتاد الاحتفال به والسرور فيه هو ميقات معين يتجدد فى كل عام بين جماعة من الناس فيحيونه بمظاهر خاصة تميزه عن سائر الأيام . والعيد بهذا المعنى عرض اجتماعى لا يوجد فى طوائف الناس إلا بعد أن

* السفور : العدد ١٣ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ٩ شوال ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٠ أغسطس ١٩١٥ .

يحصلوا حظا من المدنية والرقى الاجتماعى . ذلك بأن اتفاق جماعة من الجماعات على اتخاذ زمن بعينه موسماً مشتركاً بينهم يدل على تكون الشعور القومى وعلى ضرب من النظام فى الحياة الاجتماعية .

ولقد يوجد فى القبائل المتوغلة فى السذاجة احتفالات ومواسم ولكنها ليست أعياداً ذات صبغة أمية ولاذات مواعيد منظمة . هم يحتفلون بالأعراس والمآتم وولادة الأطفال وبلوغهم مبلغ الرجال وما شابه هذا .

ولم يكن للعرب أنفسهم قبل الإسلام أعياد عربية ، ولا موسم الحج ، لأن الأصنام التى كانت فى البيت الحرام مزاراً للحجاج إنما كانت خاصة ببعض القبائل دون بعض . أما المصريون والفرس والرومان والصينيون والهنود فكانت لهم أعياد بالمعنى الذى أسلفناه .

وإذا كنا لا ندعى أننا درسنا تاريخ الأعياد درساً علميا مكملا فإن ما وفقنا إليه من البحث والنظر يحملنا على القول بأن نشأة الأعياد فى الجمعيات البشرية كانت نشأة دينية ونريد بالدين هنا الاعتقاد بقوة غيبية على أى نحو من الأنحاء .

والباحث فى أعياد الأمم القديمة يجدها دائماً حفلات دينية فى جوهرها مشتملة على شؤون غير معقولة المعنى .

على أن كثيرين من علماء الاجتماع يذهبون إلى أن الجماعات الإنسانية الأولى قامت على أساس دينى .

فالقبائل كانت تجعل قاعدة وحدتها الاعتزاء إلى حيوان تقدسه من قبل أن تعرف وحدة الجنس أو اللغة أو الوطن . ومن المعقول على هذا الاعتبار أن تكون العوارض الاجتماعية كلها دينية النشأة ما دام الاجتماع نفسه قام على شعور دينى .

وبعيد عندى أن يكون صحيحاً ما يراه أخ لى من أن الأعياد قائمة على فكرة اقتصادية فى نشأتها . فإن الأعياد وإن كانت تستتبع عادة حركة تجارية فإن

المعنى الذى قامت به لا يمكن أن يكون فى الأصل غرضاً اقتصاديا بل الراجح أن الأعياد فى أول أمرها كانت خالية من كل أثر فى الشئون الاقتصادية .

كانت الأعياد لنشأتها الأولى دينية فى معناها دينية فى مظاهر الاحتفال بها ثم تدخلها المظاهر الدنيوية بمقدار ما تتدرج الجماعات فى سلم العمران ثم يقوم كيان الأمم على أسس غير دينية فتوجد أعياد وطنية لا صلة لها بالدين كما يوجد فى جميع بلاد الغرب لهذا العهد .

كذلك كانت أعياد الإسلام فى طفولتنا صلاة وزكاة ونحر ثم جعل يحيط بجوهرها الدينى صنوف من الاحتفالات الدنيوية حتى كادت فى بعض العصور تضيع شعائر الأعياد فى ثنايا المواكب والحفلات .

ويلاحظ أناس أن بهجة الأعياد تتضاءل بين قومنا فى الأزمنة الأخيرة فلا يعتنى بإقامة شعائرها الدينية ولا بإحياء مظاهرها الدنيوية كما كان يصنع فيما مضى .

ومن آيات ذلك ما كان من ضعف رونق العيد فى هذا العام إذ لا نظن أن سببه كله راجع إلى الأحوال الحاضرة .

قد لا تنبغى لنا الحسرة على هذه الأعياد لأن أمتنا ينقصها أشياء كثيرة هى أحق بالحسرة والأسف ولكننا على كل حال لا نستطيع أن نكفكف ألمنا لرؤية مواسمنا الدينية تتهدم ثم لا تقوم على أنقاضها مواسم قومية .

وإننا لنشفق على هذه الأمة أن يضعف شعورها الدينى وشعورها الوطنى معاً .

لماذا خلقنا ؟ *

تفضلت الآنسة الأديبة « الزهرة » فرجت كاتب هذه الكلمات أن يقول رأيه فى جواب هذا السؤال .

ونحن طوعاً لإشارة الزميلة الفاضلة كاتبون فى الموضوع جملة موجزة وإن كان فى المقال الثمين الذى ينشرها السفور فى العدد القادم مالا يترك لقائل مجالا .

التساؤل عن علة خلقنا بحث عتيق تعرضت له جميع الأديان المعروفة بلسان غير مختلف ولو سكتت تلك الأديان عنه لكان من البديهى أن يعرف رأيها فيه . ذلك بأن الشرائع التى جاءت لإرشاد الناس إلى صنوف من العبادات تقربهم من الله زلفى لا بد أن تعتبر هذا التعبد المدنى من فضل الخالق ورضوانه هو الغاية من خلقه الإنسان . ولقد هم العقل البشرى بأن يتناول البحث فى سر وجود الإنسان، يوم كان للدين رقيب عتيد على كل نزوة من نزوات الشره العقلى إلى النظر والمعرفة . وهنالك تصادم الدين والعقل وانهزم هذا مغلوباً ثم ظلت تتجدد هذه المنازعات كلما وضع السؤال الذى نحن بصدده موضع المناقشة بين الدينيين الذين لا يريدون أن يذهبوا به إلى أبعد من حدود النصوص الدينية وأهل النظر الذين يتركون لعقولهم كل حرية فى البحث .

ولو أن للبحث فى هذا الموضوع فوائد عملية لهان علينا أن نثير حوله غبار المناقشة بين العقل والدين ولكننا لا نشعر بمكان الفائدة من هذا الجدل ولا نظن التوفيق ممكناً بين مذاهب الدينيين والمتفلسفين فى هذا الباب .

يقول أهل الأديان إن الله خلق الإنسان ليعبده بأعمال صالحة هيأه لها ولا يقيم هؤلاء وزناً لما وراء السعادة الدائمة فى الدار الآخرة فالإنسان عندهم

* السفور : العدد ١٤ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ١٦ شوال ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٥ .

مخلوق ليعمل فى هذه الحياة الفانية ما يكون وسيلة للنعيم العظيم فى دار الخلود .

ولما كانت الأديان حددت ما هو وسيلة لتحصيل هذه السعادة فلا تكون خلقة البشر فى هذه الحياة الدنيا إلا لأداء التكاليف الدينية المجعولة طريقاً مشروعاً للوصول إلى نعيم الآخرة .

أما جماعة النظريين فيرون أن هذا الإنسان جزء من بنية العالم كله هذا العالم الذى لم تتفق نتائج أفكارهم على إثبات حدوثه أو قدمه ، ولا عرفوا إلى اليوم تفاصيله ومركز الإنسان منها . الحيوان الناطق يؤدى وظيفته فى المجموع العالمى الذى هو جزء منه فهو كآلة صغيرة فى مصنع كبير مكون من هذه الآلات وعلى هذا الاعتبار فعلة خلق الإنسان كعلة الخلق لجميع العناصر المكونة للعالم والمرتبة لحركته العامة بحركاتها الخاصة — هى أن يدور فى مضمار الحياة دورته المنساق إليها باستعداده الفطرى .

على أن النظريين لا يسمون هذا علة الخلق لأنه قد يكون حركة ذاتية غير معللة إذ هم لا يبنون بحثهم — كما يبنيه أهل الدين — على اعتبار أن المخلوقات كلها محدثة لها بارئ أوجدها لغرض .

ولقد ينبغى لنا إذ نريد أن نعرف الغرض الذى يسير إليه العالم فى جملته وتفصيله — ذلك الغرض الذى يصح لنا أن نسميه علة الخلق — أن نعرف هذا العالم بأجزائه ومجموعه ونحقق علاقات هذه الأجزاء بعضها ببعض ثم نضبط مجارى التطورات الماضية بقوانين هادية إلى تعرف وجهة المستقبل ويومئذ يكون لهذا الحيوان الآدمى الضعيف أن يعرف بعقله معرفة صحيحة لماذا خلقنا .

ملاحظات مسافر*

١

ليس من شأن السفر القريب الذى يستغرق بضع ساعات أن يكون رحلة تجد للمرء فيها ملاحظات ولكننا فى قطر تتباين فيه أحوال المدن وأحوال القرى تباينا يخيل للراحل عن القاهرة إلى ريف غير بعيد منها أنه مسافر سفراً بعيداً . تشاهد فروقاً فى الأزياء بل فى الخلق وتجد فى الألسنة تمايزاً وتلمح فى المعايش والأذواق والأخلاق خلافاً يكون أحياناً واضحاً جد الوضوح .

لا أريد أن أتصدى فى هذه الكلمة لبيان الفرق بين حياة الريف وحياة العاصمة ولكننى أريد أن أقص على القارئ ما عن لى من الخواطر والملاحظات فى رحلة بين القاهرة والريف .

كلما وصلت إلى محطة العاصمة أسرع إلىّ رجل ربعة فى الرجال أبيض الثوب نظيفه أسمر الوجه محلوق اللحية قصير الشاربين فتلقانى بتحية الجنود للقواد ثم صاح بالحمالين فسالوا عليه من كل حدب حتى إذا حمل متاعى وسير به إلى داخل المحطة وقف الرجل جانباً ورفع يده مشيراً بالسلام فلم يهبط بها عن جبينه إلا ليتناول « قرش تعريفه » اعتدت أن أقدر حسابه فى مصاريف سفرى كما أقدر ثمن التذكرة وأجر الشيال وأدخل إلى المحطة بعد ذلك عالى الرأس ترمقنى العيون من كل ناحية .

أنا حيىّ مسرف فى الخجل أتصبب عرقاً إذا مررت بمحفل فأخذتنى

---

* السفور : العدد ١٥ ، السنة الأولى يوم الجمعة ٢٣ شوال ١٤٤٤ هـ الموافق ٣ سبتمبر ١٩١٥ م .

الأبصار ، ولكن النظرات التى تثيرها حولى بمحطة العاصمة تحيات صاحبنا ومظاهر تبجيله تملأنى حرارة زهو لاحرارة خجل .

ولوددت أن يرانى ساعتئذ صراف التذاكر لا طمعاً — أستغفر الله — فى نظرة احترام منه هو أيضاً بل رجاء أن يخفف من حدة دلاله ، إننى يا عبد من لحم ودم !

أصل إلى محل التذاكر فأجد العامل عاكفاً على صحيفة يقرأها أو منصرفاً إلى زميل يحدثه وأجده فى بعض الوقت :

وسنان أقعده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

أناديه بلطف فلا يجيب وأكرر النداء فلا يزداد إلا تصامتا ، هنالك تغلب فى صوتى رجفة الغيظ المكظوم على لين التلطف لعامل فى أثناء تأدية وظيفته .

ينهض الشاب ثقيلا كالح الوجه ويرمى إلىّ بالتذكرة وأرميه بالدراهم ثم ينظر إلىّ شذراً وأنظر إليه شذراً .

الحمد لله جئت إلى القطار وأخذت مكانى إلى جانب ليس فيه معى أحد وانبسطت عيناى فى ذلك الفضاء المخضر البشوش بعدما انقبضت فى ذلك الوجه المغبر العبوس .

جعلت أتصفح جرائد كانت معى فاسترعى نظرى فى واحدة منها جملة معربة عن جريدة « لابورص إجبسين » مضمونها أنه تعددت فى هذه الأيام حوادث يسفك فيها الرجال دماء قريباتهم حفيظة للعرض وهى فظاعة بالغة ينبغى للصحف المصرية أن تنصح للناس أن يكفوا عنها وأن تبحث فى وسائل علاجها ذلك خير من الاشتغال بما لا يفيد من مسائل الحجاب والسفور. لئن لم تصب الجريدة الفرنسية فى زعمها أن البحث فى الحجاب والسفور لايجدى نفعاً فقد صدقت فى قولها إن من القسوة الشنعاء أن يمسح الناس بالدم جوانب العرض المثلوم .

نحن نتألم مع الجريدة الرقيقة الشعور لمشهد تلك الأنفس البشرية الزاهرة

أنفس النساء اللواتى زلت أقدامهن فى مزالق الهوى . ولكن جرائدنا معذورة فى عدم عنايتها بالنصح للرجال أن يترفقوا فى العقاب وأن ينصفوا فى زمن أضيع نصيحة فيه نصيحة الداعى إلى الرحمة والعدل .

إن كان عبثاً أن يكتب كتابنا فى تحرير المرأة فهو أشد عبثاً أن ننحى باللوم على قاتل مغلوب لغيرة طائشة بينما يروى أهل أوربا أرض بلادهم بدماء البشر غير ملومين . ثم ألا يمكن أن يعد تقبيح القتل وسفك الدماء فى الظروف الحاضرة دعوة إلى السلم ، وصاحبتنا « لابورص » تعرف مثلنا كيف ينظر بعين النفرة والحذر إلى كل داع إلى السلام حتى فى أرقى بلاد الأرض مدنية وعلماً .

انتهيت إلى مقصدى قرية ذاهبة فى أعماق المزارع بعيدة عن كل نفحة من نفحات الزخرف المدنى تلك هى الأرض التى أجد كلما استنشقت نسيمها ريح طفولتى .

كانت الشمس فى كبد السماء تتلظى وترسل بشواظ من نار على تلك الجسوم العارية إلا من أثواب بالية ، جسوم الفلاحين المنتشرين فى الغيطان رجالا ونسوة وأطفالا مشتغلين بطنى الذرة (الشامى) من غير فتور ولا كسل .

أعجبنى أن أرى السيدات شريكات للرجال فى مضطرب العيش وتمنيت أن تكون كل امرأة فى مصر شبيهة بهؤلاء الفلاحات العاملات اللواتى يعرفن للحياة معنى أكبر مما تعرف المرأة المتحجبة .

وما أظن الدعاة إلى حرية المرأة يطلبون للفلاحة المصرية أن تبخس حقها من العلم والتربية .

إن الاهتمام بفتح الكتاتيب وإنشاء المدارس لتعليم الصبيان من الفلاحين وإهمال العناية بتعليم الفلاحات قد جنى على هذه الطبقة الصالحة فى الأمة جناية عظيمة فقد كانت تلك الطبقة فى مستوى واحد من الجهة العقلية والأخلاقية فلما ارتقى الرجال درجة عن النساء تبين الضعف فى مركز المرأة وأكبر مظاهر هذا الضعف أن تقصر المرأة فى بيتها متاعا مضنوناً به على الأنظار فتفقد حريتها

ونشاطها وكذلك تجد حليلة الشاب المتعلم من الفلاحين تصبح محجبة من ذوات الخدور بعد ماكانت فى دار أبيها سافرة وكانت قوة عاملة مشمرة .

لو أن الفلاحة أخذت بقسطها من الرقى لاحتفظت بحريتها وضنت بنشاطها وقوتها أن يعطلا فى زوايا البيوت .

هذا وما يكون لامرئ شهد ما شهدته من نصيب الفلاح فى الصيف على قلة الوسائل لتوقى الحر وعلى سوء الغذاء وأسباب الراحة فى المسكن إلا أن يشعر بالظلم البالغ فى توزيع الثروة بين قومنا وفى توزيع العمل .

الفلاح المصرى أكثر الناس عناء فى السعى إلى تحصيل العيش وأقلهم متاعاً وأضيقهم رزقاً .

٢*

لست بحمد الله من الأعيان ولكننى منذ جئت الريف أعيش عيشة الأعيان الريفيين أطعم طعامهم غليظاً كثيراً تنوء المعدة منه بحمل ثقيل وأنام نوماً سباتاً مستغرقاً تضيع به أشرف ساعات العمل ثم أقطع ما بين ذلك من الوقت فى مجالس محشودة تقوم فى الساحات وأمام المنازل إلا أن يشتد الريح ويشق احتماله فنأوى إلى الحجرات .

مللت هذه الحياة المتشابهة العاطلة وأصبحت أشفق من أثرها فى إخماد عواطفى ومداركى كما أثرت فى بنيتى التى كنت ألتمس لها قوة ونشاطاً فى هذا الهواء النقى وهذا السكون المريح فلم تكسبه إلا ضخامة إن كانت أعطتنى مظهر الذوات فقد شوهت سحنتى ومسختنى مسخاً .

لين النحافة عزيز عندى فأنا أكره أن أكون غليظاً .

* السفور : العدد ١٦ ، السنة الأولى — الجمعة ٣٠ شوال ١٣٣٣ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٥ م .

وما كنت لأعيب امرءاً رمى الله بالبركة في أطراف جثمانه فاهتزت وربت .

وأسأل الله جلت حكمته أن يجعل البركة والزكاة فى أرواح أعياننا كما جعلها فى جسومهم فيكونوا كبار الأرواح وكبار الأبدان جميعاً .

ندعو لأغنيائنا أهل البيوت والوجاهة بالبركة فى نفوسهم وأعمالهم فإننا نخاف كل الخوف من مظاهر الضعف التى تلوح على عائلاتنا الكبيرة عائلات الريف التى كانت بالأمس ذات مجد ونبل تجمع إلى الاعتزاز بالعصبية والرزق الوفير جاه التماسك الأخلاقى والصلابة على تقاليد ممتازة أظهرها النجدة والكرم والحشمة وإباء الضيم .

فقدت الأسرات العالية كثيراً من بهجة عزها وظهر فى حياتها المادية والأدبية آثار الوهن .

كان رجال الأجيال الماضية فى العائلات أهل جد ونشاط يحرصون على تراث جدودهم وربما تنافسوا فى تنميته واستثماره حتى يسع ما تقضى به تكاليف المروءة وأريحية الجود ومظهر العز .

وكان معنى العصبية غالباً عليهم كأن فى إهاب كل واحد منهم عشيرته كلها بشرفها ومالها وحميتها فهو يستحى لعرض عشيرته أن يقول زوراً أو يغشى فجوراً .

وبرغمنا أن نقول إن جيل اليوم فى الأسر الكبيرة لم يكن له فى خدمة مجده العائلى أثر صالح . الشبان من أبناء الأعيان على قسمين : قسم يتحلل من الروابط العائلية فيحول مقامه إلى العاصمة حيث يعيش موظفاً يلتمس جاهه ورزقه غير معط من نفسه حظاً للمجموع العائلى باعتباره فرداً منه أو يعيش للذة نفسه ورضى هواه ينفق من ثروته ومجده حتى لا يبقى له مجد ولا مال .

وقسم يهب نفسه لقومه فيقيم فيهم موقراً محبوباً وعيب هذا القسم أنه اعتاد

من النعمة والرخاوة وكسلات الرفه ما يذهب بنشاطه ويتركه خمولا ضعيف القدرة على نفع نفسه وقومه .

يا أسفى على جيل اليوم يقولون إنهم كانوا داء الجريدة الذى قتلها ...

ونقول إنهم لم يكونوا لبيوتهم مادة عزة ولا حياة .

فما الذى بقى بعد هذا من المفاخر لجيل اليوم ؟

*٣

كان فى من دعى إلى شهود الاحتفال بفتح خزان أصوان عالم كبير فلما عاد من رحلته أخذ يقص فى مجالسه حديثها وكان ذلك الحادث يومئذ سمر الناس وموضوع الصحف .

قال لى بعض من حضر تلك المجالس : إن الأستاذ ذكر ما أعد لهم من أسباب الراحة فى سفرهم مثنياً على عناية الحكومة بأمر الطعام حتى لكأن كل غذاء وعشاء وليمة يقدم فيها الشواء وما إليه من أنواع الطيور والبقول المطبوخة والحلوى والفاكهة .

وأعقب ذلك ببيان توفر الوسائل لإقامة الصلوات فى أوقاتها فيخيل للمسافر أنه فى مسجد يخرج من ميضأته إلى محرابه حيث شاء .

ثم أسهب فى وصف المزارات من مقام الشيخ « الفولى » فى المنيا إلى ضريح سيدى « عبد الرحيم القناوى » فى قنا فمزار السيد « أبى الحجاج » فى الأقصر .

وقال الشيخ الوقور بعد ذلك .

كان يضحكنى أننا كلما انتهينا إلى مكان فى الصحراء فيه أطلال بالية

---

* السفور : العدد ١٧ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ٧ ذى القعدة ١٣٣٣ هـ الموافق ١٧ سبتمبر ١٩١٥ م .

ورسوم مقفرة مما يسمونه بالأنتيقة رأيت جمعاً من رفقائنا يهرعون إليه ويطوفون جنباته كأنما يطوفون بأول بيت وضع للناس .

ومن العجيب أن الرجل الشيخ « محمد عبده » كان يطيش طيشة القوم ويجرى معهم وراء هذه الأحجار بلحيته الطويلة البيضاء وجبته العريضة السوداء .

وكان الأستاذ الكبير عندما يبلغ هذا الحد من قصصه يهز الضحك فكيه هزا عنيفاً ويسيل من شدقية قهقهة عالية يرددها من حوله ترداداً كرجع الصدى .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد ذكرنى بهذا الحديث أن مركزنا شهد فى هذا الأسبوع حفلة شبيهة بما شهده القطر عند فتح الخزان منذ سنين حفلة تحدث بها الزارع فى حقله والتاجر فى حانوته والوجيه فى ديوانه والموظف فى مكتبه وكاد ذكرها يخترق إلى الظعائن حجب الخدور تلك هى حفلة تمثيلية قام بها جوق مصر الكبير جوق « حجازى » و « أبيض » فى قاعدة المركز. علمنا بها قبل موعدها بأسبوع فظل الناس يعدون لها الساعات كما يعد الموظفون أعقاب الشهور وكما يعدها كل ذى راتب شهرى اللهم إلا أعضاء هيئة كبار العلماء فإن عليهم أن ينتظروا توفر أموال فى الخزينة تكفى لصرف مرتباتهم فهم فى راحة من أن يعدوا خواتيم الشهور ويمكنهم أن يعدوا وراء ذلك ما أرادوا وعلى الله حسابهم وإليه مآبهم .

شغل العامة وقتاً بحديث التمثيل عن حديث القطن وقام التساؤل عن ثمن الكراسى مقام التساؤل عن ثمن القناطير والأرادب ونسيت أخبار الحرب وقوادها بأخبار المسرح وأبطاله وأصبحت قصيدة « إن كنت فى الجيش » أنشودة العمال وهم يجنون الأقطان مكان أغانيهم القديمة المتوارثة .

لما جاءت ليلة الاحتفال لم يبق فى بلاد المركز بلد لم يشد أهله الرحال إلى حيث يرون بشائر الفن الجديد فى هذا القطر .

ولم يتخلف عن ذلك المشهد معى إلا من هم على مذهب عالمنا الكبير

يسخرون من الأنتيقة ويسخرون من الموضة فهم أعداء للقديم وأعداء للجديد .

على أننى كنت أتمنى أن لو شهدت الجماهير من الريفيين تأخذهم أريحية الطرب حينما يستمعون أناشيد الشيخ « سلامة حجازى » يرسلها صوته الممتع نغماً ليناً ويا ليت شعرى هل رجفت تلكم القلوب رقة وتذكاراً عندما غنى الشيخ : « فإننى فى هواكم صاحب الألم » — فجعلت صيحاته الممتلئة الرنانة تذهب خافتة حتى تسيل حنيناً خالصاً ووددت لو رأيت أثر المهارة الفنية فى تلك الجموع إذ يقف « جورج أفندى أبيض » ممثلا شرقياً يحاكى كبراء الفن فى أرقى البلاد التى عرفت التمثيل منذ زمان .

نقابل بالاستبشار سرحة الأجواق الكبيرة فى الريف تنشر ذوق الفنون الجميلة بين العامة فإن إهمال هذه الفنون كما قال المرحوم « قاسم أمين » هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور .

ولئن قلّت فى السنين الأخيرة سرحات مشايخ الطرق فإن لنا العزاء فى طواف أهل التمثيل . أولئك يتعهدون الشعور الدينى القيم وهؤلاء يغرسون نوعاً من الشعور جديداً ونحن أمة محتاجة جد الحاجة إلى تربية شعورها وياحبذا لو أقيم فى كل قرية ساحة للذكر ومسرح للتمثيل حتى يعرف الناس ساعة لقلبهم وساعة لربهم .

ثم إننا نرجو أن يعين الله أهل هذا الفن ويوفق الناس لتقدير مساعيهم فى ترقية الأمة حق قدرها .

أما بعد فقد قالت لنا الصحف إن مصرية خطرت لأول مرة على المسرح ولم يذكروا لنا بعد ذلك من أمرها شيئاً إن كانت نجحت فسرونا بذكر نجاحها حتى نصفق لها من بين ثنايا هذا الوادى .

٤*

جميلة هذه الأرض فى هذا الأوان إذ يكسوها نبات الذرة مطارف من سندس تطرزها جداول الماء ويجرى النسيم فى جنباتها لطيفاً منعشاً، وجميلة هذه الليالى المقمرة يكاد يجد المرء فى هدآتها النيرة تلك السكينة التى تذهب بالنفس فى أعماق الماضى وتشق لها حجب المستقبل فتريحها بين الذكرى والأمل .

وجميلة هذه المجالس الرزينة لا يطوف بها شىء من حديث السياسة ولا العلم ولا المناقشات الدينية فلا يكد حاضرها ذهنه ولا يهيج إحساسه وهو فيها آمن هادئ يطيب فيها النعاس بأحسن مما يطيب لزائر بيوت التمثيل وشاهد محافل السينما فقد رأيت بعض إخواننا يتألمون هناك من « الأنتراكت » إذ يزعجهم من راحتهم ويقطع عليهم سلسلة أحلامهم اللذيذة .

وهلم إلينا أيها الإخوان إن كنتم تريدون أن تناموا ملء جفونكم ثم لا ينبهكم منبه .

وبالجملة فإن هذا الريف جميل كله ليس فيه موضع للذام إلا فى شيئين :

أما أحدهما فهو أنك تحتاج إلى تعرف دين الناس من قبل أن تبدأهم بتحية ذلك بأنك إن قلت للمسلم : « نهارك سعيد » لم يرض ، وإن قلت للمسيحى : « السلام عليكم » غضب . ثم إن للنساء تحيات خاصة لا هى بالمسلمة ولا بالمسيحية وإنه لشنيع عندى أن يختلف هذا البلد حتى فى كلمة التحية .

نقول إن ذلك من مواضع العيب فى الريف لأن تحية أهل المدن أصبحت « بنجور » و « بنسوار » أو « جود مورننج » و « جود نايت » فى بعض الأوساط

* السفور : العدد ١٨ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ١٤ ذى القعدة ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٤ سبتمبر ١٩١٥ .

السابقة فى ميدان الرقى يتساوى فى تلك التحيات أهل الأديان جميعاً .

وما أدرى أهو شر لنا أن نستعير ألسنة الناس لمجاملاتنا كما يصنع المدنيون أم شر الطريقتين أن تكون تحياتنا القومية ذات نفحة من نفحات الخلاف الدينى كما هى الحال فى الريف .

أما العيب الثانى من عيوب الأرياف فهو اختلال الأمن ونحن معذورون إذا خفنا على أرواحنا وأموالنا ما دام ضباط البوليس يقتلون فى أثناء طوافهم وما دامت بنادق الخفراء تسرق منهم وهم فى مواقف الحراسة .

يظهر أن نظام الخفر ردىء كثير العيوب . الأكفياء الصالحون يأبون أن يتولوا عملا شاقاً يشغلهم جميع ليلهم دائماً ومعظم نهارهم غالباً بأجر ضعيف وبشرط الخضوع لقوانين عسكرية صارمة .

إما أن يجعل الخفر إجباريا كالجندية وإما أن تصلح حال الخفراء بحيث لا يرغب عن تلك الوظيفة الطيبون من أهل العصبية والأخلاق الشريفة .

شهدت عمدة من عظماء العمد يعرض على كثيرين من أهل بلده أن يكونوا خفراء فيأبون معتذرين ويقبل هو معذرتهم غير عاتب عليهم لعلمه أن لهم حقاً فى الرفض .

ولم أر قبل هؤلاء الفلاحين الكرام من يكره وظائف الحكومة وهى التى تفتن الناس وتسحر عقولهم اللهم إلا صديقاً لى عزيزاً كتب إلىّ فى رسالة هذه الكلمة : « شيئان لا أتمناهما لحبيب فى هذا البلد التزوج والتوظف وإنى لأخاف أن تكون الأقدار تدخر لى وظيفة وزوجاً فقد عودتنى الأقدار أن تدخر لى ما لا أريد . . . » .

٥*

حينما أصل إلى القاهرة عائداً من الريف أشعر بنوع من الأنس الذى يجده من يؤوب من سفر ؛ ذلك مع أن الريف مسقط رأسى ووطن عشيرتى وفيه مالى وأهلى . هو مهد الطفولة ومستودع أسرارها فيه ابتسمت أول مرة للحياة وفيه بكيت أول مرة للحياة .

اللهم لا من قلة وفاء لتلك الأرض المباركة أن أرانى فى رحابها المحبوبة مستوحشاً ولا افتتاناً بزخارف المدائن ولهوها أميل إلى العاصمة :

لعمر أبيك الخير يا عمرو إننى على وضر من ذا الإناء قليل

فى القاهرة أكرم شىء على فى هذا العالم كله وأعزه عندى فيها خير تذكار لخير حنان نعمت به فى الحياة فيها رفات عزيزة . حيّا الله تلك الرفات العزيزة .

تركت الريف وأهله يشتغلون بجنى القطن ويتحدثون فى أسعار القطن وهبطت مصر حيث يشتغل الناس بغير تلك الأشغال ولهم حديث غير ذلك الحديث .

كان أول ما سمعته صياحاً فى الشوارع وتناجياً فى المجالس خبر الانتصارات الجديدة للحلفاء .

ومع أنه يسرنى بالضرورة أن يزيد الله الحلفاء انتصاراً فإننى لست من غواة الحرب وأخبارها لذلك سئمت سيرتها وكرهت تفصيلها وجملتها وكل ما أتمناه على القدر هو أن يقصر مدتها ويخفف عن البشر بليتها .

للناس فى هذه المدينة وراء أخبار الحرب أخبار يتناقلونها فى ما بينهم وعن

* السفور العدد ١٩ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة ١٣٣٣ هـ الموافق ١ أكتوبر سنة ١٩١٥ م .

حال « الجامعة المصرية » إذ يقولون إنها على شفا الإفلاس تسير هى أيضاً إلى الهاوية سيراً حثيثاً .

يذكرون أنها بعثت إلى جميع طلابها المرسلين إلى جامعات أوربا تأمرهم بالعودة إن لم يكن فى مقدورهم أن ينفقوا على أنفسهم ولا ندري هل تستطيع الجامعة بعد ذلك أن تقوم بالنفقات اللازمة لسنتها الدراسية القابلة أم هى ستغلق أبوابها ؟

يتهامس قومنا بهذا ثم لا يرفعون به صوتهم جهاراً .

وإن أجدر شىء أن يجهر به لهو السؤال عن حق هذه الروايات من باطلها قبل أن تفطس الجامعة ويعمى على الأمة خبرها . كان رجاء كبيراً للبلاد ذلك المعهد العلمى المحتضر فكيف لا ترتفع أصواتنا عويلا على أمل من آمالنا يموت إن لم يكن فى وسعنا أن نمد إلى نجاته يداً .

لطفك اللهم بهذه البلاد المسكينة يوم الجريدة ويوم الجامعة فى عام ؟!

ولئن كان حديث الجامعة المصرية أحزننا فقد سرنا أن آنسة من فضليات الأوانس ذكرت جريدة السفور بكلمة خير فى ذيل مقال لها لطيف .

فى عدد من أعداد المحروسة أطلعنى صديق لى على فصل جميل عنوانه « يوميات فتاة » يطرز حاشيته ذلك الإمضاء العذب الطائر الصيت فى عالم الأدب « مى » ، قالت الآنسة الكريمة فى مقالها الكريم :

« أما السفور فجريدة حرية بكل اهتمام ، ينشر فيها مقالات شائقات كاتبان هما من خيرة كتابنا ومن أدقهم فكراً وأعمقهم نفساً » .

كل من لهم صلة بالسفور متفقون على الاغتباط بشهادة الكاتبة الفاضلة له بأنه « جريدة حرية بكل اهتمام » ولكن الذى تنازعوا فيه بينهم هو تلك الزهرات التى نثرتها يد الآنسة على رأس كاتبين غير معينين من كتاب الصحيفة الوليدة .

ولقد خفنا أن تقع الشحناء بين تلك الجماعة فيأخذ بعضهم بخناق بعض

تسابقاً إلى ذلك الفضل العظيم فضل الاستحقاق لكلمة ثناء من آنسة المحروسة.

ليست شيعة السفور فيما أظن ممن يعشقون الثناء فقد ذموا كثيراً ومدحوا فما زادوا فى الحالتين أن قالوا : اللهم لا تفتنا بما يقولون غير أن الثناء من الآنسة الحكيمة جدير بأن يرسل الخيلاء إلى أشد الناس تواضعاً وأكثرهم ورعاً وجدير بأن يتدافع إليه بالراح من لا يتزاحمون على جزاء من الناس ولا شكور .

كنت غائباً يومئذ، توزع رفاقى ثناء الأديبة فخرجت خلو اليدين من ذلك الحظ العظيم وإنى على كل حال أشكر للآنسة « مى » فضلها وبرها وأسأل الله أن يكثر خيرها .

أوبة الدكتور طه حسين*

لما أوفدت الجامعة المصرية الدكتور طه حسين إلى فرنسا سررنا بتلك الرحلة المباركة علماً بأن من ورائها خيراً كبيراً لنهضتنا الفكرية الحديثة التى تضع كثيراً من رجائها فى عالمنا الأديب .

وما زال الناس يعرفون للأسفار فائدتها فى تكميل المعارف وتزكية الفطر حتى ليقول ابن خلكان فى ترجمته لبعض العلماء ما معناه : وكان الناس يتعجبون من تقدمه فى الفهم والمعرفة مع أنه لم يغترب فى طلب العلم .

ولعل أحوج الناس إلى الانتفاع من الأسفار فى إنضاج مواهبهم الكامنة أولئك الأفراد المتفوقون بفطرهم الذين تعجز الأوساط التى نشأوا فيها عن أن تسير بهم إلى ما استعدوا له من الكمال . وبكر الجامعة المصرية من هذا الطراز.

سافر الدكتور طه حسين إلى أوربا يومئذ فى ميعتها الأولى غير مبال بما بين يديه من المصاعب وعكف على الاستفادة من علم القوم ومن عشرتهم .

---

* السفور : العدد ٢٠ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٨ ذى القعدة ١٣٣٣ هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩١٥ م .

وقد كانت غيبة الأستاذ وحشة لنا نحن أصدقاءه ، تفيض بالشكوى منها مجالسنا العاطلة من أنسه الممتع وتشعر بألمها قلوبنا الظمأى إلى صداقته الخالصة وعطفه الكريم ثم كانت غيبته وحشة فى عالم الأدب وفى عالم العلم إذ حرم الأدباء نغمه الشجى وحرم العلم تمحيصه ونقده .

كنا على شوقنا لصديقنا الدكتور وألمنا لفراقه نريد أن يبقى فى فرنسا حتى يتم ما بدأه من الدرس .

غير أن الأقدار لا تعرف الأمور جزافاً فقد علمت أن عاماً واحداً يقيمه الأستاذ فى أوربا قد لا يمكنه من الحصول على شهادة من الشهادات الدراسية ولكنه يكفى لتفتيق الأكمام عن عبقريته .

عاد الدكتور طه حسين فى من عادوا من مبعوثى الجامعة ليقضوا إلى جانب سريرها المختلج بالنفس الأخير . عاد الدكتور غير حائز للشهادة التى كان يتأهب لها ولكنه حائز لأكمل حظ من العلم والحكمة حائز لخير ما رجونا أن يكسبه من رحلته إلى تلك البلاد الحية فى سلمها وحربها المملوءة بالأمل فى سرائها وضرائها .

ولئن كانت عيوننا ملأى من دمع الأسى على الجامعة المحتضرة فإنها تمتلىء اليوم أيضاً بدمع السرور لأوبة الدكتور طه حسين ميراث الجامعة المصرية العزيز وأمل النيل والأهرام .

فى حفلة سركيس*

تلك هى الحفلة التى أقامها الأديب السورى المعروف « سليم أفندى سركيس » معونة لعائلتى ممثلين مصريين مات أحدهما معدماً وخلف صبية صغاراً وثانيهما شيخ يثقل خطاه حمل السنين وحمل الفقر معاً .

* السفور : العدد ٢١ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ٥ ذى الحجة ١٣٣٣ هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩١٥ م .

وقف منظم الحفلة فى صدر المسرح بين ابن الميت المرحوم وابن الحى المستحق للرحمة فكان أشرف موقف وأكبره أثراً فى النفس ، مكانه بين يتيم وشبه يتيم كما قال الشاعر الكبير « مطران » أما الصياح بالتبرع للعائلتين المسكينتين بالمعونة من أجواف اللوجات صياحاً يردده سركيس أفندى من فوق المسرح فقد صفقت له مع المصفقين سروراً بكل ما يصل من مدد إلى أولئك البائسين ولكننى كنت أود أن لو همس الكرماء بأسمائهم فى آذان الأيتام همساً ولعل الابتسامة الخفية التى يبعثها إلى شفاه الصبية موقع المعروف الصامت ممزوجة بالألم والحياء هى خير عند الكريم من ذلك الصياح الضائع فى ثنايا التصفيق المتكرر .

ألقى « حافظ بك إبراهيم » قصيدة من أحسن الشعر وألطفه « لمطران أفندى » وثنى بقطعة من نظمه من وزنها ورويها وقد لا تنقص عنها من جهة الإجادة فى الصنعة .

ولحافظ بك طريقة فى الإنشاد معجبة لا عيب فيها إلا أن نغمتها واحدة وتكون أحياناً صلبة لا تعطى شعور الحنان كل ما ينبغى له من لين ، وإشارات شاعرنا عند الترنم موفقة غالباً وقد لمحنا عند إنشاد البيت الذى فيه : « من جن وإنس » ، يشير إلى من بين يديه من السامعين فى الأولى وإلى الستار الذى وراءه فى الثانية فلم نعرف وجه هذا التوزيع ولم ننكره أيضاً . أما « هلباوى بك » الخطيب البليغ فمع أنه كان متعباً كثير المشاغل فإن فكره الخصيب وذاكرته الأمينة لم يخوناه فى موقف الارتجال .

لم أقم فى تلك الحفلة الجميلة إلى منتهاها فتركتها آسفاً . وقد حضرت فصولا من رواية « صلاح الدين » التى كان يمثلها جوق « حجازى » و « أبيض » . أحسن الغناء الشيخ سلامة حجازى وأحسن التمثيل « جورج أفندى أبيض » وأحسن معه الشاب الذى كان يمثل دور الخادم والسيدة التى كانت تمثل دور العاشقة تمثيل من لا يجهل العشق .

ولقد ذهب عن ذاكرتى اسم الممثلة الماهرة ويا أسفى أصبحت تغيب ذاكرتى حتى عن أسماء السيدات .

هممت بعد هذا بأن أصف ما كان يزين المجمع من جمال السيدات وحسن الذوق فى اختيار ثيابهن اللطيفة ثم ذكرت أننا فى مصر حيث لا يسوغ لعين أن ترى محاسن المرأة ولا يسوغ للسان أن يذكرها .

تذكار قديم*

كثيراً ما تضيق النفس بالحاضر فلا ينفس عنها إلا الرجوع إلى مستودع الذكرى أو التعلل بالأمانى والأحلام وإنى ليملكنى السأم الليلة وما هى بالقليلة فى حياتى ليالى السأم — فأجد سلوتى فى تصفح أوراق بالية كنت أفضيت إليها بخواطر لى وتذكارات شتى .

تلك هى الجمل التى أريد أن أنقلها إلى القارئ من غير تصرف ولا تغيير أنقلها كما كتبتها منذ سنين تصويراً لحالات نفسية وكما قرأتها الليلة تذكاراً قديماً .

* * *

يخيل إلى أن من أسباب السكوت الذى يغلب على فى المجالس قلة رغبتى فى الخوض فيما يحب الناس الخوض فيه من الوقوع فى أعراض بعضهم وقلما تخلو المجالس من هذا .

قد يلهينى سماع تلك الأحاديث ولكننى لا ألهو بأن أكون قائلها .

كنت أشكو فى مصر من شغف المجالس بالكلام فى الأشخاص وأجد فى القوم هنا أحياناً ولعاً بالتطلع إلى صغائر الشؤون الشخصية ذلك لأن الضعف الإنسانى لا بلد له .

---

* السفور : العدد ٢٣ ، السنة الأولى — يوم الجمعة ٢٦ ذى الحجة ١٣٣٣ هـ الموافق ٥ نوفبر ١٩١٥ م .

كنت أتحدث إلى طائفة من النساء والرجال وجرى ذكر الغيرة فقال قائلون إن الغيرة عيب فى الرجل وشيمة فى المرأة غير مذمومة وذهب بعض السيدات إلى أن الغيرة نقص فى الرجل والمرأة .

أما أنا ففى أعماق نفسى نزعة إلى الغيرة ولكنى حينما أرجع إلى الفكر الدقيق أرى أن المقدار الذى يستتبعه الحب من الغيرة الحنون شريف كشرف الحب أما التهوس بالغيرة على الوجه الحرج ففضيلة العصور الخالية لا يتفق مع السعة والحرية المميزة لمدنية اليوم .

* * *

معنا أب يقوم على سرير ابنته المريضة ليلا ونهاراً لا يترك حجرة وحيدته إلا ليطعم، لقيمات يرى الناظر إليه أنه يأكلها ليحفظ رمقه من غير شهوة ولا لذة وإلا ليذهب أحياناً إلى الكنيسة يبتهل إلى معبوده أن يذهب البأس عن طريحة الفراش .

تبصر فى ذلك الوجه الشاحب الحزين مظاهر القلق الممزوج بالحنو والرحمة وإنى لأشعر كلما لمحته بعاطفة إجلال وهزة حزن أرى فيه شخص الأبوة بحبها وحنانها ورقة قلبها ويخيل إلى أن شظايا لهب تطير من قلبه المعذب فى ثنايا نظراته المفجوعة .

خير ما نعرف فيه وقتنا هنا هو قطف الأزهار وهذه الأرض غنية برياحينها وزهورها الطبيعية وقد أخذ النرجس يفتح أكمامه البيضاء عما تحت غلائله من دائرة مصغرة محاطة أطرافها بلون أحمر لطيف . فى كل فج من فجاج الأرض باقة من نرجس حتى لنخاف أن يصبح هذا الزهر رخيصاً حينما تمتلىء به هذه المروج الفسيحة التى تفيض به نباتاً لم يخرج زهره إلا قليلا . خرجت مع زميل لى نلتمس النرجس فى أحضانه من زوايا المزارع فكنا نلمح الزهرة فنبتدر إليها حتى إذا صرنا منها مد اليد تركتها لصاحبي ولم يكن هو يتكلف مثل هذا معى فعاد يحمل أضعاف ما حملت .

ذلك مثل يبين عما تنطوى عليه فطرتى من خلال: خلو من الأنانية اللازمة للنجاح فى مزدحم هذا العالم .

* * *

لقيت مسيو .. . ومعه مسيو جان ماسبرو . تعرفت بالشاب فتفرست فيه مخايل نجابة وجد وقد لعب على البيانو قطعاً موسيقية جعلتنى أقدر مهارته على قلة معرفتى بالفن . كنت أرى يديه العصبيتين تتنقلان بين مواقع الأنغام برشاقة وخفة تساير نظراته الذكية التى تأخذ النوت الموسيقية بلمحات مسرعة وكانت الرنات الواضحة لأصوات البيانو تهز جسمه كله كأنما تخرج النبرات من مجموعه العصبى .

كان يلذ لى أن أنظر إلى السيد لاعباً بمقدار ما يلذ لسمعى أن يتبع وحى التوقيع اللطيف وصيحة النغمة العالية من أصواته الموسيقية .

يعجبنى العامل المحب لما يصنع ويروقنى العمل المجود فلو لم يكن طربى لموسيقى مسيو ما سبرو بما فى نفسى من نفحة موسيقية لطربت لها بنزعتى إلى الإعجاب بكل عمل يعطيه العامل من روحه حياة .

* * *

رحم الله الشاب جان ماسبرو فقد كان ضحية من الضحايا الغالية فى الحرب الأوربية الحاضرة .

على ذكر العام الهجرى الجديد *

شعر الإنسان منذ نشأته بالحاجة إلى وسيلة لقياس الوقت فوقع نظره فى أول الأمر على القمر ورآه يهل نحو ١٢ مرة فى كل سنة فجعل سنته قمرية . غير أن ذلك القياس لم يكن سالماً من الخلل فاضطر إلى سده وتوصل

* السفور : العدد ٢٤ السنة الأولى – الجمعة ٤ محرم ١٣٣٤ هـ الموافق ١٢ نوفبر ١٩١٥ .

بالمراقبات الطويلة إلى اتخاذ السنة الشمسية على ما نراها الآن .

ولقد كانت سنة العرب فى أقدم عهود جاهليتهم سنة هلالية فكانت شعائرهم الدينية تنتقل بين فصول العام تقع تارة فى الصيف وتارة فى الشتاء حتى إذا ارتقت جماعاتهم ألجأتهم حاجة العمران إلى أن يجعلوا حجهم بعد الفراغ من عملهم للمعايش كجنى الأثمار والنخيل وأن يثبتوه على حالة واحدة فى أطيب الأزمنة وأخصبها فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب .

قيل كانت العرب تكبس فى كل أربع وعشرين سنة قمرية فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة لا تتغير جارية على سنن واحد لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم .

أقاموا على ذلك إلى العهد الإسلامى حين وجد التاريخ الهجرى الهلالى فكان لهم ستتان إحداهما هلالية للشؤون الدينية والأخرى شمسية للأمور الدنيوية كجباية الخراج وتدعى السنة الخراجية أيضاً .

ولقد مضت مدة طويلة على الجمعيات البشرية من غير أن يكون فيها زمان معين يبتدئ منه التاريخ فكان الأفراد يحسبون من سنة ولادتهم والملوك من سنة ملكهم وهو المعول عليه فى أكثر المحفورات القديمة ثم مع تمادى الزمان أخذ بعض الشعوب فى ربط تاريخهم بحادثة ذات أهمية عمومية وأقدم هذه التواريخ تاريخ الرومان الذين اتخذوا بناء روما تاريخاً لهم .

يظهر من هذا القول الموجز الذى لخصناه من الأبحاث المفصلة فى نشأة التواريخ البشرية وتطوراتها أن التاريخ الهلالى هو أقدم ما عرفه البشر من التواريخ لاعتماده على ظواهر طبيعية تنبهت لها الجمعيات الإنسانية فى سذاجتها الأولى .

كان هذا النوع من التاريخ كافياً للجمعيات فى بداوتها لكن الحياة الاجتماعية المنظمة اضطرت الناس إلى التماس حساب أدق وأثبت من حساب السنين الهلالية فيما يتعلق بشؤون العمران،ولم يبق لذلك الحساب العتيق من

أثر فى الاجتماع إلا علاقته بتوقيت العبادات فى بعض الأديان وإلا الحرمة لتذكار قديم .

السنة الهجرية باعتبارها تاريخاً هلاليا لم تسد حاجة الجماعات الإنسانية من الوجهة الدنيوية حتى فى عصور الإسلام الأولى فهى بذلك الاعتبار ليس لها إلا المعنى الدينى خصوصاً فى مثل زمننا هذا حيث لا يعمد إلى التاريخ بها حتى فى الأوساط المصبوغة بالصبغة الدينية الخالصة .

على أن اتصال التاريخ الإسلامى بحادثة الهجرة النبوية سيعطيه فوق الاحترام لأثر دينى حرمة أخرى هى فخار للدين الإسلامى المجيد ذلك بأن الأمم اعتادت أن تبتدئ تاريخها بحادثة فيها مظهر من مظاهر العظمة والتعالى .

أما أتباع محمد رسول الله فجعلوا بداية تاريخهم خروج نبيهم من مسقط رأسه ودار عشيرته ومهد طفولته وشبابه فقيراً ضعيفاً إلى دار غربة لا يبتغى فيها جاهاً ولا مكسباً فراراً بدينه واحتمالا للأذى فى سبيل نصرته .

* * *

هذا وقد مضت سنة الناس من عهد بعيد بأن يجعلوا لافتتاح العام حفلات ومظاهر سرور وابتهاج .

كان قدماء الفرس يبتدئون السنة الشمسية باحتفالات وأفراح تمكث عدة أيام فعندما يطرز شعاع الشمس الجديدة للسنة الوليدة حاشية الأفق يختارون غلاماً حسن الصورة بديع الجمال ويوفدونه بشيراً إلى الملك بدخول السنة الجديدة ،ويلى هذا الغلام غلام آخر يقدم للملك صفحة من فضة فيها سنابل وحبوب وسكر ودنانير فتطحن الحبوب وتخبز ويذوق الملك عيشها ويفرق منه على أهل ديوانه ويهدى إلى أرباب دولته ملابس شرف ، وآخر أيام الموسم هو نوبة الرعية فيقدمون الهدايا للملك. وأول السنة يشاع الآن عند الفرس ولكن بأفراح أخرى غير السالفة وذلك أنهم فى الاعتدال الربيعى يصنعون موسماً يسمى النيروز.

يرصد المنجم وهو فلكى تلك البلاد التى يجهل فيها علم الهيئة دخول

الشمس فى برج الحمل ويخبر الملك بذلك فيأمر الملك بإعلانه وعندئذ يرمى بالبارود وتدق الطبول فإذا ما انتشر النبأ بين الناس تزاوروا لابسين أجمل ما عندهم من الثياب التى هى فى الغالب جديدة وتهادوا بأنواع الهدايا خصوصاً البيض المذهب القشر وهذا عندهم هو الهدية اللازمة . ثم إن الأمراء وعمال الأقاليم وأكابر الدولة تهدى إلى الشاه هدايا جيدة كالخيل والقماش .

وعادة الهدية أول السنة الجديدة وصلت إلى بلاد الإفرنج من الرومانيين ، وقد أعطى الرومانيون أول شهر من السنة اسم يانوس ملك إيطاليا الذى كان على ما يروى فى خرافات الجاهلية له وجهان يرى بأحدهما المستقبل وبالآخر الماضى وكانت أيامه تسمى عصر الذهب يعنى أيام الهناء وإنما سموا أول شهر باسم هذا الرجل تذكاراً لذلك العصر الهنىء . وهدايا الرومانيين فى أول السنة كانت ساذجة مجردة عن الغلو فكانت هذه الهدايا فواكه يابسة وحلوى ومعادن منقوشة فى زمان سالف بالنسبة إلى زمانهم ثم لما كثرت الزينة فى آخر الأمر أحوج الحال إلى التهادى بالأشياء النفيسة .

تبدلت مهاداة الذهب والفضة وغيرهما من النفائس بمهاداة الفواكه اليابسة وبقيت عندهم هذه العادة إلىما بعد بعثة المسيح بعدة قرون . ثم إن أحبارهم أرادوا إبطالها قائلين إنها من آثار الجاهلية لكنهم لم يفلحوا لأن التهادى أول السنة يشعر بالميل إلى الأحياء وتذكرهم ويقوى روابط الود وقد قويت هذه العادة ودارت فى جميع الأقطار . ومما يقع فى بلاد فرنسا والنمسا وغيرهما أن الناس يفرشون فى أول أيام السنة الجديدة كل ما عندهم من اللطائف وأنواع الصنائع والتآليف الجديدة ونحو ذلك فيختار منها الإنسان ما يهديه إلى أصحابه . ولا يوجد شخص ولو كان فقيراً لا يحصل منها بالشراءعلى بعض الشىء لذوى مودته . والصينيون يبتدئون سنتهم بالعيد المسمى عندهم عيد الفوانيس فينصبون خياماً أو مقصورات من ورق مدهون ويوقدون فى هذه الخيام أو المقصورات أنواراً وبذلك يفرح الناس فتراهم على الأرض وفى المراكب فرحين بهذه الخيام والمقاصير العظيمة الأنوار .

وقد كان للأمم الإسلامية احتفال بموسم أول السنة . قرأنا ما نقل فى بعض الكتب فى وصف حفلات أول السنة فى عهد الفاطميين فلم نر إلا موكباً للخليفة ضخماً فيه أفراس قيمة كل فرس وما عليها من العدة ألف دينار وفيه أجناد وقواد وسيوف ورماح وألوية وأعلام وأمراء ووزراء .

أما الأمة نفسها فلم يقل لنا أحد كلمة عن كيفية احتفالها بهذا الموسم ولعلها كانت بالأمس كشأنها اليوم تستقبل السنين بغير احتفال .

المرأة المصرية والرجال الأجانب *

يسترعى نظرنا لهذا العهد أن نرى نساء مصريات فى المتنزهات والضواحى بل فى الشوارع العامة من المدينة يصاحبن رجالا من الفرنجة .

وما يكون لنا أن نعجل إلى سوء الظن بأولئك السيدات ولا برفقائهن فقد يكون حباً بريئاً ذلك الذى يجمع بين رب القبعة وربة البرقع فى عربة واحدة ينشر عليها الليل حواشى ظلامه وهى تطوى شاطئ النيل طيا .

فى أوربا التى تعرف من حرية الاختلاط بين النساء والرجال مالا تعرف بلادنا يؤثر السيدات أن يلبس الأجنبى لباس الأوربيين حينما يرافقهن فى الطرقات والمجامع حتى لا يلفت الأنظار ويطلق الألسنة فى أعراض مصونة . وإذا كنا نقلد الغربيين فى كل شىء فأولى لنسائنا — أعزهن الله — أن يتلطفن فى حمل أصدقائهن من الفرنجة على محاكاتنا فى الزى فيلبسوا الطرابيش أو العمائم أو اللبد مما قد اعتاد قومنا أن يلبسوه وقد لا يشق على محب أن يقدم هذه التضحية لحبيب .

على أننا نضن بما أودع فؤاد المرأة المصرية من الرقة والعطف أن يدخر لغير

---

* السفور : العدد ٢٥ ، السنة الأولى — الجمعة ١١ محرم ١٣٣٤ هـ الموافق ١٩ نوفبر ١٩١٥م .

أبناء مصر وإذا كان نساؤنا يشعرن بالحاجة إلى العشق فإن رجالنا إليه أحوج وهم به أجدر وإنا لنكره أن يحق على أولئك الراغبات عن أبناء جنسهن المثل العامى : « فلان زى النخلة العوجة ترمى بره » .

تطيب نفوسنا أن يكثر الحب بيننا لتقوم حياتنا الاجتماعية على أساسه وهو أصل لكل سعادة ولكن نفوسنا لا تطيب بأن نجعل شرنا لقومنا ونهب خيرنا للغرباء . وإن كل نفحة من جمال تقتطف أزهارها يد غير مصرية لهى خسارة على مصر ، وما مصر بالبلد الغنى من الجمال .

الرجل المصرى قد يعشق المرأة الفرنجية عشقاً خالصاً كاملا أما الفرنجى فيلذ له أن يلهو بسذاجة امرأة مصرية طريفة بالنسبة إليه ولكنه لا يستطيع أن يعطيها قلبه ويملك هواها قياده ما دام يملأ صدره العزوف بجنسيته عن مساواة الشرقيين .

المرأة الأوربية وهى من هى فى تعلمها وتربيتها وسعة تجاربها تخدع بمظاهر الحب المشوب وكثيراً ما تذهب ضحية للأشرار من الرجال الذين يلعبون بقلوب النساء الرقيقة . فمن حقنا أن نخاف على امرأتنا الطيبة الساذجة كل الخوف إذا هى عرضت فؤادها لمن ربما هان عليه أن يطرحه وقد ترك جراح غرامه دامية .

ولو وقف الأمر عند الطبقات الجاهلة الحقيرة لكان البلاء أخف ولكن الرواة يحدثوننا بأن فتيات كريمات تفتنهن القبعات فتوناً .

ولعل هذا من الأسباب التى عجلت بشبان منا إلى التفكير فى تغيير غطاء الرأس عندنا ونحن على باب الشتاء بحيث نخاف الزكام والصداع إذا نحن خففنا عن رؤوسنا المسكينة . هم يخافون أن ينتظروا إلى الصيف فيستشرى الداء ويعز الدواء .

أما بعد أيتها المرأة المصرية فاقنى حياءك إننا أعطينا كل شىء فليبق العرض لنا .

كلمات*

قلما شهدت زوجة راضية عن بختها العائلي أو سمعت بعلا يحمد الزواج . فلا أدرى لم يتزوج الناس .

* * *

خرجت من الدار لأول مرة منذ لزمت الفراش سقيما ، فقصدت الصحراء لأزور هنالك القبرين العزيزين ، قبر أمى وقبر أبى .

دخلت إلى تلك القاعة الهادئة الخالية من كل أثاث وزينة وأغلقت الباب على موحداً بين رفات غالية عن يمينى وشمالى وجلست أبكى بكاء تتحرك به كل عواطف الحنو من نفسى وعدت حزيناً مستريحاً .

* * *

حضرت فى الجامعة المصرية محاضرة لمسيو كليمان أستاذ آداب اللغة الفرنسية .

دخلت إلى الدرس وقد مضى شطر منه ، لأننى وصلت متأخراً ، رأيت مجلساً حاشداً بالسيدات والشبان من الفرنسيين ساكنى مصر وبينهم عدد غير قليل من فتياننا . ولم يسترع نظرى فى الحاضرين إلا فتاة مصرية مبرقعة كان يتزين بها ذلك النادى وهى تعطى كل سمعها للمعلم إصغاء الفاهم اليقظ .

وأى شىء أجدر من هذا المنظر أن يسر قلب المصرى الذى يتوقف تحقيق آماله كلها لخير بلاده على صلاح حال المرأة المصرية ؟ محاضرة مفيدة تلك التى سمعناها فى الجامعة المصرية من أستاذ فرنسى بلغة فرنسية فى مجمع لم يكن فيه مظهر بلدى إلا برقع السيدة وإلا عمامة .

* * *

مات جارنا المرحوم (ع) . . . أفندى ، رجل كانت تعرف الأسحار

---

* السفور : العدد ٢٧ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٥ محرم ١٣٣٤ هـ الموافق ٣ ديسمبر ١٩١٥ م .

صيحاته الرنانة بالتكبير والذكر وقد سرت فى جنازته مسافة غير قصيرة .

لم نسمع نياحة فى دار الميت وذلك يستحق الإطراء لأنه محو لعادة من عاداتنا الرديئة ولكننا سمعنا صريخ الفقهاء حول النعش على غير نظام ، ورأينا المعممين المأجورين للسير فى الجنازة كثيرين ، ولاحظنا أن جلال الموت يتضاءل فى ثنايا الجلال المتكلف فلم يمس الجانب الحنون من فؤادى إلا منظر طفلة صغيرة تودع جدها إذ يسير إلى مقره الأبدى بدموع يحس شاهدها أنها تسيل من قلب مجروح .

وإذا كان الصغار دوننا فى متانة النظر العقلى فلعل إحساسهم أدخل فى باب اللطف والإخلاص من إحساسنا .

* * *

فى نفسى حزن غامض يتصل بموطن الحنان حتى لكأنى أشتاق إلى غائب غير مرجو لقاؤه .

لم أشعر بنوبة ذلك الهم إلا بالليل ويوشك أن تكون هدآت الليالى أنسب شىء بما تبعثه نزوات الألم إلى قلوب المحزونين .

ليست قليلة فى حياتى تلك الساعات التى تهتف فيها بالحزن كل عصبة من مجموعى الحساس .

يا ليالى هل كتب على أن أبيتك جميعاً هكذا مفعم القلب بالكدر ؟ أليس فى ثناياك مطمع لنصيب من السعادة أو حظ من سكينة الروح ؟

* * *

ذهبت إلى مسرح تمثيل عربى حيث كان يمثل جوق . . رواية جديدة ولم أكن رأيت منذ دهر تمثيلا عربياً .

حضرنا فصلين من الرواية المكونة من خمسة فصول ولم نجد من لذة تحملنا على البقاء إلى النهاية فانصرفنا .

لم يعجبنى شىء من التمثيل لأنه غير خالص من أثر التكلف — وليس فيه نفحة من حياة ولا راقتنى القصة نفسها وإن لم أحط بأطرافها ذلك بأنها فيما يظهر لا ترمى إلى معنى محدود يلوح فى ثنايا موضوعاتها .

قد تكون فيها حكم وكلمات طيبة ولكنها خالية من الوحدة التى تذهب بموضوعاتها المتفرقة إلى غرض واحد .

ويخيل لى أن حال التمثيل أصدق مظهر لرقينا العقلى العام ويا حسرتا لضعف رقينا وضعف تمثيلنا .

* * *

كنت مسافراً فى القطار فأخذ نظرى فى بعض الترع زهر أبيض بديع تغوص شجيراته فى الماء فلا تبدو إلا رؤوسها .

وقد سألت بعض الرفقاء عن اسم ذلك الزهر فقال : تسميه العامة (أبو جنيبه) .

تحركت فى نفسى حسرة على تلك الرياحين التى تبسم عندنا للناس فلا يلحظها أحد . ولو كانت فى غير مصر ، لوضعت فوق الصدور زينة للغانيات وحليت بها المنازل وتهادى بها المحبون .

نظرت نظرة إعجاب ورحمة إلى (أبو جنيبه) وناجيته من أعماق نفسى تعزية وعطفاً : أيتها الزهرة النضيرة ! ما أنت فى مصر بأول زهره تضيع .

* * *

نظرت فى صفحة البحر الأبيض المتوسط متاعاً للعين وبهجة للنفس وكأنما كانت تلك الأمواج المتلاطمة تحرك تذكار الماضى كله ، وكثير من حلو تلك الذكرى متصل بذلك البحر العزيز .

ولوددت أنى خلوت إلى نفسى ساعة عند الشاطئ أرمى ببصرى فى جوانب الأفق الصافى الزرقة المطرزبالغمام الجميل فأنعم بالخيال والأحلام بعيداً عن الحقيقة المبتذلة للعالم المادى بما فيه من جماد وشبه جماد .

حبنا للمطالعة وأمر الطباعة عندنا*

نحن أمة أمية يقل فينا عدد العارفين للقراءة والكتابة ومن قرأ منا وكتب نقصته رغبة المطالعة وشهوة الإحاطة بالمعلومات المتنوعة حتى لنجد من خيرة المتعلمين عندنا من يجهل أسماء كتب كان من الحق أن يستحى جاهلها .

ولقد سمعت شكوى المستشرقين الذين ندبوا للتدريس فى الجامعة المصرية من قلة ما يعرف طلابهم من آداب اللغة العربية . وكان بعضهم يرى أن تنشئ الجامعة قسماً إعدادياً يتلقى فيه التلاميذ من المعلومات ما يهيئهم لفهم دروس الجامعات التى لا تهيئهم لها مدارسنا الثانوية .

نحن أقل الأمم قراءة واطلاعاً يستوى فى ذلك جاهلنا وعالمنا فإن علماءنا أيضاً لا يذوقون لذة المعرفة الجديدة وإن كان منهم من يصاب بنوع من المرض يجعله يصبر على درس كتاب واحد مل ثلاثين مرة .

حدثنا الثقة أن واحداً من شيوخ الأزهر رحمه الله ظل نحو ثلاثين عاماً يدرس شرح الكفراوى على الأجرومية .

واجبنا أن نطب دواء لهذا الداء من قومنا بأن نعمل على ترغيب الناس فى الاطلاع ونزيل كل ما من شأنه أن يجعل المطالعة مملة لهم غير لذيذة .

فى تأليف كتبنا وفى ترتيبها وأساليبها عيوب تبعث إلى نفس قارئها فتوراً وتضعف من نشاطه .

وقد تبدلت أذواقنا واكتسبت نفحة من اللطف فى فهم نظام المعانى وجمال الأسلوب فعاد ثقيلا عليها أن تحتمل ما فى كثير من كتبنا من تشويش الترتيب وسقم البيان والخلو من الطريف .

---

* السفور : العدد ٢٨ ، السنة الأولى – الجمعة ٣ صفر ١٣٣٤ ، ١٠ ديسمبر ١٩١٥ م .

وإنك لتجد أحدنا إذا عرف لغة أجنبية شغف بمؤلفاتها وأدبها وكتابها وأحاط من ذلك بما لم يحط بنصفه من علم قومه .

ومما يزيدنا صدا عن كتب لغتنا ويورثنا القناعة فيما نطالعه منها سوء الطريقة فى الطباعة فكتبنا على ما فيها من التحريف والغلط مطبوعة على وجه مشوش يربك الذهن ويجلب الضجر ويخل بكل أصل من أصول النظام والجمال .

وقع إلى كتاب فى صدره ما يأتى :

« شرح التوضيح على التنقيح لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود وعليه التلويح للإمام سعد الدين التفتازانى وحاشية الفنرى على التلويح وحاشية ملا خسرو وعبد الحكيم عليه أيضاً » .

ويلى ذلك ما نصه :

« تنبيه — قد قدمنا فى أول صلب الصحيفة التلويح ويليه حاشيه الفنرى ثم يليه حاشية ملاخسرو وحاشية عبد الحكيم مفصولا بينهما بجدول وفى أول الهامش شرح التوضيح على التنقيح ويليه حاشية الجرجانى مفصولا بينهما بجدول » .

ورأيت كتاباً آخر مصدراً بهذا البيان :

« شرح فتح القدير للعاجز الفقير تأليف الشيخ الإمام كمال الدين محمد ابن عبد الواحد السيواسى ثم السكندرى المعروف بابن الهمام الحنفى المتوفى سنة ٦٨١ مع تكملة نتائج الأفكار فى كشف الرموز والأسرار للمولى شمس الدين أحمد المعروف بقاضى زاده المتوفى سنة ٩٨٨ على الهداية شرح بداية المبتدى تأليف شيخ الإسلام برهان الدين على بن أبى بكر المرغينانى المتوفى سنة ٥٩٣ فى الفقه على مذهب الإمام الأعظم رحمهم الله ونفعنا بهم آمين » .

وبعد ذلك نقرأ هذه العبارة : وبهامشه شرح العناية على الهداية للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتى المتوفى سنة ٧٨٦ وحاشية المولى المحقق سعد الله بن عيسى المفتى الشهير بسعدى جلبى والسعدى أفندى المتوفى سنة ٩٤٥

على شرح العناية المذكور وعلى الهداية .

تنبيه ـ قد جعلنا الهداية وفتح القدير فى الصلب الأول فى صدر الصحيفة ويليه الثانى مفصولا بينهما بجدول وكذلك جعلنا شرح العناية وحاشية سعدى چلبى الأول فى صدر الهامش ويليه الثانى فليعلم » .

ليس هذا المثال بدعاً من مطبوعاتنا وإن بعض هذه الكتب لمطبوع بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق وكلها من الكتب الدراسية المعتبرة فى المعاهد العلمية الإسلامية .

وكيف يرجى من فتى تجرع دراسته من ثنايا هذه الأسفار أن ينشأ على حب الكتب ؟

إن الطباعة المشوهة تجنى على ما نحاوله لخير بلادنا من تنبيه الشوق إلى الاطلاع وتسهيل وسائل المعرفة وتجنى على ذوق الجمال والنظام فى ناشئينا .

الحوادث الهامة *

لا تزال الحرب الأوربية أهم حوادث العالم وما فتىء الناس يخوضون فيها بالعلم وبالحديث المرجم .

أما إخواننا دكاترة السفور فقد اتخذوا حديث الحرب فلسفة وقاموا بين صيحات الثواكل وأنين الجرحى يتنازعون بينهم أمر الحضارة وعلاقتها بالحروب .

يأبى الدكتور طه حسين إلا أن يثبت نفع التقاتل للجمعيات البشرية وعنده أن كل مدنية فى الأرض إنما تنبت تحت ظلال السيوف .

لكن الدكتور محمد حسين هيكل يفزع من سيلان الدماء الإنسانية ولا يرى خيراً فى الحرب التى هى فى نظره بقية مما تركت الوحشية فى صدور الناس .

* السفور : العدد ٢٩ — السنة الأولى الجمعة ١٠ صفر ١٣٣٤هـ، ١٧ ديسمبر ١٩١٥ م .

فلسفة الأزهرى القديم فلسفة مسلحة وفلسفة الأستاذ المحامى فلسفة دعة وسلم .

وعجيب أن ينتصر الشيخ للتنافس فى الحياة بالسيف والنار وقد عهدنا الشيوخ — وإن كانوا ذوى عدد — ليسوا من الشر فى شىء . وليس بأقل من ذلك مثاراً للعجب أن يؤيد دعوة التسامح والمسالمة واحد من أسيادنا المحامين وهم على ما يقال يتخاصمون حتى فى غير مواقف التقاضى . أصلح الله لنا ولهم الحال والشأن .

ياليتنى كنت فيلسوفاً فأقضى بين دكتور الحقوق ودكتور الأدب فى قضية الحرب والحضارة .

أنا أكره الحروب كما يكرهها صديقى هيكل أو أشد وأتمنى لأبناء حواء أن يعيشوا فى سلام إنجيلى لا يعكر صفوه خصام . ولكنى أراها علالة للنفوس الرحيمة تلك الأمانى السلمية ما دام الناس مختلفين « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

يظهر أن الأمم لا تسير إلى الرقى إلا على جثث وهام ولئن كان عزيزاً علينا أن نزهق الأرواح الغالية فإن الجمعيات الناهضة لابد أن تشق سبيل المعالى.

* * *

هذا وليس الجدل بين صديقينا الأستاذين هيكل وطه هو وحده الحادث المهم عندنا فقد رأينا جدالا بين زكى باشا وتيمور بك فى اختيار لفظ عربى يؤدى معنى كلمة بيرولدى التركية .

يريد أحدهما كلمة براءة ويريد الآخر كلمة تقليد وعندى أن الباشا وصاحبه البك يستطيعان أن يتركا لنا الكلمة القديمة على عجمتها فقد يكون لها من حق البقاء ما للقبيهما الكريمين .

إن المعنى قد أخذ لفظه فى استعمالاتنا وصقلته الألسن مائة عام فلا تفجعوا المعانى فى ألفاظها آجركم الله .

* * *

كأن هذه الأيام مواسم جدل وتحاور ولا عجب أن يلتمس الناس دفع برد الشتاء بحرارة المخاصمة .

والحمد لله على أن جعل مخاصماتنا مناظرات بريئة تنتهى دائماً بسلام وإن لم تنته إلى نتيجة . على أن الجدل فى نقد الدكتور طه حسين لدرس الأستاذ الشيخ مهدى فى الجامعة المصرية احتاج إلى لجنة تفاهم أذيع محضرها فى الجرائد .

ولقد اعتذر خريج الجامعة لأستاذه القديم مما عده هذا ماساً بكرامته . فياليت شعرى هل اعتذر الشيخ مهدى لتلميذه مما عده ماساً بالحقائق العلمية ؟

على كل حال نرجو ألا يفصل بعد اليوم فى الحوار العلمى بطريقة إدارية على أيدى لجان ومجالس .

بين عام يمضى وعام جديد*

لم يبق من سنة ١٩١٥ إلا أيام قلائل وسيأتينا الأسبوع القابل بعام آخر جديد .

أصبح التاريخ الميلادى معتبراً فى شؤوننا الاجتماعية واتصل بحياتنا الفردية نفسها حتى لعدنا نقيس به مراحل العمر ونتخذ حدود سنيه مواقف بين الذكرى لما يطويه الماضى والرجاء لما يدخره المستقبل .

من أجل هذا نشعر الآن بأننا نودع شطراً من العمر ونستقبل شطراً .

لم يكن عام سلام وأمن عام ١٩١٥ فقد نشأ بين الدماء والأشلاء وهذه لحظاته الأخيرة تنقضى مضرجة دمعاً ودماً . وما أحسبه من أجل ذلك غير حقيق بالذكرى فإنه مملوء بوقائع مشهودة اشترت فيها أمم عزها القوى بأثمن ما تملك من روح ومال .

وستبقى فى سجل التاريخ الخالد صحيفة عظيمة لهذا العام تضم إلى صحف

* السفور : العدد ٣١ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٤ صفر ١٣٣٤ ، ٣١ ديسمبر ١٩١٥ م.

المجد الإنسانى وتتغنى بأناشيدها أجيال الغد إذا ظل الناس ناساً يتلمسون فخارهم التاريخى بين حكايات الغزوات والحروب .

لا نريد أن نتعرض تفصيلا ولا إجمالا لحوادث السنة الذاهبة فإن أزمنة الحروب تهز أعصاب الأمم والأفراد هزا مضطرباً لا يترك للمؤرخ ما ينبغى له من سكينة واعتدال ولا يحتمل ما يحتاج إليه من حرية وصراحة وإن كثيراً من الحوادث الجلى تقع فى مثل أوقاتنا هذه لتقع معطلة من نتائجها بما فى حركة الحياة العامة من ربكة وتشويش فليس على التاريخ من حرج أن يتمهل فى تدوينها .

على أن رجال الصحافة ربما استطاعوا بمهارتهم أن يوفقوا بين حق التاريخ وحكم الظروف ولهم شأنهم .

أما نحن فنودع قطعة من الحياة تنفصل من جسم العمر فلا يخلو انفصالها من ألم . حقائق تصبح الآن تذكاراً فلا يجدها المرء إلا ألواناً باهتة يذهب الماضى بحلوها ومرها .

ويا أيها العام الجديد مرحباً بغرتك المشرقة فى ظلمات الخطوب ميمونة إن شاء الله مباركة .

ألست تدخر لنا ياعام أملا ؟ إنه لا خير فى العيش من غير أمل .

التأليف فى مصر

ذكرى أبى العلاء المعرى*

وجد فى هذا البلد منذ عهد محمد على علم قديم له كتبه ومناهج تعليمه وله مدارسه ومدرسوه ذلك هو علم الأزهريين ومن إليهم من أهل العلوم الدينية وعلم جديد هو ذلك الذى وضع غراسه الأول من بعثهم جد العائلة السلطانية إلى أوربا ليقتبسوا من نورها ومن جاء بهم من علماء تلك البلاد لينشئوا المدارس الحديثة .

---

* السفور : العدد ٣٢ ، السنة الأولى – الجمعة ١ ربيع أول ١٣٣٤ ، ٧ يناير ١٩١٦ م

أما العلم القديم فقد كان فى نجوة من حركة الرقى العالمى يطوف فى دائرة ضيقة طوافاً غير مختلف وما نرى هذا العلم إلا واقفاً مكانه وإن مرت به أحقاب من الدهر .

الكتب التى كانوا يتدارسونها لعهد صاحب السعادة محمد على هى الكتب التى لا يزالون عليها عاكفين لعهد صاحب العظمة السلطان حسين وطريقهم فى الدرس لم يتبدل ولست ترى فرقاً بين ما يؤلفه جيل اليوم منهم وما ألفه آباؤهم من قبل .

ننظر فيما يضع شيوخ العصر من الشروح والحواشى وما وضع الشيخ العطار والشيخ الأمير وأضرابهما ، عليهم أجمعين رحمة الله ، فيخيل إلينا أننا نتلو نسخاً من كتاب واحد . ولقد حاول المرحوم الشيخ عبده أن ينعش العلم القديم ويدفعه إلى الحركة والحياة فزحزح القوم عن بعض كتبهم القديمة وأساليبهم فى الدرس والتأليف. جاءهم بالبصائر النصيرية فى المنطق لزين الدين عمر بن سهلان ، ولم يكن الكتاب على جلالة قدره معروفاً ؛ وطبع كتابى عبد القاهر الجرجانى فى علوم البلاغة وقرأهما دروساً فى الأزهر ، وألف هو فى التوحيد والتفسير كتباً قيمة فيها نفحات من روحه الكبيرة ، قدس الله روحه الكبيرة ، ولكن سعى المصلح الدينى الشهيد ذهب كله إلا ما كان من أثر لم ينضج بعد فى نفوس طائفة من تلاميذه وعاد الأزهريون إلى علمهم القديم على حاله القديمة .

أما المدرسة الجديدة فبدأت حياتها العلمية بالتعريب ثم ارتفعت درجة فأخذت فى التصنيف على أنماط جديدة وفى موضوعات طريفة ووجد فينا مؤلفات أعارها الغرب التفاتا .

وحدث بعد ذلك من الحوادث الاجتماعية والسياسية ما عاق سيرنا إلى الرقى فأبطأت ثمرات نهوضنا العلمى .

لم تنقطع حركة العلم الحديث من يوم أن حمل إلى هذا الوادى ولكنها فترت

حيناً عن متابعة شوطها الأول حتى خشينا أن يكون قد جف ماؤها .

ولقد أحيا آمالنا المرحومان قاسم أمين وفتحى زغلول بما كان لتصانيفهما من الحياة العلمية والشخصية الممتازة ؛ فلما اعتبطهما الموت لم يبق لنا إلا الجيل الناشئ نرجوه ونرقبه ، كما فى بطون الحاملات رجاء .

والحمد لله لم يخلف ظننا الجيل الناشئ فإنه على لين غصنه قد حمل إلينا باكورة طيبة من فنون متفوقة فى العلم والأدب .

إن هذا الجيل ما فتئ يخطو خطواته الأولى فى سبيل الإنتاج العلمى وبين يديه متسع للكمال وتحقيق الرجاء الأكبر الذى ننتظره منه .

رأينا كثيراً من الرسائل التى كتبها شباننا الدكاترة فى الحقوق والأدب فاستبشرنا بها لأن فيها مالا يخلو من نفحات الإجادة وفيها مايحتوى على البحث الدقيق والمعارف المتنوعة بل فيها مايحقق فى العلم مذاهب جديدة وآراء سديدة .

ومع أن أمثال هذه الرسائل تعتبر عادة فى الدرجة الثانية بالنسبة إلى الكتب العلمية التى يؤلفها شيوخ العلم فيمدها جاههم الأدبى وتحتمل رزانة شيخوختهم ما ينبغى لها من صبر على البحث والمراجعة وأناة فى التمحيص والنقد فقد وجد من بين الطلاب من ظهر تفوقه العلمى فى رسالته التى قدمها فى امتحان الشهادة فلم تقعد بدايته عن مزاحمة السابقين ولقد حاز رينان شهادة دكتور فى الآداب بكتابه فى ابن رشد وفلسفته وهو كتاب معروف المكانة يرجع إليه ويعول عليه .

وما نحابى أخانا الدكتور طه حسين إذ نقول إن كتابه «ذكرى أبى العلاء» سيكون له من الشأن ما كان لكتاب الفيلسوف الفرنسى الكبير .

طبع كتاب ذكرى أبى العلاء فى هذه الأيام وكان الفراغ من طبعه قبيل عودة مؤلفه إلى فرنسا ليتم ما هو بصدده من الدرس فكانت تلك الهدية الكريمة خير تذكار يقدمه الدكتور طه حسين إلى هذا الوطن العزيز وهو يودعه سائراً إلى رحلته العلمية المباركة .

وسنقول بعد فى « ذكرى أبى العلاء » قولا مفصلا .

مأتم شاب *

فتى من خيرة فتياننا عدا عليه الموت بالأمس .

يا شهـــابا خبا لآل عبيد الله   أعزز بفقد هـــذا الشهاب
زهـــرة غضة تفتق عنها المجـ   ـد فى منبت أنيق الجناب

* * *

إنما أولئك الشبان الصالحون آمالنا للغد فياحسرتى على كل شاب صالح يموت .

جمع عبد الحفيظ سعيد بين محاسن التربية القديمة وفضائل الجيل الجديد فكان جدياً رزينا وافر الأدب طيب القلب ذا نشاط وجد وذكاء . من أجل هذا أحبه الناس حبا جما وكان وقع مصابه فى نفوسهم أليماً . ولقد كان الاحتفال بمأتمه من جميع الطبقات تكريماً للفضيلة فى ناشئتنا وتشجيعاً لمكارم الأخلاق . والحمد لله على وجود هذا الشعور الطيب فى قومنا شعور الإجلال للشيم الشريفة وإظهار الاحترام والحب لأهلها شبانا كانوا أو شيوخاً .

تجاوبت أنحاء البلدة بالحزن والأسف حينما نعى النعاة الشاب الذى لم يمتع بالشباب .

خرج الفقيد من مدرسة الحقوق حاملا شهادتها العالية وهو من أصغر زملائه سنًّا وأكبرهم كفاية فاستقبله الحظ الباسم والأمل الزاهر ولم يكد يستريح من جهد الحياة الدراسية ولايتمتع بشىء من لذة سعيه الناجح حتى أدركه الأجل المحتوم . ولم أرمشهداً أبلغ فى النفس أثراً من مشهد والده الوقور إذ يتململ من وقع المصيبة الفادحة .

* السفور - العدد ٣٣ ، السنة الأولى – الجمعة ٨ ربيع أول ١٣٣٤ ، ١٤ يناير ١٩١٦

فى الليلة التى حم قضاء الله فى صبحها كان ذلك الوالد المكروب يفيض من الألم إشفاقاً من مصابه فى ولده المحبوب .

كان الشيخ يتضرع إلى الله أن يلطف بمريضه العزيز تضرعاً يمتزج فيه خشوع التقى بمرارة اليأس فيدعو تارة جهاراً دعاء الضعيف يستجمع كل ما فى نفسه من ألم وعجز يحرك رحمة القوى وتغلبه نوازع الحنان المفجوع فيجمد من الحزن وتسيل عبرته .

ولئن كان مأتم الشاب المأسوف عليه جمع كل ما يعرفه الناس من مظاهر الفخامة والعظم فإن أكبر ما كان يملأ النفس هناك هو احتشاد الشباب المصرى باقات تعبث بابتسام شبابها لواعج الحزن حول ذلك النعش المبكى يسيرون به بكاة خشعاً إلى القبر ويودعون أخاً لهم كان لمصر فيه رجاء .

كانت مظاهرة الشباب المصرى فى جنازة فقيده من أكمل مظاهر الوفاء .

رحم الله الفقيد الشاب وحيا الشباب الوفى .

مولد النبى *

اختلف المؤرخون فى العام الذى ولد فيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : فالأكثرون على أنه عام الفيل ويقول ابن عباس : إنه ولد فى يوم الفيل . وقيل بعده بشهر وقيل بشهرين وعشرة أيام وقيل بعشرين سنة . وقيل بثلاثين سنة وقيل بأربعين سنة وقيل بسبعين سنة وقيل قبل الفيل بخمس عشرة سنة وقيل غير ذلك .

قال فى تاريخ الخميس : والمشهور أنه بعد الفيل لأن قصة الفيل كانت توطئة وإرهاصاً لنبوته وتقدمة وأساساً لظهور بعثته .

---

* السفور : العدد ٣٤ — السنة الأولى — الجمعة ١٦ ربيع أول ١٣٣٤ ، الموافق ٢١ يناير ١٩١٦ م .

واختلف أيضاً فى الشهر الذى ولد فيه : والمشهور أنه ولد فى شهر ربيع الأول وهو قول جمهور العلماء وقيل ولد يوم عاشوراء وقيل فى صفر وقيل فى ربيع الآخر وقيل فى رجب وقيل فى رمضان .

وكذلك اختلف فى أى يوم من الشهر ولد ؟

قيل : ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل لثمان خلت منه . قال الشيخ قطب الدين القسطلانى : وهو اختيار أكثر أهل الحديث ونقله عن عباس وجبير بن مطعم وهو اختيار أكثر من له معرفة بهذا الشأن وقيل بعشر وقيل لاثنتى عشرة ليلة وعليه عمل أهل مكة من زيارتهم موضع مولده وقيل بسبع عشرة وقيل لثمان بقين منه والمشهور أنه ولد فى ثانى عشر ربيع الأول وهو قول ابن اسحاق وغيره .

واختلفوا فى الوقت الذى ولد فيه أكان ليلا أم نهارا .

واختلف المؤرخون حتى فى مكان ولادته عليه السلام .

قيل ولد بمكة فى الدار التى صارت إلى محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ويقال بالشعب ويقال بالروم ويقال بعسفان .

كل هذا الخلاف بين المؤرخين المسلمين فى مولد محمد صلى الله عليه وسلم يدل على أن آمنة بنت وهب الزهرية وضعت طفلها القرشى اليتيم كما كان يولد كل طفل من بنى عبد مناف فى تلك البطاح العربية .

لم يكن لمولدها من المظاهر إلا أن عبد المطلب أمر بجزور فنحرت ودعا رجالا من قريش فحضروا وطعموا . وفى بعض الكتب كان ذلك يوم سابعه يعنى عقيقته فلما فرغوا من الأكل قالوا ما سميته ؟ قال سميته محمدا .

قالوا لم رغبت عن أسماء آبائه ؟

قال أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه .

لم تشعر الأمة العربية بذلك اليوم العظيم الذى وضعت فيه حملها الأيم الفقيرة أرملة عبد الله بن عبد المطلب حتى لقد خفى على العرب عام ميلاد

النبي وخفى عليهم موضع الدار التى جاء لآمنة فيها المخاض .

وقد يتبين من هذا أن ما ذكره أرباب السير من أن إرهاصات وحوادث سماوية وأرضية وقعت فى يوم مولده الشريف فيه من الغلو مالا يقوم عند التمحيص ولا يحققه التاريخ .

فلو أن إيوان كسرى انشق عند مولده بحيث سمع صوته وبقى كذلك آية، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، وغاضت بحيرة ساوة وكانت أكثر من ستة فراسخ فى الطول والعرض . . .

ولو أن الكعبة سجدت يومئذ نحو مقام إبراهيم وسمع صوت التكبير فى جوانبها الله اكبر الله أكبر الآن طهرت من أنجاس المشركين وأرجاس الجاهلية ثم تساقطت الأصنام وسقط هبل الذى هو أكبرها منكساً على الحجر . . .

لو أن ذلك كله كان لبقى تذكاره متواترا بين الفرس والعرب ولم تجهل أمة محمد مولد نبيها على التحقيق كما جهلت مواليد النبيين من قبل .

ليست سيرة النبي العظيم محمد بن عبد الله محتاجة إلى نافلة من خيال المؤرخين .

وإن محمداً لعظيم يومَ إذْ وضعته أمه يتيما عند جده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ينبته حسناً لما يريده به من كرامته . وإن محمداً لعظيم يوم إذ خرجت به أمه إلى أخوال له من بنى عدى بن النجار وله ست سنين ثم أدركها الأجل وهى راجعة إلى مكة فتم للطفل الفقير اليتم من الجانبين . وإن محمداً لعظيم يوم إذ كان يوضع لجده عبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه . لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً . ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

إن محمداً لعظيم فى طفولته بين ذلى اليتم والفقر وعظيم فى كهولته بين

جلال الإسلام ومجد العرب . وهل حفظ التاريخ مجداً أكبر من مجد النبي العربي صاحب الدين الخالد والهدى الراشد .

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت   مثل الرسول نبي الأمة الهادى
ولا برا الله خلقاً من بريتــه   أوفى بذمــة جار أو بميعاد[1]

لم يكن من سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد لأحد منهم ولم تجر بذلك سنة بين المسلمين فيما سلف ويظهر أن عادة الاحتفال بميلاد النبي عليه السلام من العادات المحدثة اللهم إلا أن أهل مكة فيما رواه بعض المؤرخين كانوا يتبركون بزيارة الموضع الذى ولد فيه عليه السلام فى يوم ميلاده .

وما هى بالبدعة السيئة أن يجعل الناس يوماً من أيام العام خاصا لتذكار محمد رسول الله أكبر أبناء آدم بركة على الإنسانية وأبقاهم فى صحائف التاريخ أثراً .

ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم أن يخرجوا إلى الصحراء بين الرمال والأحجار فيستعيدوا هنالك ذكرى النبي الأمى الذى أنشأ من قبائل العرب البدوية خير أمة أخرجت للناس ورفع راية القرآن المنصورة ما بين زمزم والحطيم .

إلى الريف*

أدركتنى سآمة فزعت منها إلى الريف أرجو أن أجد بين مروجه المنبسطة راحة لصدر منقبض .

إنا نحن الفلاحين أبناء الفلاحين نبتنا فى المزارع وحول جداول المياه نستنشق

---

(١) « حسان بن ثابت » .

* السفور : العدد ٣٨ ، السنة الأولى – يوم الجمعة ١٤ ربيع الثانى ١٣٣٤ ، ١٨ فبراير ١٩١٦ م .

الهواء طليقاً لا يحبسه شيء ونستقبل الشمس سافرة ليس من دونها حجاب ونرى حيث سرنا أهلا وعشيرة إذا مرض أحدهم عدناه وإذا مات شيعناه وإذا مسه ضر مسنا وإذا غضب نهضنا معه غضاباً لا نسأله على ما قال برهاناً .

نحن أسرة واحدة وإن فرقتنا المناصب وأخوة متعاطفون وإن ميز بيننا الفقر والغنى يحترم صغيرنا كبيرنا ويعطف كبيرنا على صغيرنا .

لا جرم كانت عيشة المدن تورثنا وحشة وضجراً بما تخرجنا عما نفهم من معانى الحياة وأكبر ما نفهم من معانى الحياة الحرية والعصبية . ولا جرم أنا نجد نشاطنا وراحتنا فى هذه القرى الساذجة العامرة بقوم طيبة قلوبهم خالية نفوسهم من شوائب التكلف المدنى .

فى هذا الريف نحس بأنس العائلة وعز العشيرة ونذوق حلاوة النشاط المثمر فى ظل الحرية الغالية .

كلما دخلت المدائن تمثلت المناصب وما تستلزمه من مداهنة الرؤساء وقلة الصراحة والمرونة فى الرأى والعقيدة كأن أهل المدن كلهم موظفون تحدد آمالهم وأعمالهم دائرة ضيقة أما هذه الأرض البدوية فأهلها يعيشون فى سعة من الأمل والعمل .

أيتها الأرض المباركة حيا الله رحابك الخصبة فقد كانت أطيب مهد لعهد الطفولة عليه السلام .

وإن أكبر آمالنا هو أن نعيش فيك إلى جانب قومنا الفلاحين سعداء بحريتنا سعداء بأخلاقنا وعصبيتنا .

من تذكار الماضى *

لم تكن جميلة على الوجه المعروف فى الذوق العام من صور الجمال . قصيرة بدينة لا تتكلف مظاهر الزينة فى لباسها ولا تتحرى بهجة الألوان .

يكلل شعرها الموفور النامى المتموج بتجاعيد سمراء لطيفة هامة ممتلئة مرتفعة الجبهة نقية الناصية ولها عينان هادئتان ترسلان نظرهما رويداً وترسلانه بعيداً فيهما ملامح ذكاء ليس هو تلك السرعة الفكرية التى تبدو فى العيون شعاعاً لماعاً ، ولكنه معنى من معانى التفوق الروحى ذو نفحة من نفحات الملأ الأعلى. نظرات خلابة تبعث فى النفس أنواعاً من الخشوع والمهابة والرحمة جميعاً على نحو ما نرى فى صورة المسيح بن مريم وصورة أمه العذراء .

تلاقيت بالفتاة إلى مائدة النزل العائلى الذى كنا فيه معاً وتعارفنا تعارف جوار ، أحدثها كلما اجتمعنا لتناول الطعام وتحدثنى . وكانت تشتغل بفن من الفنون الجميلة ظهرت فيه بشائر عبقريتها فجعلت تحدثنى فى فنها الذى تعشقه عشقاً حتى ملت إليه وتذوقت حلاوته وازددت إعجاباً بالشابة واحتراماً بقيمتها الأخلاقية وصرنا من ذلك العهد أصدقاء .

كنا نخرج إلى الغابات فنقضى الساعات طوافاً فى جنباتها وتشرح لى من جمال الطبيعة لطائف لم أكن لألمحها من غير إرشادها .

سعدت بصداقتها ولم تكن شقية بصداقتى .

كنت أجد لها عاطفة ودّ هادئة رزينة ثم شعرت بهزة عنيفة فى نفسى كلها . شعرت بتطور جديد فى تلك العاطفة الساكنة . جعلت أبيت ليلى قلقاً مسهداً أنتظر الصباح بل أنتظر أن أراها حتى إذا رأيتها خفق قلبى واضطربت

---

* السفور : العدد ٣٩ ، السنة الأولى — الجمعة ٢١ ربيع الثانى ١٣٣٤ ﻫ ، ٢٥ فبراير ١٩١٦م .

أعصابى وأدركتنى حالة عجيبة لا أملك وصفها .

خرجنا إلى الغابة كعادتنا فمشت صامتة إلى جانبى وسرت جنبها صامتاً وانتهينا إلى صخرة هنالك تهدلت حواليها غصون الأشجار فجلسنا وجهاً لوجه ولم تستطع ألسنتنا حراكاً .

لا أدرى مبلغ الوقت الذى أويناه إلى الصخرة ولكننى انتهيت فإذا نحن صريعان قد باح كل منا بالغرام لصاحبه .

حسرة على الشباب*

ـــ الله ! شعرات بيض فى ثنايا شعورك الفتية . ثم بدت ملامح الحزن فى ذلك الوجه الصبيح تغالب التكلف فى إخفائها .

فأبهت لاعُرْفٌ لدى ولا نُكْرُ !

لم أكن أظن أن الشعر الأبيض يجد إلى ناصيتى سبيلا فإنى إخالنى شاباً لم ينفض عليه الدهر غبار وقائعه على كثرة ما بلوت من وقائع الدهر .

أريد لأحسبها مازحة ولكن هذا التأثر المكتوم بابتسام مر لا يكون من مازح .

لعلها لم تحقق النظر فإن فى شعرى صفرة يكون لها أحياناً شعاع يشبه الشيب وليس بشيب لكنها ليست حديثة عهد بشعرى الذى طالما جاست فى خلاله أصابعها اللطيفة وطالما رأته فى الظل فراقتها سمرته . ليست سواداً فاحماً ولا صفرة فاقعة وكان بين ذلك قواماً .

وطالما أبصرته فى الشمس :

كأنه على إفرنده موج لجـــة تقاصر فى حافاته وتطـــول

* السفور : العدد ٤٠ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٨ ربيع الثانى ١٣٣٤ هـ ، ٣ مارس ١٩١٦م .

لعلها ضلت سبيلها تلك الشعرة البيضاء فوقعت من لمتى فى غير موقع لكنها أواه ليست شعرة واحدة .

شاب رأسى وما رأيت مشيب الرأ   س إلا من فضل شيب الفؤاد

علام الحسرة على الشباب ؟ وما تمتعت بالشباب .

أعاتك ما كان الشباب مقربى   إليك فألحى الشيب إذ كان مبعدى

قد بقيت لى برغم هذه الشواهد نزعة شك كأننى لا أستطيع الإذعان لآية المشيب لأن الشباب عزيز وإن لم يكن شباباً هنيا كأننى أشفق من رزانة الشيخوخة ومن حلمها وأريد أن تبطئ قليلا هذه اللحظات المسرعة من بقايا الصبا .

لقد جل خطب الشيب إن كان كلما   بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

يأيها الشباب . إن فى نفوسنا أمانى وأحلاماً وعندنا بقية من الأمل هى كل ما فى العيش من لذة فإن كان هذا آخر العهد بالجنون الحلو والخيال الجميل فيا بؤس العيش من غير جنون ولا خيال !

ما أشد النقلة من سكرة الفتوة إلى هم الشيخوخة .

يا ليتنا انتبهنا وفى عهد الشباب مهلة تتسع لقوة نتزود منها لعصر الكهولة كله . ياليتنا خلقنا شيباً لم نعرف لذاذة فى الصبى ولم نفتن بالحسرة عليه ولم نقف وقفة الوداع له موجمة قلوبنا دامعة عيوننا . ياليتنا حرصنا على الشبيبة من عاديات الهموم .

ما زدت علماً بأن الهم مخــترم   عمر الشبيبة أبكيها ولم أشب

وسوم شيب فإن حققت ناظرة   فإنهن وسوم فى النــوب

أيتها الحياة ! عليك العفاء فإن الشباب هو الحياة وقد أصبحنا شيوخاً .

فعلى الصبا الآن السلام ولوعة   تثنى عليه الدمع فى مرفضه

وليفن تفاح الخدود فلست من   تقبيله غزلا ولا من عضــه

من كل فن *

ليس فى ذهنى خاطر معين إذ أضع «البلوك نوت» بين يدى وأريد أن أكتب للسفور .

أقول البلوك نوت تبعاً لأستاذنا لطفى بك الذى يريد أن نكتب ما نقول .
ولنا أساتذة آخرون يفضل بعضهم كلمة جذاذات ويؤثر بعضهم التعبير بالسحاءات جمع سحاءة وهى القرطاس .

فأما الذين تعجبهم كلمة سحاءات فيريدون أن يعبروا عن « الفيش » بالجذاذات وأما الذين يختارون الجذاذات للبلوك نوت فيجعلون الفيش سحاءات.

وما داموا مختلفين فلنا عنهم مندوحة بما لا خلاف فيه .

نقول بلوك نوت وبلوك نوتات وفيشة وفيشات أو فيش حتى يجمعهم الله على أمر فنعود إليهم .

ليس عندنا وقت لانتظار نتيجة المناقشة فى الموضوع التى قد تطول . ذلك بأن السنة المالية أوشكت أن تنتهى فلم يبق من عمرها متسع لأناة .

صحيح أن المسألة لا علاقة لها بالميزانية ولكن الحركة السريعة فى ختام السنة المالية تؤثر فى كل شىء حتى ما لا ينطوى تحت بند من بنود الميزانيات ولا يدخل فى باب من أبوابها .

الحمد لله لا اعتماد لنا إلا على الله بيده تصريفنا وعليه مصروفاتنا ما وقف منها وما سار وهو الذى يدبر الليل والنهار .

أقول إنه لا خاطر فى ذهنى معيناً ويظهر أنى لا أريد أن أكلف نفسى حصر الذهن فى خاطر بعينه .

---

* السفور : العدد ٤١ ، السنة الأولى — الجمعة ٦ جمادى الأولى ١٣٣٤ ، ١٠ مارس ١٩١٦ .

أريد أن أكتب ما يرد على البال . قد سئمت الكلام يوزن وزناً وتتحرى له مناسبات ودواع فى مجامع الناس وأسمارهم ومراسلاتهم .

ليس فى نيتى أن أحتاط لشىء إلا للرقيب وكم احتاط الناس قبلنا للرقباء .

والرقيب هو الحافظ الذى لا يغيب عنه شىء ورقيب الجيش طليعتهم ورقيب القوم حارسهم والرقيب والرقوب من النساء التى تراقب بعلها ليموت فترثه ويوشك أن تكون كل متزوجة رقيباً تراقب بعلها ليموت ولو لم ترث منه شيئاً ويكفيها أن تخلص من عشرة مضجرة .

ولكن الخلاص من الزوجية النفيسة أصبح بحكم قانون الأحوال الشخصية الجديد أمراً ميسوراً .

وإذا قرأت الباب الثالث فى فسخ الزواج وجدت للفسخ أسباباً ستة لا وجه بعدها لامرئ ولا لامرأة أن يرى فى الزواج قيداً مصمتاً . وإن ضائقة مالية كضائقة هذه الأيام لتتيح لكثير من الحلائل أن يخلصن من أزواج مساكين .

يقولون إن فى المشروع الجديد مواضع نقص وقد يكون حقا بعض ما يقولون ولكن قانون اليوم فى جملته خير من قانون الأمس ووزارة الحقانية أحسنت كل الإحسان فى تعريضها المشروع لنقد الجماهير قبل إمضائه وعسى أن يكون ذلك وسيلة لجعله متناسباً مع حاجاتنا الاجتماعية كافلا بما نشتهيه من صرح النظام العائلى .

نحن نرجو من الغد إسعادنا وتحقيق آمالنا وإن أنشدنا مع المنشدين :

لعمرى ما يدرى الفتى أى أمره وإن كان محروصاً على الرشد أرشد
أفى عاجلات الأمر أم آجلاته أم اليوم أدنى للسعادة أم غد

وطريقتنا فى الطرب للشعر الجيد ليس كطريق جرير .

قال راويته كثير : كنت مع جرير وهو يريد الشام فطرب فقال أنشدنى

لأخى بنى مليح ، يعنى كثيراً ، فأنشدته حتى انتهيت إلى قولى :

وأدنيتنى حتى إذا ما استبيتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
توليت عنى حين لا لى مذهب وغادرت ما غادرت بين الجوانح

فقال : لولا أنه لا يحسن النخير بشيخ مثلى لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

ومثل كثير فى الإجادة فى هذا الباب من أبواب الشعر ذو الرمة فى قصيدته الحائية إذ يقول :

على حين راهقت الثلاثين وارعوت لداتى فكاد الحلم بالجهل يرجح
إذا خطرت من ذكر مية خطرة على القلب كادت فى فؤادى تجرح
فبعض الهوى بالهجر يمحى فينمحى وحبك عندى يستجد ويربح
لئن كانت الدنيا علىّ كما أرى تباريح من ذكرات فالموت أروح

شبابنا المتعلمون*

حينما نقيس بلادنا من جهة الرقى العلمى على البلاد المتعلمة نجدها دون الجميع فعدد من يعرف القراءة والكتابة منا قليل فى جمهور الأمة . وأهل المعرفة فينا لا يساوون العلماء من أهل الممالك الراقية .

ومع هذا يخيل لمن يعيش فى مدائننا أن البلاد مزدحمة بالمتعلمين إلى حد يزيد عن حاجتها . حيثما جلست فى قهوة أو دخلت داراً عثرت بحملة الشهادات العالية من كل صنف تراهم عطلا يشكون الفراغ ويذمون بكل لسان هذه الجمعية التى لا ينهض فيها حظ المتعلم . ثم إن الجمعية تشكو من قلة غناء

* السفور : العدد ٤٢ ، السنة الأولى — الجمعة ١٣ جمادى الأولى ١٣٣٤ ، ١٧ مارس ١٩١٦ .

المتعلمين لنفسهم ولبلادهم حتى لترى كثيرين يشكون فى فائدة العلم وترى بعض الناس يود لو بقينا جهالا . يقولون : قد تعلم أبناؤنا فما أغنونا من فقر ولا بدلونا من ضعف قوة ولا أسعدونا بعد شقاء ، هم يسخطون على نظامنا الاجتماعى ويتمردون على تقاليدنا الضيقة من غير أن ينهضوا لسعى منجح يدلنا على أنهم أهل لإصلاح لم يقدر عليه آباؤهم من قبل .

ويقولون : قد تعلم بناتنا فما كان فى علمهن خير كسبته البيوت ولا نفع وصل إلى البلاد ؛ ويروى لك رواتهم أن فلانة التى تعلمت اللغات وحازت الشهادات تركب السيارة إلى جانب رجل من غير جنسها وتضرب فى شوارع القاهرة طولا وعرضاً ،وما جرأها على الخروج عن حدود الحشمة إلا هذا العلم الذى أفقدها ما كان لأمها من الحياء والتهيب ولم يعطها منهما بديلا. لم تظهر لنا المرأة المتعلمة أثراً يعزينا عما خسرته من السذاجة وما ضعف فيها من معانى الأنوثة وإخلاص الجهالة .

كل هذا نسمعه شكاية من الآباء وحسرة على أولادهم ويتناجى به السمار فى محافلهم أقوالا مأثورة تهبط إلى العامة وليس ببعيد أن يصل من ذلك أذى إلى حركتنا العلمية الناشئة .

من أجل هذا كان من همنا أن نزيل مخاوف قومنا من العلم ونبين لهم أن العيوب التى يأخذونها على شبابنا المتعلمين ليست إلا عوارض ناشئة عن التطور الجديد لجمعيتنا وسيداويها العلم نفسه الذى يحسبونه علتها . ونتمنى أن يراعى أهل العلم من فتياننا وفتياتنا هذا المعنى فيراقبوا أنفسهم ليكونوا مثلا حسناً يدعو إلى الاحترام والأسوة .

أمتنا حديثة عهد بالعلم وما برح المتعلمون فيها عنصراً متميزاً كأن طائفته ذات قوام خاص ومنهم بالضرورة يختار أهل الولاية ورجال الحكومة .

ولأولئك فى مثل بلادنا حرمة مسرفة . وتميز فئة من الفئات على هذا الوجه يدفعها إلى التماس وسيلة الكرامة بالتهافت على الوظائف ذات السلطان ويدعو

إلى نوع من الغرور تنفخ فيه حماسة الشباب فتزيده اشتعالا .

ومتى كثر عدد المتعلمين كثرة تخلطهم بالجماهير وتدنيهم منهم وتذهب عنهم وصف التميز والاختصاص بالحكم عادوا إلى بصيرة تهديهم إلى أن الجاه الحكومى جاه المناصب ليس هو أحسن مراتب الشرف وأنسبها بمقامهم الرفيع وعادوا إلى رزانة يعتدل بها فخرهم بما أوتوا من العلم . ويوشك أن نصل إلى هذه الغاية عن كثب .

كان بالأمس أصغر متعلم يأبى أن يشتغل إلا بعمل يجلسه إلى مكتب تقوم من حوله الخدم فصرنا إلى زمن يزاحم فيه حامل الشهادة الابتدائية بل حامل شهادة الكفاءة الأميين على وظيفة ساع أو فراش ،ولقد تذوب قلوب رقة لهذا التنازل من جانب المتعلمين وترى فيه ذلة لأنفس عزيزة . والأمر ما قلنا من أن هذا التطور آتٍ من انتشار العلم وأن من شأنه أن يمحص الأجيال الجديدة ويدفعها إلى العمل فى كل وجوه الحياة معتمدة على كفاياتها لا على شهاداتها ؟

ونحن نرجو أن يبارك الله فى عدد المتعلمين والمتعلمات فى هذا البلد ويصلح شأنهم ويصلح بهم .

النظام*

« ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر ،وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقروناً بالنظام ، والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ».

« الشيخ محمد عبده »

هذا الكون ــ على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ــ هو الذى نريده من النظام وهو مظهر الكمال الوجودى كما يقول الأستاذ الإمام ،فحيثما كان النظام

* السفور : العدد ٤٣ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٤ ، ٢٤ مارس ١٩١٦ .

موفوراً كان الموجود أتم وأقوى . وحيثما قل النظام كان الموجود ضعيفاً ناقصاً .

النظام فى حياة الفرد مظهر لقوة وجوده والنظام فى حياة الجماعة آية القوة فى وجودها .

والوجود القوى هو الأكمل بالضرورة فهو مطمح كل موجود يريد الكمال ويفر من النقص .

وإذا نحن نظرنا فى أمرنا باعتبارنا أفراداً ومجتمعين وجدنا الاضطراب غالباً على حياتنا فى كل وجه من وجوهها بمقدار ما يغلب النظام على حياة الناس فى الأمم الراقية القوية فى وجودها الفردى وفى وجودها الاجتماعى .

ومن حق المعنيين بنهضة هذه البلاد أن يعملوا على تقوية وجودها بجعل النظام ملكة فى أبنائها تظهر آثاره فى الحياة الخاصة والحياة العامة .

وإن كل سعى فى تفهيمنا معنى النظام وإشاعة الذوق النظامى فينا لهو خير سعى لإصلاح الأمة وأعظم بركة عليها .

عقولنا ضعيفة لأنها غير منظمة ومعارفنا ضعيفة لأنها غير منظمة وأخلاقنا ضعيفة لأنها غير منظمة وأعمالنا ضعيفة لأنها غير منظمة وآمالنا ضعيفة أيضاً لأنها غير منظمة .

ينبغى أن نشعر ببشاعة الاضطراب والتشويش وسوء أثرهما فى حياتنا وأن نفهم جمال النظام وندرك أنه سر القوة وبذلك نتكلف سيرة النظاميين رغبة وشوقاً حتى نعتادها .

ولقد كنا نألم لعدم إحساس قومنا بما فى حياتهم من تشويش وعدم طموح أنظارهم إلى مُثُل فى الحياة أكمل مما هم فيه .

ولكننا والحمد لله نغتبط بما نلمح من بشائر النزوع إلى النظام فى بعض جهات الحياة المادية لقومنا وبما نعرف من ألم أناس منا لمظاهر الاضطراب فى شؤوننا .

فى البلد اليوم بيوت تدخلها فتلقاك نفحة من الجمال فى تقسيم أماكنها

وترتيب أثاثها، ولا يخلو ما يستحدث من الأزياء من بعض اللطف وحسن التناسب .

لا تحقر شيئاً من مظاهر الرقى فى الذوق والتشبث بأهداب النظام لأن هذه الآثار الصغيرة تدل على تنبه فى الإحساس يرجى أن يصل بنا إلى ما نريد من النظام الأكبر نظام النفس الذى تصدر عنه الأعمال من غير اضطراب ولا تشويش .

يسرنا أن نرى بيوتنا متجملة بحلية النظام وأن يعنى بناتنا وأبناؤنا بنظام ملابسهم وحسن هندامهم ولكننا ننتظر السرور الأعظم يوم ينشأ فينا جيل يحيا حياة منظمة يقوى بها وجودنا .

فكر وذكرى*

يمر يومان وثلاثة من غير أن يتاح لى كتابة شىء فى صحائفى لأن تشابه الحالات النفسية التى أمر بها وانقضاء أيامى على طراز واحد كل ذلك يخلى نفسى من تذكارات تقتضى تقييدها .

ما أبعد أيامى عن التنوع حتى لأكاد أظنها يوماً واحداً طويلا لا يريد أن يتناهى .

ذهبت إلى حفلة فيها غناء وموسيقى وكان الحاضرون من أصدقاء رب الدار وأقاربه .

لم يخل بعض ما سمعت من الألحان والأغانى من مثار للطرب كاد يهيج فى صدرى بقايا بشاشة مدفونة تحت ركام من الشواغل والهموم ، لولا

* السفور : العدد ٤٥ ، السنة الأولى – الجمعة ٤ جمادى الثانية ١٣٣٤ ، ٧ أبريل ١٩١٦ .

تكرار فى النغمات تكراراً يمل حتى فى التوقيفة الجيدة، ولولا المظاهر الصائحة لطرب غير دقيق من جماهير السامعين .'

عجيب موقع السرور، فى نفسى الحزينة ! هو يأخذ صبغة من أصباغ العواطف الرزينة الجدية . حتى لهو الحياة ينقلب فى فؤادى حركة عنيفة جاهدة، ومن أجل ذلك تتعبنى لذات العيش كما تتعبنى آلامه .

ركبت زورقاً فى النيل بعد غروب الشمس والبدر وضاح الجبين تنعكس أنواره على صفحة الماء المتماوجة بخطرات النسيم وانحدرت فى النهر الكبير يغنينى النوتى بصوت كل جماله أنه صيحات عالية تذهب بين السماء والماء رنانة ثم تكون صدى يردده ذلك الأفق الهادئ الرهيب . وكأننى اكتشفت فى مصر موضعاً يصادف لمفيه المرء جمالا وسكوناً يطيب بهما خيال الشاعر وقلب المحب وكان يؤلمنى أن تخلو مصر حتى من هذا .

' * * *

إلى دار من الدور المجاورة لنا تأوى « أم قويق » ذلك الطائر ذو الصوت الكريه فإذا عم الوجود سكون الليل وتنبهت حواس النفس الدقيقة فى هدآت الظلام أخذت تهتف عويلا كعويل النساء يهيج نوعاً من الحزن والإشفاق .

أشبه شىء بالباكى هذا الطائر الصياح فى جوف الليل وكأنه عليم بأنسب الساعات بالبكاء . هنالك حيث تنصرم لذاتنا فلا يبقى إلا خيالها وتذهب الشواغل والملهيات عن مشاعر النفس فتخلص للآلام والحسرات ساعة ينام الناس ويسهر المعذبون .

* * *

لم أنتبه إلى فصل الربيع إلا حينما نظرت فى تقويم فقرأت اسم الموسم الجميل . لم يمر بى شىء يذكرنى بأننا خرجنا من فصل الشتاء إلى فصل الربيع ذى النسمات الليلية والجو الصاحى والزهور الباسمة .

بين يدى باقة من الورد دب الذبول إليها فتهدلت سقيمة لم يبق من نضارتها إلا قليل .

لم ينعشك الربيع أيتها الوردات العزيزة ، ولم يعد إليك شبابك الفانى .
وإذا كانت ورداتى لا تبسم للربيع فماذا يبسم له عندى ؟

قديم وحديث *

سمعت أصيل اليوم نغمة موسيقية من بيانو هبطت إلى من دار فى طريق كنت أسلكه فشعرت كأن حزناً مملوءاً بالعطف والرحمة تتصبب به النفس من كل ناحية ووجدت لذة داخلة فى أعماق النفس لهذا الحزن الطروب .

ما أحوج القلب الذى تضمه ضلوعى إلى كل ما يهز الإحساس من ألم ولذة وطرب . وما أقسى معيشة أتلمس فى ثنايا هدوئها وفتورها لحناً كلحن اليوم ليحرك عاطفة من عواطفى الساكنة .

* * *

تمكنت مرة من الإشراف على حفلة من حفلاتنا .

تلك ليلة سرور بمولود دعى لها جمع من السيدات . أضيئت الحجرات بالأنوار واحتشدت المدعوات فى قاعة لابسات حبرهن وفيهن من لم تنزع برقعها بل زحزحته قليلا وكان فى يد معظمهن مراوح يستجلبن بها النسيم فى ذلك المجلس الحار . ظللن ساكتات لا يسمع لهن حديث ولا يحس تناج اللهم إلا صيحات بالضحك يرتج لها المكان بين حين وحين ثم يعود كتلة صمّاء تتبادل فيها النظرات ويملأ أفقه دخان السجاير .

وبعد ساعة خرج الجمع إلى بهو فيه آلة موسيقية (بيانو) وأدير عليهن شراب ووقع بعضهن قطعاً موسيقية لم يكن يبدو عليهن مظهر الطرب لها وكانت

---

* السفور : العدد ٤٧ ، السنة الأولى — الجمعة ١٨ جمادى الثانية ١٣٣٤ ، ٢١ أبريل ١٩١٦ .

سلسلة نفحاتها تنقطع فجأة وتتصل على غير نظام . ولمحت بعد ذلك صبيا أسود يرقص على اللحن الموسيقى رقصاً نسائيا يهز فيه أسافل جسمه وقد شد خاصرته بنطاق وعندئذ كانت السيدات تبتهج وتلهو. هذا هو مبلغ الأنس والسرور فى مجامع نسائنا .

* * *

حضرت حفلة الأوبرا فلاحظت شيئين :

١ — كان الستار المسدول على مجالس السيدات سميكاً وقد تعبت عيون الرجال من تمييز أشباحهن وراء الخدور ولا بد أن يكن هن تعبن بالنظر إلى المسرح والنظر إلى الحاضرين .

٢ — كان بعض شبابنا بل كثيرون منهم حاسرين طرابيشهم عن شعور جميلة من الخسارة أن يسترها عن العيون ساتر .

ولعل فتياننا الكرام أرادوا ألا يجمعوا علينا الحرمان كله بعدم النظر إلى وجوه السيدات وعدم النظر إلى شعورهم المصقولة المجعدة !

* * *

دخلنا إلى ذلك الملهى وهو فى العادة محل صور متحركة وألفينا جموعاً من مصريين وسوريين يظهر على معظمهم أنهم من أهل الأريحية والطرب وظلوا معنا ينتظرون صابرين أن تنهض الست إلى غنائها وبعد لأى قامت إلى المسرح تلك السيدة البدينة القصيرة التى ذهبت نضرة شبابها الأولى .

أخذت ترسل نفحاتها بين تدلل وتكاسل هتفات تضل فى صياح جوقها وألحان آلاته، ثم جلت عن نفسها فاستخفت وقار السامعين ببضعة أصوات مجودة وقامت قيامة الصفوف الأولى من أولئك الغواة الذين يجنهم الغناء والموسيقى وإن كنت لا أحسبهم يذوقون معنى الطرب الصحيح .

مشوشون أولئك الذين يرقصون ويزعقون طرباً ولكننى أصبحت فى مصر أحب كل مظهر حركة وحياة ولو على هذا الوجه .

حب وإجلال*

خطأ أن يقال إن الأسرة تتألف من الأب والأم والأولاد .

الأسرة تتألف من الأجداد والجدات ومن الصبيان والبنات ومن الأختان والكنائن والأحفاد . ومهما يكن من شيء فإن تكون الأسرة تكونا كاملا من الجهة المعنوية يقتضى أن يوجد فيها جد وزوجان وأحفاد .

كل ما سأذكره بعد يرمى إلى إثبات هذا ولعله مثبته . إن الذى يحقق معنى الأسرة هو الحب مقروناً إلى الإجلال... إجلال يهبط من الأب والأم ويصعد من الأولاد إلى الأبوين وحب يتنزل من الوالد والوالدة إلى الأبناء ويتراجع من هؤلاء إلى الآباء والأمهات .

الحب والإجلال ممتزجين هما هنا ضروريان على الإطلاق . الحب وحده لا يكون إلا نوعاً من الصحبة محملا — كما يقول كورنى — ضعفاً وما يستتبع إلا نحساً .

ليس من تزكية الأولاد أن يحبهم أبوهم من غير أن يحترمهم ، أعنى من غير أن يكاتمهم ذنوبه وهفواته ونزوات ضعفه بل من غير أن يعرف كيف يقلع من أجلهم عن نزوات الضعف وعن الهفوات والذنوب . هذا يكون إفساداً جديداً أو هو يستبقيهم فى الفساد الفطرى .

يجب علينا كرامة لأولادنا أن نطهر أنفسنا بهم .

ولقد نطق صواباً ذلك الأب الذى قال : « إنى أراعيهم وهم أيضاً يراعوننى بل هم أشد مراعاة لى » .

---

* معرب من كتاب « الحب والأسرة » للأستاذ إميل فاجى الأستاذ فى جامعة باريس والعضو فى المجمع الفرنسى .

السفور : العدد ٤٨ ، السنة الأولى — الجمعة ٢٥ جمادى الثانية ١٣٣٤ ، ٢٨ مايو ١٩١٦ .

أما الاستسلام للمحبة من جانب الأبناء بلا تحصيل للكرامة منهم فهى أثرة مخوفة العاقبة .

هى أخوف عاقبة من كل عاطفة يستطيع الطفل أن يجدها .

الطفل الذى يحب أباه وهو لا يجله لا يعرف للبنوة معنى . هو لا يقيس البعد ما بين جيل وجيل. وذلك القياس هو قوام الروابط العائلية وأساس الحقوق العائلية . يحب هذا الطفل أباه كما يحب أخاه ويحب أمه كحبه لأخته . يجادل أبويه، وما فى جدالهما من تعارض مع الحب. ولكن الجدال لا يترك فى الدار سلطاناً ويخل بالتوازن فيها . هو يضع التشويش والفوضى فى جماعة من الناس من حقها أن تكون شركة موفوراً نظامها ومن حقها أن تكون بنية متماسكة . ومن الحق أيضاً أن تبادل الحرمة بين الآباء والذرية من غير أن يحب الرجل ولده أو أن يشهده آيات حبه ومن غير أن يحب الأبناء آباءهم أو يباح لهم مجاهرتهم بمظاهر ذلك الحنو، يأتى على الأسرة من أساسها أو يكاد يفعل . الإجلال بلا حب ليس إجلالا ولكنه خوف .

الرجل الذى يأخذ أولاده بالمهابة ولا يبيح لهم الإبانة عن عطفهم لا يريد إلا أن يريهم أنه قاهر جبار وأنه ذو قوة .

وهذا قد لا يدفع الأسرة إلى الفناء دفعة واحدة ولكنه مؤدٍّ بها حتما إلى الانحلال والدمار إلى أجل غير بعيد .

الولد الذى لا يجد لأبيه إلا الخوف لا يعرف أباه حين يبلغ مبلغاً لا يخافه فيه، حين يكون ابن عشرين، هنالك تنقطع بينهما كل الوشائج إذ لم تكن بينهما إلا رابطة واحدة لم يبق لها موضع .

وما إجلال الرجل لأولاده من غير حب أو من غير مظاهر عطف إلا خوف أيضاً . هو خوف من إظهار الضعف وإشفاق من أن يتخذوا من حبه لهم باباً للتحكم فيه والجور عليه والإقلال من تهيبه .

احترام الأب لابنه من غير حب هو خوفه ألا يكون مخوفاً .

ويظهر أن القرون تذبذبت دائماً بين هذين الطرفين : إجلال من غير حب ، وحب من غير إجلال .

نعلم أن الأب فى الزمن الماضى كان رباً وكان الولد تابعاً . الوالد الرومانى لبث دهراً طويلا يملك فى بنيه أن يحيى ويميت ، ولم يكن للأبناء عند الغاليين — كما أنبأنا سيزار — أن يتبعوا آباءهم ولا أن يجرءوا على صحبتهم بين الناس إلا إذا استقلوا بحمل السلاح كأنما كانوا يريدون أن يقولوا : عندئذ لا غير يحق لآبائهم أن يخلطوهم معهم ويتبسطوا إليهم .

ولقد كان على الأبناء عندنا إلى القرن التاسع عشر أن يقفوا بين يدى آبائهم موقف خشوع يدانى موقف الخدمة ، ولم يكن لهم أن يصرحوا بمحضر آبائهم أنهم أبناؤهم إذ كان على الولد أن يدعو أباه بياسيدى لا يا أبى .

ولقد اتخذ مونتينى هذه التكاليف هزؤاً فى منزع له لطيف قال : « أريد شراً بتلك العادة التى تحرم على الأطفال دعوة الأبوة وتغريهم بدعوة غريبة كأن الطبيعة لم تكف فى القيام بحق ولايتنا فى ما أرادت تدبيره . نسمى الله القاهر فوق عباده أبانا ونأبى أن ينادينا أبناؤنا هذا النداء » .

كان هذا المقدار من فقد التواصل بين العواطف مضاداً للفطرة والعقل إلى حد لم يخل معه أهل تلك الأزمان أنفسهم من الشعور به وعتاب أنفسهم عليه .

قال مونتينى يحدثنا عن دى مونتليك : « المرحوم السيد المارشال دى مونتليك حينما فقد ابنه ، الذى مات فى جزيرة مادير ، فتى جد نبيل مرجو المخايل بث له فى مابث من حسراته أمر أساه وانصداع قلبه لأنه لم يفض بذات نفسه مرة إلى ولده .

وقد أضاع بسمة الرزانة والانقباض الأبوى متاع التذوق لطعم ابنه وعرفانه حق المعرفة وأضاع أيضاً فرصة إشهاده ما كان يحمله له من منتهى الود وما كان يراه له من الفضل » .

قال دى مونتليك : « لهفى عليه لم ير منى إلا مظهر انقباض مملوء تحقيراً . ذهب معتقداً أننى لم أدر كيف ينبغى أن أحبه ولا كيف أقدره حق قدره .

لمن كنت أدخر اكتشاف ذلك الحنو الخاص الذى كانت تنطوى له نفسى عليه ؟ ألم يكن هو أولى الناس بأن يناله سرور ذلك كله ويحمل ما يقتضيه من حقوق ؟

غلبت نفسى على سجيتها وأرهقتها لأحتفظ بستار مصنوع غير ذى نفع خسرت التلذذ بحديثه وبإرادته التى لم يكن يستطيع أن يوافينى بها إلا بإرادة غير ذات حياة . ذلك بأنه لم يلق منى قط إلا جفوة وإلا طريقة غاشمة » .

وقد استنتج مونتينى بقوة تكاد تمازجها قساوة : « أنه جنون وظلم أن يحرم الأولاد فى سن التبسط مناجاة آبائهم تناجى قلوب وأن يراد أخذهم بعنف وازدراء ابتغاء تعويدهم الخوف والطاعة » .

ذلك عسف غير مجد نفعاً ، يبعث فى الأبناء سآمة لآبائهم ، بل هو شر من ذلك يجعل الآباء سخرية وهزؤاً .

التزاور *

أكثر أهل الأرض تزاوراً قومنا فإنك لا تأتى امرأ فى داره ولا عاملا فى محل عمله ولا مريضاً فى فراشه ولا مصاباً بين آلامه وإخوانه ولا مسروراً فى ساعة سروره وصفوه إلا وجدت عنده زائرين .

لا قاعدة للزيارة ولا ميعاد . تكون فى الصباح والعشى وعند الهاجرة وفى سواد الليل وبياض النهار، وتكون لسبب ولغير سبب . وفينا من يقضى العمر زائراً ومزوراً كأنما خلق ليغشى بيوت الناس ويستقبلهم فى بيته .

ومن العجيب مع هذا أننا أقل أهل الأرض تعاطفاً وتراحماً فليست هذه

---

* السفور : العدد ٤٨ ، السنة الأولى — الجمعة ٣ رجب ١٣٣٤ ، ٥ مايو ١٩١٦ .

الزيارات المترادفة الكثيرة بمغنية شيئاً فى جمع القلوب وإيجاد الود والتضامن بين الناس . ليس هذا التزاور إلا مضيعة للوقت ومدعاة للكسل ومتسعاً للخوض فى لغو الحديث . ليس فى زياراتنا حفلات لهو ومسرة يكسبها الاجتماع بشاشة تخفف من هموم الحياة وليس فيها سمر أدبى أو علمى يجعل تبادل الأفكار واختلاف الأنظار درساً مفيداً تمازجه طرائف الحكمة ولطائف الفكاهة ولسنا نتزاور أصدقاء نصل رحم الود بيننا ونتمتع بمظاهر الصداقة والوفاء .

ما يكون لنا أن نريد لقومنا أن يعيشوا أفذاذاً متقاطعين لكل امرئ منهم شأن يغنيه ولكنا نريد أن يصل الناس بعضهم بعضاً فى حدود الأخوة والمصلحة .

قلنا إن دأبنا فى الإسراف فى التزاور مضيعة للوقت مذهبة لبركة الحياة من غير نفع فى إحكام الروابط الودية ومن غير فائدة فى هذه الاجتماعات المتكررة بلهو مريح ولا جد مثمر ونزيد أن التنافس فى التزاور قد أوجد عندنا مظهراً من مظاهر الجاه لا يعين على كسب المجد الحقيقى وتحصيل الفضائل .

ذلك بأننا لفرط شغفنا بالزيارات كثيراً ما نقيس جاه الناس بما يتوارد على دورهم من وفود الزائرين، ولقد نرى أناساً ممن لاخلاق لهم يفتنون الجماهير بهذه المظاهر ويتخذونها من وسائل النصب والاحتيال . وكم من بيوت كنت أمر بها متهيباً لكثرة الداخلين إليها والخارجين منها وكثرة ما يقف إلى بابها من السيارات والعربات ثم عرفت أن سكانها ليسوا موضعاً لحرمة ولا أهلا لكرامة .

إننا لا نتحرى بزياراتنا من هم أهل لودنا إن كانت الزيارات وداً ولا من هم أهل لمجاملتنا واحترامنا إن كانت الزيارة مجاملة واحتراماً . يشعر بهذه المعانى كثير ممن ينظرون بعين النقد إلى شؤوننا الاجتماعية ويتمنون لهذه الأمة صلاحاً ورشاداً . غير أن كل تمرد على عادة فاشية فى أمتنا مهما ظهر وجه المضرة فيها يغرى العامة والجامدين بالمقاومة العنيفة ويغرى معهم أحياناً رجالا ليسوا من

العامة ولا من الجامدين .

نتمنى أن يصرف أهل هذا البلد وقتهم إلى العمل النافع ويقللوا من البطالة التي يعد هذا الإسراف في التزاور من أكبر مظاهرها . ونتمنى أن يدخل إلى حياتنا من النظام ما يجعل للزيارة مواقيت غير متجاوزة ونرجو أن لا يكون بعيداً ذلك اليوم الذي نرى فيه التزاور بيننا تجامل ود صادق أو محفل أنس وابتهاج أو نادي حكمة وأدب تنمو في جوانبه مبادئ الإصلاح وتترعرع النهضة الحديثة المباركة .

خريطة وفهرس*

وضع محمد أمين واصف بك خريطة تاريخية للممالك الإسلامية تنفع المشتغلين بدراسة التاريخ الإسلامي نفعاً عظيماً .

وقد بذل الجهد في إحكام صنعها وإتقان أوضاعها وعني أفضل عناية بضبط الأسماء وتصحيح ما أفسدت ألسن العامة منها فجاءت كما يشهد أهل الفن خير خريطة عربية وضعت لفتوحات العرب .

ثم جعل البك الأديب لخريطته معجماً سماه الفهرست في سفر لطيف مرتب على حروف المعجم يتضمن شرحاً مختصراً مفيداً لعدة من الأسماء التي ذكرت في الخريطة وفي هذا الشرح فوائد شريفة تاريخية ولغوية .

وقد كتب المؤلف على الخريطة والمعجم « بتحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا » والباشا مشهور في قومنا بالتحقيق .

إن أمين بك واصف سد حاجة من حاجاتنا العلمية بخريطته الطيبة فإن درس أمهات كتبنا التاريخية كان عسيراً على الطلاب من غير خرائط تريهم مواقع البلاد التي يمر بهم ذكرها والمصورات الجغرافية الحديثة تحمل قراء

* السفور : العدد ٥٠ ، السنة الأولى — الجمعة ١٠ رجب ١٣٣٤ ، ١٢ مايو ١٩١٦ .

الكتب التاريخية القديمة عناء فى تعرف ما حرف من الأسماء وما تبدل من معالم الأقطار .

نافع لأمتنا درس التاريخ ومن أكبر دروس التاريخ نفعاً لنا تاريخ الإسلام لأنه أشد تذكارات الماضى علاقة بحياتنا الاجتماعية ولأن فيه شطراً من فخارنا القديم .

ذلك الفخار الذى نستند على دعائمه فى نهوضنا المرجو ، ومشكور كل امرئ يهيئ لنا سبباً إلى معرفة التاريخ معرفة صحيحة قائمة على الأنماط العلمية الحديثة .

وصاحب الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية من أولئك المشكورين على ما قدموا من الخير لقومهم بتسهيل السبيل إلى العلم النافع .

أما الفهرست الذى هو معجم الخريطة فيزيد من فائدة هذه ويكمل النفع بها إلى ما فيه من معلومات صالحة شتى .

وننقل للقارئ الكريم جملا من هذا المؤلف تدل على طريقته فى البيان :

ص ٥٩

« السامرة — Samarie »

مدينة فى أرض يهوذا (Judée) بالشام وآثارها موجودة الآن فى قرية صغيرة اسمها سبسطية (Sebaste) عند نابلس واسمها بالعبرانية « سوميرون »

ص ٤٢

« الجرجانية »

وتسمى أيضاً جرجان الأقصى وهى قاعدة خوارزم وكان بها سراج الدين السكاكى صاحب كتاب « مفتاح العلوم » المتوفى سنة ٦٢٦ ﻫ وكانت دار إقامة أبى الريحان البيرونى أشهر علماء النجوم والرياضيات المتوفى سنة ٤٣٠ ﻫ

ص ١٠

أسيوط أو سيوط

«حاضرة الصعيد واسمها بالمصرى القديم أساووت وعند اليونان (Lykon Polis)
أى مدينة الذئب وقد كان معبود سكانها .

فهرست الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية لم يجمع كل ما يحتاج إلى ضبطه وشرحه من الأسماء الواردة فى الخريطة، وقد بحثت فيه عن كلمة بهنسا فلم أجدها ولم أجد دمنهور .. إلخ، وقد يلاحظ أن ما تحراه المؤلف الفاضل من ذكر العلماء الذين نشأوا فى بلد أو أقاموا فيه لم يراعه عند ذكر البلاد المصرية بقدر ما راعاه فى غيرها. ألست تراه لم يشر بكلمة إلى الجلال السيوطى عند الكلام على أسيوط ؟

واستوقفت نظرى عند الكلام على غمارة (ص ٧٩) عبارة: « يعتمرون جبال الريف » ، ولا أعرف اعتمر بمعنى أقام ، ولم يذكر لسان العرب إلا اعتمر بمعنى زار .

وفى ص ٣١ عند ذكر (بلاد ما وراء النهر) : « لما انساحت جيوش المسلمين فى ما يلى خراسان » انساح الثوب وغيره كما فى اللسان تشقق وانساحت الصخرة اندفعت واتسعت وانساح البطن كبر ودنا من السمن . وإنى أشك فى صحة إسناد الانسياح إلى الجيوش وتعديته بفى .

أقيد هذه الملاحظات على علم بأنها لا تعيب الكتاب النفيس ولا تنقص من قيمته العالية، ولكن أمين باك رجل مبالغ فى حب التواضع لا يميل إلى تقريظ ثمراته العلمية، ومن أجل ذلك تراه لا يعلن مؤلفاته إلى الناس إعلانا ، فلا تقرأ عنها شيئاً فى الصحف ولا تكاد تجدها إلا هدية عند صديق أو طرفة يتنافس فى تداولها من تقع إليه من أهل العلم .

نحن نتخذ ما قدمنا من صورة النقد حيلة تسبغ فى ذوق العالم النشيط الثناء الجم على الخريطة والفهرست وهما جديران بالثناء الجزيل .

حب النساء وحب المال*

كان الشيخ سالم ربعة فى الرجال ممتلئ الجسم تكاد قوته تمحو آثار الشيخوخة الظاهرة فى شعره المبيض وصفحته المجعدة، وكان رجلا طيباً وجيهاً لا ينقصه عز الغنى ولا مجد المناصب، وكان رحمة الله عليه يحب المال ويحب الزواج. ومن أجل حب الزواج وحب المال جرى له ما جرى مما نقصه فى هذه الجملة رواية عن مواطنيه الذين يتداولون الحكاية بينهم فكاهة ودلالة على أن الرجل كان طيباً.

اقترضت عائلة معروفة فى تلك النواحى من الشيخ سالم ثلثمائة جنيه ثم جعلت تماطله فى الأداء وجعل يلحف فى مطالبتها حتى دبرت للخلاص منه حيلة.

قدم الرجل على القوم زائراً ومطالباً بدينه فأكرموا مثواه وأجلسوه فى صدر الديوان معظماً إلى ساحة كبيرة بين بيوت النساء وقاعات الضيافة وزينوا فتاة مشرقة الجبين لعوب العينين معجبة المنظر حسنة التثنى وخرجت ملففة فى حبرها بحيث تمر بالشيخ.

كان الرجل ساعتئذ يتأهب لمطالبة مدينيه وعتابهم على مطلهم، فلما لمح الصبية وأصابت نظراتها الفتية قلبه الهرم أنساه الولع بالشابة الجميلة ذكر المال الذى جاء يطالب به وعادت الفتاة إلى الدار بعد ما غابت ساعة فرآها الشيخ مرة أخرى وزاد بها جنوناً.

هنالك انتهز القوم الفرصة لينالوا من الشيخ مأربهم فجروا حديث الزواج، وسرعان ما انقلب الدائن خاطباً لتلك الكاعب التى مرت به غادية ورائحة. خطبها على أنها أخت المدين، وتمت صفقة النكاح على صداق مقبوض قدره ثلثمائة جنيه. ولكن المرأة التى عقد زواجها فى الواقع هى عانس سوداء

* السفور: العدد ٥١، السنة الأولى – الجمعة ١٧ رجب ١٣٣٤، ١٩ مايو ١٩١٦.

شمطاء كان إخوتها يريدون الخلاص منها كما يريدون الخلاص من الشيخ سالم ودينه .

أراد الزوج أن يبنى بحليلته من ليلته، ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيل مراده ، فهيئت له عروسه القبيحة غير الجميلة وزينت وعندما طابت هدأة الليل للقاء العشاق سيق الشيخ إلى قاعة الزوجة المسكينة الجالسة بين صواحباتها تنتظر العريس .

دخل الرجل القاعة على اسم الله وبصر بالعروس التى أقاموها إليه تستقبله فلم يتميزها بادئ النظر وقام إلى السجادة يصلى ما جرت عادة قوم بأن يصلوه قبيل تعارفهم إلى نسائهم .

ولما كان يصلى كسنة الناس قبالة وجه العروس فقد ملأ عينيه منها أثناء صلاته وعرف أنهم غشوه ولبسوا عليه .

مد الرجل حبل صلاته وجعل يطيل القراءة ويطمئن فى الركوع والسجود حتى بدت تباشير الصباح وانتهز غفلة النساء فتسرب إلى المحطة وركب القطار ورجع إلى بلده وأرسل ورقة الطلاق فى كتاب موصى عليه وخسر الشابة المليحة وخسر معها المال .

يظهر أن الذى يحب المال والنساء يحرم منهما جميعاً كما حرم الشيخ سالم . وقد يكون أسلم شىء للعاقل أن لا يحب مالاً ولا نساء .

خواطر فى الحب*

أنظر إلى ما حولى من صلات الناس بعضهم ببعض فلا أرى لها أساساً إلا المصلحة ، وكلما ازداد عرفانى لحال العالم وممارستى لما يحيط بى من الأوساط المختلفة وجدت البحث عن الفائدة مرمى غرض الروابط الودية كلها فما أكاد

* السفور : العدد ٥٢ ، السنة الثانية — الجمعة ٢٤ رجب ١٣٣٤ ، ٢٦ مايو ١٩١٦ .

أعثر على مودة خالصة . ولقد أصبحت أظن أن الود المبنى على الثقة والتعاطف عزيز فى الناس أو غير موجود .

كل يبتغى من حبه غرضاً ومنفعة ، ولعل الود الذى يسمونه صادقاً هو الود الذى يرجو به صاحبه نفعاً ثم يكرم فيه هذا الرجاء .

هذا ما يعلمنى الواقع الذى أشهده بين الناس ولكنى لا أستطيع أن أعتقد أن ما يحويه هذا الواقع هو كل ما يحتمله الاستعداد البشرى .

إن لم يكن للحب الصادق متسع فى تلك الصدور الواسعة للحوادث الجارية فإننى مع ذلك أشهد أن الحب يكون صادقاً ولا أبرح أومن بهذه العقيدة وإن ضنت علىّ التجارب بأمثلة للمودات الخالصة .

لى رفيق أصادقه على نحو أكبر مما تعرفه الصداقات بين الناس وآلفه وآنس به أنس عطف وثقة وأجد فى نفسه الغنية بالعواطف الطيبة نفحات ممتازة تتجلى فى ثنايا قلق يزيدها إلى حبّاً .

يقص على من أسرار حياته حيناً فحيناً ما يعلى قيمته فى نظرى وأحس بلطف إحساسه وامتلاء صدره بالهم على مثال الأنفس العظيمة .

أحب فتاة وأحبته ومع تقادم العهد بذلك الغرام الصادق فإن صاحبى لا يزال يحن إليه حنيناً ترسله أعماق نفسه حسرة وأمانى . قد يمر به اليأس من تحقيق آماله الغرامية بعوامل كلها شريفة بمقدار مما هى قاسية على نزوع العشق أما السلو فلا يلم بقلبه .

ويحسب الفتى من مظاهر التميز أن يكون ذا قلب يضطلع بالحب العظيم .

أشهد للحب أغلب شىء فى فطرتى وإلا فما هذه الحركة النفسية التى تملك وحدها على أمرى فتملؤنى حنيناً وشوقاً .

سهرت مع إخوانى نمزح ونضحك حتى إذا خلوت إلى نفسى ذهبت عنى بشاشة المزاح وعدت صبيّاً ملأ جوانحه غرام .

قد يكون حر هذا اليوم الثقيل من دواعى السأم وضيق الصدر ولكن

فى الحالة التى أشعر بها معنى ألطف من ضجرة تسببها عوارض الجو .

ولعل هذه الآلام هى خير متاع فى حياتى لأنها إحساسات تصل إلى أدخل مكان فى النفس ، وفى الإحساسات الدقيقة نفحة من الكمال الروحى وإن كانت آلاماً .

* * *

يوجد صنف من الناس لا يدرى أشر هو أم خير لين الجانب إن أحسن أو أساء ليس بذى طعم مر فتلفظه النفس جملة ولا هو حلو حلاوة خالصة . أمره مختلط وما يتركه فى نفسك من الأثر غامض أيضاً غير واضح لا تستطيع أن تحبه لأنك تشعر بشك فى إخلاصه وصفوه ولا تجرؤ أن تكرهه مخافة أن يكون طيباً . لا يمكنك أن تأخذ عليه رذيلة عارية ولا يمكنك أن ترى له فضيلة بينة .

أعرف من هذا الصنف أناساً ممتازين بذكاء ونشاط وكفاية ، ولكننى أكره أن يكثر أمثالهم فى الناس .

موسم الامتحان*

نمر فى شوارع البلد ومنتزهاتها والأماكن البهيجة منها فنشعر بالجانب الجميل اللعوب من حياتنا موحشاً . وهل فى حياتنا من جمال وبشاشة إلا بذلك الجيل الناشئ فى الورد من أيامه لا يعرف الحياة إلا للذاذة وأحلام صباً ؟ ذلك الجيل الذى يبسم للعيش سذاجة وأملا حتى ليكاد يخدعنا بابتسامه الفتىّ عما نكابد من آلام الحياة الكهلة. نحس بغيبة الدعابة والمرح من المدينة منذ حل موسم الامتحان فإن شبابنا فى شغل فلست تراهم إلا فى البيوت عاكفين على الدرس والمذاكرة أو فى أماكن الامتحان متعلقة كل أمانيهم بإحسان الإجابة

* السفور : العدد ٥٣ ، السنة الثانية – الجمعة ١ شعبان ١٣٤٣ ، ٢ يونية ١٩١٦ .

عمّا سئلوا عنه ، يتعب الجد نفوسهم الغضة فيزاحم الشحوب ما فى أساريرهم من نضرة وماء ، ويعبث التجهم ببشا شتهم ومرحهم ، فترى على شبابهم سمت وقار يستثير الرحمة فى أعماق القلوب .

لم يخلق للشحوب ولا الوقار هذا الشطر العزيز من العمر ، ولكنه خلق كالزهرة للابتسام ، وكفؤاد الشاعر للخيال والأحلام ، خلق لينعم بلهو الحياة ويتمتع بما فيها من مسرات ولذائذ حقيقية بل ليتمتع بما وراء حقائق الحياة من الأوهام والأمانى .

إنا من فرط الرفق بالشباب والعطف عليه نكاد نرحمه من تلك المتاعب الصغيرة التى ينوء بحملها غصنه اللين وإن كانت متاعب فى سبيل الخير والمصلحة ، وكانت هينة علينا فى ذاتها نحن الألى دخلوا فى غمرات الحياة وتعرضوا لعظائمها . وأى شىء هم الامتحان وأمر النجاح فيه والسقوط فى نظر امرئ يرى فى كل يوم وفى كل ساعة أملا أكبر من أمر النجاح فى الامتحان تتجاذبه عوامل النجح والإخفاق .

ذلك يمليه علينا قلب حديث الذكرى بعهد الشباب الماضى — حيا الله عهد الشباب — قلب لم تندمل بعد جراح حسراته على تلك الأيام الضاحكة فى ثنايا العمر ولكن العقل يغلبنا على هذه العواطف فننظر بسرور إلى ما يبذله فتياننا من الجهد وما يتحملون من المشقة فى سبيل التعلم . وذلك بأن الحياة أواه ! ليست شباباً كلها وأحلاماً ولا بد للمرء أن يأخذ من شبابه لهرمه ومن لعبه لجده حتى لا يقبل على حرب الحياة بغير سلاح .

لا يضجر فتياننا أن يقضوا فى كل عام زمناً فى جد متعب لا تجد فى أثنائه نزوات فتوتهم متسعاً فإن ثمرة هذا الجد توافيهم فى دور الكهولة نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم . يشكون من أن الامتحان يكون مصادفة يفوز فيه صاحب الحظ ويخفق من لم يكن مجدوداً .

إن كان فى الامتحان حظ يظلم الكفاية أحياناً فإن فى ميدان الحياة ما

هو أشد ظلماً من الحظ وأصرح جوراً واعتسافاً .

ينبغى أن يذوق الشباب شيئاً من طعم الكهولة ويدرك بعض حقائق الحياة .

ينبغى أن يمتحن مرة فى كل عام من قبل أن يبلغ أيام العمر التى هى امتحان دائم لا يجد إنسان فيه فرصة ليغتبط بالنجاح حين يلقاه نجاح .

عبد العليم *

عبد العليم أفندى . . . أو عبد العليم بك كما يدعوه إخوانه اتباعاً لسنة شبابنا أولاد الأغنياء فى التداعى بالألقاب ، هو فتى من أسرة ريفية كبيرة ذات رزق ومجد . ونعنى بالمجد تلك الحرمة الموروثة الراجعة إلى قوة العصبة وجاه المال ، والراجعة أيضاً إلى شىء من الصلابة الخلقية والتميز فى الحرص على العادات العتيقة . وهذا هو المجد عند أهل الريف من أبناء وادى النيل ، وما أرى هذا المعنى دون ما عند سائر الأمم من معانى المجد . وإن الذين يزعمون أن مصر خالية من طبقة النبلاء استهانة بما نفهمه من معنى النبل ليظلموننا .

قد لا يكون من الضرورى للأمم ولا من الكمال أن يوجد فيها طبقات متمايزة هذا التمايز ولكنه يعز علينا على كل حال أن يكون عندنا شىء ويقال لنا لا شىء عندكم .

كان عبد العليم من بيوت المجد أتم تعلمه فى المدارس الحكومية المصرية حتى نال شهادة ليسانس الحقوق . ومع طول مقامه فى القاهرة وقضائه مدة الدراسة فى مدرسة المبتديان مهد أولاد النعمة والرفاهة ثم فى المدرسة التوفيقية مدرسة أبناء الذوات ثم فى مدرسة الحقوق حيث تلوح على الطلاب مخائل

* السفور : العدد ٥٥ ، السنة الثانية — الجمعة ١٥ شعبان ١٣٣٤ ، ١٦ يونية ١٩١٦ .

الأبوكاتية من قبل أن يصيروا أساتذة وينتظموا فى سلك النقابة، لم يؤثر شىء من ذلك فيه فبقى ريفياً فلاحاً حيياً صموتاً فى المجالس غير عيىّ .

* * *

أراد أبوه أن يرسله إلى أوربا لينال هناك شهادة دكتور فى الحقوق لأن لقب دكتور أصبح عزيزاً علينا جداً يكاد يساوى لقب بك حتى رأينا بعض الحوذية النبهاء إذا أرادوا أن يملقوا فتى تبدو عليه سيما الكبر العلمى ينادونه يادكتور فلا تخلو ابتسامته لسماع هذه الدعوة المحبوبة من أريحية . وروى لنا أن من المعممين من يطرب لهذا النداء الجديد وله اسم قديم فلا يدعى به وهو أولى .

هذه الاعتبارات سهلت لعبد العليم السفر إلى أوربا بالرغم من كراهة والدته وكثير من ذوى قرابته لهذه الرحلة . والشاب نفسه كان يحب المزيد من العلم ومن الشهادات ولكنه كان يشك فى أن ذلك يستحق الهجرة إلى دار الفرنجة حيث يخرج النساء سافرات ويؤكل لحم الحيوان لم يذبح بقطع تمام الحلقوم والمرىء بآلة ليس بعظم .

* * *

سافر عبد العليم إلى فرنسا فى باخرة إنجليزية ورافقه إلى بورسعيد أبوه وإخوته وجماعة من بنى عمه وأقاربه وأصدقائه حتى ازدحم بهم الشاطئ عند رحيل السفينة . وكانوا يعانقونه بكاة ويعانقهم ويبكى كما يكون عند المسير إلى الحج . ولما تحركت الفلك صار المشيعون يتصايحون مع السلامة يا عبد العليم فى وديعة الله وحفظه . وكان الشاب الراحل يحاول أن يجيب على هتافهم فتغلبه الدموع ، وقد استرعى ذلك المشهد نظر جميع المسافرين ورغبهم فى التعرف إلى الشاب المودع بالعبرات من جموع كثيرة، وكان السيدات أشد الناس تطلعاً . ذلك بأن السيدة الأوربية طلعة خصوصاً إذا كانت عجوزاً ، ويظهر أن سيداتنا المصريات طلعات أيضاً وخصوصاً الشواب ! ومن آيات تطلعهن

ما يحكى أن فيهن من ترغب عن رجال قومها لتتزوج بالرجال الأجانب وأكثر ما يصيبهن حملة السيوف فى بلد لا تهز فيه يد سيفاً .

سارت السفينة شوطاً وزالت عن الركاب روعة الهزة الأولى فجعلوا يطوفون فوق ظهر الباخرة متمتعين بمنظر غروب الشمس فى البحر الأبيض إذ ينتثر ذهب الأصيل على لجين الماء تتقاذفه الأمواج مخلوطاً بالزبد وإذ تتهادى الشمس فى ثيابها المعصفرة إلى الجانب الغربى من أفق متصل بالبحر فى مثل لونه وصورته لولا ما فى البحر من حركة وما فى الأفق من سكون كأنما تسير الشمس من بحر جامد إلى بحر سائل وكأنما تمخر السفينة فى جوف كرة مائية من فوقها ماء ومن تحتها ماء .

أما صاحبنا فلم يلق بالا إلى شىء من هذا بل لبث واقفاً فى مكانه حيث كان يودع أهله ناظراً إلى ناحية بور سعيد التى جعلت تتضاءل أمام عينيه فى غمرات الماء حتى صارت نقطة سوداء فى حدود ذلك الخضم الزاخر يخفيها ما يتدافع من التيار ويظهرها ثم خفيت فلم يعد يظهر منها عين ولا أثر إلا ما يمثله الوهم لتلك الأعين الدامعة المتعبة من طول التلفت .

أقبلت على الشاب المستوحش المنفرد سيدة نصف من أولئكن السيدات اللواتى دب الشيب إلى شعورهن الحافظة لتذكار الجمال الفانى ودبت إلى محياهن تجاعيد الكبر ولكن كل قواهن الروحية والجسمية لا تزال فتية ملتهبة وأقوى شىء عندهن إيمانهن بأنهن لا يزلن شابات فى ريعان الشباب .

كانت السيدة قد راقبت الفتى من لدن عانقه مودعوه عند الشاطئ إلى أن خفيت عن ناظريه بور سعيد فجعل يتلمسها من جوانب الأفق ، وجاءته تتبين أمره وتسليه رحمة وتطلعاً وكانت ترافقها فتاتها وهى كاعب يتنفس فى طفولتها صباح الشباب فى تلك السن التى تجمع غرارة حلوة وبهجة ضاحكة كبهجة الربيع .

ولما أقبلت الغانيتان على الشاب المسكين قالتا تحييانه :

سعيد مساؤك يا سيدى! ثم تقدمت إليه الوالدة قائلة :

يظهر أن بك أيها الشاب ضيقاً لفراق وطنك وقد أتينا لنضايفك حتى لا نتركك نهباً بيد الأكدار تعبث بفؤادك الشاب الذى ينبغى أن يعبث به فى هذا العمر كل شىء إلا الكدر .

تعال إلى هذه المقاعد نجلس معاً فإن الوحدة تزكى نار الهموم .

أجاب عبد العليم على هذه التحية مؤدباً حيياً وتبع السيدة وابنتها إلى المقاعد الموضوعة فوق سطح الباخرة وجلس بينهما وقد تواردت فى تلك الساعة عليه عواطف كثيرة بين تهيب لمجلس السيدات الذى لم يعتده من قبل وإنكار لما يخالف مألوفه من خلطة الرجال والنساء وإعجاب بما بدا له من لطف المرأة وفصاحتها وذكائها وتأثر بجميل السيدة وبنتها إذ جاءتاه على غير تعارف لتدفعا عنه خواطر الغربة والوحدة . وظلت ذكرى بور سعيد وموقف الوداع فيها تمر لماماً بخاطر الفتى فى أثناء العواطف الجديدة التى تجيش معها نفسه فى مجلسه بين السيدتين . وكان أقل ما استرعى عنايته أمر جمالهما لأن صاحبنا كان من التقى بحيث لا يأبه بجمال حتى لقد كاد يختل ذوق التقدير للحسن فى مزاجه المعتدل بفطرته وذلك من فرط التقى .

جعلت السيدة وبنتها مرجريت يلاطفان عبد العليم وينبسطان إليه إلى أن استأنست نفسه وفترت حدة التهيب عنده . وكان كلما اتسعت دائرة السمر وتنوعت موضوعات الحديث رأى من السيدة ذكاء وفهماً واطلاعاً لا عهد له بها فى النساء وكان ذلك يوحى إليه معنى من معانى الاحترام للأم وبنتها ويقلل نفرته من سفورهما ومخالطتهما للرجال .

أراد الفتى أن يودع فى حواره للسيدة عبارات تدل على مبلغ إجلاله لها . وكان معنى إكرام المرأة مقروناً فى ذهن عبد العليم بصورة أمه التى لا يحترم غيرها كسنة قومنا إذ لا يحترم الرجل امرأة إلا إذا كانت أماً له أو كانت فى معنى الأم بشيخوختها واتصال رحمها بأصل من أصوله . على أن هذه السنة

العتيقة قد تلاشت في الجيل الجديد ومضى الزمن الذى كان الابن فيه لا يدخن بين يدى والدته ولا يجلس فى مجلسها إلا متخشعاً هيوباً وصار الرجل لايحترم امرأة ، وصارت المرأة أيضاً لا تحترم رجلا . لما أراد عبد العليم أن يظهر لمخاطبته الكرامة والملاطفة ناداها فى أثناء كلامه : يا أمى !

كانت مدام متهللة الوجه منبسطة للحديث فى ساعة من ساعات الابتهاج فاض فيها كل ما بقى لها من صبا حتى عادت فتية يموج فى أساريرها وفى حركاتها الرشيقة ماء الشباب .

وكانت أنظار الرجال ترعاها عن بعد إعجاباً بهذا النوع من الجمال الذى تظهر فتنته عند اختلاط ظلام الليل بأعقاب النهار .

وما هو إلا أن وصل إلى أذنيها نداء الشاب حتى تنكرت ملامحها واحمر وجهها وامتلأت عيناها البراقتان غيظاً وغضباً وبدت على وجه مارجريت الصبيح لوائح دهشة وخجل .

صاحت السيدة وقد تبدل ما كان فى صوتها من لين ونغم هديراً :

يا سيدى أنت لست بلطيف . أنت لا تعرف كيف تخاطب السيدات .

هنالك ارتبك الفتى ولم يحر جواباً لأنه لم يتبين بادئ الأمر ما أثار سخط السيدة التى كان حريصاً كل الحرص على إرضائها وجعل يتطلع إلى محيا الصبية كأنما يستعيذ برحمة جماله من شر قبح الغضب ، وكان فى نظر الفتاة إليه شىء من الشفقة ومن العتب جميعاً .

مضت على ذلك المجلس الذى كان لطيفاً هنيئاً ساعة اضطراب شوهت جماله . وكان إلى جانب القوم غير بعيد رجل فى ثياب أوربية ولكنه مصرى لم يفته قليل من حديث الشاب مع السيدتين ولا كثير وقد أدركته عاطفة رحمة لمواطنه فأسرع إلى مجلس الجماعة وانحنى بين يدى السيدة محيياً ثم قال :

اسمحى لى يا سيدتى أن أدخل فى حديثكم من غير أن أدعى إليه اعتذاراً

لهذا الشاب الذى أخشى أن يمنعه حياؤه أن يقوم بحجته فيبوء بغضب منك وهو يا سيدتى لا يستحق غضباً .

إن النداء الذى سمعته من مواطنى الشاب هو دعوة احترام وعطف مألوفة. فى العائلات القديمة الكبيرة عندنا ينادى الرجل بيا عمى، وإن الخادم ليدعو مخدومه عمًّا تكريماً له وإعظاماً . وحاشا لله أن يظن ظان أن النداء الذى ناداك به الشاب لا يليق بك على هذا المعنى .

كيف لا وأنت ترين الفتى نفسه وهو يدعوك تلك الدعوة مفتوناً بسحر جمالك وبهجة شبابك .

انحسرت لهذه الكلمات غيابة الغيظ من السيدة وقالت ضاحكة :

غريب عاداتكم يا سيدى، وعلى ذلك فصاحبك يقول لمارجريت أيضاً يا أمى !

التفتت الآنسة عندئذ إلى الشاب وخاطبته مبتسمة عاطفة :

أرجوك يا سيدى أن تعافينى من هذا الأدب فى النداء .

وتضاحكوا جميعاً وعاد الماء إلى مجراه .

ثم قال الرجل بالعربية لعبد العليم يا أخى إنك لم تجرب بعد الأمور ولك عندى نصيحة أرجو أن تنجح بها فى الحياة : لا تكن صريحاً ولا صادقاً مع اثنين : المرأة والرئيس .

لم يوفق عبد العليم فى حياته للأخذ بهذه النصيحة لأن فطرته لم تحتمل العمل بها ولم ينجح فى الوظائف ولا فى أمر النساء . أما الناصح الذى كان يومئذ موظفاً غير عالى الدرجة فقد ارتقى إلى منصب عظيم جدًّا فى مصر وحاز بين النساء نجاحاً عظيما .

جعل عبد العليم يلازم الآنسة وأمها يتحدثون تارة ويقرأون فى كتاب مرة ويطوفون فوق سطح السفينة أحياناً حتى زالت كل وحشة فى نفس الشاب لهذه الجمعية الجديدة فى حياته وإن لم تكن منافرة فى الواقع لفطرته الآنفة المألوفة .

شحذت بعض الشحذ فى نفس عبد العليم بهذه العشرة القصيرة عواطف كانت صدئت بما فى نشأته وتربيته من الضعف فصار ينظر مع الناظرين بإعجاب إلى شروق الشمس وغروبها وطلعة البدر واختفائه ويقلب وجهه فى السماء وفى الآفاق يتلمس مظاهر الحسن الطبيعى بين السحب المختلفة الألوان والتيارات المتماوجة لا ليلتمس شبح بورسعيد الذى لم يذهب من أعماق قلبه كل حنين إليه وصار أيضاً يصغى غير مستكره إلى ما كان ينبو عنه سمعه من أنغام الموسيقى الأوربية بل تنبهت فى فؤاده الفتىّ عواطف أدق من ذلك فصار يشعر بمعنى طريف فى أنسه إلى الفتاة مارجريت . كان يترقب بشغف ساعة ما بعد العشاء حيث كان يسير بها وحيدين فوق سطح السفينة لأن أمها كانت تحب أن تستريح بعد الطعام . كان يجد متاعاً ولذة فى أن يسمع وحده حديثها ويتلقى من غير شريك ابتسامها الحلو .

مضت أيام السفينة الخمسة وانتهى بالقوم المسير إلى مرسيليا وأخذ ركاب الباخرة يعدون أمتعتهم ونقلهم ، وبينما عبد العليم صاعد إلى سطح السفينة حيث يجتمع السائحون عند نزولهم إلى البر صادف فى طريقه مارجريت وقد لبست قبعتها ولبست معطفها فلما دنا منها قالت له :

« إلى الملتقى يا صاحبى . ومن يدرى إن كان فراقنا إلى ملتقى ! » حركت هذه الكلمة التى نطقتها الآنسة بلين فوق لينها العادى شجو الفتى الغريب فامتلأت عيناه بالدمع بمقدار ما امتلأتا من النظر إلى الآنسة المودعة التى مدت إليه يمينها لينحنى عليها مقبلا وانصرفت مسرعة مبادرة كأنها خافت أن يعرف الدمع طريق عينيها الباسمتين أو فزعت من رؤية العيون المبللة .

وخرج عبد العليم من السفينة باكياً كما دخلها باكياً وشتان ما بين الدمعين .

للإصلاح*

يظهر أن كل ما يتصل بالدين من الشئون الاجتماعية يكون بطيئاً عن متابعة الحركة السارية فى أجزاء العمران .

ذلك بأن هذه الشئون وإن لم تكن بذاتها ديناً فإن اتصالها بالدين على أى وجه يكاد يجعلها مقدسة لا تقبل تغييراً إلا بوحى منزل من السماء .

نرى بيوت الدين ومدارس العلوم الدينية ذات سحنة متميزة عن سائر الهياكل والمبانى ولا يتغير شكلها فيما يتغير من أشكال البناء إلا بعمل العصور الطويلة ، ونرى ثياب المنتسبين إلى الدين ليست كثياب سائر الناس تتبع ما يتجدد من الأنماط وتسير مع مايكتشفه الذوق الإنسانى من أسرار الجمال أو ما ينتبه إليه بهداية العلم والتجربة من دقائق الحاجات الصحية والمعونة على النشاط والرشاقة ، كأن هذه الأشياء التى لا حرفة دينية لها فى الواقع أصبحت من شعائر الأديان فمن مسها هاج سخط السماء ، بل قد وصل أثر ذلك إلى الأشخاص أنفسهم الذين لهم بالأديان فى نظر الجماهير علاقة أكبر من العلاقة المشتركة بين الآخذين بنحلة من النحل .

نجد للرجال الدينيين هيئة خاصة فنعرفهم بسيماهم وتقاطيع وجوههم وصورة أجسامهم ونعرفهم فى أصواتهم وحركاتهم حتى لتكون هذه الطوائف آخر من يظهر فيه أثر اختلاط الدماء وتزاوج الشعوب البشرية وهى العوامل التى تحدث كل يوم فى التكوين الجسمى للأمم أثراً .

ولا تستعد الأشياء الدينية لقبول التجديد إلا حينما تقوى وتمتد حركة الرقى حتى تكون نهضة عامة يلين لها ما جعله الزمان صلباً .

قد يكون من خير الأمم لأول نزوعها إلى الرقى فى الميعة الأولى أن يتجاذب

---

* السفور : العدد ٥٦ ، السنة الثانية — الجمعة ٢٢ شعبان ١٣٣٤ ، ٢٣ يونية ١٩١٦ .

حماستها للتجديد بطء من جانب القديم يحفظها من خطر التقحم .

ولكن إسراف بعض مرافق العمران فى القعود عن مسايرة الناهض من شؤون الحياة يضر تلك المرافق ضرراً يصل إلى الحياة الاجتماعية كلها .

وكأننا أنشأنا نشعر فى هذه البلاد بأن المصالح المنتسبة إلى الدين فى حياتنا الاجتماعية تخلفت تخلفاً عظيما عن خطواتنا فى سبيل الرقى . وإن كانت خطواتنا فى هذه السبيل عرجاء .

من أجل ذلك فكروا فى إصلاح المعاهد الدينية وفكروا فى إصلاح المحاكم الشرعية ، ويقولون اليوم إنه جاءت نوبة المحامين الشرعيين الذين وصف واصف فى جريدة الأهرام من سوء حالهم وعبثهم بحركة الشرع وحرمة العدالة ما يملأ القلب همًّا .

لمَّا يتحقق ما يرجى من الإصلاح لمدارس العلوم الدينية ولا يزال القضاء الشرعى غير خالص من آثار الضعف فعسى أن يكون الرأى الجديد الذى رأته وزارة الحقانية فى إصلاح المحاماة الشرعية بإنشاء نقابة للمحامين رأياً منجحاً يثمر خير الثمرات وأسرعها نضجاً .

وإذا حقق الله الأمل فى نفع مشروع النقابة فى إصلاح المختل من شؤون المحاماة الشرعية رجونا أن يفكر أولو الأمر فى إنشاء نقابة للمعاهد الدينية أو على الأقل لمجلسها الأعلى ويفكروا فى إنشاء نقابة للقضاة الشرعيين ثم لا ينسوا مأمورى المراكز فإنهم رؤساء المجالس الحسبية والضاربون بسهم فيها . ومتى تم ذلك وتم معه ما يقترحه الفيلسوف شبلى شميل من إنشاء نقابة للفلاسفة الأحرار تهيأت بإذن الله أسباب الصلاح وأنصف الناس واستراح القاضى .

شهر رمضان*

فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة كتب على المسلمين أن يصوموا رمضان إيماناً لربهم واحتساباً وأمرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم أن يؤدوا زكاة الفطر .

ومنذ ذلك العهد أصبح صوم هذا الشهر شعيرة من شعائر الإسلام التى يتقرب بها أتباع محمد النبى عليه السلام إلى الله زلفى .

صام رسول الله والذين معه من المؤمنين رمضان لأول مرة فى دار الهجرة لم يقر قرارها ونهضوا لغزوة بدر وهم صيام فما ضعفوا ولا استكانوا وكانوا هم الغالبين .

أولئك قوم اطمأنت قلوبهم للإيمان فغلبت قوة إيمانهم ما كان بهم من ضعف وقلة .

حمل أحدهم وقد قطعت رجله ومخ ساقه يسيل ، فلما أتوا به إلى رسول الله قال : ألست شهيداً يا رسول الله ؟ قال : بلى .

فقال : لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنى أحق بما قال منه حيث يقول :

ونسلمه حتى نصرع حولـــه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم مات رحمة الله عليه .

وخرج رسول الله إلى الناس فى تلك الغزوة وهو يثب فى الدرع وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !

فقذف بالتمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

---

* السفور : السنة الثانية ، الجمعة ٢٩ شعبان سنة ١٣٣٤ — ٣٠ يونية سنة ١٩١٦ .

رجعنا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعـــاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفـــاد
غير التقى والبر والرشاد

كان الإيمان ملء تلك الصدور الطيبة الساذجة فتقبل القوم تكاليفه بالرضا صياماً وزكاة وجهاداً وبذلوا راحتهم وأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . وما كانت عباداتهم إلا مظاهر إيمانهم الصادق لا يدخلها شوب من الرياء. من أجل ذلك نفعهم إيمانهم ونفعتهم عباداتهم .

* * *

شهد شهر رمضان فى طفولته أعظم غزوات الإسلام التى منها كان ظهوره وبها عز جانبه ورأى المسلمين قليلا عددهم كثيراً غناؤهم قويًّا رجاؤهم مقروناً بالسعد طالعهم وقد دارت به الأعوام ١٣٣٣ مرة فشابت نواحيه وشابت نواحى المجد الإسلامى أيضاً .

أيها الشهر العظيم : حياك الله . أنت تذكار لتاريخ عظيم .

صيانة الأعراض*

فى هذا الفصل من كل عام يكثر القال والقيل من حوادث الأعراض وتكثر حوادث الحريق كما تكثر السرقات فى موسم القطن وتكثر المشاجرات فى شهر رمضان .

يقدر على ربط هذه المسببات بأسبابها وتفسير معنى الاتصال بينها أهل العلم من أرباب الاختصاص .

* السفور : العدد ٥٧ — السنة الثانية ، الجمعة ٢٩ شعبان ١٣٣٤ ، ٣٠ يونية ١٩١٦ .

ونحن يهمنا أن تقل حوادث المشاجرات ولو يفطر الناس فى رمضان وتقل السرقات ولو بإبطال زراعة القطن ويقل الحريق ولو يحملنا على أن نعيش فى ظلام حالك لا يلمع فيه إلا بصيص من نور الكواكب . ويهمنا جدا أن تصان الأعراض حتى من القيل والقال ولو كان ذلك بتشويه كل جمال فى البلد على أنا نعز الجمال أيما إعزاز .

تلك شرور نرضى بركوبها اتقاء ما هو شر منها .

حنانيك بعض الشر أهون من بعض !

وإذا كانت مسائل السرقات والحريق تهمنا حرصاً على الأمن والسكينة فإن أمر العرض أشد شيء علاقة بأخلاقنا وآدابنا .

ويظهر أن هذا ليس موضع نزاع من أحد فإن البوليس أيضاً ساهر بنشاط على مراقبة من يعبثون بالآداب يقبض عليهم ثم يسرحهم بمعروف أو لا يسرحهم حسبما تقضى به الظروف .

ومن فوق يد البوليس محكمة عسكرية أنشئت حديثاً لأمور من أهمها صيانة الأعراض والمرجو أن تأتى خير النتائج ببسطة حكمها على الكبير والصغير ومساواتها بين البعيد والقريب .

كل هذه العناية بأمر حماية الآداب دليل على الاعتراف بخطر الداء الذى يهددنا فى أعراضنا .

وهى دليل على أن أمر صيانة الأعراض أصبح محتاجاً فى مصر إلى احتياط غير عادى لأن العرض لم يعد له سياج من شهامة الرجال ولا عفاف النساء .

يحزننا هذا حزناً عظيما ونتمنى تمنياً أليما أن تصان أعراض قومنا بالمحكمة العسكرية .

صحيفة فى الطريق*

ليس من عادتى أن أتلمس الأوراق المكتوبة الملقاة فى الطريق أجمعها لأحرقها تحرجاً من تعريضها للهوان كما يصنع بعض التقاة ، فإنى لست من التى بهذه المثابة ، وما أنكر من طرح الأوراق المكتوبة فى الأرض إلا أنه تقذير ينبغى أن يتعفف عنه الناس ، كما ينبغى أن يتعففوا عن البصق وما إليه فى السبل والبيوت .

القصد إلى إهانة الكلمات المقدسة والألفاظ المحترمة على أى وجه قبيح ممقوت ؛ أما جعل الحروف العربية ذات تقديس مخصوص فغير معقول .

قلت إننى أحب أن يتعفف الناس عن طرح الورق فى الأرض وعن شغلها بكل ما يخل بالنظافة ؛ وأحب أن يتعفف الناس عن أشياء منها شرب الماء والشربة بصفير وهدير . ولقد سمعت آنسة أديبة تروى أنها كانت مع أبويها مرة فى مطعم ، فبدا لها أن تبدأ طعامها بشربة ، وما هو إلا أن جىء لها بما طلبت حتى قلدها من فى المكان من الطاعمين بسر لا تعرف الآنسة تأويله ، والله أعلم هو أن الرجال عندنا يزعمون أن المرأة خلقت مستعدة بفطرتها لخدمة البيت لا تصلح لعمل غيره فهى ثقة فى كل ما يرجع إلى الطعام والشراب يؤخذ برأيها ويركن إلى ذوقها ويحتذى على مثالها .

قالت الشابة : وبعد برهة تجاوبت أرجاء المكان بزحير يصم الآذان فأغمى عليها أو كادت وخرجت من المطعم مريضة وباتت بليلة مسهدة كلما رنقت فى عينيها سنة رأت فى منامها رجالا يتناولون شربة فانتبهت مذعورة .

وصوت المتجشئين أنكر عند الله والناس من هذه الأصوات كلها — أخفتها الله كلها ووقى الأوانس شرها .

---

* السفور : السنة الثانية — الجمعة ٧ رمضان ١٣٣٤ ، ٧ يولية ١٩١٦ .

هذه المقدمة الطويلة صرفتنى عن القول الذى أقصد إليه ، وإليك القول الذى أقصد إليه :

كنت سائراً فى بعض الشوارع وحيداً ساهياً كعادتى عما حولى إلا أن يكون أتوموبيلا يزعجنى صوت نفيره فأجرى يميناً أو أجرى شمالا فبصرت بصحيفة ملقاة مطوية بنظام يرى الرائى أنها ليست مطروحة عمداً ، ورقة مصقولة ، نظيفة ، ذات لون أزرق صاف كلون السماء فى صحوها .

اندفعت إلى الصحيفة وتناولتها غير مبال بشىء مما آخذ نفسى به من أسباب التحرز عن جراثيم الأمراض فى هذه الأيام الكثيرة أمراضها المعدية ونشرت الورقة وقرأتها فإذا فيها مانصه حرفاً فحرفاً :

« حب ودلال

زرت إحدى أقاربى (من مدة) فكانت مصابة بالهوى وزاد على صفحات قلبها مما هى فيه من لوعة لمشتاق فمن فرط غرامها باحت لى بأسرارها وتحدثنا فى هذا الموضوع .

فخرجنا يوماً نستنشق الهواء ونسلى أفكارنا ، فمن حسن الصدف رأينا من تحبه ومعه شاب آخر مصرى فلما رأيناهم من القرب صرنا نتجنب خوفاً لأحد يرانا نتحادث وفى أثناء الوقت تقدم الشخص الذى هو حبيب قريبتى وقدم لنا الشاب الذى معه وقدمنا نحن كذلك له فصار يتمشى هو وأنا أسامر الآخر فنظرة منه أصابت فى قلبى وقد لاحظت أن مغناطيس اجتذب الروحين ودقات القلب ولواحظ العيون هى عنوان القلوب فكنت أجتهد فى أن أمتنع عن مقابلة هذا الشخص مرة أخرى ، وبعد مضى نصف ساعة من الزمن فكل منا توجه لمنزله وافترقنا تقريباً من ثلاثة شهور فى أثناء غيابى سأل هذا الشخص صاحبه عنى فأخبره بسفرى لأنه يعلم من قريبتى . فبعد حضورى ومدة غيابى فلا نتذكر خلاف هذين الشخصين ولطفهم وظرفهم ولا نتكلم إلا فى موضوع الحب والمقابلة التى لم كانت على البال .

دلائل الحب لا تخفى على أحد   فحامل المسك لا يخلو من العبق

أول الحب هزل وفى الغالب آخره جد . فإذا كانت علاقة الحبيبين ترمى إلى اختلاط الأرواح وتعانق النفوس كانت الغاية الشريفة دليلا على رقى الأخلاق وعلو الشعور لأن العشق هو الإخلاص وبذل النفس للغير وذلك هو كل ما تبتغيه التربية والأدب » .

* * *

لا أدرى ما تلك الورقة ولست أعرف من كتبها ، ومهما يكن من أمرها فإن فى أسلوبها الساذج الطفل معنى من معانى الإخلاص وفيه نفحة من نفحات الحب فى بشاشته الأولى .

من أجل ذلك اخترت نشرها وأرجو أن لا يكون فى نشرها بأس على صاحبتها المجهولة التى أتمنى لها السعادة كلها فى حبها الشريف حب الإخلاص وبذل النفس .

على ذكر العيد*

أذكر إذ كان يقبل العيد ونحن صبية نقضى أيام العيد فى الريف بين أهلنا وعشيرتنا . كانت إذا جلت العشر الأواخر من رمضان ألفيت فى المدائن والقرى مظاهر الاحتفال بالعيد فلا تكاد تجد من لا يهيىء ليوم الفطر حلة جديدة ولا تلقى داراً تخلو من حركة استعداد بهيج ليوم العيد حركة تعم الغنى والفقير حتى لكأن الناس فى عرس إلا من كان حديث عهد بمصاب .

وها نحن أولاء من العيد قاب قوسين أو أدنى وما إن نرى فى البلد من مظهر ابتهاج ولا آية استعداد لسرور .

* السفور : العدد ٦١ ، السنة الثانية — الجمعة ٢٨ رمضان ١٣٣٤ ، ٢٨ يولية ١٩١٦

ولولا أننا نعد الأيام عداً لفراغ شهر الصوم رغبة فى الخلاص من سهر الليل وطعام السحر وعناء النهار البطىء لما شعرنا بأن يوم الاثنين القابل سيكون يوم العيد المفروض على المسلمين فطره والتصدق على الفقراء فيه والمساكين ولهم أن يتلقوه بالزينة واللباس الجديد وأن يتواصلوا بالتزاور فيه والتودد .

تمر بنا المواسم خافتة صامتة عارية من حلى الأعياد ونلاحظ أن كل مظاهر الحفلات والمسرات الاجتماعية تزداد بين قومنا ضعفاً ويدخل فى طبائعنا الحارة النزاعة إلى الظواهر البراقة فى أفراحها ضرب من السكون يشبه أن يكون حزناً .

ذلك مرض اجتماعى محسوس فى قومنا .

كنا أمة ساذجة قويا فيها جانب الاستعداد للتأثر بالعواطف الساذجة .

كنا سعداء بما عندنا من حظ ضئيل من الثروة والعلم لا نرى وراء ما نحن فيه كمالا ولا نفهم من الحياة الاجتماعية وآمالها إلا معنى ضيقاً .

ثم خرجت جماعتنا من دور الغرارة فشعرت بما ينقصها من بسطة المال والعلم والقوة وتجددت لها هموم وآلام بمقدار ما كشف عنه الحجاب من حاجاتها وأمانيها .

أصبحنا أقل بشاشة فى الحياة لأننا نطمح إلى حياة خير من هذه ولم يعد يرضينا من حظوظ السعادة ما كنا نحسبه بالأمس رضى .

نحن أمة تدرج خطواتها الأولى إلى النهوض وإلى الأمل فلا غرو أن تدخر قلوبنا الجائشة بالآمال سرورها لغد .

على ذكر العيد أيضاً*

أخذت تباشير الصباح تلوح فى بقايا الليل البهيم وجعل الظلام ينحسر عن حاشية الأفق رويداً رويداً كأنما كان نسيم السحر يدفع برفق ذلك النقاب الأسود عن غرة النهار .

كل شىء ساكن فى هدأة الليل إلا بحر الروم لا تفتأ أمواجه ترقص على توقيع لا أدرى أترنم هو أم زفير وإلا ذلك القلب الخفوق بين جوانحى تضطرب فى نواحيه هو أيضاً أمواج من حنين وتذكار .

استيقظ الناس مبكرين وما هتفت أشعة الشمس حتى امتلأت السبل بالساعين إلى ذكر الله وإلى الصلاة صلاة العيد ، وقد ازدحمت مساجد الإسكندرية فصار الوصول إلى موطئ قدم فيها عسيراً . صفوف متراكمة من الرجال تتخللها صفوف من نعالهم فكل امرئ بين يديه حذاؤه لا يذهب عنه بصره يميناً ولا شمالا ذلك لأننا لا يأمن بعضنا بعضاً حتى على النعال فى بيت الله وفى ساعة عبادته .

الحصر ممزقة قائم شوكها يدمى وجوه الساجدين وأيديهم وأرجلهم ويمزق أثوابهم ولكن القوم من التقى بحيث لا يبالون أوضعوا وجوههم لله فوق شوك القتاد أو فوق لين المهاد .

تتجاوب الأصوات بتكبير العيد مختلفاً نغمه غير متحد مبتدؤه ولا منتهاه بعيداً عن النظام وعن حسن التوقيع ولكن ذلك الصياح الدينى من تلك الجماهير المؤمنة يملأ النفس هيبة وخشوعاً . وقد كان يخيل إلى أن أبواب السماء مفتوحة لدعوة هؤلاء الذاكرين وأن الملائكة تحفهم من بين أيديهم ومن خلفهم وتصيح معهم : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر ،

---

* السفور : العدد ٦٢ ، السنة الثانية – الجمعة ٥ شوال ١٣٣٤ ، ٤ أغسطس ١٩١٦ .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا. الحمد لله وحده ،صدق وعده، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، لا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون .

تمثلت بهذا المشهد موقف نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام فى البطاح العربية بين صحابته يزلزلون جوانب الصحراء بصياحهم كما زلزلوا جوانب الأرض .

وبعد صلاة العيد نهض إلى المنبر فتى يدب دبيب الشيوخ ويتهدج صوته تهدج أصواتهم فوعظ ما وعظ ثم ذكر الموت والأموات فسالت عبرته وأتم خطبة العيد باكياً .

كذلك نحن نبكى فى بيوت الله ونبكى فى بيوتنا ! وياليت شعرى متى نبسم للحياة وتبسم الحياة لنا ؟!

عيد النيل*

كان المصريون يقدسون النيل ويجعلون له قسساً وأعياداً ومواسم .

وذكر المؤرخون أنه كان للمصريين عوائد كثيرة يجرونها عند وفاء النيل منها تغريق بنت بكر من أجمل البنات بعد أن يجملوها بأحسن الملابس وأفخر الحلى ويقيموا لها أفراحاً . وبقيت هذه العادة إلى زمن قسطنطين على ما يقال فأمر هذا القيصر بإبطالها وأصدر أوامره بذلك لأجل أن لا تعاد . ومع ذلك يظهر أن العادة غلبت على أوامر هذا القيصر لأن المنقول عن مؤرخى العرب أن هذه العادة كانت موجودة عند دخول المسلمين الديار المصرية ويروون

* السفور : العدد ٦٥، السنة الثانية — الجمعة ٢٦ شوال ١٣٣٤، ٢٥ أغسطس ١٩١٦ .

رواية الرقعة التى كتبها الخليفة ابن الخطاب إلى نهر النيل فألقيت فيه مكان الكاعب الحسناء ، والمظنون أن عيد الشهيد الذى كان للنصارى فى ثامن بشنس من كل عام إلى أن أبطله الأمير بيبرس الجاشنكير فى سنة ٧٧٢ هو العادة التى أبطلها عمرو بن العاص أيام فتح مصر بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقد تفاوتت أنظار الأمم التى تعاقبت على ملك هذه الديار فى إظهار الفرح والسرور وتعيين الطريقة التى يدخلون بها المسرة فى قلوب رعيتهم يوم وفاء النيل .

كان هذا اليوم فى العصور الخالية يوماً مشهوراً يجتمع الناس لأجله ويهنئ بعضهم بعضاً مجتهدين فى إظهار ما يعم به الفرح قلوب الكافة من الزينة وتهيئة الطعام الفاخر والمسامحة فى تعطيل الأشغال ، وذلك اليوم هو المراد بقوله تعالى حكاية عن فرعون موسى : « قال موعدكم يوم الزينة » ، ولم يزل ذلك رأيهم حتى ملكهم غير جنسهم من الفرس واليونان والروم ، فتناقصت هممهم فى ذلك وأخذت تتغير لا سيما حين جاء الإسلام فإنه منع كثيراً مما يعمله الناس فى المواسم (١) .

ولئن منع الإسلام كثيراً مما يعمله الناس فى المواسم وجرد نهر مصر العظيم من معانى الربوبية التى كانت تجعله معبوداً فقد بقى للنيل عند المسلمين احترام يشبه أن يكون ديناً ، ورويت فيه أحاديث وآثار : أخرج أحمد ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة . وروى عن كعب الأحبار أنه كان يقول : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة .

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار

---

(١) كل هذا البيان مأخوذ من خطط المرحوم على مبارك باشا ج ١٨ .

سخر الله له كل نهر بالمشرق والمغرب فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله له الأرض عيوناً فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله أوصى الله كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

وسأل معاوية بن أبي سفيان كعب الأحبار : هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله ذكراً ؟ قال : إى والذى فلق البحر لموسى ، إنى لأجده فى كتاب الله ، يوصى إليه فى كل عام مرتين : يوحى إليه عند جريه : إن الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله ، ثم يوحى إليه بعد ذلك : يا نيل عد حميداً[1].

ومهما يكن من منزلة هذه الآثار فى نظر النقاد فإن فيها دلالة على ما نريد بيانه من وجود كرامة دينية بين المسلمين للنيل الذى كانوا يتداولون فى شأنه هذه الآثار ، وما نريد اليوم أن يعبد قومنا نهرهم الشيخ كما عبدوه أول مرة ولا أن يعتقدوا أنه ينحدر من تحت سدرة المنتهى وأنه سيفيض لهم فى دار الخلود عسلا مصفى .

تلك معان من العواطف والعقائد كانت تتناسب مع حال الإنسانية فى غرارتها وطفولتها .

وقد ارتقت عواطف الناس إلى درجة أكمل من هذه فأصبحوا يجدون فى الجبال والأنهار ونحوها وما يتصل بربوعهم ومنازل أقوامهم معانى وطنية شريفة .
نريد أن نحب النيل كما يحب الفرنسى السين والإنجليزى التاميز والألمانى الراين.

نحب النيل لأنه مستودع تاريخنا كله يبلل رفات آبائنا ويغذى نطف أبنائنا ، فيه ماضينا ، وفيه مستقبلنا .
نحب النيل لأننا أوفياء ونحن أبناء النيل .

---

(١) كل هذه الآثار منقولة من كتاب حسن المحاضرة للجلال السيوطى ج ٢

ملاحظات*

حضرت حفلة عقد فيها زواج بعض أصحابنا واجتمعنا فى داره طائفة من إخوانه نشرب قهوة وشراباً ، ثم انتقلنا إلى دار العروس وكان هناك طائفة أخرى من المدعوين ولقن صيغة العقد شيخ لطيف بعد ما تلا آيات وأحاديث فى الحث على الزواج لقنها كلمات بسيطة تداولها الزوج ووكيل الزوجة .

ولقد استرعى نظرى بساطة العقود الزوجية وسهولتها وكان إلى جانبى صديق لى فنبهنى إلى أن حل تلك العقود عندنا أبسط وأسهل .

ومما أثر فى نفسى بين ثنايا ذلك المحفل أن الزوج كان حاضرا يقبل النكاح ويتلقى التهانى ولكن عروسه سجينة يزوجها عمها على صداق قدره بينه وبين البعل وبشروط رضيها هو أو من غير قيد ولا شرط .

لاحظت أن الناس فى الريف إذا شاءوا أن يجعلوا لحديثهم صيغة علمية لم يجدوا بين أيديهم إلا مسائل الطلاق يتذاكرونها ويتناقشون فيها ويعدون التفقه فيها من أشرف أبواب العلم وكثيراً ما يسألون عن صور غريبة مشكلة تحير الألباب .

هذا التفنن فى العبث بالعصم جاء لقومنا من سهولة الطلاق إلى حد مفرط .

حل عقدة النكاح هين عندنا هواناً يصيره رهناً بلفظة تقال فى مزاح أو غضب من غير قصد وتجعله نوعاً من التمرين العقلى يتلهى الفقراء بتنويع وجوهه وتشعيب صوره وكأن هذا كان مغرياً للعامة على اللعب به فى سمرهم وفى حياتهم .

كنت أتحدث إلى رجل فى أمر التضييق على النساء أو إعطائهن حقهن

---

* السفور : العدد ٦٦ ، السنة الثانية — الجمعة ٣ ذى القعدة ١٣٣٤ ، ١ سبتمبر ١٩١٦

من الحرية وكان من قوله فى تأييد مذهبه : إن المرأة العفيفة لم توجد فى هذا العالم ، ثم زاد : وإنى على ما ذهب من بهجتى وشبابى أستطيع أن أصبى كل امرأة مهما بلغ من حلمها ووقارها . وفى الناس كثيرون يقولون هذه القالة .

وليس عجبى لغرور هؤلاء الرجال بقدرتهم على فتنة النساء بأشد من عجبى لسوء ظنهم بفطرة المرأة إذ يرونها غير أهل لأن تكون حصاناً إلا حينما تؤخذ عليها المسالك فلا تجد إلى الفجور سبيلا .

ثمار القلوب

فى المضاف والمنسوب *

للشيخ أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورى الثعالبى — والثعالبى نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل له ذلك لأنه كان فراء — المولود سنة ٣٥٠ والمتوفى سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ كتاب اسمه ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها ويكثر فى النثر والنظم استعمالها كقولهم غراب نوح ونار إبراهيم وذئب يوسف وعصا موسى وخاتم سليمان خرجها فى ٦١ باباً .

دفع إلى هذا الكتاب فى هذه الأيام فتصفحته كله ، الكتاب مطبوع سنة ١٣٢٦ هـ سنة ١٩٠٨ م[1] عنى بنشره سعادة الهمام المفضال الأفوكاتو الشهير محمد بك أبو شادى بمطبعة الظاهر أمام محكمة الاستئناف بمصر وقد أشار بأن توشى ذيوله وتطرز أطرافه بحواش قريبة سهلة توضح غامض لفظه وتبين مضامين إشاراته ، ذلك فوق عنايته بتحسين طبعه .

---

* السفور : العدد ٦٧، السنة الثانية — الجمعة ١٠ ذى القعدة ١٣٣٤، ٨ سبتمبر ١٩١٦ .

(١) خاتمة الطبع بتوقيع مصححه محمد حسين .

وقد رأيت أن أجمع فى هذه الجملة بعض ما استرعى نظرى من مواضع الخطأ فى التصحيح وفى الشرح إرشاداً لمن قد يرغب فى مطالعة الكتاب من الشبان وإن كانت نسخ الكتاب نفدت من المكاتب فلم يبق منها إلا ما يصادفه ذو الحظ ، وتفكهة للقراء وتنبيهاً للحاجة إلى العناية بالتصحيح والتثبت فيما نطبعه وننشره على الناس :

فى صحيفة ٦٧ هامش ٢ الامتعاض من المعض وهو العنف والشدة والمقارعة .

ولا يعرف ما بين أيدى الناس من كتب اللغة إلا أن معض من الأمر معضاً كامتعض منه غضب وشق عليه وأوجعه .

وفى صحيفة ١٧٥ عند الكلام على لسان حسان : « وقال — أى حسان — والله يا رسول الله ما يسرنى به مقول من معد والله إنى لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لقلقه » .

ثم جاء المهمش عند الكلمة الأخيرة وذكر ما نصه : « اللقلقة صوت طائر طويل يأكل الحيات وهو صوت فى حركة واضطراب ومنه حديث عمر : ما لم يكن نقع ولا لقلقة » .

ولعله لا يخفى على أحد أن كلمة حسان « أو على صخر لفلقه » .

وفى صحيفة ٤٩٠ عند الكلام على أكلة خيبر قال المصنف : « وأصلها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فلا تهدأ أو تقطع أبهرى » فكتب المصحح الأبهر جمع بهر بالضم تتابع النفس ومعروف أن الأبهر عرق مستبطن الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه .

وفى صحيفة ٥٤٧ ، ٥٤٨ عند الكلام على « ظل الموت » : قال أعرابى لابنه ، يا بنى كن يداً لأصحابك على من قاتلهم ولكن إياك والسيف فإنه ظل الموت واتق الرمح فإنه رشا المنية واحذر السهام فإنها رسل الهلاك قال : فبماذا أقاتل ؟ قال بما قال القائل :

جلاميد ترتاد الأكف كأنهـــا رؤوس رجال حلقت بالمواسم

كتب الشارح عند كلمة « رشا بكسر الراء وضمها جمع رشوة » .

وعند كلمة المواسم فى البيت ما نصه : « المواسم والمياسم جمع ميسم المكواة يعنى أن الشعر إذا حلق يكون منبته أملس من الكى وتشبه به جلاميد الحجارة ».

وفى الكلام على « باب الجنة » صحيفة ٥٥٨ ، ٥٥٩ : « خطب على رضى الله عنه فقال :

أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيم الخسف وريث الصغار .

وذكر الجملة الأخيرة فى الأصل على هذا التحريف ولم يعدم لها المصحح تفسيراً قال : « وريث أبطئ للمفعول بمعنى منع بالصغار .

وقد لا يكون كتاب ثمار القلوب من أكثر مطبوعاتنا تصحيفاً وقد لا يكون مصححه من شر إخوانه أصلح الله حالهم .

الحياء *

لقومنا ولع خاص بفضيلة الحياء حتى ليكاد يكون كل عملنا فى تربية أولادنا هو أن نجعلهم مستحين .

وإن قواعد التربية القديمة التى لا تزال تغالب عندنا الأنماط المستحدثة لتقوم على أخذ الطفل بالحياء من أبيه والحياء من أمه والحياء من الناس ، وكلما كثر حظ الولد من الحياء والتهيب كان أدنى إلى الكمال وإلى الحمد والرضى .

الولد المهذب هو الذى يستحى أن يخاطب أباه ويستحى أن يجلس فى مجلسه ويستحى أن يشاركه فى طعام .

---

* السفور : العدد ٦٨ ، السنة الثانية — الجمعة ١٧ ذى القعدة ١٣٣٤ ، ١٥ سبتمبر ١٩١٦ .

أما البنت فشأنها فى الحياء أشد من هذا وأكبر ولقد رأيت فى بعض الأسر المرأة الكهلة تستحى أن تزحزح اللثام عن وجهها فى حضرة أخيها وتستحى أن يراها أخوها جالسة بل شهدت خالة تحب كل الحب أبناء أختها ثم تستحى أن تتبسط إليهم فى حديث أو تدنو منهم فى مجلس .

ينشأ ناشئنا حيياً فى الدار ويذهب بالحياء إلى المدرسة ثم يخرج إلى معترك العيش حيياً فلا يزال يهاب الحياة حتى يأتيه الموت وهو أشد له تهيباً .

الحياء فضيلة من فروع الفضائل لا من أصولها وياليتنا نعنى بالشجاعة والصدق والعفة بعض ما نعنى بتلك الخلة التى ينبغى أن تؤخذ برفق لاتصالها بالجبن أبشع الرذائل المهلكة .

محمود ما يحفظ الحشمة من درجات الحياء ، أما ما يجاوز ذلك فداء نعيذ بالله منه قومنا وأنفسنا .

أيها المربون :

لا تضعفوا من قوة الشباب الناهض بعوامل التهيب والخجل علموا أولادنا كثيراً من الشجاعة وقليلا من الحياء .

التواضع *

فى النفوس الإنسانية منازع قوة ومنازع ضعف ، فإذا تم التوازن بين عوامل الضعف والقوة فى الإنسان كانت الفضيلة ، وإذا اختل هذا التوازن فجمحت الطبيعة أو لانت للخور وجدت الرذيلة .

الرذائل إما أن تكون سرفاً فى القوة أو سرفاً فى الضعف ، والأمم فى حال

* السفور : العدد ٦٩ ، السنة الثانية — الجمعة ١ ذى الحجة ١٣٣٤ ، ٢٩ سبتمبر ١٩١٦ .

نهوضها ورقيها تكون رذائلها من نوع السرف فى القوة وفى حال هبوطها تكون سرفاً فى الضعف .

والفضائل على قسمين أيضاً قسم يرجع فى طبيعته إلى الحركة والتأثير وقسم يرجع إلى السكون والانفعال .

وأكثر ما تولع الأمم فى إبان عزتها ونموها بفضائل النوع الأول تتغنى بها فى أشعارها وتتداولها فى أمثالها وأكثر ما تولع به الأمم فى أدوار انحلالها الصنف الثانى من الفضائل .

وفى الأمم القوية يتمدح الناس بالشجاعة والكرم والوفاء وبعد الهمة ، وفى الأمم الضعيفة يتمدحون بالحياء والتواضع والحلم والتأنى وكثرة الصمت والقناعة والصبر . وأشيع الرذائل فى الأمم القوية الكبر والتهور والغضب والطمع والغرور والتبجح وما ماثلها وتشيع فى الأمم الضعيفة رذائل الجبن والذل وضعف الهمة .

والناظر فى أخلاقنا يكاد يجد كل فضائلنا ورذائلنا من الأنواع السلبية التى تعتمد اللين والضعف .

ومن النافع لنا أن نعنى بتمحيص الفضائل المذاعة بيننا والمذكورة على ألسنتنا وردها إلى عناصرها حتى يبين ما فى الاقتصار على تلك الفضائل من أضرار بملكات القوة وما فى الإفراط من الولع بها من ذهاب إلى رذائل مؤذية أشد الأذى لأمة محتاجة إلى تحريك عوامل القوة فيها لا عوامل الضعف .

وقد ذكرنا الحياء فى مقالنا السابق وبينا شيئاً من آثاره واليوم نذكر التواضع .

كبر فى صدورنا حب التواضع حتى صرنا متواضعين باعتبارنا جيلا من الناس أعنى أن الفرد منا ليس متواضعاً فى نفسه فقط ولكنه متواضع فى أمته وإذا كان فى التواضع خير للأفراد فإنه خلو من الخير بالنسبة للأمم التى يحمد فيها نوع من الكبر هو عامل من عوامل الحب الجنسى أو الوطنى ودافع النهوض الاجتماعى .

التواضع عدل فى تقدير الإنسان قيمة نفسه بالنسبة إلى من هو أكمل منه فضلا وبالنسبة إلى من هو دونه فهو يعتمد حسن معرفة الإنسان لنفسه وصدق حكمه فى الموازنة بين مقادير الناس .

غير أنه من الصعب على المرء أن يعرف نفسه على الحقيقة وأن يخلص إلى العدل فى وزن قيم الناس . من أجل ذلك تجد التواضع فينا يذهب إلى ناحية الذلة وتجدنا نعد كثيراً من الأذلاء متواضعين .

الذلة شر كلها تقتل خير خصال المرء تقتل الشمم وكبر الهمة والطموح إلى المعالى وتقتل حب الحرية وحب الاحترام ، وأى فضل يبقى لإنسان قتلت فيه كل هذه الخلال .

التواضع أيضاً كالحياء ليس من أصول الفضائل ولكنه من فروعها ، وإن الذى يخشى من شر الإسراف فى التواضع لهو أكبر مما يرجى من خير التواضع على أحسن وجوهه .

قد يسعد الناس وينالون المجد من غير التواضع ولا يسعد الأذلاء ولا ينالون مجداً .

يا قومنا !

لا تسرفوا فى التواضع فإنا إلى غير التواضع أحوج .

عيد الأضحى *

هنالك فى بطحاء مكة بين الصفا والمروة وفوق عرفات وعند مرمى الجمرات ومنحر الهدى ، وفى حجر إسماعيل ولدى بئر زمزم وقبالة الحجر الأسود ، وفى أرجاء الحرم وحول الكعبة تظهر بهجة للعيد المنتظر . وفى تلك البقاع المقدسة المجدبة العاطلة من كل حلية إلا حرمتها الدينية وإلا تذكار مجدها القديم

* السفور : العدد ٧٠ ، السنة الثانية – الجمعة ٨ ذى الحجة ١٣٣٤ ، ٦ أكتوبر ١٩١٦

يحشر الناس حفاة شعثاً مجردين من المخيط تردد صيحاتهم بالتلبية والدعاء تلك الصحارى التى طالما رددت صهيل الخيل مغيرة وزئير الأسود .

هنالك يخلص الناس من كل شىء إلا إيمانهم فلا ترى إلا شعائر دينية ساذجة مملوءة خشوعاً يحرك فى الإنسان موطن ضعفه الدينى .

ولعل أوفر المواسم حظًّا من المظاهر الدينية هو ذلك العيد الذى نستقبله فلا جرم أن تظهر بهجته فى مهد الدين وعند المسجد الحرام الذى يولى المسلمون وجوههم شطره .

يبعث السرور إلى قلوب المتدينين منظر تلك المزارات والمشاهد فتختلط فى نفوسهم عواطف التقى بأريحية الرضاء إيماناً بما تعرضوا له من نفحات الرحمة واغتباطاً بمظهر العزة الدينية الذى يتجلى فى الجماعات ساعة استسلامها للشعور الدينى .

لولا هذا وأمثاله من بواعث الغبطة إلى أنفس الحجاج لحق على كل واقف بعرفات أن يبلل رداءه دمعاً إذ يقلب عينيه يمنة ويساراً .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وعسى أن تفتح أبواب السماء لدعوة الهاتفين فى ثنايا الجبال بين التلبية والذكر . نصر الله الإسلام !

دار العلوم*

لما ظهرت النهضة العلمية الحديثة فى مصر على يد محمد على لم يكن يومئذ فى البلد علم ولا تعليم فى غير الأزهر ونحوه من المدارس الدينية . وقد رأى هذا الوالى حاجة البلاد إلى ما وراء العلوم النظرية التى كانت تدرس فى المدارس

* السفور — العدد ٧١ ، السنة الثانية — الجمعة ١٥ ذى الحجة ١٣٣٤ ، ١٣ أكتوبر ١٩١٦ .

الدينية لذلك العهد وكان يريد أن يجد بين يديه شباناً متعلمين قادرين على معاونته فيما يطلب من الإصلاح فى أقرب الأزمان وإن لم ينسه ذلك التفكير فى تأسيس بناء علمى ثابت فى القطر ، لذلك جعل يختار من المتعلمين فى المعاهد الدينية من يستطيع تحصيل العلوم الحديثة والاستفادة من نتائج الرقى الفكرى فى بلاد الغرب فيوفدهم إلى أوربا أو يدخلهم فى المدارس العالية التى أنشئت فى مصر من قبل أن تنشأ المدارس الإعدادية .

أفلح أولئك الأزهريون فيما ندبوا له من الانتفاع برحلاتهم العلمية ودراستهم الجديدة ولم يمض إلا قليل حتى رأت مصر فى شبابها من يعرب ويؤلف ووجدت نهضة علمية لا نكاد نجدها كلها اليوم .

كان أولئك الفتيان من الأذكياء الذين تلقوا علوم الأزهر كلها أو أغلبها على تلك الطريقة الدراسية التى لا تخلو على علاتها من أثر كبير فى تكوين ملكة البحث والجدل وإيجاد استعداد قوى لتفهم بواطن العلم دون الاكتفاء بحفظ ظواهره .

لكن المتعلم الأزهرى الذى قضى عمره فى دراسة الجانب النظرى من علوم لا يعنى بالتمرين على العمل بقواعدها وفى مناقشات أكثرها دينى يتسع للعقل مجال البحث فى مقدماته دون نتائجه ، ذلك الطالب لا يخلص — بالرغم من تقلبه فى الأسفار ومعاشرته للجماعات المختلفة ودراسته للنظريات الحديثة على الأنماط الحديثة — من صلابة فى القديم لا تلين لكل ما يطلبه الإصلاح الجديد .

لا جرم بدت مواطن ضعف فى أولئك المتعلمين الأولين الذين لهم فى أعناقنا يد لا نزال نشكرها .

وقد وجدت بعد ذلك المدارس النظامية أوليها وعاليها ولكن متخرجى هذه المدارس لم يغنوا غناء إخوانهم الأولين فى تغذية نهضتنا العلمية الناشئة .

من أجل هذا فكر المفكرون فى إيجاد مدارس تجمع بين ما فى الطرق الأزهرية القديمة من دقة البحث وتقوية الملكات العلمية وما فى المدارس الحديثة

من تنوع المعلومات ومراعاة الانتفاع بها فى الحياة وأنشئت مدرسة دار العلوم لتحقيق هذه الأمنية التى كانت حاجة تجيش بها نفس الأمة واختير لتلك المدرسة أساتذة من خيرة العلماء الأزهريين وآخرين من خيرة المدرسين للعلوم الحديثة وكان تلاميذها ينتخبون من كبار الطلاب فى الأزهر. وبعد قليل من السنين أنشأت دار العلوم « أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين فى غير تلك المدرسة » . ذلك ما يقوله المرحوم الشيخ محمد عبده ولم تكن دار العلوم أتمت من عمرها خمسة عشر عاماً وظلت تلك المدرسة المباركة موضع العناية من القائمين بأمر التعليم وموضع الرجاء لنهضة الأمة الفكرية وكانت هى أساس الحياة الجديدة فى لغتنا وأساليبنا من غير نكران لفضل بعض المتعلمين فى البلاد الأوربية وغيرهم .

ظلت كذلك دار العلوم حتى أصاب الضعف حياتنا العلمية كلها فيما أصابنا من الاضطراب الاجتماعى ثم فترت العناية بالمدرسة فتوراً بيناً ولم تعد ناشئتها الحديثة على ما فيها من خير تساوى أبناءها الأقدمين .

وفى أثناء ذلك حاولوا إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية لتكون كلها دور علوم وأوجدوا مدرسة القضاء الشرعى لتخرج لنا قضاة شرعيين أعدوا إعداداً ممتازاً لتولى القضاء فى المحاكم الشرعية .

أما الأزهر وما يتبعه من المعاهد العلمية فقد يكون نال شيئاً من النظام أما الإصلاح العلمى فإن الأمة لم تشعر بأثره إلى اليوم .

وأما مدرسة القضاء الشرعى فقد أخرجت شبانا لامطعن فى نشأتهم النظامية ولا عيب فى دراستهم العلمية بالقياس إلى ما فى مدارسنا من أنواع العلوم وطرق التعليم . لكن مدرسة القضاء لم تصر إلى اليوم مدرسة اختصاصية تمتاز بدرس ما يتعلق بعلوم الشرع الإسلامى درساً شافيا — لم تصر كلية حقوق إسلامية يرجع إليها فى تمحيص المسائل الشرعية ويرجى منها الإصلاح

العلمى اللازم للفقه وكتبه ولم يتميز القضاة من أبنائها – وهم قضاة صالحون – عن أترابهم من أبناء الأزهر .

ثم إن الأزهر ومدرسة القضاء جميعاً لم يعوضا فى حياتنا العلمية ما خسرته بالضعف الطارئ على دار العلوم .

فترت عناية القائمين على أمر تعليمنا بمدرسة دار العلوم فتوراً يظهرأن ولاة الأمر أنفسهم شعروا به فقد أشاعوا فى العام الماضى إشاعات كثيرة عن إصلاحات منتظرة لتلك المدرسة الحميدة الأثر ولكننا رزئنا فى تلك الإشاعات أيضاً فلم نعد نسمع إلا أن ناظراً سيحال إلى المعاش ويرشح مكانه من لا يقيم لسانه عجمة أو استعجاماً .

وإنا لنتمنى الخير والنجاح لكل مكان فى هذا البلد يعلم فيه طرف من العلم ونعد كل مدرسة عندنا عاملا من عوامل الرقى الذى نرجو كل الرجاء أن تكثر عوامله .

بيد أن مدرسة دار العلوم هى أحق معهد علمى فى مصر بأن يهم المصريين شأنه ، ذلك بأنها كانت خير مدرسة حفظ لها تاريخنا العلمى تذكاراً حسناً ولنا فيها آمال عزيزة نرجو إلى ولاة الأمور أن يرعوها .

دار العلوم أيضاً *

قلنا فى العدد الماضى فيما كتبناه عن دار العلوم إن إنشاء هذه المدرسة كان لتحقيق أمنية من أمانى الأمة وهى الجمع بين ما فى الطرق الأزهرية القديمة من دقة البحث وتقوية الملكات العلمية وما فى المدارس الحديثة من تنوع المعلومات ومراعاة الانتفاع بها فى الحياة .

---

* السفور : العدد ٧٢ ، السنة الثانية – الجمعة ٢٢ ذى الحجة ١٣٣٤ ، ٢٠ أكتوبر ١٩١٦ .

ولقد نعلم أن مدرسة دار العلوم إذ أنشئت ووضعت مناهج التعليم فيها لم يتحر بها الذهاب إلى وجهة فى العلم معينة فقد كانوا يعلمون فيها كثيراً من العلوم الدينية وكثيراً من العلوم العربية ولم تكن العناية بالعلوم الرياضية والطبيعية فيها بأقل من العناية بتلك العلوم .

على أن دار العلوم لم تلبث أن تميزت فى العلوم العربية وأصبح لها فيها تفوق وأثر جديد . ظهر التجديد فيما وضع على أنماط حديثة من كتب النحو والصرف والبلاغة ، وما ألف بعد ذلك من كتب الأدب ، وظهر لها تجديد فى أساليبنا الإنشائية وقد كانت إلى ذلك العهد محاطة بالتكلف فى المفردات بمراعاة الجناس والطباق وأشباههما وفى التركيب بتعمل السجع وبقلة التنزه عن مبتذل الكلام وعن الخطأ الشائع فى استعمال الألفاظ وفى صيغها .

حارب المرحوم الأستاذ السيد جمال الدين الأفغانى هذه العيوب التى كانت فاشية بين كتابنا وشعرائنا وحاربها معه تلاميذه الذين اهتدوا بهديه لكن هذا السلف الصالح رضى الله عنه لم يخلص من كل تلك العيوب . وجاء الجيل الناشئ من دار العلوم يسير على قدم السيد الأفغانى وشيعته فى الإصلاح الأدبى خالصاً له من دون أنواع الإصلاح الاجتماعى الأخرى التى تعرض لها حزب الفيلسوف العظيم .

كان السيد جمال الدين مصلحاً اجتماعياً يريد إنهاض أمم الإسلام نهضة عامة تتناول جميع جوانبها . لكن أبناء دار العلوم نهضوا لحركة إصلاحية خاصة فى اللسان العربى وعلومه ، وكانت كفايتهم لما نهضوا له غير ضعيفة وهمتهم غير فاترة فنجحوا على مقدار كفايتهم وهمتهم . ثم أتى على دار العلوم حين من الدهر كانت تتكون فيه تكون كلية للآداب العربية على نحو ما يوجد من كليات الآداب فى أوربا . ولولا ما عرض من ضعف عناية الحكومة بها لكان لنا اليوم من دار العلوم كلية آداب عربية تضع قواعد فن الأدب العربى الذى لا يزال مرجعنا فيه إلى ما دونه الفرنجة .

قد يقولون إن فى الجامعة المصرية قسما لآداب اللغة العربية ، ولكن الجامعة المصرية معهد دراسى لا طعم له ، لا هى مدرسة عالية تلقى فيها العلوم العالية بتحقيق وتبسيط فتسد حاجة الأمة إلى تحقيق العلوم والسير بها فى طريق الرقى والنماء ، ولا هى مدرسة تعلم ما يحتاج إليه الجمهور من معلومات عامة .

بعد نحو ثمانى سنين لم تستقر الجامعة المصرية على قرار فى صبغتها العلمية ولم تأخذ شكلا معيناً فهى تبنى اليوم قسما من الأقسام العلمية ثم تهدمه غداً لتبنى على أنقاضه قسما جديداً . وما بنا أن نعيب الجامعة المصرية وهى على كل حال رجاء للأمة إن عبثت به الأقدار اليوم فلا نزال نتمنى أن يثبته الله ويرشده .

جرى فى العام الماضى على ألسنة الناس عند الكلام فى إصلاح الأزهر ذكر اقتراح مغزاه ضم دار العــلوم ومدرسة القضاء الشرعى إلى الأزهر ، وجعل الأولى قسما منه خاصاً بدرس اللغة العربية وعلومها وجعل الثانية قسما منه مخصصاً لتعليم الشرع الإسلامى وعلومه ، ثم يفرع من الأزهر بعد ذلك فروع تخصص لما بقى من أنواع العلوم الأزهرية . وهو اقتراح نافع لو أن تحقيقه ممكن ، وما نظن تحقيقه ممكنا . فإن مدرسة دار العلوم تابعة لوزارة المعارف ومدرسة القضاء تابعة لوزارة الحقانية والأزهر ليس تابعاً لوزارة من وزارات الحكومة ولن يرضى الحكومة أن تنزل عن بعض ما تتولاه من أمر التعليم لتضمه إلى إدارة مستقلة وقد لا يرضينا أن تخرج إدارة التعليم حرة من سعة الحرية إلى ضيق الولاية الحكومية . بيد أنه يسوغ لنا أن نعترف بوحدة الغرض الذى تسعى إليه الحكومة بتعليمها والذى تريده المعاهد التى لا صلة لها بالحكومة . ومصلحة الأمة « وهى ذلك الغرض » تقضى بتعميم وجوه الرقى العلمى فلنا أن نطلب إلى الحكومة العناية بجعل دار العلوم كلية للآداب العربية تتوفر فيها وسائل درسها درساً راقياً ، وجعل مدرسة القضاء الشرعى كلية قوانين إسلامية ذات عناية خاصة بالفقه الإسلامى أصوله وفروعه وتاريخه وما يتصل بذلك من

تشريعنا الحديث المقتبس على وجه ما من الشرع الإسلامى القديم ثم نرجو إلى الأزهر أن يعطى فضل عنايته إلى ما وراء هذا وذاك من علوم الدين وتاريخ المذاهب الدينية وفلسفة الدين فى العقائد والأخلاق .

ولا تقوم دون تحقيق هذا الرجاء عقبة فيما نعتقد فما هو إلا أن تريد الحكومة إصلاح مدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم على الوجه الذى يكمل النفع بهما ويرضى آمال نهضتنا العلمية فيهما وإلا أن يريد الأزهر أن يكون قوة تعمل يداً بيد مع سائر القوى العاملة فى هذه البلاد على تكوين رقينا العلمى المنشود .

العام الهجرى

بعد أن لبث محمد عليه السلام يدعو قومه إلى الإسلام فى مكة عشر سنين أو ثلاثة عشر عاماً خرج فراراً بدينه إلى يثرب تتقاذفه تلك الفيافى الموحشة ليس له من أنيس إلا صديقه أبا بكر صاحبه فى الغار وإلا الأمل الكبير الغالب فى نفسه كل ما لقى من أذى قومه ووقوفهم فى سبيل دعوته .

يقول المؤرخون : إن رسول الله خرج من مكة لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لا ثنتى عشرة ليلة خلت منه وقد اختلفوا فى تعيين يوم خروجه من مكة ويوم دخوله إلى المدينة ولكنهم متفقون على أن الهجرة كانت فى شهر ربيع الأول .

وروى إنه لما قدم المدينة أمر بالتأريخ فكانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من مقدمه .

وقد قيل : إن أول من أمر بالتأريخ فى الإسلام عمر بن الخطاب رحمه الله واختاروا المحرم بداية لسنتهم لأنه منصرف الناس من حجهم وهو شهر

حرام . قال الطبري فى تاريخه بعد أن ذكر الأقوال فى بداية التاريخ : « فإذا كان الأمر فى تاريخ المسلمين كالذي وصفت فإنه وإن كان من الهجرة فإن ابتداءهم إياه قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بشهرين وأيام هى اثنتا عشر يوماً وذلك أن أول السنة المحرم وكان قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بعد مضى ما ذكرت من السنة ولم يؤرخ التاريخ من وقت قدومه بل من أول تلك السنة » .

التاريخ الإسلامى الذى ينتسب إلى هجرة محمد عليه السلام من وطنه الأصلى ومغنى طفولته ومراح شبابه ومهبط الوحى إليه لأول عهد محمد بالوحى الإلهى يحفظ تذكاراً مجيداً من خير ما حفظ التاريخ من تذكار العظماء .

وجدير بالناس أن يتدبروا مواطن العبرة فى تسلل محمد فى جنح الليل من بين أعدائه المترقبين وضح النهار ليفتكوا به جمعاً فيقضوا عليه ويقضوا على دعوته . وما كان رسول الله إذ فر من أولئك الخصوم الظالمين بخائف أذى يصيبه فى نفسه فكم تحمل فى أنفسه أذى ولكنه خاف على أمله فى صلاح العالم خاف على دينه الذى كان يعتقده حقا ويريد أن يراه غالباً . وما نظن هذا العالم عرف إخلاصاً كإخلاص محمد فى نصرة دينه إذ يصابر قومه ثلاثة عشر عاماً وهو ضعيف القوة قليل النصير ضيق الرزق وهم يشتدون فى أذاه ويأخذون الآفاق على دعوته ليكظموا أنفاسها فى المهد وإذ يفارق داره العزيزة مقتحماً أخطار الغربة يلتمس لنجاح دعوته سبيلا .

ضحى محمد فى سبيل دعوته كل شىء يوم إذ خرج من مكة لا يملك شيئاً . وإذا كان تذكار هذه التضحية العظمى حقيقاً بالإعجاب والإعظام فإن تذكار العزيمة الصادقة والأمل الذى لا يصل إليه اليأس جدير بالإعجاب والإعظام أيضاً .

لم تهن عزيمة النبي ولم يضعف رجاؤه بعد أن جاهد ثلاثة عشر عاماً فى الدعوة إلى دينه سرًّا وجهراً جهاداً لم يصل به إلى هداية أقرب الناس إليه وأمسهم به رحماً .

وقد كان الذين اجتمعوا على باب النبي فى ليلة الهجرة يترقبون نومه ليثبوا عليه فيهلكوه — من قريش قبيلته .

وما يكون لنا أن تنسى عند الكلام على العام الهجرى ذكر خطبة رسول الله فى أول جمعة جمعها فى المدينة وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام ارتحل عن قباء عامداً المدينة فأدركته الصلاة صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف ببطن واد لهم . وكانت هذه أول جمعة فى بنى سالم بن عوف جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام فخطب فى هذه الجمعة وهى أول خطبة خطبها بالمدينة فيما قيل ويقول فى آخرها :

« خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ولا قوة إلا بالله .

واذكروا الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس .

ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم » .

دار العلوم أيضاً *

نبدأ القول ونعيده فى دار العلوم فإن لم يكن صياحنا بالدعوة إلى إصلاح هذا المعهد المنشأ منذ ثلاثة وأربعين عاماً بالغاً من بيده أمر التعليم الحكومى فإن فى ترديد هذه الصيحات تفريجاً لما نجد من الكرب كلما شعرنا بأن دار العلوم تذبل زهرتها وقد كانت أينع زهرة فى روضة مدارسنا .

* السفور : العدد ٧٤ ، السنة الثانية — الجمعة ٧ محرم ١٣٣٥ ، ٣ نوفمبر ١٩١٦ .

تضعف دار العلوم فى نظامها وفى تعليمها وتضعف العناية بأبنائها من طلاب وخريجين .

نعم إنه كثر عدد طلاب دار العلوم وكثر عدد الخريجين منهم فى كل عام ولكن وفرة العدد فى هؤلاء وهؤلاء لم تكن ثمرة من ثمرات الرقى . ويشاهد المطلع على إحصاء الطلبة والخريجين من عهد إنشاء المدرسة إلى اليوم أنه فى عنفوان شباب دار العلوم لم يبلغ عدد طلبتها فى سنة من السنين مائة وهم يبلغون الآن نحو ثلاثمائة وخمسين . ولم يكن عدد الخريجين يصل إلى عشرين إلا فى النادر الشاذ ويتخرج منها الآن خمسون أو أكثر فى كل عام .

قلنا إن دار العلوم تضعف فى نظامها وفى تعليمها وتضعف العناية بأبنائها من طلاب وخريجين .

أما الضعف فى نظامها وفى تعليمها فيدل عليه ما يرى من التسامح فى اختيار المعلمين فى تلك المدرسة العالية . كانت وزارة المعارف تختار لدار العلوم شيوخ العلم من الأساتذة الذين تقلبوا فى أدوار التعليم وظهرت لهم ميزة تكبر بها حرمتهم فى صدور الطلاب وتجعل الانتفاع بهم عظيماً ، كان معلمو دار العلوم من طراز الشيخ حسين المرصفى والشيخ حسن الطويل والشيخ حسونة النواوى ويعقوب بك صبرى ويقولون اليوم إن فى معلمى دار العلوم شباباً لم يتفوقوا فى علم ولم تحكمهم تجربة ولا أدركتهم رزانة السن ويقولون إن بعض الأساتذة لا يملأون أعين الطلاب ويحدث لذلك من خلل النظام ما لم تكن تعرفه هذه المدرسة الموقرة .

ولقد كان التعليم أمالى يعنى الأساتذة بطول النظر فيها وتمحيص أبحاثها والرجوع بها إلى مصادرها من أمهات الكتب . وكان ذلك يدفع الطلاب إلى كثرة المراجعة وسعة الاطلاع فأصبحنا نسمع بأن طرق الدرس فى دار العلوم أصبحت كطرق الدرس فى مدارس التعليم الابتدائى والثانوى ، وفترت همة الطلبة فى المطالعة والبحث وتبين الضعف فى ملكاتهم العلمية وفى ذوقهم الإنشائى .

أما ضعف العناية بأبناء دار العلوم فأول مظاهره التسامح فى امتحان دخول المدرسة فبعد أن كانت دار العلوم تصطفى أبناءها من خيرة طلاب الأزهر الذين أحاطوا بكثير من العلوم الدينية والعربية وتكونت لهم ملكات فى البحث والمناقشة وارتقوا عن درجة المتوسطين إلى درجة من يتلقون الدروس العالية أصبحت دار العلوم تختار تلاميذها ممن خانهم الحظ فى امتحان دخول القسم الأولى فى مدرسة القضاء الشرعى. ونحن نعلم مبلغ الضعف فى من يصيبهم حظ النجاح فى ذلك الامتحان بل أصبحت دار العلوم تقنع بأن يكون طلابها من خريجى مدارس معلمى الكتاتيب وكل ذلك نزل بدار العلوم عن مكانتها وجعل خريجيها يقاسون إلى حاملى شهادة الأهلية من مدرسة القضاء أو من الأزهر وكأنها لم تعد مدرسة من المدارس العالية ويقوى هذا أن حامل شهادة دار العلوم لا يمنح فى مناصب الحكومة مثل الراتب الذى يمنحه حامل شهادة مدرسة المعلمين السلطانية .

ومن فتور العناية بأبناء دار العلوم أن ما كان يعطى لهم من المكافأة وهم طلاب دون ما كان يعطى للمدارس الحكومية التى تعطى لتلاميذها مكافآت وأن ما يصرف لهم من الغذاء دون ما يصرف لإخوانهم فى جميع مدارس الحكومة كما يقولون . ومن آيات هذا الفتور أنهم يبخسون حظهم من البعثات العلمية التى توفدها وزارة المعارف إلى أوربا ويخشى أن يكون حظهم فى ذلك قد غمط كله .

هذا بيان لما صارت إليه مدرسة دار العلوم التى ذكرنا فيما مضى بعض ما وصل من نفعها إلى الأمة فى حياتنا العلمية الحديثة وبعض ما كنا نرجو من خيرها لرقينا العلمى المأمول ولسنا نيأس من صلاح ما اختل من أمر هذه المدرسة النافعة ، فإن لم يكن — لا قدر الله — إلى صلاحها من سبيل فقد حق على كل نصير للنهضة العلمية فى مصر أن يقول ياحسرتا على دار العلوم !

ديوان البارودى*

١

محمود سامى باشا البارودى ينتهى نسبه كما يقول شارح ديوانه إلى سلالة من سلالات الملوك . وقد بلغ من مناصب الحكم أن عين رئيساً للنظار .

مات محمود سامى باشا البارودى لست من شوال سنة ١٣٢٢ هـ فزال كل ذلك الحسب العريض والمجد الرفيع ولم يبق إلا تذكار الشاعر الكبير محمود سامى البارودى .

لا جرم أن مجد العلم والأدب أكبر من كل مجد وإن ذهبت أصوله إلى أزكى المنابت وسمت فروعه إلى أعلى المناصب .

لا يعرف الناس إلا قليلا بأى نسب يتصل رحم البارودى ، وما نظنهم يعرفون أنه كان كبير النظار فى يوم من الأيام، على أنه لا يجهل أديب فى مصر أن البارودى أعظم شاعر عرفه النيل منذ زمان .

ظهر لهذا العهد الجزء الأول والجزء الثانى من ديوان البارودى فى مجلدين كبيرين مضبوطين بالشكل ، فيهما شروح مطولة كثيرة للأستاذ الشيخ محمود الإمام المنصورى أحد علماء الأزهر الشريف .

وقد كنا منذ حداثة السن نسمع أهل العلم والأدب يتناشدون ما يقع إليهم من أبيات محمود سامى البارودى ويحرصون على حفظه وتقييده . كان شعر البارودى رفيع المكانة فى نفوس الأدباء عزيز الوجود بينهم يتلمسونه مختارات قليلة فى بعض المجاميع والكتب الأدبية ككتاب الوسيلة للمرصفى ، وإنه ليوم عيد للأدب العربى وأهله يوم ينشر فيه شعر البارودى كله مضبوطاً مشروحاً

---

* السفور : العدد ٧٦ ، السنة الثانية — الجمعة ٢١ محرم ١٣٣٥ ، ١٧ نوفبر ١٩١٦ .

مصححاً . ومن سعد هذا الجيل الناشئ أن يدرك هذه الأمنية التى تمناها من قبلهم فلم يدركوها. وقد كان يخشى على شعر البارودى أن تعبث به أيدى المحن التى أصابت الرجل فى وطنه وفى غربته .

لا نعرف شاعراً كامل الفطرة متين الذوق جزل الأسلوب بارع الصناعة مثل محمود سامى البارودى من يوم أن عقم الأدب العربى بأمثال الرضى ومهيار حتى نشأ فى هذا الجيل شوقى الذى إن لم يبلغ مبلغ البارودى الشاعر الكبير فى فخامة الأسلوب وقوة الملكة العربية فإنه الشاعر الفذ الذى توحى إليه القريض آلهة الشعر الحديث والجمال الحديث .

وديوان البارودى هو خير ثمرة أدبية قومية ظهرت فى عالم الأدب فخاراً لتاريخنا العلمى وغذاء صالحاً لنهضتنا الأدبية المحتاجة إلى الغذاء الصالح ، وما يكون لهذا الكتاب الجليل وهو بهذه المثابة أن ينشر على الناس من غير أن يحيي تحية تليق به ومن غير أن تهتز له جوانب العالم الأدبى اهتزازاً ينبه ناشئتنا التى نرجو كل الرجاء أن تنتفع به وتقدره حق قدره .

سنقول فى ديوان البارودى وفى شرحه قولا مبينا هو مدارسة نتحرى فيها الاستفادة لأنفسنا وإلى ما قد نوفق إليه من بعض الإفادة .

وعنى الأستاذ الشيخ محمود الإمام المنصورى بضبط ديوان المرحوم محمود سامى باشا البارودى وشرحه وتصحيحه، وجعل له مقدمة ذكر فيها نسب الشاعر الكبير وبين بإجمال نشأته وتربيته وفصل ما حازه من الرتب وما وليه من المناصب . وإن المطلع على شرح الأستاذ ليجده كبيراً جامعاً يدل على علم صاحبه وعلى ما بذله من الجهد فى المراجعة والبحث ، ويسرنا أن نجد فى علمائنا الأزهريين من يصرف همه إلى فنون الأدب عاكفاً على الدرس والتأليف بمثل عزيمة الأستاذ شارح ديوان البارودى .

وإن امرءاً يخلص النية والعمل فى خدمة الأدب صابراً على عناء البحث

واستجماع الفوائد لجدير بالشكر كلم وجدير أن لا يكتم عنه ما قد يكون من نقد ، فإن العالم المخلص يسره النقد كما يسره الثناء .

وإنا لنبادر بالثناء الجم على الأستاذ الشيخ محمود الإمام ونرجئ كلمتنا فى نقده إلى المقال الآتى .

ديوان البارودى *

٢

نقدم القول فى شرح ديوان البارودى لأن أول ما يلقى النظر فى الجزءين المطبوعين هو تلك الحواشى المستفيضة الزاخرة تلمع فى ثناياها لآلئ منثورة من شعر المرحوم محمود سامى باشا . ولا يستطيع القارئ أن يتصفح شعر البارودى مستعيناً على فهم ما غمض منه بشرح الأستاذ الشيخ محمود الإمام المنصورى لأن ذلك الشرح من الطول والتشتت بحيث يشوه على الأديب لذة التتبع لتلك الأبيات الجزلة الرائعة التى يساق قارئها إلى وصل آخرها بأولها .

نقول إن ما فى شرح ديوان البارودى من التطويل وتكثير المباحث يكاد يجعله كتاباً مستقلا طبع إلى هامشه ديوان البارودى ويكاد يأخذ النظر عن الديوان نفسه فلا بد للناقدين من المسارعة إلى ذلك الجزء الضخم من السفرين المطبوعين .

على أننا نحب أن نسبق إلى الأستاذ المنصورى بما يؤخذ به شرحه من النقد حتى يجد متسعاً لتلافى ذلك فيما يستقبله من شرح ما بقى من الديوان .

لسنا نعيب على شارح ديوان البارودى أن يطيل فإن دواوين الأدب موضع للتطويل بذكر من سبق إلى المعنى الشعرى وكيف تدوول هذا المعنى وتصرف فيه الشعراء فى مختلف العصور إلى ما تجر إليه المناسبات من طرائف الأدب التى تفيد الأديب من غير أن ترهقه عناء ولا أن تورثه سأماً، ولكن الذى نعيبه

---

* السفور : العدد ٧٨ ، السنة الثانية – الجمعة ٥ صفر ١٣٣٥ ، ١ ديسمبر ١٩١٦ .

هو أن ينسى الأستاذ الشيخ المنصورى أنه بصدد شرح أدبى لديوان شعر يستظهره الشباب أناشيد يتغنون بها مناغاة لأمانى الصبا ويهتف بها ذوو الهمم تنفيساً لغليل الصدور ويتناشدها الأدباء استملاحاً لبلاغتها، وما يكون لواحد من هؤلاء إذ يقرأ قول البارودى :

إذا تلفت لم أبصر سوى صور   فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

أن يرجع إلى تعريفات السيد وكليات أبى البقاء وشرح الإمام على الإشارات ليفهم معنى الذهن، وما يحتاج أحدهم حين ينشد قوله :

لله أيــام لنا معروفــة   سبقت وليس لسبقهن لحاق
حيث الصبا نهب وسلسال الهوى   عذب وآنية السرور دهــاق

أن يبحث عن معنى كلمة « معروفة » و « سبقت » و « عذب » ويبحث عن معنى السرور والفرح والحبور . ولو شئنا لذكرنا كثيراً مما جمع فيه الأستاذ الشيخ المنصورى أبحاث المتكلمين واصطلاحات الفلاسفة وأعاريب النحويين وأعاليل الصرفيين واختلافات اللغويين . وبحسبنا أن نحيل القارئ على شرح الكلمات القليلة التى جعلها البارودى مقدمة لديوانه ففيها شاهد لكل ما ذكرنا .

ومن الغريب أن الأستاذ الشارح — الذى يبسط يديه كل البسط فى شرح كلمات ليست من الغرابة بحيث تحتاج إلى كل هذا العناء — يضن بقليل من البيان على كثير من الألفاظ الغريبة والجمل الخفية . تجد الأستاذ عند قول الشاعر الكبير فى ص ١٠ ح ١ :

ترنو بأحور لو تمكن لحظــه   من صخرة لارفض منها المــاء

يفسر « ترنو » و « بأحور » ويترك تفسير كلمة « ارفض » ولو كان فى البيت ما يحتاج إلى تفسير لكانت هى .،

وفى ص ١٥ ح ١ ترك الأستاذ الشيخ المنصورى شرح القصيدة التى يصف بها البارودى أيام الخريف وفيها مثل قوله :

فلا اصطحار ولا اكتنـــان ولا ابتراد ولا اصطـــلاء

وفى ص ٤٤ ح ١ يفسر الشارح قول البارودى :

فإن تنزع فأنت طليق عفـــوى وإن تطمع فسوف ترى عقابى

ولا يفسر قوله :

نظرت إليه نظرة فتطامنت غواربه وانقاد بعد التجنب

إلخ . . . إلخ . . .

هذا وقد وقع كثير من التحريف فى ضبط الكلمات ، فى ص ٢٤٤ ح ١ :

وقمنا وكل بعدما كان لاهيـــا بأظلاله « كره الرجيل » منغص

وظاهر أن الصواب (كره الرحيل) .

وفى ص ٢٥٩ ح ١

ما باله ما ظل فى وعـــده ألم يحن للدين أن يقتضى

وهى « ماطَلَ » لا « ما ظلَّ » . وفى ص ٢٦٢ « وورعاء المسامع ما تمطت » إلخ . والصحيح وروعاء المسامع ، وفى ص ٤٠٩ ح ١ :

أين المعاقل بل أين الجحافل بل أين المناصل والخطية الشرّع

لا يستقيم الوزن على هذا الضبط : وقد قالت كتب اللغة رماح شارعة وشوارع وشرع ، والأقرب أن يكون البارودى يتساهل فى الضبط اللغوى لأنه من البعيد أن تخونه سليقته الشعرية فيخطئ الوزن، وقد يمكن أن يقال إنه يريد أن يصف الخطية بأنها شرع أى متساوية . أما الشارح فقد ضبط شرع بالتشديد وفسرها كما قالت كتب اللغة ولم يتعرض لما يترتب على ذلك من

اختلال الوزن . ومما يؤخذ على الأستاذ أنه ذكر فى قافية الحاء القصيدة التى يوازن بها البارودى ابن النبيه فى قوله :

ياساكنى السفح كم عين بكم سفحت نزحتم وهى بعد البعد ما نزحت

ومطلعها :

ماذا على قرة العينين لو صفحت وعاودت بوصال بعد ما صفحت

وكان من حق هذه القصيدة أن تذكر فى قافية التاء .

هذا مجمل ما ينتقد من شرح الأستاذ الشيخ محمود الإمام المنصورى على ديوان البارودى انرجو أن يوفق الله الأستاذ إلى إتمام ما شرع فيه على وجه يضاعف لنا الثناء ويحقق ما نرجو من إخلاصه واجتهاده .

ديوان البارودى*

٣

الجزء الأول

قرأت الجزء الأول من ديوان البارودى واخترت أظهره روعة وأمتنه أسلوباً وألطفه معنى ، ثم قرأته فلم أنقص مما كنت اخترته شيئاً ، بل جعلت أصادف أبياتاً جميلة فاتنى التنبه إلى اختيارها فى المرة الأولى حتى لكدت أختار ما ما بين دفتى ذلك السفر كله .

ولو أن شاعراً جود فى كل ما نظم لكان الشاعر المصرى الكبير . وإن شعر البارودى لجدير بقوله :

ولى من بديع الشعر ما لو تلوته على جبل لانهال فى الدو ريده

إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه وإن رق أزرى بالعقود فريده

* السفور : العدد ٨٠ ، السنة الثانية – الجمعة ١٩ صفر ١٣٣٥ ، ١٥ ديسمبر ١٩١٦

يقطع آنفاس الرياح إذا سرى ويسبق شأو النيرين قصيـــده
إذا ما تلاه منشد فى مقامـــة كفى القوم ترجيع الغناء نشيده
سيبقى به ذكرى على الدهر خالداً وذكر الفتى بعد الممات خاوده

وقد جعلت ما انتخبته من الجزء الأول من شعر البارودى أبواباً :

١ ــ باب الوصف
٢ ــ باب الغزل
٣ ــ باب الفخر
٤ ــ باب التحزن
٥ ــ باب الحكم
٦ ــ باب المدح والذم

وسآتى بها على هذا الترتيب

١ ــ باب الوصف

فى وصف الخمر

حمراء دار بها الحباب كأنها شفق بدت فيه نجوم سماء
وإذا رجعت إلى اليقين فإنها نار تحلل جسمها فى مـــاء

* * *

أتت حقب من دونها فتهدمت سوى ردع لون أو رفيف ذماء
إذا اتقدت فى الكأس خلت وميضها على وترات الكف نضح دماء

فى وصف شجيرات القطن

والقطن بين ملوز ومنـــور كالغادة ازدانت بأنواع الحلى
فكأن عاقده كرات زمـــرد وكأن زاهره كواكب فى الروا

دبت به روح الحياة فلو وهت عنه القيود من الجداول قد مشى
فأصوله الدكناء تسبح فى الثرى وفروعه الخضراء تلعب فى الهوا
لم يسر فيه الطرف مذهب فكرة محدودة إلا تراجع بالمنى

فى وصف مصر

فغدت وما فى الأرض أحسن بقعة منها لمزدرع ولا لكسوب
يستن فيها النيل بين حدائق غلب ورفاف النبات خصيب
وترى السفين يجول فوق سراته زف الرئال تمطرت بسهوب
من كل راقصة على نقر الصبا تختال بين شمائل وجنوب
ملكت أزمتها الرياح فسيرها ضربان بين تحفز ودبيب
فإذا أطلت عنانها وقفت وإن أقصرته سارت بغير لغوب

وفى وصف الخمر أيضاً

إذا اتقدت فى الكأس خلت مديرها تخضب منها كفه بخضاب
كأن سنا الكاسات والند ساطع نجوم تراءت من خلال ضباب

وفى وصف مغن

ومغن إذا شدا خلت أن الأ رض ظلت تدور بالفلوات
يبعث الصوت مرسلا فإذا ما غض منه استدار بين اللهاة

وفى وصف الليل

كأن أنجمه والجو معتكر غيد بأخبية ينظرن من فرج

ليل غياهبه حيرى وأنجمه   حسرى وساعته فى الطول كالحجج
كأنما الصبح خاف الليل حين رأى   ظلماءه ذات أسداد فلم يلج

وفى وصف جواد

بمضمر أرن كأن سراته   بعد الحميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمنى وعم ثلاثة   منه البياض إلى وظيف أجـــرد
فكأنمـــا انتزع الأصيل رداءه   سلباً وخاض من الضحى فى مورد
زجل يردد فى اللهاة صهيله   رفعا كزمزمة الحبى المرعـــد
متلفتاً عن جانبيه يهــزه   مرح الصبا كالشارب المتغرد
فإذا ثنيت له العنان وجدته   يمطو كسيد الردهة المتــورد
وإذا أطعت له العنان رأيته   يطوى المهامه فدفدا فى فدفد
يكفيك منه إذا استحس بنبأة   شد كعمعمة الأباء الموقـــد
صلب السنابك لا يمر بجلمد   فى الشد إلا رض فيه بجلمد
نعم العتاد إذا الشفاه تقلصت   يوم الكريهة فى العجاج الأربد

وفى وصف روضة المقياس

إذا صافحتها الريح رهوا تجعدت   حبائكها مثل المقدرة السرد
وإن ضاحكتها الشمس رقت كأنها   مناصل سلت للضراب من الغمد

وفى وصف النيل

حبذا النيل حين يجرى فيبدى   رونق السيف واهتزاز الفرند
تتثنى الغصون فى حافتيـــه   كالعذارى يسحبن وشى الفرند

وفى وصف مروج ووصف ديك

وقد ماجت الأغصان بين يد الصبا   كما رفرفت طير بأجنحة خضر
كأن الندى فوق الشقيق مدامع   تجول بخد أو جمان على تبر
إذا غازلتهـــا لمعة ذهبية   من الشمس رفت كالشرار على الجمر
ففى كل مرعى لحظة وشى ديمة   وفى كل مرمى خطوة أجرع مثرى
مروج جلاها الزهر حتى كأنها   سماء تروق العين بالأنجم الزهر
كأن صحاف النور والطل جامد   مباسم أصداف تبسمن عن در
وقد شاقنى والصبح فى خدر أمه   حنين حمامات تجاوبن فى وكر
هتفن فأطربن القلوب كأنما   تعلمن ألحان الصبابة من شعرى
وقام على الجدارن أعرف لم يزل   يبدد أحلام النيام ولا يـــدرى
تخايل فى موشية عبقريـــة   مهدلة الأردان سابغة الأزر
له كبرة تبـــدو عليه كأنه   مليك عليه التاج ينظر عن شزر

ومن قصيدة فى وصف الهرمين

وبينهما « بلهيب » فى زى رابض   أكب على الكفين منه إلى الصدر
يقلب نحو الشرق نظرة وامق   كأن له شوقاً إلى مطلع الفجر

وفى وصف أيام الربيع

رف الندى وتنفس النـــوار   وتكلمت بلغاتها الأطيـــار
وتأرجت سرر البطاح كأنما   فى بطن كل قرارة عطار
زهر يرف على الغصون وطائر   غرد الهدير وجدول زخـــار

ونواسم أنفاسهن طويلــة　　وهواجر أعمــارهن قصــار
والباسقات الحامــلات كأنها　　عمد مشعبة الذرى ومنار
عقدت ذلاذل سوقها فى جيدها　　وسمت فليس تنالها الأبصار
فأصولها للسابحات ملاعب　　وفروعهــا للنيرات مطــار
يبدو بها زهو تخال إهانــه　　فتلا تمشت فى ذراها النار
طوراً تميل مع الرياح وتارة　　ترتد فهى تحرك وقــرار
فكأنما لعبت بها سنة الكرى　　فتمايلت أو بينها أسرار
فإذا رأيت رأيت أحسن جنة　　خضراء تجرى بينها الأنهــار

وفى وصف الخمر

إن المدام أساس كل طريفة　　فاجعل بناء اللهو فوق أساس
لا تجمع الأيام ــ كيف تصرفت ــ　　فى القلب بين الخمر والوسواس

وفى وصفها أيضاً

هى جوهر كالنفس ما برحت　　تهدى السرور لكل ذى نفس

وفى وصف غيضة

ومرتبع لذنا به غب سحرة　　وللصبح أنفاس تزيد وتنقص
وقد مال للغرب الهلال كأنه　　بمنقاره عن حبة النجم يفحص
إذا لاعبت أفنانه الريح خلتها　　سلاسل تلوى أو غدائر تعقص
كأن صحاف الزهر والطل ذائب　　عيون يسيل الدمع منها وتشخص
يكاد نسيم الفجر إن مر سحرة　　بساحته الشجراء لا يتخلص
كأن شعاع الشمس والريح رهوة　　إذا رد فيه سارق يتربص

ومن قصيدة يصف بها يوماً قائظاً وليلة مطيرة

كأنما الوحش من تلهاب جمرته مبدداً تحت أشجار الفضا خيط
كأنما البرق سوط والحيا نجب يلوح فى جسمها من مسه خبط
كأنه صارم يرفض من علق بالأفق يغمد أحياناً ويخترط
ومربع لنسيم الفجر هينمة فيه وللطير فى أرجائه لغط
كأنما القطر در فى جوانبه يكاد من صدف الأزهار يلتقط
وللنسيم خلال النبت غلغلة كما تغلغل وسط اللمة المشط

وفى وصف النجوم

أرعى الكواكب فى السماء كأن لى عند النجوم رهينة لم تدفع
زهر تألق فى الفضاء كأنها حبب تردد فى غدير مترع
وكأنها حول المجر حمائم بيض عكفن على جوانب مشرع
وترى الثريا فى السماء كأنها حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة فى جوف أدحى بأرض بلقع
وكأنها أكر توقد نورها بالكهرباءة فى سماوة مصنع
والليل مرهوب الحمية قائم فى مسحه كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل من نسل حام باللجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهن من الهلال بأصبع

هذا وإن الوصف من خير ما أبدع فيه البارودى وإن جرى على النمط العربى القديم فى اختيار ما يصفه وفى طريقة الوصف نفسها . وقد عرض له ذكر الكهرباء فى وصف النجوم فى بعض الأبيات المذكورة آنفاً وكرر

التشبيه بزجاجة التصوير فى غير موضع فقال فى وصف قصيدة من قصائده يمدح بها الخديوى إسماعيل :

فاستجلها تلمح خلالك بينها   فى وشى برد للكلام قشيب
كزجاجة التصوير شفت فاجتلت   من وصفه ما كان غير قريب

وقال :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها   علياك من منطقى فى لوح تصوير

ووقع له ذكر الطيارة مرة فقال :

لولا التنفس لاعتلت بى زفرة   فيخالنى طيارة من يبصر

ورحم الله شاعرنا فقد كان القديم يواتيه بأحسن مما يواتيه الجديد .
يقول من قصيدة :

فاهد منّى له تحية صـــدق   وتلطف بحالتى يا أفندى

ويقول فى القصيدة عينها :

لو سوى الدهر رام غبنى لأصحر   ت مشيحا بالنصل فوق سمند

وكم من فرق بين « يخالنى طيارة » و « تلطف بحالتى يا أفندى » وبين قوله : « مشيحاً بالنصل فوق سمند » !

ديوان البارودى

٤

الجزء الأول[1]

باب الغزل

ياهاجرى من غير ذنب فى الهوى   مهلا فهجرك والمنون سـواء
أغربت لحظك بالفؤاد فشفه   ومن العيـون على النفوس بلاء
هى نظرة فامنن على بأختهـا   فالخمر من ألم الخمار شفـاء
أنا منك مطوى الفؤاد على جوى   لولا الدموع ذكت به الحوباء
لا أنت ترحمنى ولا نار الهوى   تخبو ولا للنفس عنك عزاء

. . . .

فدع التكهن يا طبيب فإنما   دائى الهوى ولـكل نفس داء
ألم الصبابة لذة تحيـا بها   نفسى ودائى لو علمت دواء

. . . .

ترنو بأحـور لو تمكن لحظه   من صخرة لارفض منها المـاء

* * *

---

(١) ذكرنا فى المقال الماضى أنه عرض للبارودى ذكر الكهرباء وزجاجة التصوير ووقع له مرة ذكر الطيارة، وفى الجزء الأول من ديوان المرحوم محمود باشا سامى ذكر التصوير والكهرباء فى غير ما ذكرناه قال :

ناديت لمـا لاح تحت قنـاعه   هذا المقنع فاحذروا أن تسحروا
طبعتـه فى لوح الفؤاد مخيلتى   بزجاجة العينين فهو مصـور
وسـرت بجسمى كهرباءة حسنه   فمن العروق به سـلوك تخبر

وقال :

تجرى مع الشمس فى تيار كهربة   على إطار من الأضـواء مسعور

حسبت الهوى سهلا ولم أدر أنه	أخو غدرات يتبع الهزل جده
تخف له الأحلام وهى رزينة	ويعنو له من كل صعب أشده
. . . .	. . . .
وما الحب إلا حاكم غير عادل	إذا رام أمراً لم يجد من يصده
. . . .	. . . .
بلوت الهوى حتى اعترفت بكل ما	جهلت فلا يغررك فالصاب شهده
ظلوم له فى كل حى جريرة	يضج لها غور الفضاء ونجده
إذا احتل قلباً مطمئناً تحركت	وساوسه فى الصدر واختل وكده

* * *

ظن الظنون فبات غير موسد	حيران يكلأ مستنير الفرقد
تلوى به الذكرات حتى إنه	ليظل ملقى بين أيدى العوَّد
طوراً يهم بأن يزل بنفسه	سرفاً وتارات يميل على اليد
فكأنما افترست بطائر حلمه	مشمولة أو ساغ سم الأسود
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم	خوف التفرق أن أعيش إلى غد
هى مهجة ذهب الهوى بشغافها	معمودة إن لم تمت فكأن قد

* * *

«معان» هوى تجرى بدمعى وهاده	وتشرق من نيران قلبى نجوده
تضن بإهداء السلام ظباؤه	وتكرم مثوى الطارقين أسوده
تساهم فيه البأس والحسن فاستوت	ضراغمه عند اللقاء وغيده
تلاقت به أسيافه ولحاظه	ومالت به أرماحه وقدوده
فكم من صريع لا تداوى جراحه	وكم من أسير لا تحل قيوده
وفى الحى ظبى إن ترنمت باسمه	تنمر واشيه وهاج حسوده
تهيم به أستاره وخدوره	وتعشقه أقراطه وعقوده

تأنق فيه الحسن فامتد فرعه إلى قدميه واستدارت نهوده
فللمسك رياه وللبان قده وللورد خداه وللظبي جيده
فإياك أن تغتر يا صاح بالهوى فإن الردى خلف الهوى وعقيده
وما أنا ممن يرهب الموت إن سطا إذا لم تكن نجل العيون شهوده
أفل أنابيب القنا ويفلني قوام تندت بالعبير بروده
فإن أنا سالمت الهوى فلطالما شهدت الوغى والطعن يذكو وقوده

* * *

حنانيك إن الرأى حار دليله فضل وعاد الهزل فيك إلى الجد
فلا تسألى منى الزيادة فى الهوى رويداً فهذا الوجد آخر ماعندى
وها أنا منقاد كما حكم الهوى لأمرك فاخشى حرمة الله والمجد

* * *

إذا خطرت من نحو «حلوان» نسمة نزت بين قلبي شعلة تتوقد
وهيهات ما بعد الشبيبة موسم يطيب ولا بعد الجزيرة معهد

* * *

لكل شىء وإن تمادى حد وما للغرام حد
فليس قبل الغرام قبل وليس بعد الغرام بعد

* * *

فتاة كأن الله صور لحظها ليهتك أسرار القلوب به عمدا
لها عبثات عند كل تحية تسوق إليها عن فرائسها الأسدا

* * *

آه من لوعة أطارت بقلبي شعلة شفت الجوانح وقدا
كلما قلت قلم تناهى غرامى عاد منه ما كان أصمى وأردى

* * *

ترى كل ميلاء الخمار من الصبا هضيمة مجرى البند ناهدة الصدر
إذا انفلتت فى حاجة خلت جؤذراً أحس بصياد فأتلع من ذعر

لوى قدها سكر الخلاعة والصبا ... فمالت بشطر واستقامت على شطر
وعلمها وحى الدلال كهانــــة ... فإن نطقت جاءت بشيء من السحر

. . . .

فتاة يجول السحر فى لحظاتها ... مجال المنايا فى المهندة البـــتر
إذا نظرت أو أقبلت أو تهللت ... فويل مهاة الرمل والغصن والبدر

* * *

صريع هوى يلوى به الشوق كلما ... تلألأ برق أو سرت ديم غـــز ر
إذا مال ميزان النهـــار رأيتنى ... على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناس إنه السحـــر ضلة ... وما هى إلا نظرة دونها السحـــر

. . . .

على أننى كاتمت صدرى حرقة ... من الوجد لا يقوى على حملها صدر
حياء وكبراً أن يقال ترجحت ... به صبوة أو فل من غربه الهجر

من البيض ميسان العشيات غادة ... سليمة ما تحوى المعاقد والأزر

. . . .

خفضت لها منى جناحى مودة ... ودنت لعينيها كما حكم الدهـــر

* * *

ولما استقل الحى فى رونق الضحى ... وقطع أنفاس المقـــيم المسافر
تحول راعى الصبر عن مستقره ... وباحت بأسرار القلوب النواظر

* * *

وكيف أسوم القلب صبراً على الهوى ... ولم يبق لى فى الحب قلب ولا صبر
ليهن الهوى أنى خضعت لحكمه ... وإن كان لى فى غيره النهى والأمر

* * *

مـــن لقلـــبى بشـــادن ... لم يمتـــع بحظـــه

كل شيء سير عوى غير قلبي ولحظه

* * *

أترى الحمام ينوح من طرب معى ونَدي الغمامة يستهل لمدمعى
ما للنسيم بليلة أذياله أتراه مر على جداول أدمعى
بل ما لهذا البرق ملتهب الحشا أسمت إليه شرارة من أضلعى
لم أدر هل شعر الزمان بلوعتى فرثى لها أم هاجت الدنيا معى
فالغيث يهمى رقة لصبابتى والطير يبكى رحمة لتوجعى
خطرات شوق ألهبت بجوانحى ناراً يدب أزيزها فى مسمعى
وجوى كأطراف الأسنة لم يدع للصبر بين مقيلـه من مفزع

قد طالما يا قلب قلت لك احترس أرأيت كيف يخيب من لم يسمع
إن كان لا يرضيك إلا شقوتى فلقد بلغت مناك منها فاقنع

* * *

هل من فتى ينشد قلبي معى بين حذور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهـوى فـر بالحى ولم يرجـع
فهـل إذا ناديتـه باسمـه يفيق من سـكرته أو يعى
هيهات يلقى رشداً بعـد ما أغواه لحظ الرشـأ الأتلـع
فيـا دموع القطر سيلى دماً ويا بنات الأيك نوحى معى
وأنت يا نسمـة وادى الغضا مـرى برياك على مـربعى
وأنت يا عصفـورة المنحـنى بالله غنى طرباً واسـجعى
وأنت يا عـين إذا لم تـفى بذمة الدمع فـلا تهجـعى
صـبابة أغرت على الأسى ودلت السهـد على مضجعى
ويلاه من نار الهوى إنهـا لولا دموعى أحرقت أضلعى
أبيت أرعى النـجم فى سدفة ضـل بها الصبح فلم يطلع

لا أهتدى فيها إلى حيلة تقى حياتى من يدى مصرعى
طوراً أدارى لوعتى بالمنى وتارة يغلبنى مدمعى
فهل إلى الأشواق من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب على ما مضى لابد للمحنة من مقطع

* * *

وما الحب إلا نفثة بابلية يكاد الصفا من مسها يتصدع

* * *

لوى جيده وانصرف فما ضره لو عطف
غزال له نظرة أعانت على الكلف
تبسم عن لؤلؤ له من عقيق صدف
وتاه فلم يلتفت وشأن الجمال الصلف
جرى البند فى خصره على حركات الهيف
وما ذاك خال بدا ولكن وسام الترف
رآنى به مولعاً فعاتبنى وانحرف
ولم يدر أنى به على جمرات التلف
فقلت له : سيدى ترفق بصب دنف
فقال : أخاف العدى فقلت له : لا تخف
فإنى عفيف الهوى وما كل صبٍّ يعف
وأنشدته قطعة وشعرى إحدى الطرف
فأصغى لها باسماً وبان عليه الأسف
ونمَّت به خجلة تدل على ما اقترف
وقال : أهذا الضنى جناه عليك الشغف
فقلت : نعم سيدى وأبرح مما أصف
فصدق لكنه تجاهل لما عرف

وقال : أطعت المنى وبعض الأماني سرف
وما كل ذي حاجة يفوز بها إن عكف
فأشفقت من قوله ولكن ربي لطف
فلما رأى أدمعي توالت وقلبي رجف
تبسم لي ضاحكاً ومانع ثم انعطف
فأغرمته قبلة عفا الله عما سلف

* * *

ذلك ما اخترناه من نسيب الجزء الأول من ديوان البارودي . وقد يلحظ القارئ معي أن أكثر ما في غزل البارودي من الروعة والجمال آت من ناحية المهارة في الصناعة . وإن الذي يعجبنا من تلك المختارات لهو جمال في الأسلوب وفي الخيال . أما ما يذكره أبو الفرج قدامة بن جعفر عند الكلام على النسيب إذ يقول :

« إن المحسن من الشعراء فيه هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله » فلست ترى مصداقه في شعر البارودي إلا قليلا .

فطرة الشاعر المصري الكبير في الشعر فطرة حماسة تناسب جندياً أبوه جندي ، وقد أحاط البارودي بكثير من أساليب اللغة واطلع على كثير من شعر العرب حتى أصبح ذا ذوق عربي خالص وصار شاعراً ماهراً يجيد الصنعة في كل ما يخوض فيه من فنون الشعر . ولكن أكثر شعره حياة وأشده اتصالا بروحه هو ما كان حماسياً .

على أن مصائب الدهر التي أصابت الرجل وهو في عنفوان عزه ومقتبل آماله فأبعدته عن بلاده التي يحبها ورزأته في أمانيه وفي جاهه وماله وكل عزيز عليه ردت تلك الحماسة في فطرته رقة حزن . هنالك عاد ما كنت تسمعه في نغم البارودي من صليل السيوف ودوى المدافع وصيحات الأبطال نشيجاً يردده

ذلك الصوت المتهدج من ضعف الكبر ونزوات الألم .

وخير شعر البارودى من الجهة الشعرية هو ما كان صدى لذلك النشيج الذى يهتف حسرة على الشباب وحنيناً إلى مصر أو رثاء لفقيد عزيز .

وقد وجدنا فى بعض نسيب البارودى نفحة من تلك الرقة .

لم يكن البارودى فيما يظهر عاشقاً ، ولم يكن ينظر إلى الجمال النسائى إلا من خلال الصوارم والرماح حتى لتراه عندما يذكر ملاعب الغيد يمثل لك ميدان قتال :

تلاقت به أسيافه ولحاظه ومالت به أرماحه وقدوده

ولا يعيب الشاعر الكبير ألا يكون استهدف لينال الغرام فقد استهدف قلبه الكبير لينال من أحداث الدهر صروفاً شتى كان بعضها يستحق من الإعظام والإجلال ما يستحقه من الحب .

دار العلوم*

كنا نشكو من قلة العناية بدار العلوم ونطالب أولى الأمر فينا برعاية هذا المعهد الكبير المحمود الأثر فى حركتنا الأدبية المرجو لآمالنا فى الرقى العلمى . ولكننا اليوم نرجو أن يدفع عن دار العلوم ما يهددها من الحيف الذى يتظلم منه أبناؤها ويتظلم معهم كل محب للعدل وكل غيور على معاهد العلم فى هذا البلد مخافة أن يقتل قويها ضعيفها بمزاحمات لا تقوم على حق ولا تسير فى طريق خير للأمة . وأى خير للأمة فى أن تعتدى مدرسة قوية بوفرة مالها وسلطانها وجاهها وروعة شبابها على مدرسة ضعيفة بقلة مالها وقلة جاهها وقدم عهدها فتأكلها أكلا وتحرم الأمة من ثمراتها أو تجعلها فجة خلواً من الغذاء النافع .

تريد مدرسة القضاء الشرعى أن تلحق من لا حاجة لها بهم من طلاب السنة الثانية فى قسمها الأولى بالسنة الأولى من دار العلوم من غير امتحان ولا كشف طبى وتقول لمن لم يأنس فى نفسه الكفاية لدراسة قسمها العالى من طلاب السنة الرابعة والسنة الخامسة: ادخل السنة الثالثة من دار العلوم بلا امتحان ولا كشف طبى .

هذا والناجحون فى امتحان الدخول إلى دار العلوم فى هذا العام من الأزهريين هم ستون طالباً أدوا امتحاناً تحريريا فى اثنى عشر علماً هى : التوحيد قسم العبادات من الفقه ، النحو كله ، الصرف كله ، المعانى ، البيان ، الإنشاء ، الإملاء ، الخط بأنواعه الثلاثة ، الحساب إلى الكسور الأعشارية ، الجغرافيا . ثم هم يؤدون امتحاناً شفهياً فى حفظ القرآن الكريم

---

* السفور : العدد ٨١ ، السنة الثانية – الجمعة ٢٦ صفر ١٣٣٥ ، ٢٢ ديسمبر ١٩١٦ .

بأجمعه ، وفى حفظ متن الألفية وفهمه ، وفى المطالعة فى كتاب راق كالأمالى لأبى على القالى .

أما طلبة السنة الثالثة فى دار العلوم فلا ينقلون إليها حتى يؤدوا الامتحان فى علوم كثيرة لاتدرس فى القسم الأولى من مدرسة القضاء الشرعى : كتاريخ أدب اللغة العربية والطبيعة والجبر واللغة الإنجليزية .

قال محدثونا من أبناء دار العلوم إنه يوجد طلاب أتموا دروس القسم العالى فى مدرسة القضاء الشرعى وحملوا منه شهادة الأهلية ثم سقطوا فى امتحان الدخول فى دار العلوم وأولئك هم الذين يراد أن يحشروا فى السنة الثالثة من دار العلوم حشراً من غير أن يحاسبوا على علم درسوه ولا أن يعرف مقدار ما أضعفت الدراسة من أبصارهم وأبدانهم وقد يكون فيهم من لا تقبله مدرسة القضاء فى قسمها العالى لضعف بنيته أو ضعف نظره .

يخاف تلاميذ دار العلوم أن تصبح مدرستهم مأوى لمن تنفيه مدرسة القضاء الشرعى من طلابها فتسوء بذلك سمعة مدرستهم الطيبة ويضعف فيها المستوى العلمى بضعف الطلاب وسلب حرية المدرسة فى اختيارهم تلك الحرية الطبيعية لكل مدرسة تريد أن تحيا وترقى . يخافون أن تحور دار العلوم ذيلا لمدرسة القضاء فتفقد مكانتها التى كسبتها بماضيها والتى يريدون أن يحفظوها لها فى مستقبلها من غير تعد على مدرسة القضاء فى حق من حقوقها .

يطلب تلاميذ دار العلوم أن يكون المرجع فى اختيار من ينضم إليهم إلى الامتحان الذى يميز الطيب من غيره ، ولقد عرفنا فى لهجتهم المملوءة بحماسة الشباب ورقة الشكوى — فرط ألمهم إذ يقاسون إلى طلاب القسم الأولى من مدرسة القضاء وهم يعتقدون أنهم ليسوا أقل كفاية من طلاب القسم العالى ، ويقولون : إننا نرضى أن يكون الامتحان حكماً بيننا .

وما نرى شكاة أحق بالنصفة من تلك الشكوى التى يرددها طلاب مدرسة دار العلوم وفى نفوسهم مرارة الشعور بأنهم مظلومون مهددون فى رجائهم لمستقبلهم

العلمى ولمستقبل مدرستهم يستصرخون الرأى العام ليرفع صوته بشكواهم مخافة ألا تصل بها أصواتهم الضعيفة إلى ولاة الشأن .

وإنا ليؤلمنا كل الألم أن نرى ذلك الشباب شاكياً ونخاف كل الخوف أن ينكسر قلبه إذا لم ينصف .

وما نظن أحداً فى هذا البلد إلا رافعاً معنا رجاءه إلى أولى الأمر أن ينصفوا دار العلوم ولا يكسروا قلوب شبابها .

كلمة صغيرة*

حول ديوان البارودى

ساق إلينا الأستاذ الجليل « م » البشرى على صفحات السفور بظهور الجزءين الأول والثانى من ديوان البارودى ويالها من بشرى عظمى تلقاها القلب بما يليق بها من السرور والانشراح ، لأنها أمنيته التى كان ينشدها من زمن بعيد !

أرسلت فى طلب هذين الجزءين وما كادت يدى تقع عليهما حتى كان أول همى أن أرى ترجمة شاعرنا الكبير لأقف على تحليل شاعريته وما تأثر به من العوامل الاجتماعية والسياسية التى كانت تحيط به مما كان له اتصال بنبوغه أو ارتباط بعبقريته .

فرغت من التزجمة التى وضعها الشيخ المنصورى للبارودى فإذا هى لاتباين ما كان قد جاء فى كتاب صغير نشر منذ سنوات باسم شعراء العصر اللهم إلا ما كان من نشر صورة العفو عن الشاعر بعد أن كان فى منفاه وليته كان أغفلها أو أتى بها ملخصة لما فيها من بعض الألفاظ التى قد تؤلم

* السفور : العدد ٨٢ ، السنة الثانية — يوم الجمعة ٤ ربيع أول ١٣٣٥ ، ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ .

نفس شاعرنا الكبير فى قبره .

انتقلت من الترجمة إلى تلاوة شعر البارودى وكنت لمزيد شغفى به لا أحفل بما علق عليه من الشروح التى ناءت بها أبيات الشاعر لما فيها من الخلط الذى كاد أن يصرف الناس عن هذا الديوان الذى نفتخر به .

رحم الله البارودى فقد كان فى حياته مكتنفاً بالنكبات ولم تخطئه بعد موته بل لحقته فى ديوانه من الحشو الذي جعله الشيخ المنصورى شرحاً له .

وأنا لا أحاول أن آتى على ما فى ضبط الأبيات من عيوب وما فى الشرح من كثرة الحشو بما لا يفيد فإن هذا أمر ندعه للأدباء . ولقد أتى الأستاذ الجليل (م) على بعض ملاحظات على هذا الشرح وعلى طائفة من الأغلاط التى جاءت فى ضبط الأبيات بعد أن وعد الناس بنقد هذا الشرح ، بيد أنه وقف عند هذا الحد من النقد الذى كان ينتظر الأدباء من ورائه خيراً كثيراً ، ولم ندر لذلك من سبب . ولعله رأى أن فائدة الناس مما يختاره من شعر البارودى تكون أجدى عليهم من النفع الذى كان يعود عليهم من النقد .

إنما الذى حدا بنا إلى كتابة هذه الأسطر هو أننا لما بلغنا فى قراءتنا للجزء الأول من ديوان البارودى إلى الصحيفة نمرة ٣٧٩ وقف نظرنا فيها على هذا البيت :

حَسْبُ النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهن من الهلال بأصبع

رأيته مضبوطاً بهذا الضبط فلم أفهم له معنى وتوهمت لأول وهلة أن الطابع أخطأ فى ضبطه وأن صحة البيت « حَسِبَ النجوم » بمعنى ظن النجوم غير أنى رميت ببصرى إلى شرح البيت فوجدت أن الشارح يقول عنه : « حسبك أى كفاك ذلك . . . » فحينئذ عدت إلى قريحتى باللائمة إذ ربما أن تكون قد قعدت بى عن فهم هذا البيت وخصوصاً بعد أن رأيت أن الأستاذ « م » قد تخطاه فى نقده وذلك لثقتى بواسع علمه وكبير أدبه فرجعت بهذا البيت إلى

نابغة من نوابغ الأدب العربى لأخذ رأيه فيه فكان جوابه أن الشارح أخطأ فى ضبطه وأنه لا يخرج عما فهمته منه .

عند ذلك رأيت من الواجب نشر هذه الكلمة على صفحات السفور حتى يأخذ هذا البيت حظه من التحقيق .

محمود أبو رية

* * *

(السفور) — وددنا لو أن الأديب كاتب المقال كان أدنى إلى الرفق فى ملاحظته على شرح ديوان البارودى .

أصاب الأستاذ فى نقده ولكن أصابة النقد لا تبرئه من اللوم على ألفاظ شديدة نال بها شارح ديوان البارودى وهو رجل من أهل الجد أخرج للناس باكورة نشاطه العلمى فحق علينا أن نشكر له سعيه تنشيطاً للمجتهد من علمائنا — وقليل ما هم — وأن نتلطف فى تنبيهه إلى مواطن النقص والزلل وهدايته إلى الكمال الذى هو أهل لأن يصل إليه بإخلاصه للعلم واجتهاده .

ولقد ألممنا ببعض ما يؤخذ على الأستاذ الشيخ محمود الإمام المنصورى إلماماً بعدنا به عن التطويل ثقة بأن الأستاذ تكفيه الإشارة فى الدلالة على ما تجدر به مراعاته فى ما بقى من أجزاء الكتاب وتلافيه عند طبع الشرح مرة أخرى .

أما البيت الذى عاب الأديب الشيخ محمود أبو رية ضبطه وتأويله فهو كما رأى ، والضبط الذى فى الديوان غير وجيه وكذا الشرح إلا على تعسف ليس بأمثل من الخطأ .

ولقد وجد فى الجزء الأول من شرح ديوان البارودى لحن وتحريف وخطأ غير ما ذكرناه فى بعض ما كتبنا آنفاً .

منه ، فى ص ١٣٣ :

فكم أمير بحسن الحظ مبتهج وكم وزير بكأس البشر مخمور

والقافية مكسورة الراء .

وفى ص ١٨٨ :

أبى الضيم فاستل الحسام وأصحرا وذو الحلم إن سئم الهوان تنمرا

وهى إن « سيم »

وفى ص ١٩٦ :

وبين هاتين شبا لوعــة لها بقلبى فتكة الثائر

وفى ص ١٩٧ :

أيا ملكا همت يداه جــوداً على الثقيلين من باد وقــار

وظاهر أن الوزن لا يستقيم على ذلك وصوابه « همت جوداً يداه » .

وفى ص ٣٣٦ :

وشوق كنصل السيف لو شمت حده على بطل لانقد منه المقنع

قال الشارح : « المقنع والمقنعة بكسر أولهما وفتح ثالثهما ما تغطى به المرأة رأسها والمراد به هذا السلاح الذى يتغطى به البطل تشبيهاً بقناع المرأة »

والوجه فى ما أرى « لانقد منه المقنع » يريد العضو المقنع أى الرأس .

ومن الناس من جاوز إلى الملاحظة على سقم فى عبارات لشارح ديوان البارودى مثل قوله فى المقدمة ص ب :

« هذا تعليق على ديوان من ملك أعنة القول فلا تسير بل لا تكون إلا كما يشاء فقيد السيف والقلم محمود سامى البارودى باشا » .

وقوله فيها أيضاً :

« لبى رحمة الله عليه دعوة ربه قبل نشره لكتبه ، فقامت قصيدته بهذا العمل الجزيل » .

وإذا ذكرنا ما فى شرح ديوان البارودى من المآخذ فمن الإنصاف أن لا ننسى ما يستحق الثناء . إن الحسنات يذهبن السيئات .

مدرستا دار العلوم والقضاء الشرعى*

. . . .

ننشر مقال الكاتب الكريم الذى أذن لنا فى نشره ونكتفى فى معرفته بالظن وإن نم عليه سمو أدبه ورزانة نصحه ولطف المهارة فى أسلوبه وجدله وكمال ثقته بمصادر علمه وموارده .

ويسرنا كل السرور ألا يكون بين دار العلوم ومدرسة القضاء خصومة تستدعى أن نكد فى فضها . ويسرنا مع الكاتب الكريم ألا تكون إحدى المدرستين مصدراً لشكوى الأخرى ولآلامها .

ويشهد الله ما أنا بحاجة إلى من يستثير قلمى ويهيج حماستى لأؤدى ما على من حق لمدرسة القضاء الشرعى ولأكون قريباً منها مهما ابتعدت .

وإذا كانت الجزئية والكلية اللتين يلمح إليهما الأخ الفاضل من المعانى الاعتبارية التى لا يتحقق فى الخارج لها مدلول فإننا قوم لا نحتاج فى نصرة الحق إلى كلية ولا جزئية ولا معان حقيقية ولا اعتبارية ولو أن سهماً وجه إلى مدرسة القضاء الشرعى لتلقيناه بنحورنا دفاعاً عن معهد علمى فيه خير لهذا البلد الذى نحيا لخيره ونموت ، كما ندفع اليوم عن دار العلوم ما يراد من سلب حريتها فى اختيار طلابها وإنزالها عن مكانتها بين المدارس العالية .

لئن كانت « دار العلوم » الآن مأوى لمن تنفيه مدرسة القضاء الشرعى — كما يقول الكاتب الكريم — « لأنه فى كل سنة يلتحق بها عدد ممن رفتوا

---

* السفور : العدد ٨٢ ، السنة الثانية — الجمعة ٤ ربيع أول ١٣٣٤ ، ٢٩ديسمبر ١٩١٦ .

من المدرسة ولكنهم نجحوا فى امتحان الدخول بها » فإن ذلك لا يبرر ما ينزعون إليه من إدخال طلاب مدرسة القضاء فى دار العلوم من غير امتحان ولا كشف طبي .

إن حرية دار العلوم فى اختيار طلبتها بطريق الامتحان حق طبيعى وإذا كان فى اختيارها لتلاميذها الآن موطن ضعف فإن لها إلى الكمال سبيلا . أما إلزامها بأن تأخذ طلاب مدرسة القضاء جزافاً فمعناه ربط رقيها برقى مدرسة القضاء . وإنا لنعجب بمدرسة القضاء ونثنى على أبنائها والعاملين فيها ولكننا نحب أن يترك لدار العلوم مجال الرقى والسبق العلمى مطلقاً حراً .

قلنا فيما كتبنا عن دار العلوم آنفاً إننا نتمنى أن تصير يوماً ما كلية الآداب المصرية وقد كانت فى بعض عهودها الزاهرة تسمو إلى هذه الغاية ، وإن كان هناك عمل منظم تديره المعارف لخير دار العلوم فلتجعل اختيار طلابها من بين حملة شهادة الأهلية من مدرسة القضاء الشرعى والمعاهد الدينية وليكن ذلك بامتحان وكشف طبي .

أما بعد فإننا لاننا قش الكاتب الكريم فيما ذكر أن ما تلقيناه من معلومات لم تبن على أساس.» وعلى محدثينا الأفاضل تحقيق ما قالوا وفيما قدمنا بيان لما طلبناه لدار العلوم فى مقالنا السالف ولا نزال نلح فى طلبه من الحرية فى اختيار تلاميذها وجعل هذا الاختيار مبنيا دائماً على الامتحان الذى هو الطريق العادل الذى تتحقق به المصلحة وتزول الشكاية ولا يلحق مدرسة القضاء الشرعى منه ضرر . نسأل الله سبحانه وتعالى مع الكاتب الكريم أن يوفقنا جميعاً إلى السعى فيما فيه إصلاح معاهدنا التى لا سعادة لنا إلا بإصلاحها وأن يبذل كل منا جهده فى إصلاح ما وكل إليه من ذلك . كما نسأله تعالى أن يجعل رائدنا خير الأمة فى كل ما نعمل وأن يجنبنا الحيف والزلل فى القول والعمل .

وعلى الكاتب الكريم سلام من الله وبركاته ورحمته .

ديوان البارودى*

٥

الجزء الأول

باب الفخر

من خير قول البارودى فى الفخر قصيدته التى مطلعها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب   وغيرى باللذات يلهو ويلعب

وكل أبياتها جيد ولولا طولها لنشرناها جميعها ومنها :

خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة   لدى يداً أغضى لها حين يغضب
فلست لأمر لم يحن متوقعاً   ولست على شىء مضى أتعتب

* * *

وإنى إذا ما الشك أظلم ليله   وأمست به الأحلام حيرى تشعب
صدعت حفافى طرتيه بكوكب   من الرأى لا يخفى عليه المغيب
وبحر من الهيجاء خضت عبابه   ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها   حواسر فى ألوانهـا تتقلب
توسطته والخيل بالخيل تلتقى   وبيض الظبا فى الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بيّن الكر موقفى   لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى   على غيهب من ساطع النقع غيهب

ومن فخره :

ومن عجائب مالاقيت من زمنى   أنى منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف ذلة تفضى على بما   أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

* السفور : العدد ٨٥ ، السنة الثانية — الجمعة ٢٥ ربيع أول ١٣٣٥ ، ١٩ يناير ١٩١٧ .

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ذنب أدان به ظلماً وأغترب
فلا يظن بى الحساد مندمــــة فإننى صابر فى الله محتسب
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهى عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب
إنى امرؤ لا يرد الخوف بادرتى ولا يحيف على أخلاقى الغضب
ملكت حلمى فلم أنطق بمندية وصنت عرضى فلم تعلق بى الريب
وما أبالى ونفسى غير خاطئة إذا تخرص أقوام وإن كذبوا
ها إنها فرية قد كان باء بهـــا فى ثوب يوسف من قبلى دم كذب
فإن يكن ساءنى دهرى وغادرنى فى غربة ليس لى فيها أخ حدب
فسوف تصفو الليالى بعد كدرتها وكل دور إذا ما تم ينقلب

* * *

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلا يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذلة وفى السيف ما يكفى لأمر يعده
وإنى امرؤ لا أستكين لصولة وإن شد ساقى دون مسعاى قده
أبت لى حمل الضيم نفس أبية وقلب إذا سيم الأذى شب وقده
نمانى إلى العلياء فرع تأثلــــت أرومته فى المجد وافتر سعده

* * *

ولا بد من يوم تلاعب بالقنـــا أسود الوغى فيه وتمرح جرده
يمزق أستار النواظر برقــــه ويقرع أصداف المسامع رعده
تدبر أحكام الطعان كهوله وتملك تصريف الأعنة مرده
قلوب الرجال المستبدة أكله وفيض الدماء المستهلة ورده
أحمل صدر النصل فيه سريرة تعـــد لأمر لا يحاول رده
فإما حياة مثلما تشتهى العلا وإما ردى يشفى من الداء وفده

* * *

أدور بعينى لا أرى غير أمة ... من الروس بالبلقان يخطئها العد
جواث على هام الجبال لغارة ... يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرح الشر باسمه ... وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كبة ... يحدث فيها نفسه البطل الجعد
على الأرض منها بالدماء جداول ... وفوق سراة النجم من نقعها لبد
إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم ... بحورا توالى بينها الجزر والمد
نشلهم شل العطاش ونت بها ... مراغمة السقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح وهارب ... طليح ومأسور يجاذبه القد
تروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى ... ونغدو عليهم بالمنايا إذا نغدو
ونقع كلج البحر خضت غماره ... ولا معقل إلا المناصل والجرد
صبرت له والموت يحمر تارة ... وينقل طوراً فى العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صؤول وللأبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن فى صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحى ضميرها ... ولا لية إلا وسيفى لها عقد
وما كل ساع بالغ سؤل نفسه ... ولا كل طلاب يصاحبه الرشد
إذا القلب لم ينصرك فى كل موطن ... فما السيف إلا آلة حملها إد
إذا كان عقبى كل شئ وإن زكا ... فناء فكروه الفناء هو الخلد
وتخليد ذكر المرء بعد وفاته ... حياة له لا موت يلحقها بعد
ففيم يخاف المرء سورة يومه ... وفى غده ماليس من وقعه بد
ليضن بى الحساد غيظاً فإننى ... لآنافهم رغم وأكبادهم وقد

* * *

وتحت جناح الدرع منى ابن فتكة ... معودة إن تحط لبوده
إذا حركته همة نحو غاية ... تسامى إليها فى رعيل يقوده
ومعترك للخيل فى جنباته ... صهيل يهد الراسيات وئيده

بعيد سماء النقع ينقض نسره   على جثث القتلى وينغل سيده
ترف على هام الكماة سيوفه   وتخفق بين الجحفلين بنوده
إذا اشتجرت فيه الرماح تراجعت   سوافر عن نصر يضيء عموده
تقحمته والرمح صديان ينتحى   نطاف الكلى والموت يمضى وعيده
فما كنت إلا الغيث طارت بروقه   وما كنت إلا الرعد دوى هديده
أنا الرجل المشفوع بالفعل قوله   إذا ما عقيد القوم رثت عقوده
تعودت صدق القول حتى لو اننى   تكلفت قولا غيره لا أجيده

* * *

أقلب طرفى فى النجوم كأنها   قتير من الياقوت يلمع فى سرد
ولا صاحب غير الحسام منوطة   حمائله منى على عاتق صلد
إذا حركته راحتى للمسة   تطلع نحوى يشرئب من الغمد

* * *

ولا تعجبن من منطق أن تأرجت   به كل أرض فهو ريحانة العصر
سيذكرنى بالشعر من لم يلاقنى   وذكر الفتى بعد الممات من العمر

* * *

من النفر الغر الذين سيوفهم   لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه   تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

* * *

ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة   لصبحنى قسط من المال غامر
ولكن أبت نفسى الكريمة سوأة   تعاب بها والدهر فيه المعاير
فلا تحسبن المال ينفع ربه   إذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب   وقد لا يكون المال والمجد حاضر

* * *

صبرت على ريب هذا الزمـا   ن ولولا المعاذير لم أصبر

فلا تحسبنى جهلت الصــوا ب ولكن هممت فلم أقــدر
ثنت عزمتى ثورة المفسدين وغلت يدى فترة العسكر
وكنا جميعاً فلما وقــعت صبرت وغادرنى معشرى
ولو أننى رمت إعناتهم لقلت مقالة مســتبصر
ولكننى حين جــد الخصام رجعت إلى كرم العنصر

هذا النوع من شعر البارودى الذى سميناه فخراً هو أول كلامه على منازع نفسه الكبيرة الشماء .

فى ذلك الفخار معنى الشجاعة والشرف فى فؤاد شاعر جندى عظيم المطامع قوى النفس كريم العواطف .

ولوددنا أن يحفظ شباننا هذا الشعر المصرى ويرتلوه فى غدوهم ورواحهم حتى يعتاد ما بين جوانحهم من قلوب فتية أن يخفق على توقيع ذاك النغم .

ديوان البارودى *

٦

الجزء الأول

التحزن

فزعت إلى الدموع فلم تجبنى ... وفقد الدمع عند الحزن داء
وما قصرت فى جزع ولكن ... إذا غلب الأسى ذهب البكاء

* * *

ليت الشباب لنا يعود بطيبه ... ومن السفاه طلاب عمر قد مضى
والشيب أكمل صاحب لو أنه ... يبقى ولكن لاسبيل إلى البقا
والدهر مدرجة الخطوب فمن يعش ... يهرم ومن يهرم يعث فيه البلى

* * *

وكيف تلذ بعد الشيب نفسى ... وفى اللذات إن سنحت عذابى
أصد عن النعيم صدود عجز ... وأظهر سلوة والقلب صاب

* * *

كل شىء يسلوه ذو اللب إلا ... ماضى اللهو فى زمان الشباب
كيف لا أندب الشباب وقد أصبـــــحت كهلا فى محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلبـــاب
ولوى شعر حاجبى على عيـــ ... ـنى حتى أطل كالهـــداب
لا أرى الشىء حين يسنح إلا ... كخيال كأننى فى ضبـــاب
وإذا ما دعيت حرت كأنى ... أسمع الصوت من وراء حجاب

---

* السفور : العدد ٨٦ ، السنة الثانية – الجمعة ٣ ربيع الثانى ١٣٣٥ ، ٢٦ يناير ١٩١٧ .

كلما رمت نهضة أقعدتنى ونية لا تقلها أعصابى
لم تدع صولة الحوادث منى غير أشلاء همة فى ثياب

* * *

سعيت فأدركت المنى غير أننى أضعت شبابى فى سبيل طلابى
فما تنفع الدنيا وإن نلت كل ما تمنيت منها بعد فقد شبابى

* * *

أيد المنون قدحت أى زناد وأطرت أية شعلة بفـؤادى
أوهنت عزمى وهو حملة فيلق وحطمت عودى وهو رمح طراد

* * *

يا دهر فيم فجعتنى بحليلة كانت خلاصة عدتى وعتادى
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادى
أفردتهن فلم ينمن توجعـاً قرحى العيون رواجف الأكباد

* * *

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعى التجلد وهو غير جماد
أمسيت بعدك عبرة لذوى الأسى فى يوم كل مصيبة وحداد
متخشعاً أمشى الضَّراء كأننى أخشى الفجاءة من صيال أعاد
ما بين حزن باطن أكل الحشا بلهيب سورته وسـقم باد

* * *

كيف طوتك المنون يا ولدى وكيف أودعتك الثرى بيدى
واكبدى يا على بعدك لو كانت تبل الغليل واكبـدى
فقدك سل العظام منى ورد الصبر عنى وفت فى عضدى
كم ليلة فيك لا صباح لها سهرتها باكياً بلا مـسـدد
دمع وسهد وأى ناظـرة تبقى على المدمعين والسهد
لهفى على لمحة النجابة لو دامت إلى أن تفوز بالسدد

* * *

فيا سامح الله الشباب وإن جنى ... عليّ وحيًّا عهده سبل القطر

* * *

ألا ليت هاتيك الليالى وقد مضت ... تعود وذاك العيش يأتى على قدر
مواسم لذات تقضت ولم يزل ... لها أثر يطوى الفؤاد على أثر
إذا اعتورتها ذكرة النفس أبصرت ... لها صورة تختال فى صفحة الفكر
فذلك عصر قد مضى لسبيله ... وخلفنى أرعى الكواكب فى عصر
لعمرك ما فى الدهر أطيب لذة ... من اللهو فى ظل الشبيبة واليسر

* * *

ولت فلم يبق منها غير فذلكة ... تلوح فى دفتر الأوهام والذكر

* * *

تنكرت مصر بعد العرف واضطربت ... قواعد الملك حتى ريع طائره

* * *

واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى ... فى جوشن الليل إلا وهو ساهره
ويلمّه سكناً لولا الدفين به ... من المآثر ما كنا نجاوره

* * *

أبيت أمنى النفس طوراً فترعوى ... وأتلو عليها اليأس طوراً فتجزع
وماذكر ريعان الصبا غير حسرة ... تذل لها نفس العزيز وتخضع
فلا رحم الله المشيب وعصره ... وإن كان فى أثنائه الحلم أجمع
نهار مشيب ساءنى وهو أبيض ... وليل شباب سرنى وهو أسفع
إذا شاب رأس المرء شاب فؤاده ... ولم يبق فيه للبشاشة موضع

* * *

زمان تولى غير أعقاب ذكرة ... إذا خطرت كادت لها النفس تنزع

الحكم

لولا النميمة لم يقع بين امرئ وأخيه من بعد الوداد عداء

* * *

وأشد ما يلقى الفتى فى دهره فقد الكرام وصحبة اللؤمـــاء

* * *

ولكنا نعاشر من لقينـــا على حكم المروءة والتغابى

* * *

إذا المرء لم يفر الأمور بعلمه تحير ما بين اختلاف المذاهب

* * *

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سبّا

* * *

أمران ما اجتمعا لقائد أمـــة إلا جنى بهما ثمار الســـؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو بمرصـــد
هيهات يحيي الملك دون مشورة ويعز ركن المجد ما لم يعمـــد

* * *

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته أضر عليه من حمام يـــؤده
وأقتل داء رؤية العين ظالماً يسيء ويتلى فى المحافل حمده

* * *

وأى لوم على امرئ طلب اللـــ ـهو وأثواب عمره جـــدد
لكل عصر من كبرة وصبـــا شوط له بعد مهلة أمد
فاسع لما شئت غير متئـــد فلن يحوز الكمـــال متئد

لولا سرى البدر ما استنار ولا أدرك شأو الخطار منجـــرد
ولا يهمنك لوم ذى حسد فشأن أهل العداوة الحسد
لو حذر المرء كل لأئمة لضاع منه الصواب والرشد
ولو أصخنا لكل منتقد فكل شيء فى الدهر منتقد
واله بما شئت قبل مندمة يكثر فيها العناء والكمــــد
فليس بعد الشباب مقترح ولا وراء المشيب مفتقد

* * *

إن فى الحكمة البليغة للرو ح غذاء كالطب للأجساد

* * *

قد كدت أتهم ظنى فى فراسته من طول ما اشتبهت عيناى فى الصور

* * *

إنما الجاهل فى العين قـــذى حيثما كان وفى الصدر غصص

* * *

أرى كل حين ذاهباً بيد الردى فهل أحد ممن ترحل راجع

* * *

لواعب بالأسماء يبتدرونها سفاهاً وبالألقاب فهى بضائع
وهل فى التحلى بالكنى من فضيلة إذا لم تزين بالفعال الطبائع

* * *

أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع

المدح والذم

لم يكن البارودى رحمه الله إمداحاً ولا هجاء على أن له مدحاً وذما تظهر فيهما أيضاً مهارته الشعرية فمن ذلك :

إن قال خيراً فعن سهو ألم به   أو قال شراً فعن قصد وإمضاء

* * *

عدمت حميَّة وسقمت ودًّا   فلم تدرك لمكرمة نصيبـــا
فما أحزنت فى حرب عدواً   ولا أفرحت فى سلم حبيبا

* * *

لا رحمة الله على والد   غم به الدنيا ولا ولده

وأحق مدائح الجزء الأول من ديوان البارودى بالذكر قصيدته فى تهنئة المرحوم توفيق باشا بجلوسه على الأريكة الخديوية منها :

لا يستريح إلى الفراغ ولا يرى   عبثاً يلذ به إذا لم يجهد

. . . .

لهج بحب الصالحات فكلما   بلغ النهاية من صنيع يبتدى

. . . .

سن المشورة وهى أكرم خطة   يجرى عليها كل راع مرشـــد
هى عصمة الدين التى أوحى بها   رب العباد إلى النبى محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه   ومن استهان بأمرها لم يرشد
فلأنت أول من أفاد بعدله   حرية الأخلاق بعد تعبد

. . . .

لا زال عدلك فى الأنام مخلدا   فالعدل فى الأيام خير مخلد

* * *

الآن انتهينا مما اخترناه من الجزء الأول من ديوان البارودى فى فنون الشعر

المتنوعة ، وقد أردنا أن ننبه شباننا إلى مجموعة من جيد الشعر صالحه بجمالها الشعرى أن تهيم أريحية وطرباً ، صالحة بمعانيها الشريفة أن تغذى العواطف الطيبة فى نفوسهم ، وصالحة فوق هذا كله بروحها المصرى أن تنعش أرواحهم المصرية.

الأسرة *

أعجبنى من الأسرة الأوربية ما فيها من الحياة والنظام والصراحة ومظاهر السعادة .

ولقد شعرت من غير حاجة إلى فضل تنبه بما لحال المرأة هناك من الأثر العظيم فى ترقية معيشة الأسرة . وللمرأة هنا وهناك حديث غير هذا الحديث .

ومن عوامل الرقى فى نظام البيوت عند الغربيين تقسيم الأسرات إلى مجاميع غير كثيرة العدد ولا متشعبة الروابط ، مجاميع يسهل التفاهم بينها والتناسب فى الذوق والرأى ، ويقل فيها الاختلاف ، على المصالح ، وتقل مداخل الأحقاد إلى قلوب الأقارب .

يعيش الرجل فى تلك البلاد مع زوجه وأولاده منها معيشة شركة لكل شريك فيها عمل فإذا كبر بعض أولئك الأولاد وصار زوجاً بنى أسرة جديدة لها معيشتها ومصالحها وآمالها ، لها شخصيتها مستقلة وإن عطفتها على أصولها أواصر الرحم .

ميسور لرجل وامرأته أن يتفقا على وجهة فى الحياة البيتية تهيئ لهما ما ينزعان إليه من أسباب السعادة إن كان فى هذه الحياة سعادة ولا تكون الذرية بينهما مثار خلاف بل الذرية تربطهما بحنان كثيراً ما تلين له كل

---

* السفور : العدد ٨٨ ، السنة الثانية — الجمعة ١٧ ربيع الثانى ١٣٣٥ ، ١٩ فبراير ١٩١٧ .

صلابة فى علاقة الزوجين .

ويظهر أن تضييق دائرة الأسرة تابع لحركة التمدن الإنسانى فالأمم البدوية تكون قبائل فيها والعشائر أسرات تتكلف الاشتراك فى شؤون المعاش كلها ، وكلما خرجت من حظيرة البداوة صارت الأسرات فيها شركات محصورة متناسبة الأجزاء .

حياة البداوة محتاجة إلى عصبية كبرى تدفع الناس بعضهم إلى بعض حيث لا دافع من النظم الاجتماعية التى تغنى عن الالتجاء إلى العصبية والموالى . أما العمران فى رقيه فإن بقيت فيه حاجة إلى العصبية فهى ضعيفة الأثر فى تكوين العائلة وإنما تقوم العائلة على الحب والتشارك فى تحصيل السعادة .

يكثر البدوى من التزوج والتناسل لأنه يريد أن يرى من حوله عصبة يصول بها على الأعداء ويحمى الحريم ، أما ابن المدينة فيطلب الأنس بالزوجية والتمتع بالشركة فى الحب والنفس والمال ويبتغى النسل أيضاً متاعاً وزينة .

وقد يكون تقدم المدنية خطراً على العائلة إذ ربما ينتهى أمر المتمدنين إلى اطمئنان الفرد على كل وسائل السعادة واللذة من غير حاجة إلى استعانة بشركة ذات قيود ونتائج خارجة عن موضوع الاشتراك ويومئذ تنعدم الأسرة بشكلها المعروف ويبقى للعالم ما لا غنى عنه من آثارها بنظام لا يسهل على الخيال أن يمثله الآن واضحاً .

ويعز علينا أن نقدر هذا الفرض البعيد الممكن . لأننا نحب الأسرة ، نحبها فى جميع أشكالها حتى لنريدها فى قومنا عصبيات بدوية ذات نصرة وحمية فإن ذلك مظهر قوة ونحن أحوج شىء إلى مظاهر القوة على أننا نتمنى أن تمس أسرتنا نفحة من نفحات النظام والسعادة .

التعليم*

حاجتنا إلى العلم ليست حديثة ولكن الحديث هو شعورنا بتلك الحاجة وتلمسنا سدادها من كل سبيل . ذلك أثر الحياة الناشئة فى أمتنا حياة الرقى والأمل . كنا غافلين عن فائدة العلم بحكم الفتور العام فى مشاعرنا القومية من الأمراض الاجتماعية التى أصابتنا ولم يبرأ كلها بعد . ولقد كانت الأمة تساق إلى العلم باكية كما كانت تساق إلى الجندية ،وسواء ما كان يشيع به نفر العمالية يساق إلى السخرة ونفر القرعة العسكرية يقاد إلى حمل السلاح وما كان يشيع به التلميذ يذهب به إلى المدرسة ! كانت الأمهات يلبسن ثياب الحداد ويقمن المناحات والمنادب وكان الآباء يظهرون من الجزع أشد ما تحتمل الرجولية من مظاهر الجزع . وبقى كثير من هذا إلى ما حوالى عهد إسماعيل حتى إذا تبين الناس شيئاً من نفع العلم بما رأوا رأى العين من فضل العالمين على الجاهلين وبما شهدوا من أثر العلم فى ترقية الحياة من جميع وجوهها أخذوا يسعون إلى نور العرفان مهطعين. وما برح إقبال الأمة على التعليم يتزايد حتى سبقت رغبة الناس فى العلم ما هيئ لهم من وسائل تحصيله ، ووجد فى مصر ما لا نظنه يوجد فى أمة من أمم الأرض، وهو أن تضيق معاهد العلم بجميع أنواعه عن كفاية الناس ويرد الشباب عن أبواب المدارس بكاة ويقضى عليهم أن يعيشوا فى ظلام الجهل ويقال لهم قد أخذت دور التعليم كفايتها ولم يبق فيها زيادة لمستزيد .

كنا نطالب بالتعليم الإجبارى ليحمل الأمة طوعاً وكرهاً على أن تتعلم لأن العلم شفاء لكل أدوائها فقد كفانا الله السعى فى ترغيب الأمة فى العلم

* السفور : العدد ٨٩ ، السنة الثانية – الجمعة ٢٤ ربيع الثانى ١٣٣٥ ، ١٦ فبراير ١٩١٧ .

وتزيينه فى عينها لأن الأمة نهضت من نفسها لتحصيل العلم نهضة مباركة وبقى أن يجد الظامئون إلى ورد العرفان سبيلا .

نطالب بهذا الغرض كل قادر على أدائه من الأفراد والجماعات ونطالب به الحكومة لأنها المسؤولة قبل كل فرد وكل جماعة عن حاجات الأمة والعلم من أهم حاجاتنا بل هو أهمها وأحقها بأن ننفق فيه مالنا فإن كل سعادة لنا تقوم على العلم ولاصلاح لجماعتنا بغير العلم .

نريد أن يوجد فى بلدنا من المدارس ما يكفى لكل طالب يريد أن يتعلم وأن يمنح التعليم كفايته من ميزانيتنا ولو تعطل كثير من مشاريع الإصلاح فى مرافق الحياة .

إن العلم يغنى الأمة الفقيرة ولكن الغنى لا ينفع الأمة الجاهلة .

نقول هذا بمناسبة إعداد الميزانيات فى هذا الموسم رجاء أن تراعى حاجتنا العلمية فلا يبخس نصيبها فى ميزانية الحكومة وغيرها من ميزانية المديريات وميزانية الأوقاف .

وعسى أن يتحقق رجاؤنا فيمن بيدهم مقاليد الأمور فلا تحرم من العلم أمة تريد أن تتعلم .

بيان وزارة المعارف *

نشرت وزارة المعارف بياناً للناس ضمنته ما تعده من وسائل الإصلاح للعام القابل وما تنويه من نيات الخير للمستقبل .

وقد يتسارع الناس إلى ذلك البيان رجاء أن يجدوا فى مذكرة الوزارة القائمة على أمر تعليمنا بشارة تحقق بعض آمالنا . والناس من شوقهم إلى العلم وتبرمهم بضيق موارده عن كفايتهم يبادرون إلى كل نبأ يأتى من ناحية وزارة المعارف .

أما ما قررت وزارة المعارف القيام به من المشروعات الإصلاحية فى العام القابل فينحصر فى ما يأتى :

(ا) إنشاء فصلين جديدين فى مدرسة المعلمات بالإسكندرية وإنشاء فصل جديد فى مدرسة المعلمين بها .

(ب) زيادة الإعانة المخصصة للمدارس الأولية الأهلية التابعة لتفتيش الوزارة ١٠٠٠ جنيه .

(جـ) زيادة أربعة فصول فى المدارس الابتدائية .

(د) إنشاء مدرسة ابتدائية جديدة للبنات فى القاهرة

(هـ) زيادة خمسة فصول فى المدارس الثانوية .

(و) زيادة الاعتماد المخصص لإعانة المدارس الثانوية الأهلية من ٦٠٠٠ جنيه إلى ٧٠٠٠ .

(ز) زيادة فصلين فى مدرسة المعلمين السلطانية .

(ح) زيادة الطلبة الذين يرسلون إلى أوربا لتتميم دروسهم .

---

* السفور : العدد ٩٠، السنة الثانية — الجمعة أول جمادى الأولى ١٣٣٥، ٢٣ فبراير ١٩١٧ .

وأما ما تعد وزارة المعارف أن تقوم به وتؤجله الآن لاعتبارات مالية فهو :

١ — توسيع نطاق التعليم الأولى .

٢ — توسيع نطاق التعليم النسائى .

٣ — إنشاء جامعة أميرية .

وإن الذى قررته وزارة المعارف لجدير بالثناء لأنه حركة فى توسيع النطاق للمتعلمين وإن كانت حركة بطيئة لا تقع موقع كفاية من حاجات البلاد .

ولعل مجلساً واحداً من مجالس المديريات أو جمعية واحدة من الجمعيات الخيرية تستطيع برغم الاعتبارات المالية كلها أن تنشئ مدرسة ابتدائية للبنات وتنشئ بعض فصول فى المدارس وتزيد فى الإعانات المخصصة لطائفة من المكاتب والمدارس .

وإن الذى تؤجله وزارة المعارف لاعتبارات مالية لهو من أعز آمال البلاد نتلمس بشرى تحقيقها فى كل كلمة تقولها الوزارة أو تكتبها . وإذا كان بعض المشروعات الاقتصادية قد اعتبر ضروريا لابد من فتح الاعتمادات له فى الميزانية الجديدة برغم الأحوال الحاضرة فإن المشروعات العلمية كانت جديرة أيضاً بأن تعد ضرورية ينظر لها فى ميزانية اليوم .

ولقد زادت وزارة المعارف أجور التعليم وفرضت أجراً على ما كان منه مجاناً وذلك فى أحرج أوقات الأزمة الحالية فلم تراع الاعتبارات المالية فى أمر من يقع عليهم العبء الجديد .

ومن أجل هذا لا يعذر الناس وزارة المعارف أن تأخذ فى طريق الإصلاح لبعض مدارسها العالية التى ستكون حجراً متيناً فى بناء الجامعة الأميرية المرجوة. ولعل ذلك لم يكن ليستلزم مالا يتعذر الحصول عليه وكان يمكن الأخذ فيه بالتدريج . وهذه دار العلوم لم يرد لها ذكر فى بيان الوزارة وهى تصلح أن تكون كلية الآداب أو كلية العلوم الشرقية اللتين تقول وزارة لمعارف إنهما لازمتان لنهضة البلاد العلمية .

ومهما يكن للناس من قول فى بيان وزارة المعارف فإن من دواعى الغبطة للشباب المصرى أن يرى ولاة الأمر فى الإدارة العليا للتعليم ملهمين أمانيه ونزعاته فإن تعميم التعليم وتوسيع نطاق التعليم النسائى وإنشاء الجامعات الراقية هى من أمانى الشباب المصرى .

جامعة الحكومة وجامعة الشعب *

أعلنت وزارة المعارف فى بيانها الذى نشرته على الناس أنها تنوى إنشاء جامعة حكومية تسد حاجة بينه من حاجات الأمة إلى التعليم .

وقد سررنا بذلك الإعلان على كل حال لأنه علالة تنعش الآمال فى أمة أخوف ما نخاف عليها اليأس .

ثم قالوا إن مجلس الوزراء قرر إنشاء الجامعة وأوصى إلى وزارة المعارف أن تضع مشروعها فزدنا غبطة وسروراً لأن الوعد الذى منتنا به الوزارة أصبح وعداً مؤكداً وقويت صبغته الرسمية . ولولا أن قرار مجلس الوزراء كبيان وزارة المعارف لم يضرب أجلا للشروع فى إنجاز ذلك الوعد الكريم لاطمأنت نفوس الناس كل الاطمئنان ، ونرجو أن يكون غير بعيد يوم نسر بميلاد الجامعة الأميرية كما نسر اليوم بإرهاصاتها .

وقد فكر جماعة من الأوربيين فى أن ينشئوا أيضاً جامعة للشعب تقرب منه مبادئ العلوم الراقية وتدنيه من مستوى المتعلمين. وانضم إليهم فريق من أهل هذه البلاد وتعاونوا جميعاً على تسهيل موارد العلم للشعب من غير تفريق بين الأجناس والأديان فإن العلم ميراث العقل البشرى وهو حق مشترك لكل أبناء آدم لا فضل فيه لعربى على عجمى .

* السفور : العدد ٩١ ، السنة الثانية – الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٣٣٥ ، ٢ مارس ١٩١٧ .

وضع القوم نظام عملهم وأعدوا وسائل الشروع فيه وسيأخذون فى إلقاء محاضراتهم فى الأدب والتاريخ وفى العلوم الطبيعية والاجتماعية وفى الفنون الجميلة من الأسبوع القابل ، واللغات التى تلقى المحاضرات بها هى العربية والفرنسية والإنجليزية والإيتالية .

ونحن نرجو أن تلاقى النجاح كله جامعة الشعب التى تنهض لخير غرض إنسانى وهو تقريب منال العلم من جماهير الناس ونرجو أن يمدها بالمعونة والإسعاد كل قادر على نصرتها ونرجو أن لا يفوت الشعب المصرى ثمرتها وأن يكون نصيب المصريين من تعضيدها موفوراً .

نرجو ذلك كله ونرجو معه أن لا يخيب ظننا فى الجامعة الوليدة. ولقد يذكرنا إنشاء جامعة الشعب وتفكير الحكومة فى إنشاء جامعة أميرية بالجامعة المصرية المؤسسة منذ تسع سنين .

ويظهر أن الجامعة لم تستطع أن تسد ما تشعر به الحكومة من حاجات البلاد العلمية ولم تسد ما يشعر به الناس من حاجة الشعب إلى العلم فاعلها تستطيع أن تكون سنداً لجامعة الشعب وسنداً للجامعة الأميرية .

من صحائف العهد القديم *

تذكار ليلة

عندى الليلة نزوع إلى الحزن ورغبة عن مجامع الناس وأحاديثهم ولذلك أويت إلى حجرتى عقب العشاء غير شاعر بألم خاص لشىء معين ولكننى أحس بهم غامض كأنما تثيره الحياة كلها التى تمر بلا طعم .

* السفور : العدد ٩٢ ، السنة الثانية — الجمعة ١٥ جمادى الأولى ١٣٣٥ ، ٩ مارس ١٩١٧ .

نظرة فى النفس

أنا بالرغم من كونى عصبيا سريع التأثر فإننى قادر على كتمان إحساسى لذلك يغر الناس منى منظر هادئ وفم غير ضنين بالابتسام وحلم قلما يستفزه غضب .

ولو كشف للناس باطن أمرى لرأوا فؤاداً قلقاً وضميراً يراقب حركات النفس ويحاسبها حساباً عسيراً وإحساساً يضطرب بعنف لكل ما يهز إحساس الناس هزًّا ليناً .

أنا حيي مفرط فى الحياء وخجول . ولهذين الخلتين دخل كبير فى إظهار مزاجى الحاد فى مظهر ساكن .

تذكار

فى مثل هذا الأوان من العام الماضى كنت فى . . . متمتعاً بكثير من اللذة واللهو ولم أكن مع ذلك مقتنعاً بحظى من السعادة يومئذ — وحظى من السعادة يومئذ غير ضئيل — والآن لا يذهب أملى فى الحياة إلى أبعد مما كنت أراه بالأمس ضيقاً .

رب يوم بكيت منه فلمـــا صرت فى غيره بكيت عليه !

شعور وطنى

يشغل تصفح جريدة التان منى زمناً طويلا لأن بها أشياء كثيرة يهمنى الاطلاع عليها ولأننى بطىء فى قراءة الفرنسية . وكثيراً ما يخطر فى بالى أن أقارن بين هذه الجريدة وبين صحفنا فأجد فرقاً متناسباً مع ما بين فرنسا ومصر من

التفاوت العظيم فى الرقى العلمى والاجتماعى ويخيل لى أننى أصبحت ألمح هذا التفاوت فى كل شىء فى حديث الناس وحركاتهم وفى كل وجه من وجوه الحياة بل فى هذه الطبيعية التى نالتها نفحة من بركة المدنية والرقى .

أحس أشد الإحساس بانحطاط أمتى وأجد أكبر الآلام لهذا الإحساس ويكاد كل شىء يحرك فى نفسى هذا الشعور المؤلم .

أنا أستبطئ سيرنا فى سبيل التقدم شغفاً برؤية مصر حرة راقية تلعب دورها فى العالم. وكم أتمنى أن ألقى فى قلب كل مصرى شعلة من هذا القلق الذى عندى لأن شعورنا جميعاً بالحاجة إلى الرقى هو الذى يسرع خطواتنا إليه .

شىء عن المرأة*

أوشكت بشائر الربيع أن ترسل إلى الكون نفحاتها فتنعش مظاهر الجمال وتنبه العواطف .

ويظهر أن من بشائر الربيع أن يتحدث الناس فى أمر المرأة فإن المرأة لا تزال عندنا على أحسن الفروض ريحانة تذكر فى موسم الرياحين .

يتحدثون فى أمر المرأة بمناسبة ما تعرضت له وزارة المعارف فى بيانها عن عزمها على توسيع نطاق التعليم النسائى وبمناسبة ما قرره مجلس الأقباط الملى فى شأن الزواج بالفرنجيات ويتحدثون فى أمر المرأة أيضاً بمناسبة ما يظنه الناس من انتشار العزوبة .

أما ما تعدنا وزارة المعارف من ترقية تعليم البنات والعناية بنشره فنحمد منه الشعور بحاجة نسائنا إلى العلم والاهتمام بإعطاء المرأة المظلومة حقها من المتاع العقلى الذى يقدرها على اقتضاء نصيبها من الحرية والمساواة .

---

* السفور : العدد ٩٣ السنة الثانية — الجمعة ٢٢ جمادى الأولى ١٣٣٥ ، ١٦ مارس ١٩١٧ .

وقد آن لنا أن نمنح المرأة حقها من العلم فى زمن تمنح فيه فرنسا نساءها حق الانتخابات فى المجالس البلدية ثم يقول بعضهن: «إن ذلك قليل لا يغنى شيئاً فى جنب ما تطالبه من الحقوق».

أما المجلس الملى فإن قراره ضرب من التشريع غريب فى هذا الزمن وليست الفرصة مما يدعو إلى التفكير فى هذا لأن الصادر من رجالنا إلى أوربا أصبح قليلا جدا والوارد من نساء الغرب أقل . على أن كثيراً من شباب الأقباط يشتكى من غموض القرار ويقول إن المراد بالأجنبيات فيه موضع إبهام. ذلك فوق شكايتهم من التعرض للحرية فيما يتعلق بالسعادة البيتية التى يؤذيها كل تضييق .

قد يكون فى المسألة وجهة دينية ونحن نحترم تصرف الدينيين ولكننا نعتقد أن الدين لا يريد بحرية الناس وسعادتهم فى بيوتهم إلا خيراً ونرجو كل متدين وكل ملحد أن يراعى هذا .

بقيت مسألة العزوبة وإنى كلما نظرت إلى الشوارع فرأيتها غاصة بالأطفال وكلما نظرت فى الحوانيت والعربات والمتنزهات فوجدت إلى جانب كل امرأة رجلا وإلى جانب كل رجل امرأة لم أكد أصدق أن عندنا عزوبة. وقد زاد بحمد الله عددنا وهو لا يزال يتزايد حتى لوددنا أن يبطئ التزايد فى أيام هذه العسرة حتى تضع الحرب أوزارها .

لست ممن يظن أن الزواج عندنا فى أزمة ولست ممن يخشى على مصر أزمة الزواج وكل ما فى الأمر أننا أصبحنا نقدر الزواج قدره ونرى أن الرجل لا ينبغى أن يتحمل أعباءه حتى يستحكم ويصير أهلا لأن يكون زوجاً وأباً .

وإذا كان مسيو فينو يريد أن يعد العمر الغالب للناس مائة عام أو مائة وخمسين فللشبان حق فى أن يؤخروا أجل الزواج إلى نصف العمر الغالب وبحسب المرء أن يعيش زوجاً سعيداً وأباً نصف حياته .

ومثل الفتاة فى ذلك مثل الفتى لا ينبغى أن تدفع فى سبيل الحياة الزوجية قبل أن يتم تمامها وتخرج من أكمام الطفولة .

لا ضرر فى إبطاء الرجال والنساء فى أمر الزواج فإن ذلك أقرب إلى حسن الاختيار وحسن الاستعداد لحقوق الزوجية وأبعد عن الرعونة التى بلونا ما بلونا من شرها على الذرية والعصم .

سيدة مصرية *

نبتهج بكل مظهر من مظاهر الرقى فى حال المرأة المصرية ، ونرجو النجاح لكل سعى فى سبيل تحرير المرأة ، وتبسم لنا وجوه الأمل كلما وجدنا فى نسائنا حركة حياة شعور بالحاجة إلى العمل لخير أمتنا المحتاجة إلى الأيدى العاملة من النساء والرجال .

كانت المرأة المصرية إلى عهد قريب ضعيفة لطول ما استبد بها الأقوياء ، عاجزة عن أن ترفع صوتها برد حيف أو مطالبة بحق ، بل كان من سيداتنا من يدفع فى صدر الداعى إلى حريتهن جهلا بقدر الحرية التى فطر الله الناس عليها وقلة ثقة بالنفس ، وكان ذلك أشد ما لقيت دعوة الإصلاح من العوائق.

والحمد لله قد شعرت المرأة المصرية بأن عليها فى الحياة واجبات ولها فى الحياة حقوقاً ، وأدركت أنها موجود كريم يستطيع أن يعمل لخير المجموع .

وأحسن نموذج لهذه البشائر الطيبة هو أن السيدة الشريفة زوج المرحوم صابر باشا صبرى طلبت إلى مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية أن يقيدها مكان زوجها المرحوم فى سجل أعضاء الجمعية الذين يؤدون للفقراء زكاة مالهم على أن يكون لها ما لجميع المشتركين من الحقوق فتنتخِب وتنتخَب وتخدم اليتامى والمساكين بصائب رأيها وصالح سعيها كما تمدهم بالمعونة بمالها .

قالوا إن مجلس إدارة الجمعية اختلف فى قبول طلب السيدة ووجِد فيه رجال يريدون أن يقولوا لامرأة ترغب أن تشاركهم فى فعل الخير : لا يشاركنا فى فعل الخير النساء .

وبعيد عندنا أن يكون فى أعضاء مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية

---

* السفور : العدد ٩٥ــ السنة الثانيةــ الجمعة ٧ جمادى الثانية ١٣٣٥ ، ٣٠ مارس ١٩١٧ .

ـ وهم القائمون على رعاية حقوق الفقراء والضعفاء ـ من يغمط المرأة حقها فى العمل لنفع الناس، حقها فى تربية اليتيم وإطعام المسكين ومعونة المحتاج .

ومن أظلم ممن صد عن سبيل الخير ، ومنع أهل الإحسان أن يحسنوا وقال هذا رجل وهذه امرأة ليحرم ذوى الفاقة من تعاون الناس جميعاً على خدمتهم .

نرجو أن نرى غداً فى دار البر بدرب الجماميز نساء ورجالا يقومون جميعاً على من تعولهم وتربيهم الجمعية الخيرية الإسلامية فتنتفع مصر بثمرة المجهود المشترك من أبنائها وبناتها فى وجه من وجوه الخير تمهيداً للاشتراك العام بين النساء والرجال فى كل وجه من وجوه الإصلاح والرقى .

وحيّا الله السيدة المصرية الكريمة التى سنت للنساء فى سبيل الحياة والحرية سنة حسنة لها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وسام علمى *

روت بعض الصحف أن الحكومة تفكر فى إنشاء وسام يميز به أهل الكفاية العلمية .

وفى ذلك تحقيق لرغبة أظهرها الناس عندنا بمناسبات مختلفة آخرها ما كان من التعديل فى نظام الرتب والوسامات المصرية فى العهد الحديث .

وما نحن ممن يسر بخلق مميزات صناعية جديدة يفضل بها بعض الناس على بعض فإننا فى حرج من المميزات القديمة التى تقف فى وجه ما نريده للعالم من المساواة والإخاء والحرية .

---

* السفور : العدد ٩٦، السنة الثانية ـ الجمعة ١٤ جمادى الثانية ١٣٣٥، ٦ أبريل ١٩١٧ .

على أننا نسر بأن تفكر الحكومة المصرية فى أن تجعل التفوق العلمى سبباً من أسباب التشريف فإن ذلك يدل على أن النهضة الفكرية الناشئة فى البلد أصبحت ذات أثر وأصبح أهلها جديرين بالكرامة الرسمية التى لا يمكن أن تكون موضع نظر للعلماء ولكنها تنفع فى إعزاز جانب العلم فى عين الجماهير ويهمنا أن يعزز جانب العلم عندنا لتقوى خطواته الأولى على مصادمة الجهالة .

ولعل التمييز المبنى على الاستحقاق العلمى هو أقل وجوه التمييز بين الناس خطراً فإن العلم نفسه هو الذى يهدى إلى المساواة ويسوق الإنسانية إليها .

كبرت مطامع الأمة العلمية وقوى نشاطها فى سبيل العلم ، ونرجو أن يكون صدى لصوت شعورنا القومى ما نلمحه من عناية الحكومة بالعلم والتعليم وخير الحكومات ما كان ملهماً نزعات الكمال فى الأمم سباقاً إلى تحقيقها .

تفكر الحكومة فى إنشاء جامعة تمهد السبيل لرقى العلم وتفتح له أبواب الكمال وتفكر فى إنشاء وسام تحلى به صدور المتفوقين من العلماء فهى تشجع التمييز العلمى وتعد له الوسائل وذلك من أشرف ما تنهض له حكومة بارة وإنا لنبادر إلى شكر الحكومة على هذه الوعود الطيبة . وندخر شكراً مضاعفا لتحقيق ما تعدنا ثم نرجوها أن تتحرى قواعد الإنصاف فى من تريد أن تجعل الوسام الجديد آية تبريزهم فى العلم والحكمة فإن الأمة الناهضة فى حياتها العقلية قد تحتمل أن ينال شارة المجد المادى فيها من ليس ماجداً ولكنه يؤذيها أن يحمل شارة العلم الجهلاء . ونتمنى أن يدنو فى مصر اليوم الذى لا يحتاج العلم فيه إلى الأوسمة والألقاب .

فى المعاهد الدينية *

نفحت الحكومة السلطانية مدرسى الجامع الأزهر والمعاهد الإسلامية التابعة له بزيادة سنوية فى الميزانية تبلغ ٧٨٠٠ جنيه لتحسين مرتباتهم وهى زيادة ذات وقع فى ميزانية المعاهد الدينية التى كانت لا تبلغ ٦٢٠٠٠ جنيه مع أن فى المعاهد ما يبلغ ١٦٠٠٠ من الطلاب والأساتذة .

ولقد كانت المدارس الإسلامية تعتمد فى تحصيل ما يقوم بكفايتها من المال على ما تقدره لها وزارة المعارف ولم تمد الحكومة المصرية يدها بالمساعدة لهذه المدارس منذ سنة ١٨٩٥ حيث وضعت وزارة المالية فى ميزانية تلك السنة مبلغ ٢٠٠٠ جنيه مصرى معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل .

وكاد الناس ييأسون من أن تتجدد هذه المعونة الحكومية ويظهر أن الأزهريين أنفسهم كانوا أشد يأساً لكن الحكومة السلطانية أخلفت الظنون وجادت على العلماء بمعونة كبيرة فى هذا العام .

ومن أجل هذا كان اغتباط أهل المعاهد الدينية بمساعدة الحكومة اغتباطاً عظيما رن له فى آفاق البلاد صدى ، وما زلنا نقرأ فى الصحف أخبار الوفود من العلماء فى قصر السلطنة وفى دار الوزير الأكبر ونتلو خطبهم وأشعارهم فى المديح والشكر حتى لكدنا نحسب أن صحفنا ستفتح فى الأدب العربى ذلك الباب القديم باب أخبار الوفود .

وقد تفضل صاحب العظمة السلطان بهبة سنية للمجاورين الأغراب الذى انقطعت بهم السبل ثم تفضل بمبلغ ١٠٠٠ جنيه لطلاب الأزهر وتفضل بالأمس فنح طلاب باقى المعاهد ٧٠٠ جنيه .

---

* السفور : العدد ٩٧ ، السنة الثانية — الجمعة ٢١ جمادى الثانية ١٣٣٥ ، ١٣ أبريل ١٩١٧ .

ونرجو أن يكون فى توالى هذه النفحات من لدن حضرة صاحب العظمة ومن حكومته بشائر حياة جديدة للمعاهد الدينية التى يؤمل من وراء صلاحها صلاح كبير للكثير من شؤوننا الاجتماعية المتصلة بالدين ونرجو أن تكون حركة الشعر والخطب التى ظهرت فى السادة العلماء على أثر ما وصل إليهم من الخير بداية نهضة أدبية تسمعنا غداً فى مختلف شؤون الحياة نغماً أشد وأحسن تطريباً .

يسرنا أن تحسن حال مدرسى المعاهد الدينية وأن يكفوا هم المعاش ليفرغوا لما هم بصدده من خدمة المبادئ الدينية الصحيحة و إخراج علومنا من حظيرة الجمود إلى ميدان الرقى والنمو الذى تمرح فى جنباته حرة نشيطة عقول الأمم الراقية .

أصبحت الأمة شيقة إلى العلم مستعدة لأن تقدر كل ثمرة علمية ذات أثر فى الحياة المادية أو الروحية فالفرصة سانحة لمن يريد من الأزهريين أن يضرب بسهم فى النهضة العلمية الناشئة فى البلد والتى لا يزال حظ الأزهريين منها قليلا .

وإن الأمة المصرية التى يسرها أن يجد الأزهريون من الرعاية السامية ما وجدوا — تنتظر أن تجد فى هذا العنصر القوى حياة تعينها على السير فى سبيل الرقى والكمال .

كان اللسان الناطق فى تلك الوفود التى مثلت رجال المعاهد الدينية فى قصر عابدين وبين يدى كبير الوزراء من جماعة الشبان من العلماء وإن آمالنا المعقودة بنواحى الشباب المصرى الذى نرجوه حتى فى معاهد الشيوخ .

الزواج*

شهدت مجلساً جرى فيه ذكر الزواج فى مصر .

قال قائل : لشد ما يؤلمنى أن أرى فتية من خيرة الفتيان يقبلون على الزواج ثم يطلقون ولو أنهم أحكموا الروية فى حسن الاختيار من قبل أن يربطوا عقدة النكاح أو أحسنوا الصبر على ما بدا لهم من نقص فى زوجاتهم لكان خيراً لهم .

أجاب مطلق من القوم : لقد تزوجت وأنا أعرف عروسى على أكمل ما يمكن أن يعرف مريد زواج فى مصر خطيبته حتى إذا عشنا عيشة الزوجين أنكرت من صاحبتى كل شىء ووجدتها إنساناً آخر لا يناسبنى فى فكر ولا يستطيع أن يرضينى من الحياة ولا أرضيه وإنى لأعلم أن الطلاق سبيل وعر ويعلم الله لقد ركبته مضطراً .

هنالك تحدث القوم فى المرأة المصرية وأجمعوا على أنها محجبة الأخلاق بقناع من التصنع أشد من ذلك البرقع الذى يستروجهها وكأن ما أخذت به من إخفاء ذاتها عن الناس عودها أن تخفى من أمرها كل شىء .

قال ريفى من الجماعة : لعل الفتاة الريفية أقرب إلى سلامة الفطرة وأدنى إلى السذاجة وأسرع إلى التأثر بحال زوجها فيسهل عليه أن يخلطها بنفسه ويحقق فيها معنى الزوجية الصالحة المبنية على التشارك فى العواطف والتجانس فى المشارب ، فأيأسنا القوم حتى من الريفية وقالوا إن فتيات القرى من الأسر المتوسطة والعالية مأخوذات بضروب من الشدة تخنق كل نزعة حرة فى عواطف النفس وإدراكاتها ومن خنقت فيه نزعة الحرية فليس من الخير فى شىء .

---

* السفور : العدد ٩٨ ، السنة الثانية — الجمعة ٢٨ جمادى الثانية ١٣٣٥ ، ٢٠ أبريل ١٩١٧ .

إن شباننا فهموا حقيقة أن الزوجة ينبغي أن تكون شريكاً في الحياة ذا عقل وقلب ولم يعودوا يبحثون عن فتيات كل فخرهن في الغنى فإن السعادة لا تشرى بمال ولا عن غانيات كل حظهن في ذلك الجمال البارد الذى لا تنعشه حرارة القلب الحر الحساس وحياة العقل الذكى .

ويهمنا أن تصل إلى السيدات المصريات أمانى الرجال فى من يريدون التزوج بهن وآراؤهم فى المرأة المصرية .

ويا ليت شعرى : ماذا يقول نساؤنا فى الرجال ؟

قضايا الغرام*

روت الصحف الإنجليزية أخبار شبان من المصريين الذين يتعلمون فى إنجلترا وقفوا بين يدى القضاء هناك فى خصومات غرامية وحكم عليهم بأن يدفعوا مهوراً غالية .

ومن خطب الحسناء لم يغله المهر .

وقد اتخذ بعض الجرائد الأوربية هنا من ذلك باباً للمز المصريين .

يتساءلون ماذا عسى أن يصبى غانية أوربية من رجل مصرى ؟ ولوددنا ألا يكون عندنا شىء يصبى الغربيين فإننا ندفع ثمن ذلك غالياً ندفعه أغلى من تلك المهور التى دفعها إخواننا العاشقون على شاطئ التاميز .

عجيب من تلك الصحافة المنتسبة إلى أمم تريق دماءها دفاعاً عن الحرية أن تريد تقييد العواطف وتنزع فى الحب إلى نخوة مكروهة لتحرم على القلب الأوربى المنتعش بدم المدنية الحديثة أن يتصل بأسباب الغرام إلى قلب مصرى يضطرب فى جنباته دم المجد الشامخ ودم الأمل الفتى .

* السفور : العدد ٩٩، السنة الثانية — الجمعة ٥ رجب ١٣٣٥ ، ٢٧ أبريل ١٩١٧ .

لا نعيب على فتياننا أن يحبوا ولا نعيب عليهم أن يريدوا الزواج بعشيقاتهم ولكننا ننصح لهم ألا يسترسلوا إلى ميعة الغرام الأولى فى مرح الشباب المتقد وأن يرددوا الفكر فى أمر الزواج فإن أمر الزواج خطير خصوصاً فى أمة تعد لتحقيق آمالها أسرة الغد وذريتها .

ونعيذ شباننا أن يكونوا ممن يدنس طهارة الحب بجعله حبالة لغواية قلب طيب يذهله الإخلاص عن تميز الخداع فى الحب .

سمعت غير مرة أناساً يقولون :

ينبغى أن نخلص أولادنا من شوائب الضعف ولين العواطف ليشب الجيل الجديد على حكم زمنه زمن القوة والتزاحم على الانتفاع . يريدون أن يصير الناس فى الحياة جنوداً يطلبون الغنيمة بحد السيف ويرون الضعف للجمال والخضوع لحكم الحب مما لا يليق بالجنود .

قد يكون فيما يقولون حق !

وإننا مع تمنياتنا أن يقوى شباننا كل القوة فلا يدركهم فى الحياة خور نتمنى أن لا تخلص نفوسهم من نزوة الضعف للحب فإن فى هذا الضعف قوة أيضاً .

الحزن*

أرى فى الحزن معنى من معانى الإحساس اللطيف الذاهب فى أعماق النفس حيث لا يبلغ السرور ، أرى الحزن كمالا لأنه يصرف النفس عن المظاهر الملهية الطائشة إلى العواطف الرزينة المحكمة .

الحزن غشية من الشعور بالألم تسير فى العصب الحساس بنوع من الخدر مريح على ما فيه من لذعات موجعة ، وأهل الحزن هم أولئك الذين خلصت قلوبهم من كل شوب لأنها محصت بنار الجوى فعادت جوهراً مصفى .

الحزن أدخل فى باب العواطف من السرور ، ومظاهرٌ أغنى بمعانى الجمال من مظاهر هذا . وإذا أعجبك الفم اللطيف بساماً تلمح ثناياه الغرّ من بين شفتين غضتين كأنهما وردة فتق الربيع عنها غلافها سحراً فأين ذلك من عينين ساجيتين فى نظراتهما الرهيبة المشتعلة مزيج من حنان وعذاب ؟

الحزن شغل الروح فالذين لا يعرفون الحزن أرواحهم هواء والحزن خير كله لأنه توأم الحب ومصدر الرحمة والإحسان .

كل شعور يتغلغل فى النفس يصل إلى موطن الحزن حتى لكأن الحزن هو كمال الشعور ، وإن نشوة الطرب القوى لكصرعة الألم القوى .

ومن لم يذق طعم الحزن فهو لم يذق شعوراً قوياً .

والضاحكون كثيرون لأن الحركة العصبية التى تزحزح شفة عن شفة تقدر عليها كلمة فارغة أو حركة شاذة ولكن الدمعة السخينة لا تخرج إلا من القلب السخين وأكثر قلوب الناس باردة .

ولو أن فى القلوب حرارة لكان فيها خير .

---

* السفور : العدد ١٠٠ ، السنة الثانية – الجمعة ١٣ رجب ١٣٣٥ ، ٤ مايو ١٩١٧ .

السرور انتعاش صناعى لا يصل أثره إلا إلى ظاهر الفؤاد ثم يزول سريعاً والمسرورون أهل خفة وتقلب وأغلب ما يكون جمالهم صناعياً .

أما الحزن فنى أعماق الفؤاد مسكنه وفى جميع أجزائه أثره وهو سكون يرقى بالنفس إلى عالم السكون عالم الإلهام والجمال ولقد كان وحى النبوة كثيراً ما يأتى النبيين فى غشية الحزن ولا يزال خير إلهام الشعراء إلهام المحزونين .

يا حزن :

كأنى أحببتك لكثرة ما عرفتك !

وعرفت الحزن مذ فارقتهم　　وكأنى ما عرفت الفرحـا !

الجامعة المصرية*

يهم كل مصرى وكل محب لخير مصر أمر ذلك المعهد العلمى . . . الذى تمخضت عنه ساعة من ساعات الأريحية .

ظلت الجامعة من ذلك الحين وليداً رقيق المزاج يصح يوماً ويمرض أياماً .

وما كان لأحد أن ينكر على من بيدهم أمر الجامعة المصرية كفايتهم فإنهم من خيرتنا ذكاء وعلماً وجاهاً ولكنهم لم يعملوا ما يستطيعون وما يستطيعونه كثير .

ولقد نقلت إلينا صحف الأخبار فى هذا الأسبوع بشائر نشاط جديد فى مجلس إدارة الجامعة اشتد به ساعد الرجاء .

قرر مجلس الإدارة العمل بأسباب الإصلاح الآتية منذ بداية العام الدراسى القابل :

(ا) جعل استماع الدروس بالمجان لغير المنتسبين ونقص رسوم الانتساب.

(ب) إعادة التدريس لمقارنة اللغات السامية .

(ح) إنشاء محاضرات ليلية عامة .

ولا شك فى أن ذلك من أسباب النهوض بالجامعة واجتذاب الطلاب إليها .

ونحن نغتنم هذه الفرصة لنشكر مجلس إدارة الجامعة عرفاناً لحسن صنيعه فى السعى لإصلاح معهدنا العلمى العزيز ولندلى إليه بالنصيحة التماساً لتحقيق آمالنا فى الجامعة المصرية التى نرجوها لخير مصر وإن كان سعيها بطيئاً .

الجامعة هى طائفة من المدارس تتولى التعليم العالى ، وهذه المدارس هى الكليات التى تجمع كل واحدة منها شعبة من شعب العلم على الوجه الذى

---

* السفور : العدد ١٠١ ، السنة الثانية – الجمعة ٢٠ رجب ١٣٣٥ ، ١١ مايو ١٩١٧

رضيته الناس فى تقسيم مجاميع العلوم، فلا بد لتحقيق معنى الجامعة من توزيع المجاميع العلمية توزيعاً حسناً ومن جعل التعليم راقياً تمحص فيه المسائل تمحيصاً لا يضطلع به إلا المنتهون .

وإذا نظرنا إلى جامعتنا وجدناها تشتمل على قسمين : أحدهما قسم الآداب والثانى قسم العلوم الجنائية .

وكلا القسمين ناقص فى استيعابه لضروب العلم اللازمة لطلابه .

ولا يخلو تأليف المجموعات العلمية فيهما من مواضع للملاحظة .

قد يكون مجلس إدارة الجامعة معذوراً فى العجز عن تكميل أقسامها ولكنه كان جديراً بأن يراعى البدء بإنشاء ما تظهر الحاجة إليه من الكليات وتعينه الأحوال على تكميله لا أن ينشئ كليات ناقصة بعيدة التأليف يتفرق جهده بينها .

ولأن تكون الجامعة المصرية كلية آداب قريبة من الكمال خير لنا من أن تحتوى على كليتين ضئيلتين .

ويقول العارفون بأمر التعليم إن التدريس فى الجامعة المصرية ليس تدريساً راقياً ولا فضل له على التدريس فى المدارس الثانوية والمدارس الحكومية الخاصة .

ذلك بأن أكثر أساتذة الجامعة على فضلهم وتفوقهم يتولون أعمالا تشغل معظم وقتهم، فهم لا يهبون لدروس الجامعة إلا ما فضل من نشاطهم المجهود . وأنى لمن هذه حاله أن يخلص للتحقيق العلمى فيكون قوة عاملة فى الحركة العلمية الكبرى ؟

أساتذة الجامعات رجال يقفون حياتهم على درس علم أو درس بعض نظرياته فتكون دروسهم ثمرة ليال ساهرة وعقول ناضجة ونشاط وافر وقاب خالص .

وأولئك هم الذين يحيا بهم العلم وتهتدى بهم الأمم إلى خير مناهج العرفان .

وما أحوج بلادنا إلى هؤلاء .

ليلة فى الأوبرا*

كانت الحفلة السنوية الكبرى لنادى الألعاب الرياضية بالجزيرة من أظهر حفلات السرور رونقاً وأكملها جمالا .

احتشدت لها البارحة فى الأوبرا أزهار مصر الباسمة فى أكمام الشباب ولم يبق أحد فى البلد من le monde chic إلا حواه مسرح إسماعيل الكبير .

كان شباباً كله ذلك الندى تفيض من أرضه وسمائه نفحات الصبا حتى ليكاد الشيخ فيه يشعر بأنه عاد فتياً .

للأوربيين حفلات فى نواديهم وملاهيهم وبيوتهم تكون معارض جمال تظهر فيها حركات الرقى فى الذوق فترى الناس على علم بما يتجدد من أساليب التجمل وما تكتشف الأذواق من أسرار الجمال أما نحن فقلما تسنح فرصة تمكننا من تعرف جهد الجمال والذوق فى قومنا ، وما نلمح الجمال والزينة إلا خلساً فى الطرقات. وقد كثرت السيارات فى هذه الأيام فأصبح الحسن يمر بنا مسرعاً لا تلحقه العيون . على أن حفلة البارحة أرتنا مبلغ قومنا من الكمال فى لطف التأنق وحسن الاختيار لزينة المجامع وآدابها ، ونتمنى أن تكثر هذه الحفلات ليقوى أثرها فى تنبيه الأذواق إلى مظاهر الجمال وإذا قالوا إن الزمان زمان حرب فما نظن الإنسانية مستغنية عن الجمال فى حرب ولا سلم .

لم يكن فى الحفلة سيدات إلا قليلا وما نراه إسرافاً أن يتمنى متمن أن يغشى نساؤنا مثل ذلك المجتمع لنستطيع أن نشرف أيضاً على محضرهن فى المجامع وتطور ذوقهن ولعلنا نستغنى بهذا عن الخاطبات اللواتى هن شر واسطة فى إحكام عقدة بين زوجين .

---

* السفور : العدد ١٠٢ ، السنة الثانية – الجمعة ٢٧ رجب ١٣٣٥ ، ١٨ مايو ١٩١٧ .

وإذا لم يأمن رجالنا على نسائنا مجمعاً فيه القائمون على أمر الحكم فى البلاد من وزراء وواقفين على باب الوزراء فأى مجمع يأمنون .

لم يغب عن حفلة الأمس من أصحاب المعالى إلا وزير الأوقاف ووزير الأشغال ووزير الزراعة فيما أظن .

أذهلنا وصف الحضور عن نظام الحفلة نفسه وكان غاية فى حسن الاختيار وحسن التأليف ما بين تمثيل وإنشاء وفكاهة ونأسف أن لا يكون فى الوقت متسع لتفصيل ذلك كله على أننا نبادر بإظهار إعجابنا بما وصل إليه شبابنا من المهارة والإبداع فى الذوق الموسيقى فقد لطف إحساسهم من هذا الجانب حتى وصلوا إلى الإحكام فى أنواع من الغناء جديدة فى قومنا كمزيج الأغانى الذى ألقاه عبد الله أفندى شداد وحتى مرنت جسومهم الغضة على الحركات الموسيقية مران أصواتهم الجميلة على اللحن الجميل فأجاد بعضهم فى التوقيع على النغم وصوته وحركاته معاً .

نكرر القول بأن حفلة نادى الألعاب الرياضية كانت آية فى الجمال وحسن الذوق ولم يكن ينقصها شىء إلا أنه لم يكن فيها ما يدل على أنها حفلة ناد للألعاب الرياضية .

ناشئة الكتاب*

ترد إلى السفور مقالات عديدة يعتبرها كتابنا الفتيان فصولا أدبية تليق بباب الأدب ، وقد جارينا رغباتهم زمناً فنشرنا غير قليل من تلك المقالات ، لكننا نجد هذا الروح ينتشر فى الشباب فحق علينا أن ننبهه إلى تحرى غاية أكمل فى باكورة ثمره الأدبى .

قد لا يخلو من جمال ما يكتب الأدباء من النوع الذى نحن بصدده ولكنه

* السفور : العدد ١٠٤ ، السنة الثالثة — يوم الاثنين ٨ شعبان ١٣٣٥ ، ٢٨ مايو ١٩١٧

جمال فى الصورة اللفظية وما يتبعها من مظاهر الخيال الذى يتعمل الكاتب أن يزين به معانى عاطلة .

وتعلق أهل البلاغة بالمحاسن الراجعة إلى اللفظ قد أضر بنهضة الأدب العربى الأولى ونخشى أن يضر بها اليوم مرة أخرى إذا ظل شبابنا يكتبون على ذلك النمط الذى يسمونه شعراً منثوراً وهو خلو من حرارة العواطف التى تماوج فى الأبيات على توقيع النغم الشعرى تماوجاً يحدث أريحية يعرفها من يطربون للشعر ، وخلو أيضاً من حسن البيان الذى يجلى الحقائق ويكشف أسرارها كما يرسم المصور تفاصيل ما يصوره حتى يكاد يرسم تمشى الأرواح فى الأجساد .

إذا كان الناس اختلفوا قديماً فى أن جمال البيان راجع إلى اللفظ أو المعنى وظنوا فى زمن من الأزمان أن الكاتب والشاعر صانعان تتجلى مهارتهما فى الألفاظ وما إليها من الصور التى تلبسها المعانى استعارة وتشبيهاً — إذا كان كل ذلك فى ما مضى ؛ فقد ذهبت دولة الألفاظ اليوم وقامت على آثارها دولة المعانى ، دولة الفكر والشعور .

النسيب فى الشعر *

النسيب — على ما ذكره قدامة بن جعفر — هو ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن . أما الغزل فهو التصابى والاستهتار بمودات النساء . قال قدامة :

« فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون فية من الخشن والجلادة ومن الخشوع والذلة

* السفور : العدد ١٠٦ ، السنة الثالثة — الاثنين ١٤ شعبان ١٣٣٥ ، ٤ يونية ١٩١٧

أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض » .

ثم قال : « وقد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة وآثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الداثرة» . واختار صاحب نقد الشعر من هذا المعنى الأخير فيما اختاره قول محمد بن عبيد الأزدى :

فلم تدع الأرواح والماء والبلى ... من الدار إلا ما يشوق ويشغف

وقول الشماخ بن ضرار :

رأيت سنا برق فقلت لصاحبى ... بعيد بعلو ما رأيت سحيق
فبات مهما لى يذكرنى الهوى ... كأنى لبرق بالحجاز صديق
وبات فؤادى مستخفاً كأنه ... خوافى عقاب بالجناح خفوق

وعاد بعد ذلك قدامة بن جعفر يقول فى النسيب تلك الكلمة الطيبة :

« ومما أختتم به القول أن المحسن من الشعراء فيه هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو داثر إنه يجد أو قد وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر .

فمن ذلك قول أبى صخر الهذلى يصف ما أرى أن كل متعلق بمودة يجد مثله :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره أمر
لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها ... بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجـــاءة ... فأبهت لاعرف لدى ولا نكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تنسى لب شاربها الخمر»

ومما رضيه فى هذا الباب وأثنى عليه كل الثناء قول الشاعر :

يود بأن يمسى سقيماً لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلى لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

قال : « فهو من أحسن القول فى الغزل وذلك أن هذا الشاعر قد أبان فى البيت الأول عن أعظم وجد وجده حب حيث جعل السقم أيسر ما يجد من الشوق فإنه اختاره ليكون سبيلا إلى أن يشفى بالمراسلة فهو أيسر ما يتعلق به الوامق وأدنى فوائد العاشق وأبان فى البيت الثانى عن إعظام منه شديد لهذه المرأة حيث لم يدع نفسه على سجيتها الأولى حتى احتاج إلى أن يتكلف سجايا مكتسبة يتزين بها عندها وهذه غاية المحبة » .

* * *

وإذا كان قدامه بن جعفر وهو أول من كتب فى علم جيد الشعر ورديئه قد أسرف فى مدح الرخاوة والتذلل فى النسيب فقد ألهم الرشد فى ما اختتم به القول من وصف المحسن من الشعراء فيه على ما نقلنا عنه آنفاً .

وما نظنه يريد بما أكثر به من ذكر الذلة والانحلال والرخاوة إلا ما يناسب وصف الجمال النسائى وذكر عواطف الغرام من حلاوة الطريقة ورقة الأسلوب وحنانه .

وهذا هو المعنى الذى بينه ابن رشيق فى قوله :

« حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعانى سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار رطب المكسر شفاف الجواهر يطرب الحزين ويستخف الرهين » .

النسيب باب من ألطف أبواب الشعر إذ هو وصف لعواطف متغلغلة فى مذاهب الشعور الباطنى ، وصف للغرام تبعثه نظرة فاتنة ، وللوعاته المميتة وبشاشاته المحببة .

النسيب حنين المغرمين ونواح المشوقين .

قال « سيلى بريد هوم » الشاعر الفرنسى : « ما عدا الحب لا يستطيع أن يملأ القلب كله وما الشعر إلا زفرات قلب يفيض » .

وقد ذهل نقاد الشعر بعد ابن قدامه عن هذه المعانى فى النسيب فلم يتعرضوا إلا لجهة الصناعة فيه حتى خصوا الكلام بالنسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه فقالوا : ينبغى أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم وإن لا يكثر عنه ، وحتى يتحرى الشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو فى أفواههم كثيراً ما يأتون بها زوراً .

وساعد على هذا الاعتبار أن نغمات التغزل هى أنسب شىء بالتوقيع الشعرى وأسهل تناولا لصانع الألحان .

ومن أجل هذا كثر المتغزلون فى الشعر العربى وأصبح النسيب ألف باء الشعر لكل من هتف بكلام موزون .

ولقد نتمنى أن يعلم شعراؤنا حق العلم أن النسيب مسلك فى الشعر وعر لأن المجيد فيه لابد أن يكون ذا لوعة تهتز أوتار قلبه بتباريح العشق الكبير أو أن يكون صناعاً قوى الإحساس قوى الخيال قوى النفوذ إلى أعماق القلوب ليصف أسرار غرامها وهى ألطف أسرار القلوب .

يحسن بالشادين فى الشعر أن يروضوا أنفسهم على وصف مظاهر الجمال المادى وآثارها فى الإحساس وعلى المذاهب السهلة من أبواب الشعر حتى يتسع خيالهم للنسيب وتقوى قلوبهم لمعانى العشق العظيم الذى يقول فيه جان جاك روسو :

« العشق العظيم كالرجل العظيم قليل فى الناس » .

البيان والجمال*

« قيل: شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال »

المثل السائر

الجمال لا ينتهى إلى حد ، لأنه كمال ، تتفاوت مراتبه إلى درجه الكمال المطلق ، التى يعجز الناس تصورها ويصعقهم تجليها .

أما البيان فهو الدلاله الظاهرة على المعنى الخفى ، وبمقدار ما فى معانى الكون من التفاوت تختلف وجوه الدلالة عليها اختلافاً لا منتهى لمذاهبه. وبين الجمال والبيان معانى شبه غير هذه : فكلاهما يرجع إلى مدركه فى الذوق وفى كليهما اتصال بالحس الظاهر إلى جانب الاتصال الكبير بالإحساس الباطنى . وعند التمحيص ، فالحق أن البيان جمال . ولما كان الجمال لا نهاية له فالبيان لا نهاية له .

لم يختلف علماؤنا فى القديم والحديث فى أن البيان جمال .

قال الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز فى فصل عقده لتحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة :

« ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجرى مجراها . . . غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فى ما له كانت ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق أن تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب » .

وكثيراً ما يقول أدباؤنا إن الفصيح هو الحسن ، ولست تجد لفظة الحسن وما اشتق منها مستعملة فى كلام ما قدر ما هى مستعملة فى كتب البلاغة .

---

* السفور : العدد ١٠٧ ، السنة الثالثة — الخميس ١٧ شعبان ١٣٣٥ ، ٧ يونية ١٩١٧

ولما أرادوا أن يبينوا معنى هذا الحسن ، اشتبهت عليهم مذاهبه كما اشتبهت على الفلاسفة من قبلهم مذاهب الجمال .

قال ابن الأثير فى المثل السائر :

« وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين . وإنما كان ظاهراً بيناً لأنه مألوف الاستعمال وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذى يدرك بالسمع إنما هو اللفظ لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف . فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة لأنه ضدها لمكان قبحه » .

أما عبد القاهر فلم يقصر الحسن على اللفظ وحده .

قال فى صدر كتابه أسرار البلاغة :

« إعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ويبين مراتبها ويكشف عن صورها ويجنى صنوف ثمرها و يدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها . . .

ثم إن الوصف الخاص به والمعنى المثبت لنسبه أنه يريك المعلومات بأوصافها التى أوجدها العلم عليها ويقرر كيفياتها التى تناولتها المعرفة إذا سمت إليها .

وإذا كان هذا الوصف مقوم ذاته وأخص صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر وبه أولى وأجدر . ومن هنا يبين للمتحصل ويتقرر فى نفس المتأمل كيف ينبغى أن يحكم فى تفاصيل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان .

ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ . . . »

اختلف الأدباء فى مناط الحسن البيانى : أهو اللفظ أم هو المعنى . والذين ذكروا المعنى أرادوا به الدلالة والإفهام . فرمى نظر الجميع يرجع على التحقيق إلى اللفظ أو صلة اللفظ بالمعنى . ذلك بأن القوم ينظرون إلى وجه واحد من

وجوه الجمال هو جهة الصناعة المترتبة على ما يسمونه ملكة البيان .

وإن هناك لجانباً للجمال أبعد غوراً ، وأنفذ سحراً ، وأقوى أثراً ، هو جمال الفكرة أو العاطفة التى يراد بالبيان العبارة عنها .

وينبغى أن لا يستجاد قول من قائل حتى يكون حسناً فى معناه ، من قبل أن ينظر إلى جمال اللفظ وحسن دلالته .

المجيد فى القول والكتابة هو من يلطف فهمه للحقائق وشعوره بالعواطف ثم يحسن الدلالة على ما فهمه عقله وما شعر به فؤاده .

المجمع اللغوى*

أصبح لنا بحمد الله مجمع لغوى كما ذكر فى الجرائد يتألف من وجوه العلماء الدينيين ووجوه العلماء غير الدينيين .

وللمجمع الوليد من جاه أهله ، جاه العلم والمناصب ، ومن كنف الحكومة التى ترعاه فى مهده ، ما يبشر بثبات قدمه ونجاح سعيه إن شاء الله .

اللغة هى الأداة اللازمة لكل ضرب من ضروب الرقى ، هى آلة التفاهم ولا بد لنا من آلة صالحة لفهم الحياة بالمعنى الحديث الشامل لجميع جهات المدنية الغربية الغالبة اليوم .

ولقد كانت لغتنا مستعصية على المصلحين بتنوعها إلى نوعين :

لغة علمية جديدة لم تكسب بعد قوة اللغات الراقية الصالحة للعلم والحضارة.

ولغة فصيحة قديمة سبقتها خطوات الرقى الاجتماعى لبعد العهد باستعمالها فى شؤون الحياة ولأن لها فى نفوس الناس حرمة تقديس دينى يعسر معها أن ينالها التغيير اللازم لكل إصلاح وكل رقى .

---

* السفور : العدد ١٠٨ ، السنة الثالثة — الاثنين ٢١ شعبان ١٣٣٥ ، ١١ يونية ١٩١٧

ولقد وجد أنصار للغة العامية يريدون أن يجعلوها لساننا لأننا نعرفها ونستعملها صباح مساء ولأننا واضعوها والقادرون على التصرف فيها بما نراه أصلح لحالنا . وكان الأكثرون أنصاراً للغة القديمة الحافظة تذكاراً ماضياً والتى وسعت أساليبها هتاف حماستنا وأناشيد طربنا ووسعت سنين زفرات آلامنا وهى صالحة لأن تسع حداء نهضتنا الحديثة فى سبيل الأمل .

كان المحافظون كلهم أنصاراً للغة القديمة لأنه تراث دينى .

وكان كثير من المجددين يريدها لأنها لغة موجودة كاملة لا ينقصها إلا أن تخرج من أسر الجمود لتكون حية نامية متحركة وكانوا يرون أن إصلاح لغة قديمة غنية أيسر من تكوين لغة ناشئة لم يشتد لها ساعد ولا قدم .

وقد غلب هذا الرأى الأخير وانتصرت اللغة الفصيحة لكن أمر إصلاحها ظل يسيراً بطيئاً لا يستطيع أحد أن يساعد سيره الطبيعى إلا خلسا متهيباً للتغيير فى ما يرى أناس كل تغيير فيه بدعاً .

والآن قد خطونا الخطوة الكبرى فقام فينا مجمع للإصلاح اللغوى يتولى زعامته جلة الشيوخ ، وكنا بالأمس نرهب الشيوخ عند كل دعوة لإصلاح فى اللغة .

يقولون إن المجمع اللغوى يشتغل بوضع الكلمات الجديدة للمعانى الجديدة ، ونيته أنه كلما أتم جملة أبرزها للناس فتكون لهم دستوراً ، وهو عمل شريف الفائدة جزيل النفع .

على أننا نريد أن نضع بين يدى المجمع الكبير كبرى أمانينا فى ما يتعلق برقى اللغة ونسترعى نظره إلى ما هو جدير بالتقديم من معضلات هذا الباب من أبواب الإصلاح .

أساس كل إصلاح فى اللغة العربية هو تعديل رسمها الكتابى على وجه يضمن سلامة صيغها من التحريف وتركيبها من اللحن .

عندنا حركات يدل عليها بالشكل كما يدل على الحركات المحدودة بحروف

المد وقد انصرف الناس عن الشكل انصرافاً لا يرجى أن يقبلوا بعده عليه لما تبين لهم من صعوبته .

فصرنا لا نقيم ألسنتنا بالألفاظ على وجوهها إلا بعد طول الدرس والممارسة لعلمى النحو والصرف وهما بمكان من الطول وبعد التناول على المحصل .

ومن ذا الذى يريد لأمته أن تنفق من عمر شبابها سنين فى تحصيل العلوم اللفظية التى ليست بذات نفع متصل بالحياة والتى يمكن الاستغناء عنها فى تصحيح اللهجات بطريقة فى الرسم هينة .

عسى أن يكون المجمع الناهض مؤتمراً يحل هذه المعضلة وأشباهها ويسهل على الأمة سبيل العلم والرقى

نقد الشعر*

كنا نحب أن نتعرض بالنقد لكل شعر ينشر فى السفور ولكننا خفنا أن نروع بالمفاجأة تلك البلابل الصادحة على أفنان الصبا فأردنا أن نأخذ بالرفق فى نقدها .

ويسرنا أن نجد من شعرائنا أنفسهم ميلا إلى تمحيص أشعارهم بل نراهم يتولون هذا التمحيص فيما بينهم .

نتمنى أن يكثر بيننا النقاد وأن يرغب شبابنا فى النقد المبنى على النمط العلمى وعلى لطف الملاحظة والإنصاف رغبتهم فى نظم القريض . وإن بلدنا لمحتاج إلى النقاد بمقدار ما هو محتاج إلى الشعراء .

بعث إلى السفور شاعر ظريف مقالا فى نقد شاعر ظريف ننشره مبتهجين ثم نقص عليه بما يبدو لنا :

* السفور : العدد ١٠٩ ، السنة الثالثة – الخميس ٢٤ شعبان ١٣٣٥ ، ١٤ يوليو ١٩١٧ .

نقد لقصيدة الوكيل

١ ــ أغلاط نحوية :

أعمل سيوفك فى الألى متهافتين على جناك

لا يوجد عائد . والصحيح الألى هم متهافتون .

إنى أحب المجرفى فلج تبسم عنه فاك

يجب أن تكون فوك لأنه فاعل من الأسماء الخمسة .

٢ ــ أغلاط لغوية :

لا يوجد فى اللغة الشراك بمعنى الشرك وإنما الشراك النعل .

لا يوجد التفانى بالمعنى المقصود لأن هذا تفاعل لا يكون إلا بين اثنين فيقال « تفانى القومان » أعنى أفنى بعضهم بعضاً .

لا يقال تقلد الدرع وإنما يقال لبسها .

٣ ــ ركاكة الأسلوب :

والفتك من حق القوى كذاك سنة من يراك

ما قد كفاه تفانيا حتى استزاد وما كفاك

٤ ــ غموض :

أواه من رق دها جسم المتيم إذ دهاك

صدقوك إيماناً وإن الكذب أبلغه تقاك

٥ ــ عدم مراعاة النظير :

أمسى يناهضة الهوى حتى تصباه هواك

كيف يناهضه حتى يصبيه ؟ يجب أن تكون غلبه ؟

كيف يكون أعذب الوصل انتهاك « حرمته » ؟

كيف يعذب الفتك من غصن الأراك الذى يوصف بالثنى .

إن الطبيعــة أجــزلت لك من قواهــا فى صباك

هذا غزل « ما شست » المصارع .

ضربت حبائلهــا الشباك والقلب فى الأسر لا يجوز

يجب أن تكون « زمت » لأنه فى الأسر .

لاحظ حضرة الناقد الأديب على بيتين ملاحظات نحوية والملاحظة الأولى ذات وجه من الصواب لم ينظر إليه الناقد فليس الخطأ من عدم وجود العائد لأن كلمة متهافتين اسم فاعل يشتمل على ضمير يصلح أن يكون عائداً ولكن موضع الخطأ هو جعل صلة « الألى » لفظاً مفرداً هو « متهافتين » مع أن الصلة لابد أن تكون جملة إلا إن كانت صلة « ال » الموصول الاسمى .

أما استعمال « فاك » مكان « فوك » فجائز على لغة القصر فى الاسماء الخمسة .

الأغلاط اللغوية

أصاب الناقد فى قوله إن الشراك لا يكون بمعنى الشرك،والشراك فى اللغة سير النعال (لا النعال عينها) ، والملاحظة على كلمة التفانى وجيهة ، ولا نظن أن من الغلط أن يقال تقلد الدرع .

ركاكة الأسلوب

لا نرى وجه الركاكة فى البيت الأول أما البيت الثانى ففى أسلوبه من غير شك ضعف « غموض » .

النقد فى موضعه

عدم مراعاة النظير :

برغم ما فى ملاحظات الناقد على هذا الوجه من غموض قد يخفى به فهمنا فإننا نرى أن الحرص على مراعاة النظير فى اللفظ مما لا ينبغى أن يكون مرمى

نظر الأديب وموضع نقد الناقد .

ولا ندرى لم يريد الأديب الناقد أن يحرم الغزل فى إنسان أجزلت له الطبيعة من قواها إلا أن يكون الغزل عنده رحمة يبعثها منظر الضعفاء .

أما بعد فإننا نكرر القول بأننا نغتبط بإقبال شبابنا على النقد وقبولهم له غير أننا نريد أن نوجه أدباءنا إلى ناحية المعانى فى ملاحظاتهم ليتركوا الجانب اللفظى للنحاة واللغويين .

الصيام*

الصيام إمساك عن الطعام والشراب وما إليهما من المتاع المادى حوالى سبع عشرة ساعة فى كل يوم ، وإذا كان صعباً على الأنفس أن تترك لذاتها وحاجاتها الطبيعية والعادية زمناً غير قصير فإن فى كظم الشهوات ومدافعتها ثم الرجوع إلى إرضائها أنواعاً من الشعور قد لاتخلو من لذة للصائم هى لذة المغالبة للآلام ثم شفاؤها أشد ما تكون توانياً وأحوج ما تكون إلى الشفاء .

لا نريد بهذا أن نهون أمر الصوم على من يصومون فلأولئك من عوامل التقى وعواطف الدين ما يهون عليهم عناء الصوم . إنما نريد أن نصف حال الصائم كما نصف الأحوال الاستثنائية التى لا يتهيأ لكل النفوس أن تمارسها فقد أصبح الصوم حالة استثنائية بين من يوجب عليهم دينهم وتقاليدهم أن يصوموا .

* * *

يعرف الناس بطبيعتهم إحساس الجوع والظمأ . ومن ذا الذى لم يجع فى حياته ولم يظمأ ؟ ولكن للصوم حالة هى مجموع من ألم الظمأ والجوع وألم

* السفور : العدد ١١٢ ، السنة الثالثة — الاثنين ٦ رمضان ١٣٣٥ ، ٢٥ يونية ١٩١٧

الحرمان من تناول ما يذهب بهما حرماناً ليس هو الفقر الذى يورث النفس ذلة الفقد وسورة الحسد لمن يملكون ما يسد الجوع والعطش والغيظ من النظم الاجتماعية التى تحرم جائعاً صديان وتعطى شبعان ريان ، وليس هو المرض الذى يجعل الماء العذب مرًّا والمأكل الشهى غير سائغ ، بل هو الطاعة لواجب محترم تختلف وجوه احترامه باختلاف تقدير الصائمين لمعنى هذه العبادة وإن لم تختلف فى البعد عن أسباب الحقد والتمرد والهلع .

آلام الصوم آلام هادئة عليها مسحة السكون الدينى وإن كانت شديدة متعبة فهى تبعث نوازع الرحمة والسلام على أن الآلام فى العادة تملأ القلوب قساوة وحرباً وتظهر آثار هذا الألم الهادئ على الهيئات الجسمية نفسها فترى للصائمين سحناً خاصة فيها وداعة وضعف برغم ذلك العبوس الفائض فى ثنايا الأسارير المتجعدة والشفاه المتقلصة ولعل سحن السيدات فى الصوم تكون أدنى إلى الملاحة ملاحة الرقة واللين وإن وهنت بالصوم تلك النفوس اللطيفة وضاقت بشاشتها بمظاهر الجوع والظمأ . وإذا كان للقوة أو الابتهاج جمال فإن للضعف والانقباض أيضاً جمالا .

وما أنسب ما جمعت الأقدار بين نزع السلاح وقضية فيلبيدس وشهر الصوم ، منسجمة تلك الحوادث فى معانيها انسجاماً كاملا . ولو أن مصوراً أراد أن يجعل لحالنا مثالا لصور رجلا يلقى سلاحه خدمة للأمن العام ويعطى ماله هدية ورشوة للحكام ثم يترك الطعام والشراب إيماناً واحتساباً .

ولكتب تحت الصورة قول الشاعر :

إذا شئت أن تحيا حياة سعيدة   فلا تتخذ شيئاً تخاف له فقدا

صيحة مزعجة *

فى متنفس الصباح ، بعد ليل أقاسيه بطىء الكواكب أغمضت جفوناً طال تسهيدها ، وذهبت فى سهوة ، هى فترة التعب ، ولكنها على كل حال مريحة .

كانت مملوءة بالأحلام تلك السنة — وما تفارق الأحلام يقظتى ولا نومى . ثم أزعجنى عويل ثكلى تتقاذف الآفاق الهادئة رنينه المضطرب ، فانتبهت انتباهة عجلى تخلط المفاجأة حقيقتها بخيالها ، يخيل إلى أننى أستمع من حجرتى نعى زوجتى لعزيزها المفقود . نهضت بآلام ثلاثة مزعجة ، زواج وولادة وثكل .

ثم جعلت اليقظة تردنى إلى الحقيقة والذكر فأخلص من تلك الآلام رويداً حتى استويت على قدمى أنظر يمنة ويساراً فلا أجد بحمد الله فى جانبى أحداً . ولم أعد أسمع إلا صدى الصيحات الوجيعة ، التى ترسلها تلك الأم الهائمة على وجهها فى الطرقات .

وشرد النوم عن عيونى بعد ذلك فلم أجد نوماً .

* * *

هنالك ذكرت ما نشر فى الجرائد من أن حكمدارية العاصمة أصدرت منشوراً تحرم فيه كل صياح فى الشوارع سواء كان نداء بائع على سلعة أم صياح شكاية أو ألم ، ولعلها حرمت أيضاً على أهل النعمة هتاف السرور . كادت نزعة الأثرة تغلبنى فأتمنى أن لو كان نفذ المنشور على وجهه حتى أنام مستريحاً ، ثم عاودنى رشادى فرضيت بالسهاد ثمناً لحرية الصائحين والصائحات .

إننى أكره أن تكظم فى صدور أصحابها أصوات تريد أن تفيض .

على أننى أتمنى أن يكشف نور العلم ظلام الجهالة عن عامتنا فتدنو

---

* السفور : العدد ١١٣ ، السنة الثالثة — الخميس ٩ رمضان ١٣٣٥ ، يونيه ١٩١٧ .

عاداتهم من الجمال والخير ويتهذب ما قد يكون فيها من منافاة للنظام العام أو حسن الذوق . أتمنى أن يأخذ العلم طريقة بين الناس ليصلوا إلى الخير أحراراً .

نحتاج فى تحقيق هذه الأمنية إلى نشر التعليم .

ولئن كانت وزارة المعارف تريد أن تبطئ بنا فى هذا السبيل ثلاثين عاماً ، فإننا نرجو كل الرجاء أن تكون الأمة أسرع إلى تحقيق آمالها .

حادثة فظيعة *

فى ميدان قصر النيل ، مغدى أهل النعيم إلى أماكن النزهة ، ومراحهم إلى دورهم المشيدة ، الموفورة الحظ من أسباب الرفه ، فى ميدان قصر النيل حيث لا تسمع إلا صفير السيارات وصهيل الجياد ، ولا ترى إلا مظاهر الغنى ، ومظاهر القوة ، ومظاهر الجمال ، وجدوه جثة هامدة دب فى تجاليدها الفناء ، صريع الجوع والظمأ ، وصريع الآلام والأمراض . ذهبت صيحاته إذ يطلب لقمة تقيم حياته المتهدمة ، وإذ تخرج نفسه الموجوعة فى ثنايا زفرات الألم .

كان فتى فقيراً ، أصابه داء عضال ، فدخل مستشفى قصر العينى ، ثم أخرجوه يأساً من شفائه ، لا تحمله رجلاه المتورمتان ، ولا يملك ما يسد الرمق . جعلت تتقاذفه الشوارع ويطارده الشرطة ، وقد رآه الراؤون يأكل من حشائش الأرض إذ لم يجد ما يأكله ولما اشتد به السقم والجوع ولم يلق بين الناس راحماً آوى إلى تلك الأرض البراح الواقعة فى أول شارع سليمان باشا من ناحية ميدان قصر النيل غير بعيد من نادى محمد على مجمع أهل الغنى من الأمراء والوزراء والكبراء ، وهنالك وجد مكاناً للموت إذ لم يجد مكاناً للحياة فى بلد لا يجد فيه المريض مستشفى يحتمل علاجه إذا طال ، ولا يجد العاجز

---

* السفور : العدد ١١٤ ، السنة الثالثة — الاثنين ١٣ رمضان ١٣٣٥ ، ٢ يوليه ١٩١٧

ملجأ يؤوى اختلاج صدره بالنفس الأخير . فى أول هذا الأسبوع مر رجل من الأجانب بميدان قصر النيل فأحس برائحة كريهة تتصاعد من ذلك الجانب الذى وصفناه آنفا فنبه الشرطى الواقف هناك إلى تلك الرائحة . ولكن الشرطى الذى كان يقذى عينه مرأى ذلك المسكين وهو يجر رجليه فى جوانب الطرقات لم يسمع أنينه فى كربة النزع ولم يشم رائحة الفناء تأكل جسمه البالى .

تجمع الناس من هنا وهنا وتقحموا سياج تلك الخربة فوجدوا رمته تأكل منها الهوام .

لم يعرف ذلك المسكين أهل ولا أصحاب ولكن سكان تلك النواحى عرفوا أن الفتى المريض الذى نبذه مستشفى قصر العينى تبرماً بطول سقامه والذى طارده بعد ذلك الناس فراراً من بشاعة منظره فخرج من الحياة بجوعه وباءت بإثمه الحكومة والناس جميعاً .

قد نكون عرفنا حكاية هذا البائس لأنه مات فى ناحية من النواحى العامرة بأغنياء الأجانب والمصريين ، وعلى ذلك فإن حديثه لم يكن إلا سمراً فى مجالس بعض من وصل إليهم علمه ، وأخاف أن يكون فى البلد كثيرون من الفقراء تنفيهم المستشفيات وتنقبض عنهم أكف أهل المروءة فيموتون كما مات فتى فى ميدان قصر النيل .

وليت شعرى لم تخلو بلادنا من الملاجئ التى تؤوى أمثال هؤلاء البائسين ؟ ولم لا تجعل الجمعيات الخيرية إعاناتها للفقراء مصروفة فى هذا السبيل ؟ إن كثيراً من مال الأوقاف العامة والخاصة جدير بأن ينفق فى إنشاء الملاجئ وإن كثيراً من المال الذى تعطيه الجمعية الخيرية الإسلامية مثلا لذوى الحاجة يكون أوفى إلى الخير وأكثر بركة ونفعاً إذا أسست به بيوت للعجزة والضعفاء .

يؤلمنا — إذا صح ما يرويه الرواة — أن يطرد المستشفى الحكومى الوحيد فقيراً لا يجد ملجأ ولا يملك قوتاً ،ويؤلمنا أن تضيق رحمة أهل هذا البلد من حاكم ومحكوم ببائس تسيل نفسه جوعاً بين سمعهم وأبصارهم .

ليخش أهل الجاه والغنى من أمثال هذه الحادثة المؤلمة لعواطف الفقراء أن تصيبهم قارعة من السماء .

الأسلوب الضاحك*

للبيان أساليب بسامة ، عذبة الروح ، يحلو فى الذوق طعمها وتضحك النفس لها من قبل أن تضحك الشفاه .

قد تكون تلك الأساليب مملوءة فلسفة وعلماً ، ولكنها خالية من غلظ الفلسفة والعلم الذى يركب على نفسك فيتصبب له عرقك وتتجعد منه جبهتك ويجلب عليك النوم أخيراً من كل جانب .

تضحك عليك الأساليب كما تضحكك لأنها تريك الجد دعابة ومزاحاً ، وتنال منك ما تنال الحسناء من الرجل الطيب بين الحديث ، وحلاوة الفكاهة ، وخلابة الابتسام .

الأسلوب البيانى هو روح المرء كما يقولون فالنفوس الغليظة أساليبها غليظة والنفوس اللطيفة أساليبها لطيفة .

وإذا كان الرجل منقبض الصدر ، عابس الوجه ، ثقيل الظل وجدت أثر ذلك فى أسلوبه بل يخيل لى أنك تعرف من أسلوب الرجل إن كان غليظاً أم نحيفاً ، معمماً أم مطربشاً صائماً أم مفطراً ، متزوجاً أم أعزب .

قليلة فى قومنا الأساليب الضاحكة حتى فى الشباب ، والشباب أجدر شىء بالضحك ذلك بأن الحياة عابسة عندنا ، عابسة فى البيوت وخصوصاً فى رمضان ، وعابسة فى غير البيوت .

هذه الحياة العابسة هى التى تذيب بشاشتنا ، وتسرع إلينا بالهرم فى جسومنا ، وأرواحنا ، وأساليبنا ، وتسرع بالهرم إلى آمالنا أيضاً .كانت لنا

* السفور : العدد ١١٧، السنة الثالثة – الخميس ٢٣ رمضان ١٣٣٥، ١٢ يولية ١٩١٧.

جرائد هزلية تسد على ما فيها من الضعف ذلك الفراغ فى أساليبنا فظل حكم حياتنا يعمل فيها عمله حتى مات بعضها وشاخ باقيها فلم تعد لنكاته روعة . وأصبحنا لانسمع الطرائف والملح إلا رواية عن الظرفاء القليلين فى البلد المتزوين عن الناس كأنما تطاردهم الجماعة لأنهم يريدون أن يضحكوا .

وجدت عندنا مسارح تمثيل هزلى ، لا تخلو من تكلف ، ولكنها كانت على كل حال علالة لحاجة النفوس إلى الدعابة ، فماتت فى مهدها وصرت لا تجد مكاناً للضحك وحيثما وليت وجهك وجدت مكاناً للبكاء .

سؤال وجواب*

مصر فى ١٤ يولية سنة ١٩١٧

سيدى الكاتب م . !

أنا من قارئات السفور ، أستسمحك أن أسألك لم حرمتنا مما كنت تتحفنا به ما بين حين وحين من الكتابة فى العواطف ؟

لم أعشق فيما مضى من عمرى ، وليس فى نيتى أن أعشق ومع ذلك فإن نفحتك الغرامية الشجية تلذ لى لأن فيها شيئاً من الحنان والإخلاص ، نسمعها لحناً فى مثل توقيعك ما دمنا لا نجدها فى الحياة إلا هكذا ، لعلك يا سيدى تكتب لإرضاء قرائك لأن الإخلاص لا يعرف المحاباة ولكننى لا أسألك أن تكتب فى الحب ، بل لتنفع الناس تلك الأساليب المؤثرة فى القلوب ولتعزى أيضاً من قد يكون مثلى يصيب فى قولك عزاء .

إننا نحن النساء نحس بالحياة كلها من جانب القلب و إذا كان الزمان جنى على قلوب المصريات كما يرى كثير من المصريين فما تزال شعبة من

* السفور : العدد ١١٨ ، السنة الثالثة — الاثنين ٢٧ رمضان ١٣٣٥ ، ١٦ يوليه ١٩١٧ .

العصب الحساس تحيا فى صدورنا وتطلب الحياة ويا ليت الرجال لا يميتونها .

ولك يا سيدى خالص الاحترام .

امرأة

* * *

سيدتى !

قال عبد الملك بن مروان لأرطأة بن سهية : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب وإنما يجئ الشعر عند إحداهن .

وقد أصبحنا يا سيدتى على حال ابن سهية لولا إننا نصبح غاضبين ونمسى ، ولو كان الغضب يهيج شعراً لملأنا نواحى الأرض قصيداً .

كان بين الجوانح صداح لم يزل يهتف ثم عاد شدوه صدى ضئيلا أسمعه همساً يجىء من أقصى نواحى الصدر كأنه قرع النواقيس فى المدينة الغارقة .

وما هو بالعجيب يا سيدتى أن تطربى لنغمة الحنو والعطف فإن القلوب الكريمة وإن كانت نيتها أن لا تعشق تهز أوتارها نغمات العاشقين . ومن ذا الذى يستطيع أن يعقد فى الحب نيته وأمر الحب فوق الاختيار وفوق العزائم ؟

صدقت يا سيدتى ! فى صدوركن شعبة من العصب الحساس تحيا وتطلب الحياة ، وتلك الشعبة هى موضع آمالنا ؛ هى أساس الخير الذى نترقبه لمستقبلنا .

نرجو أن يفيض من تلك الشعبة ما تحتاج إليه حياتنا من الحب والحماسة والأريحية فإن الذى يعوق سيرنا فى سبيل الرقى هو خلو نفوسنا من عناصر النشاط والأمل التى أودع الله فيكن سرها أعنى الحب والحماسة والأريحية ، ومن تعاستنا أن تخلو حياتنا من هذه العناصر .

آه ! عفا الله عنك يا سيدتى قد كنت نسيت ، فلم ذكرتنى ؟

المطالعة*

كتبت مرة فى السفور فصلا بينت فيه ضعف رغبتنا فى المطالعة وحاولت تعليل ذلك . والموضوع جدير بالبحث المتوالى لأن انصراف الناس عندنا عن المطالعة يعوق انتشار العلم ويبطئ بنا فى سبيل الرقى العقلى الذى هو أساس لكل رقى نرجوه . ويؤلمنا أن لا يكون الشباب الناهض أقوى من الجيل السابق شوقاً إلى الإحاطة بثمرات العقل الإنسانى المودعة فى بطون الكتب .

تلاميذ المدارس يكتفون بالنظر فى كتبهم الدراسية فلا يعنون بتعويد ذكائهم التريض بأنواع المعارف الخارجة عن دائرة المواد الفنية التى يكون فيها الامتحان . بل لا يأخذون أنفسهم بمراجعة كتب غير ما بأيديهم من كتب الفنون المدرسية .

وإذا ساغ هذا لتلاميذ المدارس الابتدائية الذين لم تقو مداركهم على التوسع فى العلم والتعمق فى الفهم فهو حرام على متعلمى المدارس الثانوية بله طلاب المدارس العالية .

ومتى خرج أبناؤنا من المدارس رأيتهم صدوا عن قراءة الكتب صدوداً فحرموا من الذكاء والنمو ما علموا وحرموا عقولهم من الغذاء النافع وحرموا أرواحهم من لذة التتبع العقلى بتنوع المعارف وتجدد الأفهام .

معاهد التعليم فى بلادنا لا تغرس فى نفوس طلابها حب العلم . ولا تفلح فى تشويقهم إلى طلب الكمال فيه وذلك داء من شر أدواء المدارس ولا بد أن تكون طرائقنا فى تلقين العلم متعسفة لأنها تورث العقول مللا فلا يفارق متعلمنا المدرسة إلا ضجراً ملولا يكره الدرس ولا يجد على المطالعة صبراً .

---

* السفور : العدد ١٢٠ – السنة الثالثة ، الاثنين ١١ شوال ١٣٣٥ ، ٣٠ يولية ١٩١٧ .

ومن العجيب أن أساتذتنا أنفسهم ليسوا من عشاق المطالعة والازدياد من العلم فهم إنما يعرفون الكتب بمقدار ما تحكم الصناعة عليهم حتى لتدور عقولهم طول عمرهم فى دائرة ضيقة من قواعد الفنون وتمرينها . وما يكون لهؤلاء أن ينشئوا تلاميذ يحبون سعة الاطلاع وكثرة العرفان .

إننا قليلو الرغبة فى المطالعة قليلو التشوق إلى معرفة ما نجهل لأن عقولنا فى لينها لقيت عناء فى فهم العلم عن أساتذة لا يحسنون أن يعلموا ومن كتب خالية من سلامة البيان وكمال النظام وجمال التأليف . فتذكار ذلك العناء يبقى فى أنفسنا متصلا بالعلم وماله علاقة بالعلم .

ويجب علينا أن نجاهد أنفسنا حتى يزول عنها الفزع وتذوق لذة المعرفة وتأنس إلى الكتاب الذى هو خير أنيس فى الحياة كما يجب على أساتذتنا أن يحرصوا فى المدرسة على أن يحببوا العلم إلى أولادنا من قبل أن يعلموهم فإننا أحوج شىء إلى أن نحب العلم .

فكر مجهود*

لم أسترح منذ زمان راحة تغير مجارى الذهن فتنعشه قليلا ، من أجل هذا تعبت قوة التفكير منى ، فأصبحت حركة المعقولات تمر بها وتؤمها متثاقلة بمقدار ما يسرع الألم والهمود ، كأن خطرات الأفكار تمر من الذهن بجرح دام فهى تمسه مساً وجيعاً .

تبطئ على المعانى إذا نادتها الذاكرة ، فإذا حضرت أبطأ الذهن فى تحليلها وتركيبها ، ثم يبطئ العقل فى استخراج نتائجها .

وقد ذهبت لذاذة الفهم فما أجد بشاشة لفهم جديد ، وإن هو إلا السأم من فرط التشابة بين ما تدور حوله أذهاننا من صنوف التصورات والتصديقات. ولو استطعت لأوقفت كل حركة للذهن وسددت باب المعقولات على وأسلمت للشعور قيادى ، أجيب مناديه وأتبع هاديه .

تطلب عقولنا التنويع والتجديد ، ويعنتها أن تسجن فى حظيرة ضيقة .

وما هى فترة الجهد تلك التى تنتاب أذهاننا؟فإن أهل النشاط العقلى منا وهم نزر لا يشقون لمتوسطى أهل النشاط من الأمم الأخرى غبارا،ولكنها ضجرة المكظوم الذى يريد متنفساً .

محدودة دائرة عقولنا بحكم ما فى مجموعة معارفنا من القناعة وبحكم الخضوع لأساليب من الفهم والتفكير يعاب تجاوزها .

ولقد غلبت على حياتنا كلها حالة التشابه وعدم التنويع فملت عقولنا كما ملت أبداننا وأصبحنا نلتمس شفاء هذا الملل بأنواع من العلاج ، نحسبه تعباً يطلب راحة ، أو مرضاً يريد دواء .

---

* السفور : العدد ١٢٢ ، السنة الثالثة – الجمعة ١٠ أغسطس ١٩١٧ ، ٢٢ شوال ١٣٣٥ .

وما هذا الملل إلا هتافاً فى أعماق نفوسنا ، لفزعة التنويع والتجديد ، والذهاب إلى الرقى من كل سبيل ، تلك النزعة المتحمسة هى آلام اليوم وآمال الغد .

مختارات شتّى *

إن الناس عبيد الأموال ، والدين لغو على ألسنتهم ، يحوطونه ما درت به معايشهم ، فإذا محصوا بالابتلاء قل الديانون .

(الحسين بن على)

قالوا : البيان بصر ، والعىّ عمى ، كما أن العلم بصر والجهل عمى ، والبيان من نتاج العلم ، والعى من نتاج الجهل

(الجاحظ)

وقد رأيت جماعة من مدعى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذى يعز فهمه ، ويبعد متناوله ، وإذا رأوا كلاماً وحشيًّا غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك ، لأن الفصاحة هى الظهور والبيان لا الغموض والخفاء .

(المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر)

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادى وكان إماماً فى علم العربية وغيره فقيل إنه كان كثيراً ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين فإذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه فى أكثر أوقاته إلا هناك فليم على ذلك وقيل له : أنت إمام الناس فى العلم ، وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة ؟

* السفور : العدد ١٣ ، السنة الثالثة – الجمعة ١٧ أغسطس ١٩١٧ ، ٢٩ شوال ١٣٣٥ .

فقال : لو علمتم ما أعلم لما لمتم ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، تجرى فى ضمن هذيانهم معانى غريبة لطيفة ولو أردت أنا وغيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك .

(المثل السائر)

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين .

(أسرار البلاغة)

ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(مقدمة ابن خلدون)

وإذا كان القوم من قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة .

(كتاب الصناعتين)

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

(النابغة الذبيانى)

فلا تأمنن الدهر حراً ظلمتــه   فمــا ليل مظلوم كريم بنائم

(عمرو بن براق)

صـــار جداً ما مزحت به   رب جـــد جره اللعب

(أبو نواس)

وينبغى أن يكون الدعاء على ما توجبه الحال بينك وبين من تكتب إليه ، وعلى القدر المكتوب فيه . وقد كتب بعضهم إلى حبة له : عصمنا الله وإياك مما نكره ! فكتبت إليه :

يا غليظ الطبع لو استجبيت لك دعوتك لم نلتق أبداً .

(كتاب الصناعتين)

أما منى قلبى فأنت جميعهـــا   ياليتنى أصبحت بعض مناك
يدنى مزارك حين شط به النوى   وهم أكـــاد به أقبل فاك

(ابن زيدون)

قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها .

(ديوان الصبابة)

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم . وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

(رسالة التوحيد)

فى الريف*

أول ما يأخذ بنظر المسافر ويسترعى ملاحظته هو الطرق التى يسلكها الناس فى غدوهم ورواحهم مشاة وركباناً وينقلون فيها غلة زرعهم وبضاعة متجرهم .

* السفور : العدد ١٢٥ ، السنة الثالثة — الجمعة ٣١ أغسطس ١٩١٧ ، ١٣ ذى القعدة ١٣٣٥ .

وإنك لتعرف مظاهر الحضارة بسهولة المواصلات وحسن نظام السبل ، وما طرق المواصلات فى البلاد إلا الشرايين والعروق تحمل الغذاء ، وتقوم بحركة الحياة. وإذا هبطت الريف المصرى وجدت سبلا لو ترك للطبيعة تمهيدها لكانت أحسن منها اليوم، فإن الطرق الطبيعية الخشناء تنبت الحشائش من جنباتها فتتماسك بها الأرض ويقل ترابها .

أما الطرق المصرية الحكومية فتغوص الأرجل فيها وتمتلئ الصدور منها غباراً ثم هى ضاحية لا تقى السائر شمساً ولا زمهريراً. ولقد أخذ أغنياء الريف يركبون العربات بمكان الخيل والحمير والبغال فأصبح للعين سلوة فى مرأى عرباتهم صاعدة هابطة راقصة مقلوبة أحياناً ولولا رحمتنا للحيوانات الصامتة المسخرة على ذلك النمط المؤلم لأعجبتنا تلك المناظر ولاتخذناها لهواً .

نرحم خيول العربات فى الأرياف ونسترعى لها نظر جمعيات الرفق بالحيوان لأنها مسكينة تعلو جبالا وتنزل جبالا وتحمل أثقالا. ومن لنا بجمعية للرفق بالفلاح المسكين ، الذى يذهب ويجىء فى تلك السبل حافى القدم ، منهوك البدن يحمل فوق ظهره أثقال الفقر والنصب لا ترحمه مصلحة الطرق فتشق له فى الأرض طريقاً معبداً تقوم على حافاته شجيرات يستظل بظلها .

ومن أحق بالرحمة من الفلاح الذى يقضى نهاره عاكفاً على العمل فى الأرض تصهره شمس الصيف فى الظهيرة ويأكله برد الشتاء فى السحر من غير سلوة يتعزى بها فى داره المظلمة القذرة الخالية من الهواء المملوءة بآثار الفاقة الساكنة دائماً سكون الحزن والخشوع .

ومن أحق بالرحمة من الفلاح الفقير الذى يساق فى هذه الأيام إلى النيل يحرسه مخافة أن يطغى فيضانه على أملاك الأغنياء وقصورهم ؟ يكلف ذلك من غير أجر ويترك له زرعه من غير زارع وماشيته بلا راع وعائلته بلا عائل ثم يسير إليه فى شر طريق .

شيء جديد*

فى حى الجمالية، أبعد الأحياء عن الجديد وأقربها إلى القرافة الصغرى، حى المزارات والمساجد، ومسكن العلماء والصالحين وموطن المعاهد الإسلامية، سمعت المرتلين الذين يشيعون الجنائز إلى القبور ينزعون نزعة جديدة فى تلحين أناشيدهم الدينية، هى طريقة الغناء البلدى الحديث الذى نسمعه فى مسارح التمثيل، وقهوات الملاهى.

لم يغيروا بعد أغانيهم نفسها فهم لا يزالون يقولون: أنت شمس أنت قمر أنت نور فوق نور.

ويقولون: . . . فعلا للسماء وتلقى الخطاب.

ولكنهم يجدون فى تلك الأغانى القديمة موضعاً لتوقيع الأنغام الجديدة. حتى لكأنك إذ تسمع زعيمهم يهتف عالى الصوت رنانه متكلفاً مظاهر المهارة الفنية ثم تسمع أعوانه من خلفه يتصايحون مرتلين قطعاً يرددونها هزجاً خفيف اللحن، تسمع أغانى المسارح التى أنشئت فى القاهرة لهذا العهد وامتازت بنوع من التلحين الموسيقى، جديد فى تأليف نغمه، لطيف فى جملته لا يخاو على فرط لينه وقلة التنويع فيه من جمال يلائم ما عندنا من الذوق الموسيقى — وما عندنا فى الذوق الموسيقى ضعيف.

قد يروع هذا الابتداع فى تلحين الأناشيد المأتمية قلوب أناس يخافون من كل ابتداع خصوصاً فيما يمس مظاهر الدين. ولعلهم يستنصرون بالحكومة على محاربة هذه البدع لأنهم اعتادوا أن يطلبوا معونة الحكومة فى كل شىء حتى فى فصل الخصومة بين القديم والحديث.

وإنا وإن كنا لا نجد من حسن الذوق أن نسمع بين يدى أسرة الموتى لحناً

---

* السفور: العدد ١٢٦، السنة الثالثة — الجمعة ٧ سبتمبر ١٩١٧، ٢٠ ذى القعدة ١٣٣٥.

كلحن الشيخ سلامة حجازى فى قصيدة « إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم » ولحن من دونه من ممثلى المغنيين فى المسارح الصغرى فلسنا نخاف من شر الجديد ما يخافه قومنا فإن فى الجديد خيراً كثيراً لا يذهب به ما يشوه مكانه فى البداية بين ثنايا القديم .

على أننا نعجب كل العجب لقبول المظاهر الدينية المقدسة عندنا لأثر الجديد فى أبعد جهاته عن مناسبة الدين بسهولة أعيا المصلحين أن يدركوا مثلها فى التوفيق بين القديم الذى لا يتصل بالدين إلا قليلا ، وبين الحديث الذى لا يجافى مقاصد الأديان .

والأناشيد التى ترتل فى الجنائز هى من غير شك شعائر دينية كسبت حرمتها بطول العهد ، واصطبغت بصبغة العبادات التى قررتها الشرائع . وما يكاد العامة يفرقون بين هذه الأناشيد وبين صلاة الجنازة فى القيمة الدينية . وقد حاول بعض العلماء الدينيين أن يجعلوا الإنشاد والذكر بين يدى الموتى بدعة لا يجوز الأخذ بها فما استطاعوا أن يفصلوا بينها وبين الدين فى نفوس الجماهير .

هذه الأناشيد التى اتصلت بالدين اتصالا قواها فى نفوس المؤمنين حتى كادت تكون فى بعض الوقت مثار عراك دينى بين علماء الأزهر ، ولم يستطع أحد أن يردها إلى طريقة السلف الصالح ، خضعت اليوم من غير عراك لحكم الذوق العام الجديد فى اللحن الموسيقى ، وأخذت تخلص من طابعها الخاص ، طابع الترنم الدينى ، وللأناشيد الدينية طريقة خاصة تعرفها فى جميع النحل واللغات .

بمثل هذه الظواهر الاجتماعية تتبين وجهة الأمم فى تطوراتها وجدير بمن ينظر فى شئون الاجتماع أن لا يهمل هذه الحوادث الصغيرة فى نفسها الكبيرة بمعانيها .

وكل ما نرجوه لهذه الأمة هو أن لا يسوء ظنها بالحديث وأن لا تحتقر القديم ، فإن مجدها المأمول يقوم على الأخذ بالحديث واحترام القديم .

الخمول *

شر أدوائنا الخمول ، وهو علة ضعفنا فى كل وجه من وجوه الرقى . وذلك بأن المدنية ثمرة النشاط الإنسانى وكلما كبر ما ينفقه الناس من مجهودهم فى سبيل الحياة كانت حياتهم عظيمة ومدنيتهم راقية .

نحن أمة خاملة تبدو مظاهر الخمول فى جميع نواحيها .

ترى حركة الناس فى الطرقات فاترة وحركة العمال فى أعمالهم فاترة ، وتحس بالفتور فى نزوات العواطف فى القلوب وخطرات الأفكار فى العقول .

حظنا من النشاط ضئيل ، وحظنا من النجاح والتقدم على مقدار نشاطنا ، ولن نبلغ ما نحاوله من الأمل العظيم حتى نبذل فى سبيله نشاطاً عظيما .

يقول قائلون إن مناخ هذا الوادى يقضى على أهله برخاوة العزيمة وضعف النشاط ، لأنه حار يعجز القوى الإنسانية أن تحتمل من شدته عناء النشاط فى العمل . ولو صح هذا القول لكان من المقدور على كل البلاد التى ليست بذات جوّ بارد أن تعيش منحطة محدوداً نصيبها فى المدنية كما حدد نصيبها من النشاط . والواقع يكذب هذا فقد عرف التاريخ مدنيات جليلة للبلاد الحارة من قبل أن يعرف مدنية فى غيرها من البلاد .

إن كان للجوّ أثر فى قوة الإنسان ونشاطه فقد يستطيع الإنسان أن يغالب عدوان الطبيعة فيطفئ جمرتها ويصير نارها برداً عليه وسلاماً . وكم شقت المدنيات فى الصحارى أنهاراً وأنبتت فيها جنات وجعلت شمسها ظلا ظليلا .

ليس خمولنا من عمل الجو ، وما يكون لأحد أن يظن أنه من لوازم بلادنا ولا قومنا ، فإن أرضنا صالحة لأن تكون مهد نشاط مثمر كما كانت

---

* السفور : العدد ١٢٨ ، السنة الثالثة — الجمعة ٢١ سبتمبر ١٩١٧ ، ٤ ذى الحجة ١٣٣٥ .

كذلك لأول عهد الإنسانية بالعمل المثمر. وشعبنا لا يزال فى عروقه دم آبائنا الأولين الذين شيدوا بعزائمهم الكبيرة مدنيات خالدة المجد والأثر .

عارض* مرض ذلك الخمول الذى يعلق بأجسامنا من أثر الإخلال بحسن التعهد لما يصلح البنية ويحفظ عليها صحتها وينمى لها قوتها ، ويعلق بأرواحنا من أثر الإهمال لما تحيا به الأرواح وهو الأمل .

ديوان رامى*

صدق الأديب صادق أفندى عنبر إذ يقول فى رامى :

« وإنك لتراه فتقرأ شعره فيه وتقرأ له فتراه فى شعره » !

قرأت فى السفور قصائد الشاعر الشاب فتخيلت له ، من قبل أن أشاهده ، صورة طابقت الواقع لما التقينا ،وكأنما تيار من شعره يتدافع فى ذلك القوام المنسرح النحيف وكأن تلك البنية العصبية ليست إلا أوتاراً تهزها نبرات القريض هزجاً سريعاً . وفى صوت رامى همسة ذات حنين خلقت لترجيع ذلك[1] .

الشعر القصير البحور الخفيف النغم .

الشعراء فريقان: فريق تغتذى سليقته بما يحفظ من دواوين الشعراء الماضين فيجود أسلوبه وتقوى مهارته الفنية وتظهر نفحة من الشبه بين شعره وشعر القرون

---

* السفور : العدد ١٣١ ، السنة الثالثة — الجمعة ٢ نوفبر ١٩١٧ ، ١٦ محرم ١٣٣٦ .

(١) مضت عادة الكتاب بأن يجعلوا هذه الحاشية الكلام على الطبع وثمن الكتاب ومحل بيعه . وديوان رامى مطبوع فى مطبعة الواعظ بالقاهرة طبعة حسناء ، ولما كنت لا أعرف مكان بيع الكتاب ولا ثمنه فإننى أنصح للأدباء أن يطلبوه فى كل مكان ويشتروه بأغلى الأثمان .

الحوالى ، وقد يدمن من ليس فى طبعه شعر قراءة النظم وحفظ القصائد ومعالجة الوزن فيكسبه ذلك شيئاً من الصنعة .

وفى الشعراء من يتأثر إحساسه الشعرى بعوامل الحياة التى تحيط به فيكون ثمرة جيله ويكون لحنه فى القريض أنسب الألحان بذوق قومه وبما يجرى فى عصبهم الحساس من أنواع الشعور ،ومن هؤلاء من يسمو إلهامه الشعرى إلى أكبر مما عند أمته من العواطف من غير أن يجاوز منازع نهضتها فهو يسبق رقيها خطوات ، ويكون فى سحره الشعرى من السلطان ما يقوى على اجتذاب ذوق قومه إلى توقيعه الجديد الذى هو حداء الأمل .

أما رامى فبلبل جيله الصداح يغنى على توقيع عواطفنا الغرامية المتحمسة القصيرة وينوح على نبض آلامنا الوجيعة الشريفة بنغماته العذبة فى الغناء وفى النواح .

كل شعر رامى — إلا قليلا — من الأبحر القصيرةالتى تلذ رناتها لذوقنا العام وتغلب على موشحات عصرنا وأغانيه .

وديوان رامى جميعه ديوان حب وألم . ولا غرو فهو لحن نهضتنا الشابة التى يحدوها فى سبيل الحياة الحب والألم .

الأدب العربى قبل الإسلام*

ألقى صديقنا الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة فى جامعة الشعب فى مساء الخميس ٨ نوفبر موضوعها « الأدب العربى قبل الإسلام » رأينا أن ننشرها تباعاً فى السفور . ونبدأ اليوم بنشر القسم الأول منها الخاص « بخلاصة أبحاث الغربيين فى أمر اللغة العربية قبل الإسلام » .

* السفور : العدد ١٣٣ ، السنة الثالثة — الجمعة ٣٠ نوفبر ١٩١٧ ، ١٥ صفر ١٣٣٦

اللغة العربية واللغة الحبشية يكونان الفرع الجنوبى من اللغات السامية الغربية فى مقابلة الفرع الشمالى الجامع للغتى الكنعانيين والآراميين . ويمتاز لسان العرب عن هاتين اللغتين بأنه أكمل منهما استيفاء للطريقة الصوتية الأولى الغنية بحروف الحلق وحروف الصفير . وهو أيضاً حافظ على الحالة الأولى للتحريك محافظة تامة وفيه توجد صيغ الكلمات واشتقاقاتها وصور التصريف على النمط السامى القديم . ومن أجل ذلك يدلون بالأفعال على معانى كثيرة .

وفى بلاد العرب طائفتان كبيرتان من اللهجات : طائفة اللغة العربية الجنوبية وطائفة اللغة العربية الشمالية . وهذه فتحت أبوابها للمدنية من بعد تلك ولكن ثمرتها كانت أكثر بركة من أختها. وليس بصحيح أن أهل البداوة من سكان الشمال فى بلاد العرب لم يعرفوا قبل الإسلام تمدناً فقد ظهرت فيهم فى العهد الفارسى وفى العهد الرومانى من بعده دول عربية ذات مدنيات آرامية وكانت اللغة الآرامية لسانها المكتوب وتكاد كل المعانى المتصلة بالحضارة تكون مبينة فى العربية بألفاظ آرامية .

على أنه منذ زمن قديم قد حفرت فى ذلك القسم من جزيرة العرب كتابات كثيرة بلغة وخط قوميين ، وليست تلك الكتابات ذات معنى خطير بحيث تحتوى على شئون سياسية أو دينية ، ولكنها من عمل رعاة رحل نقشوا بها أسماءهم للأعقاب . وألف باء تلك الكتابات ليست آرامية ولكنها نوع من ألف باء اللغة العربية الجنوبية المشتقة من الفينيقية . ولسان ذلك العهد لم يكن موافقاً للسان العربى الفصيح الذى عرف فى العصور اللاحقة . فى ذلك اللسان لغة التعريف هى ها أو هان لا أل وقد وجدت آثار عليها كتابات محفورة من ذلك النوع ما بين دمشق والعلا يرجع عهدها إلى القرن العاشر بل إلى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وهذه الآثار جعلت نماذج ثلاثة : صفوية ولحيانية وثمودية .

وقد تلاشت هذه الأنماط العتيقة أمام الخط الآرامى الذى هو ثمرة مدنية أرقى خصوصاً فى الشكل الذى صار له عند النبطيين فى أنبار قريب من دمشق وتاريخه ٣٢٨ م وهو حلية لقبر ملك عربى ولغته تكاد تكون لغة الأدب التى وجدت بعد مع شىء من صيغ لهجات القبائل أقرته اللغة الفصحى . ويوجد هذا النمط فى المخطوطين اللذين هما أقدم ما عرف بعد مخطوط أنبار وهما مخطوط زياد القريبة من حلب الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ أو سنة ٥١٣ م ومخطوط حوران جنوب دمشق وتاريخه ٥٦٨ وإلى جانب الأول نص سريانى ونص يونانى وإلى جانب الثانى نص يونانى فقط .

وإذا لم يكن العرب قد تركوا من لسانهم السابق على الإسلام إلا نقوشاً خطية نادرة فقد كان لهم فى ذلك العهد شعر قوى زاهر . ولم يكن الشعراء فى جميع جهات الجزيرة العربية بل كانوا فى الحجاز ونجد وما جاور نجداً ويدخل فى ذلك إقليم الفرات .

أما عرب سوريا الذين كانوا خاضعين لسلطان الرومانيين فلم يكونوا إلا نقلة للشعر العربى .

وكل شعراء الجهات المذكورة وإن كانوا من قبائل مختلفة، كانوا يستعملون لغة مشتركة لها نهج خاص لم تكن به إلا لغة الشعر . وليس فى التسليم بوجود لسان خاص بالشعر عند العرب فى زمن لم يكن الشعر فيه مكتوباً موضع لتخرص ، فى الأمم البدوية من غير العرب أمثلة لهذا .

ويمتاز اللسان العربى الشعرى بوفرة تعريفه واشتقاقه وفى تراكيبه من دقائق النظم ما يمثل أرقى ما وصلت إليه اللغات السامية إلى غنى فى الكلمات عجيب فهو كان معيناً تستقى منه جميع لهجات القبائل . وذلك الغنى فى الألفاظ لا يدل على سعة فى معارف العرب ووفرة فى المعانى التى يريدون الدلالة عليها .

كان البدوى يراقب جد المراقبة أضعف أحوال وسطه الطبيعى وخصوصاً فيما له فيه نفع شخصى ،ويدل بكلمات خاصة على جميع التفاصيل الجغرافية

للصحراء وعلى جميع الدقائق المتعلقة بالحيوانات وليس ذلك وقفاً على الساميين بل هو يوجد فى كل الأمم عند ما تكون حالتها شبيهة بحالة العرب .

كان ذلك اللسان الشعرى صالحاً لأن يعرب عن عواطف الحب اللطيفة وعواطف الشرف وبالرغم من نزوعه إلى الاتصال بالحياة الواقعية فهو مملوء بالخلابة الشعرية .

وقد كان يوجد إلى جانب اللسان الشعرى فى بلاد العرب ، لهجات للقبائل لم يأتنا اللغويون والنحاة بكبير نبأ عنها على أننا نعرف لهجة من هذه اللهجات حق المعرفة وهى لغة مكة لغة القرآن . وقد يكون فى القرآن شىء من التوفيق بين لغة مكة ولغة الشعر ويوجد فى كتابة القرآن الأولى علامات تأليف صوتى بعد بعداً ظاهراً عن اللغة العربية القديمة لغة الشعر .

ولما زيدت فيما بعد الحركات والعلامات الأخرى على الرسم الذى كان موجوداً وهو رسم الحروف الساكنة فقط اتبع فى استعمالها طريقة اللسان الشعرى . ولهجات الجهات الشمالية من البلاد العربية لا تبلغ فى اختلافها بينها مبلغ مخالفتها للغة ساكنى الجنوب ، هؤلاء كانوا يسكنون دياراً خصبة وكانت لهم بالهند صلات تجارية فوجدت لهم حضارة راقية لعهد طويل قبل المسيح ، وقد كانوا اقتبسوا ألف باء الكنعانيين فوفقوا بينها وبين طريقة كتابتهم الفنية بالحروف الساكنة .

وقد نصر الفتح الإسلامى لغة أهل الشمال على لغة أهل الجنوب الذين كان ذوى ما أزهر من حضارتهم حيناً ولم يبق اليوم من لهجات الجنوب إلا بقية فى بعض الشواطئ والجزر لا تتصل عن كثب باللسان القديم المكتوب .

الشعر العربى قبل الإسلام*

« مقتطف من المحاضرة التى ألقاها الشيخ مصطفى عبد الرازق بجامعة الشعب »

يظهر أن الشعر ينمو ويزهر قبل النثر كما تدل عليه آثار الأمم القديمة من الهنود والفرس واليونان ، وحاجة الإنسان إلى أن ينفس عما يجيش فى نفسه من أنواع الشعور بتطريب ذى وزن ونغم أسبق من حاجته إلى الإعراب عما يجرى فى ذهنه من الخواطر . على أن رقى النثر يقتضى وفرة الثمرات العقلية وترقى المعارف الإنسانية وتنوعها. أما الشعر فيعتمد اللطف فى الإحساسات الباطنة وتهيؤ الآذان إلى تقدير الصوت الموقع النغمات . والشعر قد نما وأزهر عند العرب قبل الإسلام من قبل أن يخرج نثرهم من أحضان الطفولة. أما نشأة الشعر عندهم فقديمة جداً ، ومبدأ الوزن الشعرى هو الحداء وهو غناء القوافل . وفى طبيعة البلاد العربية وطبيعة المعيشة فيها لقوافل رحل تسير مسافات طويلة على متون إبلها ما يستدعى وجود ذلك الغناء منذ عهد بعيد .

وقد رووا روايات عن سبب وضع الحداء قد تكون إلى الخرافات أقرب منها إلى الحقائق التاريخية ولكنها تدل على قدم عهد هذا الغناء الذى كان منشأ للوزن الشعرى .

قالوا إن أول من أخذ فى ترجيع الحداء معد بن نزار بن معد بن عدنان سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه ! وكان أحسن خلق الله صوتاً وجسما فأصغت إليه الإبل وجدت فى السير فجعلت العرب مثالا لقوله : هيدا هيدا ، يحدون فى الأبل .

وزعم ناس من مصر أن أول من حدا رجل منهم كان فى إبله أيام الربيع

* السفور : العدد ١٣٤ ، السنة الثالثة — الجمعة ١٤ ديسمبر ١٩١٧ ، ٢٩ صفر ١٣٣٦ .

فأمر غلاماً له ببعض أمره فاستبطأه فضربه بالعصى فجعل يشتد فى الإبل ويقول : يايداه يايداه ! قال له :الزم الزم ! فاستفتح الناس الحداء من ذلك، إلى روايات لا تخرج عن هذا المعنى .

وجد الشعر العربى منذ ذلك العهد وكان فى أول أمره رجزاً قصير البحور وقطعاً قصيرة لا تبلغ عشرة أبيات . وإنما طول الشعر وجعل قصائد على عهد هاشم بن عبد مناف ،وكان أول من قصده امرؤ القيس وقيل المهلهل بن ربيعة أخو كليب وهو خال امرئ القيس وذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى .

لا تملك أيدينا شيئاً من الأغانى التى كان يرتجلها الأعراب حينما يصادفون عين ماء أو حينما يحرزون نصراً، ونقل سوزومين وهو مؤلف يونانى كتب فى القرن الخامس تاريخاً للكنيسة أنه فى سنة ٣٧٣ ميلادية غلبت ملكة عربية اسمها أمانيا أو ماويا جيوش الرومانيين فى فلسطين وفينيقية فبقى تذكار ذلك النصر فى الأغانى العربية . ولو نقل إلينا شيء من ذلك الشعر لكان مثالا لأقدم شعر عربى ، لأن ما يذكرونه من الشعر معزواً إلى معاصرى سليمان بن داود ومعاصرى التبابعة مصنوع من غير شك . وأقدم ما عندنا من الشعر العربى الذى يصح الاعتماد عليه والثقة به على ما للنقاد فيه من مقال هو شعر القرن السادس الميلادى وهو القرن الذى تحددت فيه صورة القصيدة العربية ووجدت المعلقات السبع .

الأدب العربى قبل الإسلام*

مقتطف من محاضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

لم يكن فى جزيرة العرب فى القرن السادس المسيحى دولة حفظت قوتها

* السفور : العدد ١٣٥ ، السنة الثالثة – الخميس ٢٠ ديسمبر ١٩١٧ ، ٦ ربيع الأول ١٣٣٦ .

واستقلالها بحيث تستطيع أن تكون ذات نفوذ فى البلاد العربية يساوى نفوذ أثينا فى اليونان أو روما عند الرومان .

ولما كانت القبائل العربية لا تخضع لسلطان فوقها فقد صارت إلى حرية مضطربة لا يجد فيها الرجل القوى شاغلا إلا مسائل الشرف يحلها ويربطها بحد سنانه وحد لسانه وبلغ أمر شدتهم فى مسائل الضيافة مبلغاً عنيفاً، وكان الشعراء متصلين بهذه الحياة الحربية ضاربين بسهم فيها . وشعر العرب الحماسى من خير أشعارها وأكثرها ونذكر مثالا منه قول عنترة فى معلقته :

أثنى على بما علمت فإننى سمح مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم

وقوله :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جادت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

ولهم فى هذا الشعر الحماسى الذى تتجلى فيه ملكة الشجاعة البدوية عواطف لطيفة كما فى قول الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعقابنا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ومن الشيم التى تغنى بمدحها الشعراء وفخروا بالإتصاف بها الكرم والضيافة. وخلقهم هذا مضرب المثل، وفى بلاد كبلاد العرب حيث لا توجد فنادق بل لا يوجد أمن للغرباء كانت الصلة بين الأمم والقبائل تتعذر لولا شيمة الضيافة .

ومن شعراء الضيافة الشاعر الكريم حاتم الطائى ومن أمثلة شعره يخاطب امرأته :

أيابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذى البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لست آكله وحدى
أخاً طارقاً أو جار بيت فإننى أخاف إذامت الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما فى إلا تلك من شيمة العبد

وقد كان لعيشة البداوة عند العرب وما فيها من الحرية التى تجعل للمرأة فى الجماعة أثراً ظاهراً تأثير فى شعر العرب خصوصاً فى القرن الذى نحن بصدد الكلام عليه . وقلما تجد قصيدة من قصائدهم المعروفة إلا فيها للنساء ذكر . وأكثر شعرائهم المجودين ممن مست نفحة من الحب أساسهم الشعرى .

وقد قالوا إن أمير الشعراء امرأ القيس هو خير من جود فى وصف النساء وتلطف فى النسيب ومن أمثلة ذلك قوله فى معلقته :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فاجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

للمرأة فى تاريخ العرب الجاهلى شأن فكم أثارت حرباً ووضعت حرباً ! ومن أجل عبلة كان يقتحم الهلاك عنترة بن شداد راجياً أن تحببه عندها مآثره. وقد ورد للنساء ذكر فى حكماء العرب كابنة الحسن وخمعة بنت حابس الأيادى وخدام بنت الريان ، وفى أوفيائهم كفكيهة بنت قتادة وأم جميل الدوسية ، وفى الكرماء كعبدة الكلبية ، وفى الكهان نظرنة الكاهنة وزيراء وسلمة الهمدانية .

أما الشواعر من نساء العرب فكثيرات منهن كبشة أخت عمرو بن معديكرب وكنزة أم شملة وعاتكة بنت عبد المطلب وفاطمة بنت الأحجم الخزاعية وصفية الباهلية ومية بنت ضرار والخنساء أخت صخر . . . إلخ .

ونذكر من أمثلة الشعر النسائى ما يدل على العواطف التى كان يهيجها فى سكان بلاد العرب الجنس اللطيف . قالت كنزة أم شملة :

فإن يك ظنى صادقاً وهو صادقى بشملة يحبسهم بها محبساً أزلا
فياشمل شمر واطلب القوم بالذى أصبت ولا تقبل قصاصاً ولا عقلا

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل :

آليت لا تنفك عينى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الموت أحمرا

الأدب العربى قبل الإسلام*

تتمة محاضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

هذا وقد خاض شعراء العرب فى معان غير ما ذكرنا من مسائل الحماسة والضيافة والغزل بحسب ما امتد إليه نظرهم فى تلك الفيافى القليلة العمران الفقيرة من مظاهر الحضارة .

وصفوا الخيل فأحسنوا نعتها، وسابقهم إلى ذلك امرؤ القيس الذى يقول فى معلقته :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكـــل
مكر مفر مقبل مدبر معـــاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وخير وصّاف للإبل طرفة فى معلقته، وأكثر القدماء يجيد وصفها لأنها مراكبهم.
أما الخمر فمن أوصاف الأعشى قوله :

فى شباب يسقون من ماء كرم عاقدين البرود فوق العـــوالى
ذاك عيش شهدته ثم ولى كل عيش مصيره للـــزوال

* السفور : العدد ١٣٦، السنة الثالثة — الخميس ٢٧ ديسمبر ١٩١٧، ١٢ ربيع الأول ١٣٣٦

ويدلنا على جملة ما كانت تدور حوله قصائد الشعراء عند العرب ما قالوا من أن قواعد الشعر أربعة : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب .

فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعقاب الموجع . ولشعراء العرب فى هذه الموضوعات سبح طويل .

وقد لاحظ صاحب المثل السائر أن الشعر العربى لا يتسع لشرح أمور متعددة ذوات معان مختلفة مع الإجادة والتطويل . وإن وجدت العجم تفضل العرب فى هذه النكتة المشار إليها فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف شاه نامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها . . . إلخ إلخ .

وقال الأستاذ هيار فى كتابه « تاريخ أدب اللغة العربية » : إن الحظ العجيب الذى اختصت به الأجناس الأوربية وهو القوة على التعبير عن الحوادث التاريخية أو الخيالية بقصائد طوال ملأى بصور عجيبة يكون الأبطال فيها من عالم علوى مفقود عند الشعوب الناطقة باللغات السامية فإن نفسهم فى الشعر قصير .

وما نستطيع أن نوافق الأستاذ الفرنسى فيما ينسبه إلى الناطقين باللغات السامية وإن صح قوله فى شعر العرب .

وإنا نقول مع الأستاذ هيار فى العرب وشعرهم : ومهما يكن من إبهام فى مظاهر أفكارهم فإن شعرهم لم يكن دون غيره فيما أحدثه فى الإنسانية من الأثر الجليل .

وقد سمت بعض قرائح الشعراء الجاهليين إلى طرائف من الحكمة لا تزال خالدة على طول القدم نختم منها بقول زهير صاحب الحوليات فى معلقته :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على غيره يستغن عنه ويذمم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

مذكرات مسافر

١*

فى يونية سنة ١٩٠٩ سافرت إلى أوربا أول مرة ، وكنت يومئذ فتى لم ي ما وراء القاهرة من جهة الشمال ، ولم يعرف البحر تجرى سفائنه فى موج كالجبال.

لم أسكن فى غير دارنا ، ولا عشت إلا بين أهلى ، ولا نطقت إلا لغتهم ، وكنت من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه ناشئة الأزهر فى ذلك الزمن .

كل هذه العوامل ملأتنى رهبة من السفر حين دنا موعده فاضطربت أعصابى وهاجت عواطفى .

دخلت إلى والدتى أودعها وبى من التأثر مالا طاقة لى بكتمانه ، وكنت أقدر أنها ستبكى وتعطينى فرصة للبكاء تريحنى .

لكن الشيخة القوية توسمت حالتى فلقيتنى باسمة تخفى قوة الإرادة وتجاعيد الكبر ما قد يساورها من ألم .

قالت : « لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادى لجزعت يوم سافر أخوك البكر وهو طفل لا يستغنى بنفسه ، أما أنت فرجل نضجت مواهبه وكملت تربيته . سافر على بركة الله وفى ذمته .

ثم ضمتنى إلى صدرها وقبلتنى . هنالك استعنت بكل ما أملك من عزم وكل ما فى قلبى من حب وإجلال لهذه الأم البارة على كتمان عواطفى المتأججة ، وقبلت يدها وانصرفت ساكناً مبتسماً برغم ما أعانى من وجد واضطراب .

وكان ذلك أول ما علمنى كظم المواجد والابتسام عند الشدائد . وتوالت

* السياسة : الخميس ٢٨ ذى الحجة ١٣٤٢ ، ٣١ يوليو ١٩٢٤ .

دروس بعد ذلك عودتنى أن أكتم العواطف وهى جائشة وأن أرزن للخطوب وهى طائشة . على أن هذه الأشجان المكظومة تضيق بها ساحة الصدر أحياناً فتلتمس هدأة من هدءات الحياة وتنفجر انفجاراً .

فى آخر يونية الماضى لما تهيأت للسفر جاءت حاضنة بنيتى تحملها لأودعها عند مسيرى ، والطفلة مرحة لعوب تضحك للزهر فى الحديقة وللشمس فى السماء وتضحك للحياة كلها لأنها تحسب الحياة كلها طفولة دائمة .

جاءت طفلتى تودعنى فقبلتها وتحرك الركب للمسير فلم تعد تبسم تلك المخلوقة البسامة وجعلت تهتف بى فى مبغوم ندائها .

هنالك تبادرت إلى النفس ذكريات خمسة عشر عاماً فالتفت إلى وليدتى أيضاً باسما ساكناً وأسرعت بنا السيارة إلى المحطة .

وبمناسبة الأطفال وابتسامهم ، لاحظت أن الأولاد عندنا حين يعرف الابتسام طريق شفاههم الغضة تكثر الأمهات والأقارب من إهاجتهم للضحك .

وكلما رأيت الأطفال تستثار ابتساماتهم بغير حساب أدركتنى رقة لهم ، وإشفاق عليهم ، وخيل إلى أن أطفالنا تستنفد ابتساماتهم فى المهاد فلا يدخر منها لسائر العمر إلا قليل .

أما بور سعيد فقد وصلنا إليها ليلاً ، وما هو إلا أن أشرفنا على القناة وبدت أنوار المدينة من بعيد منثورة تسبح فى جنح الليل ، يظهرها ويخفيها ، حتى تذكرت أننى جئت إلى بور سعيد أول مرة بالليل وتذكرت من كان معى .

تمثلت لى المأساة الفاجعة ، أظلم الأفق واسودت نواحيه فلا يلوح إلا نجيع يضرج حاشية السماء ، وخشعت الأصوات ، فلست تسمع إلا دوياً قائلاً :

أيتها السفينة ! أسرعى بنا من هذا الجو المسموم فقد كدنا نختنق .

٢*

السفينة فخمة ضخمة ، نظيفة جميلة ، تجمع وسائل الراحة ، وما فوق وسائل الراحة من أسباب الرفه ، والبحر صفو رهو ، والجو معتدل ، والسفر كثيرون ، بين نساء ورجال وولدان ، وأغلبهم إنجليز وهنود ومصريون .

ولست تسمع الشكوى من شيء إلا قائلا يقول : إن الخدم لا يعرفون غير الإنجليزية ، بل قال بعض مواطنينا : إنهم لا يعرفون الإنجليزية ، واستدل على مدعاه بأنه حدثهم بتلك اللغة فلم يفهموه . والدليل لا ينتج الدعوى .

وهناك شكاية أخرى من الطعام ، فإن فى قومنا من لا يحب للإنجليز طعاماً ، وإن كان فى قومنا من يموت فى طعام الإنجليز وشرابهم .

أما أنا فقد جمع الله لى بين طعام الإنجليز وطعام الهنود ، فإنه كان إلى جانبى على المائدة عائلة هندية يقدم لها بجانب المآكل العامة مآكل قومية خاصة كانت تشركنى فيها بإلحاح الشرقى فى الكرم ، وكنت أطيعها إلى ما أشتهى من طعامهم وما لا أشتهى بعامل الحياء الشرقى ، وفى مطعمهم توابل كثيرة ومواد حريفة مخلوطة بسكر وزبيب .

لم يكن جيرانى يفهمون الفرنسية ، ولا أفهم الإنجليزية ، وكنا على ذلك نتفاهم بأصوات وحركات .

وقد سألنى رب العائلة مرة : هل أنت محمدى ؟ وكرر السؤال ثانية . وكان على أثر جوابى بالإيجاب يحادث السيدات اللواتى معه بالهندية .

قرأت بعد ذلك فى الجرائد أن معارك نشبت بين المسلمين والهندوس فى الهند من أجل بقرة يريد أولئك أن يمتهنوها ، وهى عند هؤلاء مقدسة ، عندئذ

* السياسة : الأربعاء ٥ محرم ١٣٤٣ ، ٦ أغسطس ١٩٢٤ .

فهمت السر فى ذلك السؤال المكرر .

ومن مبلغ صاحبنا الهندوسى عنى أننى — على شأن العيش والملح — لا أهين البقر ولكننى لا أعبده .

وبعد . فياليت المسلمين والهندوس لا يتناحرون من أجل حيوان معبود !

تسير السفينة ثانية مسرعة تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . وكان ناس يقولون لا طعم لسفر البحر هكذا هادئاً صامتاً ، لا ترقص السفينة فيه ، ولا تغنى الأمواج .

إن لم تكن رقصت السفينة ، فقد رقصت فوقها قدود هيفاء ترسل حركاتها الرشيقة مسايرة للأنغام الموسيقية .

تنساب تلك الأقدام اللطيفة هفافة متراوحة الخطا ، مسرعة مبطئة ، فيرتج بعض الجسم ارتجاجاً خفيفاً ، وتميس الأعالى ، كصدور العوالى ، ثم يحمى الوطيس ، وتتعالى نبرات الموسيقى نغماً سريعاً متواصلا فكأنما تلك الأسراب طيور ، وكأنما تلك الوجوه الشفافة شعلة من نار ونور ، وكأن بدوراً تعانقها بدور . وكأن الأرض والسموات تمور .

تفرق الجمع ساعة للراحة فآويت إلى رفقة جلسوا ناحية يتبادلون الحديث :

قال قائل منهم : لست أرى الرقص على ما فيه من رشاقة وجمال حاجة من حاجات المدنية ولا كمالا من كمالاتها . ولست أتمنى لقومى أن يقتبسوا هذه العادة فى ما يقتبسون من عادات الغربيين . فإن مدنيتنا المرجوة إذا امتازت بمسحة من الاحتشام كان ذلك زينة لها وجلالا .

لكننى علمت أن النساء والفتيات فى بعض عائلاتنا الوجيهة جداً يتهافتن على الرقص حتى فى المراقص العامة التى تقام فى الفنادق .

وإذا كان لا بد لنا من هذه المحنة فقد كنت أود أن تبطئ قليلا إلى أن تثبت خطواتنا المزلزلة فى سبيل التربية والتعليم .

إن الرقص مهما يكن من شأنه فهو متاع من رفه المدنية ، ونحن لا نزال

نلتمس من المدنية ما يسد الرمق .

أجاب ثانى الجماعة :

إن الرقص ليس حاجة من حاجات المدنية ، ولا هو رفه من زوائدها ، ولكن الرقص من حاجات الجماعة البشرية فى جميع أدوار حياتها .

ولسنا نعرف قوماً من البشر لا يرقصون ، أهل البداوة لهم رقصهم ساذجاً غير متوازن ، وأهل الحضارة لهم رقص أكثر نظاماً وأحسن انسجاماً ، لا تخلو الأمم من الرقص إلا فترات فى عهود الانقلابات الخطيرة ، أو الفتن العاصفة .

ولقد جاءت أديان لا يناسب تقاليدها هذا النوع من اللهو الفطرى ، فالتمست الغرائز البشرية لها منفذاً من جانب الدين نفسه .

وليست حلقات الذكر بطبقاتها وبدفها ونايها ، وحفلات الزار بدقاتها ، وبطبلها وغنائها ، إلا تحلة للرقص عند النساء والرجال فى بلاد الإسلام .

وإذا كانت حفلات الزار تطارد ، لإقلاقها راحة الجيران ، وحفلات الذكر تحارب لأنها بدع ، وكنتم تحاولون أن تمنعوا هذا الرقص الفرنجى أن يصل إلينا ، فأنتم تسدون المنافذ على ما فى الطبائع .

رويدكم إننا ناس من البشر .

أما الثالث فنفض رماد سيجارته ونظر إلى الجمع بعد إطراق وقال :

إن فى هذا الرقص جمالا ولذة ، ومن الجور أن ننقص حظ الإنسانية من اللذة والجمال فليكن هذا المتاع فنًّا من فنون الجمال تختص به طائفة تبرع فى أساليبه ، وتمتع الآخرين بآثار براعتها ، فيكون عندنا الرقص فنًّا حيًّا من غير أن يكون فى تقاليدنا أن يرقص أهل الحشمة والوقار .

سكت القائل الأول لحظة . ثم سعل ، ثم قال مبتسماً :

هذا رأى جدير بالنظر .

أما الثانى فصاح :

سيرقص أولادنا فى المهاد ، وأنتم تمحصون الأنظار ، وتقدرون فتضحك الأقدار .

عادت الموسيقى إلى عزفها ، ودارت حركة الرقص فطربنا جميعاً .

٣*

يلقاك فى ليون صنفان من المصريين :

أحدهما المرضى الذين يهرعون إلى تلك المدينة الفرنسية الكبيرة ليستشيروا أطباءها المشهورين .

وأولئك تعرفهم بسيماهم ، لأن فكرة المرض، والتهمم بأقوال الأطباء المختلفة تجعل وجوههم الحديثة العهد بشمس مصر شاحبة ، وعيونهم المسودة البراقة ساجية .

كلما سمعوا بطبيب خفوا إليه سراعاً ،فحافظهم مملوءة بتذاكر الأطباء وحجراتهم مملوءة بزجاجات الدواء .

مسيرهم إلى عيادة طبيب ، أو معمل تحليل ، أو محل صيدلى .

ولا يزالون فى هذا التردد حتى يسوقهم القدر إلى اختيار بلد من بلاد الحمامات للعلاج .

تلك حال تجدها فاشية فى بلادنا ، لا يقنع المريض ولا أهله بطبيب واحد ولا علاج واحد ، وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى التراخى فى التداوى أو الخلط فيه وكلاهما ضار .

ولو أن لكل مريض منا طبيباً يعتاده ، فيعرف تكوين بنيته وموطن الضعف فيها ، وما هو مستعد له من الأمراض وتاريخ ما يصيبه منها ، لسهل الاهتداء إلى الداء فى بدايته ، والوصول إلى مداواته على الوجه الذى يوافق مزاج العليل .

* السياسة : الثلاثاء ١١ محرم ١٣٤٣ ، ١٢ أغسطس ١٩٢٤ .

وتقرير من مثل هذا الطبيب ينفع أساتذة الطب الذين يستشارون فى أوربا ويسدد أنظارهم .

لكننا إذا لمنا مرضانا على ما بهم من هلع يورثهم ضعف الثقة بالأطباء فإنا لسنا أقل لوماً لأطبائنا ، لأنهم فى الغالب لا يعنون بأن يقيدوا أحوال مرضاهم ويتعرفون كل نواحى بنيتهم ومميزات مزاجهم .

ينظرون نظراً محلياً إلى موضع الألم وما يشكو منه العليل .

وإذا كان عذر مرضانا أنهم فى الأكثر ممعودون ، فلعل عذر الأطباء أن زبائنهم كثير ، ووقتهم قصير .

* * *

أما الصنف الثانى من المصريين فى ليون فهم الطلبة .

أولئك إن أردت أن تلقاهم ، أرشدت إلى قهوتين فى أحسن مواقع المدينة واحدة للنهار وأخرى لليل .

ومن الظلم أن تفهم أنك لا تجدهم فى غير القهوتين ، فإنك تجدهم فى أماكن أخر وفى الجامعة أيضاً .

ليس من السهل أن تتعرف أولئك الشبان من بين سائر الناس ، فقد مسح عنهم طول المقام فى أوربا شعث وادى النيل فابيضت وجوههم أو كادت ، وسلست شعورهم ولانت ، بعد ما كانت كشعورنا خشنة مجعدة ، وأريد شعور رؤوسهم ، أما لحاهم وشواربهم فمحلوقة حتى لتحسبهم جميعاً فى سن واحدة ، اللهم إلا طالباً رأيته أرسل شاربيه وترك من لحيته ما يقوم بالكفاية ويسقط الحرج عن الباقين .

صاحبنا من حملة الشهادة الأزهرية العالية ، فلو حلق لحيته لنالته ألسنة الدينيين وكتب فى قائمة الملحدين .

والقيامة قائمة الآن فى أوربا على الشعور فقد أصبحت النساء تقصر شعورها كالرجال سواء بسواء ، فلم يعد لتلك الوجوه الفضية إطار من ذهب ،

ولم تعد تستطيع أن تقول مع الشاعر :

فكأنها فيه نهار ساطــع ... وكأنه ليل عليها مظلم!

صار كل ما قيل من الشعر فى الشعر الطويل أثراً من الآثار ، ولا بد من شعر جديد لهذه الشعور القصار .

ليست السيدات هنا قصيرات الشعر وحده ولكنهن قصيرات الأكمام .

وقد استرعى نظر الكنيسة الكاثوليكية قصر الأكمام وسعة الجيوب إلى حد يكشف الذراع والعضد ورأس الكتف ، ويهتك ستر النحور والظهور ، ويفشى سر الصدور .

عدت الكنيسة ذلك إخلالا بالحشمة الواجبة على المتدينات ، خصوصاً إذا دخلن بيوت الله وتعرضن لرسم من رسوم الدين ، فأصدر بعض أساقفة فرنسا منشوراً إلى من يتبعونه من القسس يأمرهم بأن يتخطوا عند منح البركات من تجيئ إلى الكنيسة بهذه الثياب ثم يعظوها بالحسنى .

ومن الغريب أن بعض سيداتنا يسدلن النقاب على وجوه أذن الله أن تكشف ثم يبدين ما حقه أن يستر من أبدانهن ومواضع زينتهن ، وفى ذلك من المخالفة للدين والكمال ، بمقدار ما فيه من المنافرة للذوق الجمال .

لكن ليس لرجالنا الدينيين سلطان على النساء ، إذ ليس لديهم بركة يمنحونها ، فهل عندهم موعظة حسنة يسدونها ؟

٤*

إلى مائدة بجانبى إنجليزى كان من رجال البحرية ثم أحيل على المعاش ، وهو الآن يعيش أكثر العام سائحاً فى البلاد التى تعجبه ويطيب له المقام فيها .

كان ماراًّ بباريس ، فى طريقه إلى إيطاليا بلاد الجمال والفنون الجميلة

* السياسة : الجمعة ٢١ محرم ١٣٤٣ ، ٢٢ أغسطس ١٩٢٤ .

فمرض ، لأول مرة فى حياته ، وأشار عليه الأطباء بأن يذهب إلى إكس ليبان للتداوى بحماماتها .

وكثيراً ما نجد فى الفنادق هنا نساء ورجالا بلغت بهم السن ذروتها فهم يؤثرون أن ينحدروا إلى الأجل بين الغابات الملتفة ، والبحيرات الصافية ، والجبال العالية المكللة بالنباتات والثلوج ينتقلون فى البلدان اللطيفة عائشين فى الفنادق الزاخرة بأنواع الترف وأفانين البهجة والطرب ، يتلهون عن أثقال الشيخوخة بمشهد الشباب خفيفاً حمله ، لاعباً لاهياً ، مستمتعاً بلذات الشباب — وإن الحياة هى الشباب .

ذلك مشهد يبعث فى نفوسهم تذكار ساعات من العمر زاهية ، ولذات فى الحياة ماضية ، وقد تكون الذكرى سلواناً ، وإن كانت لفائت لا يعود .

فى الفندق الذى أنا ساكنه عدد من هذا النوع ، ومن غريب ما لاحظته أن الشيخوخة ترد السيدات إلى سحن متشابهة وأشكال فى الجسم متقاربة لذلك أتحير فى تمييزهن وأحتاج فى تعرفهن إلى علامات .

أما الشيوخ من الرجال فمنهم من يأخذ الصلع ناصيته ، ومنهم من يهبط الصلع على أم رأسه ومنهم ذو لحية وحليق .

رهيبة تلك الفترة من العمر التى يرى الإنسان فيها كل ما حوله من الكون ينمو ويبسم للحياة ، ويرى نفسه ذابلا كئيباً ، يمشى إليه الموت مسرعاً وهو يدب فى حواشى الحياة دبيباً . ذلك مع بسطة الرزق وسعة العيش . فما بالك بالفقر ينيخ بكلكله على تلك الهياكل المتهدمة ؟ وليس عندنا فى مصر ملجأ مصرى واحد لمن يصيبهم الفقر والهرم .

يتحدث إلى ذلك الجار الإنجليزى من حين إلى حين . وقد وعيت من حديثه طرائف .

قال لى مرة ، فى يوم من أيام الآحاد : كنت أمثل اليوم هذا الفندق ومن فيه من نساء ورجال فى الكنيسة وحدى .

وقد عرض على القساوسة أن أطوف مع الطوافين لجمع الإحسان من حاضرى الصلاة فأجبتهم: ينبغى أن تمهلونى أربعاً وعشرين ساعة على الأقل للتفكير فى هذا الموضوع .

واسترعيت نظره إلى رجل أمريكى لا تكاد تراه إلا مطلعاً على صحيفة، أو ناظراً فى مجلة ، أو قارئاً لكتاب ، حتى فى ساعات الطعام .

فقال صاحبى : ألست تراه ذا زوجة وأولاد ؟ إنه يرفه عن نفسه الضجر بهذه المطالعات المستمرة !

ثم سألنى : هل أنت متزوج ؟

قلت : نعم ، أنا متزوج وأب .

قال : أما أنا فلا !

قلت : لم يا سيدى ؟

أجاب : أنا وإن كنت من سعة العيش بحيث أستطيع أن أحيا حياة طيبة فإننى لست من الغنى بحيث أكفى مطامع زوجة وحاجات أولاد .

ثم إننى أخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة . فما حاجتنا للمزيد ؟

وزاد بعد ذلك : وإننى أحب الأنس بنفسى والسكون ، وليس مع امرأة أنس فى الحياة ولا سكون ! أليس ذلك صحيحاً ؟

طلب منى الجواب فأخذت أنظر إلى اليمين وإلى اليسار فأجد مع كل رجل امرأة ، سواى وسواه !

قلت : هل أكذب كل هؤلاء ؟ فجعل يبتسم ! وجعلت أبتسم !

وحدثنى مرة أن طبيبه تقاضى منه مبلغاً من المال .

قلت : كم مرة رآك الطبيب ؟ قال استدعيته مرة إلى الفندق أول عهدى بإكس ليبان ، وبعد ذلك كان يلقانى فى الطريق فيحيينى ويسألنى : كيف الحال ؟ ويَعُدّ ذلك عيادة، حتى صرت ألقاه فى السبيل فألتمس الفرار وأختفى عن الأنظار مخافة أن يلقانى بسلام أو يسألنى كيف الحال !

كنت أظن أن الإنجليز كلهم مثل الفيلد مارشال أللنبي لا يعرفون المزاح ، ثم تذكرت أن لورد ملنر كان يمزح ، وأن لورد كيرزون كان يمزح .

ومن يدرى ؟ قد يكون مستر ماكدونالد رئيس حزب العمال ورئيس الوزارة الإنجليزية يريد أن يمزح أيضاً ؟

* * *

ليست إكس ليبان من البلاد التى يغشاها المصريون كثيراً ، على أننى وجدت فيها شابين مصريين من إخواننا البرابرة يشتغلان بالخدمة فى بعض المطاعم الكبيرة .

وقد أعجبنى أنه يوجد فينا من يدفعه الطموح إلى الكسب ، للهجرة والمزاحمة فى ميدان هو من أشد ميادين الحياة تزاحماً ، ورأيت الشابين يسابقان زملاءهما من أهل البلاد والنازحين إليها فى الانتباه والنشاط والنظافة والنظام .

أخبرنى أحدهما أن فى نيس رجلا من البرابرة أصبح غنياً وله مطعم كبير يتوارد عليه من يريد التفكه بالطعام الشرقى والقهوة المصرية ، وقال إن فى مرسيليا قريباً له صاحب قهوة هناك .

سرنى أن يظهر المصرى عاملا نشيطاً يلتمس الغنى فى أرجاء العالم بجده وسعيه ، فإن بلادنا محتاجه أيضاً إلى أن يجد أبناؤها فى طلب الغنى .

وكم فى هذا العنصر العامل الذكى ، عنصر البرابرة ، من فضائل جديرة بأن تكون أسوة لسائر المصريين .

شيء واحد لا يعجبنى من إخواننا البرابرة ! ذلك هو أن لهم كشافة .

إننى لست من أنصار تلك الجوقات التى تغدو وتروح بيننا بسراويلها القصيرة وعصيها الطويلة ، تتهادى فى الشوارع على دق الطبل والمزمار .

الغرض من الكشافة فى ما أفهم هو تربية الناشئة على الحياة الخشنة ، والنظام القاسى ، والنجدة ، وقوة العزم ، وليست بنا حاجة إلى تعليم اللين والرخاوة ، والضرب فى الطرقات بالهراوة .

٥

باريس ! باريس*

.. يروى أن عالماً كبيراً من علمائنا — غير الأزهريين بالضرورة — كان قد غاب عن باريس زمناً طويلا فى مصر ، فلما عاد إلى ملكة المدائن ، لم يتمالك أن ارتمى على أرضها وجعل يعفر وجهه فى تراب الحرية ، وإن كانت حرية باريس لا يلحقها غبار .

كان ذلك قبل عهد الأتوموبيلات والأتوبيسات التى لا تترك الآن فى باريس شبر أرض خالياً لعاشق يريد أن يرتمى ثم ينهض صحيحاً . وقد كان عالمنا — يرحمه الله — ضخماً طوالا ، وكان يحب باريس ويحب الحياة .

لست من هذا النوع من الغرام ، بيد أنى أحب باريس حبًّا جمًّا .

دخلت باريس أول مرة بين صديقين كريمين ، وكان أحدنا يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشاً ، وكان الثالث شيخاً معمماً .

أما الأول فتحلق به الفلسفة العالية فوق القبعات والطرابيش والعمائم ، والثانى كان يحمل طربوشاً فقط ، فأصبح يحمل لحية وطربوشاً .

أما المعمم ، فسكين ، لا يزال شيخاً معمماً .

وكلما دخلت باريس وجدتنى بين الصديقين العزيزين ، وأبصرت القبعة والطربوش والعمامة تسير فى ذلك الموكب الدائم ، فإن باريس تحتضن الذكريات ، ولو صغيرة ، فى حرارة تحفظ عليها وجودها وحياتها ، فليست

* السياسة : الثلاثاء ٢٥ محرم ١٣٤٣ ، ٢٦ أغسطس ١٩٢٤ .

تعود إليك خيالات بالية ولكنها تطالعك حقائق باقية . قد تجد للوحدة استيحاشاً حتّى فى مسقط رأسك ، وبين قومك ، أما باريس فلا وحشة فيها ، لأن المعانى والذكريات والآمال والماضى والحاضر كلها فى باريس كائنات متحركة تنهض بجانبيك .

باريس موجود حى ، تنبعث الحياة من أرضه وسمائه ، وصبحه ومسائه ، وربجاله ونسائه .

باريس عظيمة ، بكل ما تحتمل هذه العبارة من معانى الحياة والإجلال والجمال والذوق والفكر والانسجام والخلود .

فى باريس جمال يجمع بين أبدع ما يتجدد من نتاج الذوق والفن وبين جلال القدم ، وقد نقل لى أديب عن شوقى بك أنه قال : إن باريس كالجواد الأصيل .

يريد شاعر النيل : أن حسن باريس ذاهب فى غور الأجيال ، يغتذى بالحديث والقديم ، ويرجع إلى حب فى الجمال صميم ، وعليه طابع الأصل الكريم .

ليست باريس صنع شعب من الشعوب ، ولا عمل عصر من العصور . ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال .

باريس جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء ، وفيها لكل داء فى الحياة دواء . فيها كل ما ينزع إليه ابن آدم من جد ولهو ، ونشوة وصحو ، ولذة وطرب ، وعلم وأدب ، وحرية فى دائرة النظام لا تحدها حدود ، ولا تقيدها قيود .

باريس عاصمة الدنيا ، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس !

وهل غير باريس للحور والولدان،والجنات والنيران ، والصراط والميزان ،

والفجار والصالحين ، والملائكة والشياطين ؟ !

* * *

زرت الحى اللاتينى ، مجمع الكوليج ده فرانس والسربون والبانتيون . حى العلماء والطلاب ، وحى الشباب ، رعى الله الشباب ! طوفت حول الجامعة ، فإذا طلاب وطالبات برغم العطلة يغدون ويروحون تفيض محافظهم بالكتب والأوراق كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبشر ، وإن علتها ملامح الجهد والفكر .

هم من ألوان مختلفة ، وبلدان شتى ، وأكثر الطلاب الأجانب جداً وعملا وانتفاعاً بالمقام فى أوربا هم اليابانيون — فى ما سمعت — وأكثرهم رفها وانصرافاً إلى اللعب ، وتضييعاً للدرس هم الرومانيون .

أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم ، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة .

ولا يبدو على محياهم أثر للشحوب ، فيقول قائلون : إنهم يرفقون بأنفسهم فى الدرس رفقاً يحفظ عليهم بهجة الراحة ، ويقول قائلون : إن سمرة أديمهم تخدع الناظر عن سمات الجد والنصب ، وآثار السهر الطويل فى المذاكرة والتحصيل .

وكذلك شأن طلابنا فى مصر نفسها ، وكلا التأويلين محتمل فى الجميع .

وإذا ذكر الطلاب المصريون ، وجب إعلان الإعجاب بشبان تتزين بهم مجاميع التلاميذ المصريين فى بلاد أوربا المختلفة ونسمع ذكرهم ثناء مستطاباً ، وهم على قلتهم رجاء النيل والأهرام ، وعزاء مصر اليوم وذخرها لمستقبل الأيام .

ولا يسع السائح المصرى إلا أن يسر سروراً عظيما بإقدام فتيان من خريجى الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم على السفر إلى أوربا شوقاً إلى الكمال العلمى ، من غير سابق تأهب للحياة والدراسة فى تلك البلاد ، ومن غير بسطة فى الرزق ولا مدد .

نجد منهم فى باريس وليون وجرينوبل ، وقد يكون منهم فى غير هذه المدائن ، وفى غير فرنسا . أولئك الشيوخ المجاهدون فى سبيل العلم يستحقون عطفاً وتشجيعاً .

* * *

ختمت زيارة الحى اللاتينى بحديقة ليكسمبور ، وهى روضة ذلك الحى فيها بجلاله وعليها طابعه .

الأشجار العتيقة باسقة ، قد اسودت جذوعها ، واخضرت أعاليها خضرة مشوبة باصفرار ، وشقت بين صفوفها مسالك ، تظللها الأغصان المتشابكة ، كأنك بينها فى سحر يتنفس صباحه فى أعقاب ليل ، وكأنك فى تجلى الأسحار وفى هدءاتها . وترى التماثيل البديعة فى شعرها الصامت منسجمة فى ذلك الإطار البديع .

وبين حنايا هذه الظلال تجد فناناً عاكفاً على تصويره ، ومفكراً مستغرقاً فى تفكيره ، وشاعراً يستنزل الوحى من سماء الشعر ، وعاشقاً يبث غرامه ، وغزلا يستمتع بالغزل .

ثم تخرج إلى ساحة تبسم الأنوار فيها والزهر ، وتنحدر على درج ، إلى البركة ذات النافورة ، مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها ، ومن حولها دكك مفرقة لمن ليسوا أطفالا .

لمحت فى بعض النواحى فتاة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم ، وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة ، وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها . وكم يأوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم !

ليس ماءً ذلك الذى يجرى فى بركة ليكسمبور ، ولكنه ذوب ابتسامات ودموع !

رويدكم أيها الأطفال العابثون بذلك الماء !

٦

الريف *

« لا بد أن تقضى عندنا يوم الأحد لترى الريف الفرنسى وأهله ، بعد أن رأيت المدائن وبلاد الحمامات » .

هكذا قال صاحبى الليونى ، وزاد دعوته إلحاحاً بأن السيدة والدته تريد أن ترانى ، وقد سرت يوم علمت بعودتى إلى فرنسا .

قال : وصورتك موضوعة فى حجرتها ، ولولا أنها بنت خمس وسبعين لأدركتنى غيرة من ودها لك !

يا صاحبى ليهدأ روعك ولو كانت بنت ستة عشر عاماً — لا يجوز العقد عليها بمقتضى القانون رقم ٥٦٠ لسنة ١٩٢٣ .

لا تخش منى فإنى كالنسيم ضنى   وما النسيم بمخشىّ على الغصن

* * *

أصبح الأحد ، وجاء صاحبى إلى الفندق يقود سيارته لنذهب معاً إلى منزلهم العائلى ومزارعهم ، مسيرة ساعتين من ليون ، وكانت إلى جانبه صديقة له تذهب لزيارة أهلها وتعود مع صديقها فى المساء لدى عودته .

كدت أحرج من هذه الصحبة ، ثم تذكرت ما ورد فى بعض الأخبار : « الواحد شيطان ، والاثنان شيطانان ، والثلاثة ركب » ! فطابت نفسى وسرنا ركباً نجتاز مدينة ليون وهى وادعة ساكنة ، لأن اليوم يوم بطالة ، ولأن الجماهير تشهد سباق السيارات فى بعض الضواحى .

فلما خرجنا إلى الريف استقبلنا وادى السون : جنة ذات نجم وشجر

---

* السياسة : الاثنين ٩ صفر ١٣٤٣ ، ٨ سبتمبر ١٩٢٤ .

وبحيرات وأنهار ، نرقى نجادها فنشرف على منظر يبهر العين جماله ، كأنما نرى صورة أبدع الفنان رسمها وتأليف ألوانها ، ثم ننحدر إلى وهاد ، تحيط بها جبال ترفل فى غلائلها الخضر .

وحيثما وجهت وجهك فثم خضرة وماء ووجوه حسناء .

تبدو المنازل منشورة فى ذرى الربوات وأحضانها ، وفى منحدر الوديان ومطمئن الأرض ، وتجتمع أحياناً قرى أو عزباً .

وأما السبل فممهدة وإن ازورت بك إزوراراً، وذهبت يمنة ويساراً، تحف بها الأشجار باسقة ألفافاً تحجب الشمس وتحجب المطر ، وتأذن للنسيم وتأذن للنظر .

تركنا الفتاة غير بعيد من ديار أهلها وما كدنا نسير بعدها قليلا حتى سكنت حركة السيارة لفراغ البنزين ، ولم يكن بد من دفعها بالراح إلى محل تتزود منه زادها .

ظننت أن الشيطان قد ألم بنا حين لم نعد ركباً فشرب البنزين ! وهممت أن أدعو عابراً فى السبيل أو عابرة ليركب معنا فيقيء الشيطان ما شربه ، وتذكرت أن بعض الفقهاء يقول—كما فى كتبنا الدراسية : إن المرء إذا لم يسمّ فى أول طعامه، أكل الشيطان من طعامه فنقص، فإذا ذكر اسم الله بعد ذلك قاء الشيطان ما أكله. تحدثت بكل ذلك فى سرى ، لكننى لم أبح بشيء منه لصاحبى ، لأنه وإن كان رجلا متديناً يؤمن بالله ، ويقيم الصلاة ويذهب إلى لورد ، ويعتقد بالجن والملائكة ، فما أظنه بلغ من الإيمان إلى حد التصديق بأن الشياطين تقيء الطعام وتشرب البنزين .

* * *

ما فتئنا ندفع السيارة إلى ربىً تنحدر منها بعد ذلك وحدها ، حتى وصلنا إلى حانوت أخذنا منه للسيارة وقودها فعادت تنتهب الأرض انتهاباً ، إذا ما سابقتها الريح فرت ، ولم تلق فى يد الريح تراباً،ولكنها تنثر فى يد الريح أزهاراً

مما تنبت الأرض حولها ومن فوقها ومن تحتها ، وأوفينا على نجد فى جبهته دار القوم ، تحيط بها مزارع الكروم ، وحدائق الفاكهة ، ومراعى الغنم ، وتقوم إلى جانبها مصانع النبيذ ومخازن الأثمار ، ومرابط الخيل .

وانتهينا إلى ساحة وقف فيها رب الدار فى ثياب قروية ليس عليها بهاء المدن ، بل عليها مظاهر النشاط والجد. ذلك الرجل الموفى على الثمانين ينهض معتدل القامة مفتول العضل ، وإلى يمينه زوجته تتراجع دونه قليلا ، وهى أطول منه قامة وأظهر شيخوخة على أنها أصغر منه سناً ، فيها وداعة النساء ووداعة الهرم ، وفيها للتقى وداعة أيضاً .

تقدم الرجل فحيانى بقبضة يد لم تلن السن من صلابتها ، وعلى وجهه طلاقة امرئ لم تخلق ملامحه للبسمات ، وإن لم يكن فظاً .

وأقبلت من بعده السيدة ، يتلألأ محياها بشراً ناطقاً بالسماحة والكرم وفى نظراتها من العطف والرقة والإخلاص ما يبعث فى النفس أنساً بها ، وحباً لها وإجلالا .

هزت يدى مراراً فى قوة ولطف ، وجعلت تسألنى عن دقيق أمرى وجليله .

أما زوجها فسألنى عن مزارع مصر وأثمارها وكيفية الرى وأمراض الشجر .

وبعد الغذاء هيأت لنا السيدة مضجعاً واسترحنا ساعة ثم اجتمعنا فى الحديقة نشرب الشاى ونسمر .

أراد صاحبى أن يرسم أباه بآلة مصورة معه ، فأرسل إليه رسولا وكان الرجل يتعهد خيله فى مرابطها ، فبعث إلى ابنه أن أقبل لتصور الجواد الأحمر .

ضحك الفتى ، إذ ليس له ذوق أبيه فيعرف للخيل أقدارها ، ولا بد أن يكون الشيخ قد ضحك من ابنه المغرم بالفتوغرافيا والأتومبيل. وهكذا تضحك الأجيال من الأجيال ويضحك الدهر من الجميع .

* * *

شهدت بين القوم حياة عائلية يوفر النظام وتوزيع العمل أسباب السعادة فيها .

فالرجل يدير الشئون الخارجية بهمة وحزم على أنه يشاور امرأته ويستنصحها ويطلعها على كل صغيرة وكبيرة من موارده ومصادره ، ومزراعه ومتاجره .

والسيدة تتولى سياسة المنزل وما يلزم لنظامه وراحة ساكنيه مع حفظ درجة الزعامة لرب البيت .

سألت السيدة : ما بالها لا تزور مدينة ليون إلا قليلا ، مع أنها قريبة منها وفيها ابنها ، وحركتها إليها تنفع صحتها ، وتنوع لها شكل الحياة ؟

قالت : إن زوجي شيخ كبير ، ولست أطمئن إلى راحته والوفاء بما يلزم لخدمته إذا تركت ذلك للخدم .

* * *

راعني ما وجدت من كرم القوم ، فى بساطة لا يشوبها تكلف . وأكبر ما أثر فى نفسى أن السيدة حينما أردنا الرحيل أخذت بيد ابنها وبيدي إلى ناحية من الحديقة نصبت فيها تمثالا صغيراً للسيدة مريم العذراء مهدت له بين الغصون والرياحين ووقفت بنا جاثية خاشعة متضرعة لأم المسيح ترتل لها توسلها المشهور .

خيل إلى عند ما لحظت فناء السيدة فى ابتهالاتها وتضرعاتها أن ذلك الحجر المنحوت يلين لتوسلها ، وأن الآفاق تردد صوتها المتهدج خشوعاً وتقى ، وأن ملائكة ذوى أجنحة تحمل دعواتها إلى العالم العاوى ، وتحملنا مع هذه الدعوات ، فلا نرى إلا أرواحاً وأنواراً ، ولا نسمع إلا صرير الأقلام فى لوح القدر .

وبينما نحن مغمورين فى هذه التجليات الآخذة بكلياتنا عن شؤون هذا العالم ، إذ يزعجنا بغتة صائح دنيوى هو نفير السيارة التى أعدت لنا فننتفض مذعورين . تصرخ السيدة وابنها : يا مريم ياأم الإله ! وأصيح وحدى يا سيدة زينب يا بنت الإمام !

أما التمثال الصغير فقائم فى مكانه ينظر وهو ساكت كبعض الناس سكوتاً بليغاً .

وأما الأتومبيل فسارت بعد قليل فى سبيلها تطوى لها الأرض .

٧

عيادة مريض*

بعد لأى أدركت القطار الذي يبرح محطة (ليون براش) تمام الساعة السابعة صباحاً فيصل (تنى) منتصف الساعة العاشرة . وكنت حاولت إدراك القطار ثلاثة أيام متواليات وهو يفوتني لغير سبب إلا النوم يغلبني على ما أحاول.

وإذا كان النوم سلطاناً — كما يقولون — فهو ألطف السلاطين استبداداً وأخفهم على الروح تحكماً .

النوم أحسن لذات الحياة ، تشترك الروح فيه والبدن ، ولست تحتاج فى التمتع به إلى جهد تبذله ، ولا شريك يعينك على تحصيله ، ولست تخاف من الإسراف فيه ضرراً يحيق بك ، أو يقع على غيرك .

يقول ابن حزم : إن الإنسان يكدح فى الحياة ويجهد ليطرد الهم عنه .

وهل يطرد عنك أنواع الهموم جميعاً ، ويرفه عنك كل عناء ، إلا نومة تنقلك من عالم الحركة المتعبة إلى عالم السكون المريح .

النوم ملجأ المكروبين ، يخفف عنهم مرارة اليقظة ، ويضع على جراح قلوبهم بلسما ، وهو صديق للسعداء يقوى أعصابهم لاحتمال السعادة ، ويدفع عنهم سأم استمرارها ، ويصقل حواسهم للتمتع بها .

ينجيك النوم من رؤية الثقلاء ، ومن سماع الثقلاء ، وينجيك من ثورة الشهوات والمطامع ، وفوران الأحقاد والضغائن .

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتاً » : « والسبات بضم السين الموت ، والنوم أحد الموتين ، ونعمة الله فيه كبيرة .

* السياسة : الخميس ١٠ ربيع الأول ١٣٤٣ ، ٩ أكتوبر ١٩٢٤ .

فإن نوم بضع ساعات في اليوم يريح القوى من تعبها ، وينشطها من كسلها ، يعيد إليها ما فقد منها ، ولو لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد للقوة » .

النوم أحد الموتين ، ونعمة الله فيه كبيرة خصوصاً فى مصر . وفى هذا الزمن ، فإن الحياة أصبحت — فى ما يظهر — ثقيلة منفرة . ألست ترى شبابنا الناهض يفر منها بالسكر والحشيس والأفيون والكوكايين والهرويين .

وما أدرى لم يلجأ فتياننا إلى هذه المعالجات المتعبة ، وعندهم موتان مريحان ، ونعمة الله فيهما كبيرة .

* * *

ركبنا من (تنى) سيارة معدة لنقل الركاب وأمتعتهم إلى (هوت ڤيل) وازدحمت السيارة قبل مسيرها ، ثم جعل الركاب يتواردون عليها فيترا كمون قياماً وقعوداً ، ما بين صفر اليدين ومملوء الحقائب .

وأكثر الركبان من عجائز الريف ، قد رمى الله بالبركة فى جسومهن ، فاهتزت وربت ، وكلما اضطربت السيارة صاعدة أو هابطة مال الناس بعضهم فوق بعض ، فتجدك تارة بين كتل لحوم بشرية ، وتارة بين بقج ليست ألين من تلك الجسوم ملمساً ، ولا أخف حملا ، كل ذلك والسيدات يتضاحكن مرحات ، ويتنادرن فرحات .

وقد يكون فى الأمر ما يدعو للمجون والضحك ، لكننا مقبلون على (هوت ڤيل) مأوى المرضى الذين يتلمسون ما ضاع من صحتهم فى ثنايا الجبال وبين الغابات فى بقعة ترسل الشمس إليها أشعة متلألئة ، ينكسر لألاؤها فى أثناء تلك الخضرة الضاربة للسواد ، كأنها ابتسامة فى فم محزون .

تسير السبيل مصعدة ملتفة ، تشق الصخر والجبل إلى (هوت ڤيل) المتعالية الذاهبة فى الأفق ، كأنها تباعد نازليها عن الأرض لتلتمس لهم بركة السماء .

« هوت ڤيل » بلدة صغيرة وديعة هادئة، يأوى إليها المصدورون فيجد فقراؤهم مستشفى تابعاً لمجلس المديرية ، ويجد ذوو الغنى مستشفيات خاصة ، أو يقيمون فى منازل .

هناك مروج من أزاهير الجبال ، وغابات مترامية الأطراف ، وبرك تحيط بها الأعشاب ، وهناك طيور تهتف أحياناً على أفنانها، فيكون لحنها أنيناً وحنيناً ، أو يكون شدوا يخفف بنغمات الأريحية والابتهاج ما يثيره الوسط من حزن وألم .

ينتشر المرضى فى مسارب الغابات ، ومشارف الآكام ، وفى شوارع البلد ، هزيلة جسومهم ، شاحبة وجوههم ، ساجية عيونهم ، تتردد الأنفاس فى صدورهم الموجوعة ، ويختلج السعال فى رئاتهم المصدوعة ، وتتهدج أصواتهم مبحوحة من أثر الضعف والداء .

وهم مع ذلك يبسمون للحياة والأمل ، وإن كان ضئيلا حظهم من الحياة ومن الأمل ، فقد صفى السقم نفوسهم من أكدار البشرية ، فتكاد تراهم ملائكة تشف أجسامهم البالية عن هياكل من نور ، ولهم جمال يبعث فى النفس إلى جانب الإعجاب رقة وخشوعاً .

مع كل واحد من أولئك المرضى مبصقة ، يودعها فى خفاء ما يفيض به صدره فلست تلمحهم حين يبصقون . ولست ترى فى سبيل أثراً لبصاق .

أما قومنا عفا الله عنهم — مرضى أو صحاحا — فيبصقون فى كل مكان ، ترى آثار لعابهم ونفثات صدورهم وخياشيمهم فى المنتزهات والطرقات ، والمنازل وأماكن العمل ، وفى عيادات الأطباء أيضاً .

حدثنى صديق طبيب : أن سيدة مريضة جاءته يوماً مع زوجها ، ولم تكد تستقر فى مجلسها حتى سعلت وبصقت على الأرض ، قال الطبيب : فنهضت إلى مبصقة فى جانب من الحجرة ووضعتها بين يديها وقلت : أرجويا سيدتى أن تبصقى فى هذه . وما هو إلا أن تممت حديثى حتى سعلت السيدة ولفظت بصاقها على الأرض . ولما لمتها فى لطف على هذا الإخلال

بأبسط قواعد الصحة والأدب انبرى زوجها مغضبا يصيح : ألست تعلم أن الله يقول «ولا على المريض حرج » .

قال محدثى : فأجبت الرجل بأنى وإن لم أكن من علماء الأزهر فإنى أعلم يقينا أن الله لا يريد أن يقول إنه لا لوم على المريض أن يلوث ببصاقه حجرة الطبيب ، ومعاذ الله أن يكون الدين الذى جعل الطهارة من الإيمان مسوغاً للناس أن ينشروا فى الأرض أقذارهم وجراثيم أمراضهم .

ولقد سمعنا أن بعض علماء الأزهر كان إذا غضب من تلاميذه فى الدرس بصق فى وجوههم ، ويقال إن الحال تغيرت فى ما غير الدهر من شؤون الأزهر ونرجو أن لا تكون انعكست الحال .

قصدت إلى المنزل الذى جئت لزيارة أهله فوجدته بناء جديداً حوله حديقة يشتغل فى تسوية أرضها عامل ، إلى ناحية منه طفل ثلاثى يضرب فى الأرض بفأسه الصغير .

عرفت فى سحنة الصبى ملامح أبيه ، فدلفت إليه .

ــ نهارك سعيد يا بنى !

ــ نهارك سعيد يا سيدى !

ــ أنت فلان الصغير ؟

ــ نعم يا سيدى

ــ أين السيدة والدتك وأين أبوك ؟

ــ هما خرجاً معاً لزيارة بعض الأصدقاء فى هذا المستشفى القريب وسيعودان بعد ساعة .

ــ أشكرك يا بنى .

ــ لا شىء يستحق الشكر يا سيدى .

قال الطفل ذلك ثم عاد يسوى الأرض إلى جانب زميله الكبير .

فانصرفت أطوف فى تلك النواحى ، وزرت مستشفى كنت عرفته من قبل

ثم رجعت إلى منزل أصحابى .

أما رب البيت فصديق قديم جمعتنى به صلات علمية أسست بيننا ودا متيناً وقد اشتغلنا معاً، وتعاشرنا زمناً، واحتفظنا بتذكار سعيد لعشرتنا الودودة.

أما السيدة فقد عرفتها منذ عهد زواجها وهى صديقة قديمة كزوجها ، وإن كان غريباً فى لساننا ذكر الصداقة بين النساء والرجال ، وأشهد لقد أحاطتنى بعطف كريم كثيراً ما كان يبعثنى إلى الجد ، ويذكى نشاطى ويحفزنى إلى غايات فى الحياة بعيدة، وكثيراً ما كان لى قوة فى ساعات ضعف من ساعات الهلع الإنسانى .

هذه السيدة العزيزة مريضة اليوم ، يذبل السل زهرتها ، ويحاول أن ينال من بشاشة نفسها وقوتها ، ونفسها أكبر من أن ينال منها ألم .

هى مضطجعة فى كرسيها الطويل ، فى طنف المنزل ، ونحن جلوس حولها ومعنا وحيدها الطفل ، تحملها نوازع الحنو على أن تضمه إلى صدرها ، ثم تشيح بوجهها عنه ، وهو فى حضنها وهى مشوقة إلى تقبيله ، مخافة أن يسرى إليه داؤها ، وليس يدرى الصبى كم يحمل ذلك الصدر العليل من حب له مكظوم ، لو انبعثت قبلاته لأضاءت ما حولها .

أراد أصدقائى أن أبيت معهم ، ولكننى كنت فى هم أريد أن أفرجه بعيداً منهم ، فى هدأة من الليل موحدة ، فتركتهم والشمس شاحبة فى حاشية الأفق ، وكل شىء ساكن خاشع ينتظر الليل .

قبلت يد السيدة لدى منصرفى ، فألقت إلى ابتسامة بعيدة الغور جعلت الحزن يسيل من كل ناحية من نواحى نفسى .

أيتها الابتسامة الألمية ! كم بعثت سروراً وشرحت صدوراً ، وكم كنت أنساً للقلوب ونوراً .

ويا أيتها العليلة العزيزة !

شفى الله من أجلك كل عليل !

٨

إلى مصر*

السماء محجبة بالغمام ، والأفق غير مضيء والمطر منهمر ، كذلك تركنا (مارسى) إلى باخرة تعيدنا إلى مصر .

أما السفينة فهى (وور كشاير) من سفن (بيبى لاين) وتلك السفن معدة للنقل بأحسن من إعدادها للركاب ، فقد رأينا بها خيلا لكل جواد منها حجرة لا تضيق به ، وكنا فى زنزانة ذات أسرة أربعة ، فى كل جانب منها سريران أحدهما فوق الآخر ، ولا تصل إلى السرير العالى حتى تتسلق عمدا من الحديد ، وتثب وثوب الفارس الماهر .

وقفنا فوق ظهر الباخرة ، وهى تنحدر عن الشاطئ ، نودع فرنسا التى جعلت تتراجع أمامنا ، جميلة خلابة ، يبلل القطر رداءها القشيب ، وكأننا ننظر إلى الأيام التى قضيناها فى تلك البلاد ذكريات تبسم فى أثناء الجو العابس ثم تهبط وراء الأفق ، مع مشارف المدن والجبال ، كما تهوي الشمس للمغيب .

ثم نجدنا فى خضم لا تنتهى العين منه إلى مدى ، وتصحو السماء ، فهى صافية زرقاء ، ويصفو البحر ، فهو شفاف أزرق ، كأننا بين بحرين جمد أحدهما أو بين سماء ين إحداهما تسيل .

* * *

الحياة فى الباخرة كالحياة فى المدن الأوروبية ، فلا يكاد المسافر يحس بالانتقال من حال إلى حال ، وإنما هذه البواخر بلاد أوروبية سيارة فى البحار .

---

* السياسة : الاثنين ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٣ ، ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤ .

ليس فى السفينة شىء غير أوربى ، إلا أولئك القائمين بالمهن الصغيرة من الهنود ، تلك طائفة تلبس لباسها ، وتعيش عيشتها ، فإذا حل موعد طعامهم صفت لهم جفان من الرز ، يتزاحمون عليها ، فهم قيام حولها وقعود ، ثم جعلوا يدفعون فى الأوانى أكفهم إلى أصولها ويحركونها حتى تمتلىء ، ويسرعون بها إلى أفواه فتحت إلى نهاياتها ، وميل بها إلى الوراء ، ويدخلون أصابعهم إلى مغارسها ، فتخرج سوداء من غير سوء ، لم يبق فيها لبياض الرز عين ولا أثر ، يتبادلون قللا من الماء ، يعبونها عبا ويصبونها فى أجوافهم صبا ، وينصرفون خفافاً نشطين لا تسمع لهم تجشؤا ، لأن طعامهم أبسط من أن يزحم معدة أو يورث خمولا ، وكذلك الطبقة العاملة الفقيرة عندنا .

إنما يتجشؤ الزعماء وكبار الموظفين والشيوخ والنواب والعمد والأعيان فإنهم يحشون بطونهم لحماً وشحماً ، وفطيرا وفاكهة ، حتى إذا اختمر كل ذلك فى أجوافهم فار التنور ، وجعلت الغازات تثور وتفور .

لا يكاد يوجد فى الباخرة شىء غير أوربى حتى المصريين من الركاب وكانوا عدداً غير قليل ، فإن مجمعهم لم يكن من السهل تبين مصريته إلا بلغتهم العربية يتكلمون بها أحياناً ، وإلا بملامحهم التى يقربها التجميل من سحن الفرنجة .

* * *

فى السفينة من المصريين سيدات وأطفال وشباب وشيب .

أما السيدات ، فمحياهن مشرق من غير صنعة ، تبرق فى أساريره عيون ذكية سوداء ، أغناها عن الكحل ، ولباسهن جميل فى حشمة وبساطة ، وحركاتهن رشيقة من غير إسراف ، رزينة فى غير خمول وحديثهن لطيف بلا تكلف .

والأطفال ، تفيض وجوههم فطنة ومرحاً ، وتبدو عليهم آثار النظافة والصحة ومخايل الأدب والألفة .

أما الشبان ، فلا وقاحة ولا رقاعة ، ولا إسراف فى التزين والمياعة ، ولا غرور فى جهل ، ولا ثرثرة مع قلة العقل .

والشيب حية نفوسهم وضمائرهم ، صادقة نظراتهم وبصائرهم ، عفيفة ألسنتهم وقلوبهم ، لا يثيرون شرا ولا يحملون حسدا ولا يتمنون لأحد ضرا ولا يؤذون أحداً .

ولقد كان بعض المصريين يقول لبعض : ما بالنا لا نرى هذه النماذج الطيبة فى مصر ؟

تطالعنا الشوارع والحوانيت بنسوة وجوههن مشوهة بأصباغها وأدهانها ، وشعورهن محالة عن ألوانها ، وعيونهن غريقة فى كحلها ، لا حشمة فى لباسهن ولا جمال ، ولا رشاقة فى مشيهن ولا كمال ، لا شيء فى حديثهن من السحر الحرام أو السحر الحلال .

والأطفال شاحبة وجوههم ، رقيقة بنيتهم ، فى نواصيهم ملامح الغباء وفى شمائلهم طابع النساء .

أما الشبان ، فنعوذ بالله من الشبان . والشيوخ خارت عزائمهم وضعفت نفوسهم وآمالهم ، وجعلوا فى يد الصغار قيادهم .

قد لا يخلو هذا الحديث من أثر التبرم ، ولكنه ذكرى للذاكرين .

* * *

قضينا فى السفينة خمس ليال ، كانت أوائلها ربيعية النفحات ، لطيفة النسمات ، وكانت أواخرها قيظاً ، لا يتحرك الهواء فيه إلا غرارا ، نفساً ضئيلا حاراً ، حتى جعل بعض المسافرين ينام الليل فوق ظهر السفينة ، فراراً من حجرات لا تجدى المراوح الكهربائية فيها شيئاً .

بيد أن الحر لم يكن يمنع الركاب أن يعيشوا فى تبسط وسرور ، ولهو ولعب ونسيان لمشاغل الحياة وأعبائها ، وهكذا البحر ، يخيل لك الحياة سهلة بسيطة ، كأن ليس فى الحياة إلا سفينة تجرى فى البحر إلى مرساها .

* * *

ثم دنت مصر ، فوثبت عواطفنا طفرة من حال إلى حال . وعرفنا هزة من الفرح تخالطها روعة الرهبة والجلال ، كأننا حجيج بدت لهم مشارف البيت الحرام وتجلت لهم مجالى القدس ما بين زمزم والمقام ، أو كأننا جند أقبلوا على ساحة القتال فأظلتهم الأعلام والسيوف ، ونظر إليهم النصر ونظرت إليهم الحتوف .

لم تكن مصر بعد فى منال النظر ، ولكن القلوب تلفتت ، وتلفتت العيون وكأن الهرم الأكبر قد أطل من عليائه ، يحمل راية الماضى وراية الأمل وإلى جانبه أبو الهول راسخ رسوخ الجبل يبسم للدهر فى حالتيه ، ويشهد تهافت الأجيال بين يديه .

وبتنا نرى فى الأحلام ما ينتظرنا فى اليقظة ، حتى ألقت السفينة مراسيها مطلع الشمس فى بور سعيد ، فنهضنا إلى أمتعتنا نرتبها ، وإلى ملابسنا نغيرها .

كان معى فى حجرة الباخرة ثلاثة من شبان . فيهم ظرف وأدب ، وكنا على تفاوت السن ، إخوانا على سرور متقابلين . فلما فتحوا عيونهم على شيخ يرفل فى أزر مبعثرة ، وذيول مجررة ، وأكمام منشرة ، ولفائف يهفو بها الريح أنكروا فى الصباح من عرفوا فى المساء ، واستوحش الشباب الجديد من مظاهر الشيخوخة والقدم ، وشعرت أنا نفسى كأننى خرجت من جيل إلى جيل .

* * *

أيتها العمامة :

أنت تذكار الماضى المجيد ، وميراث الآباء والأجداد ، ولوددنا أن تكونى تراثاً مخلداً للأبناء والأحفاد .

كم توجت هامة كانت مفخرة الزمن ، وكم زينت رأساً تزين بالفضائل والفطن .

وكم كنت فى ساحة الوغى لواء ، وفى ساحة المجد إكايلا ، وكم كنت

هالة تحيط محيا نبيلا .

أيتها العمامة !

قد أصبحت تصد عنك وجوه النساء وتعبس لك وجوه الرجال ، وصرت آية الضعف والتأخر فى نظر هذه الأجيال ، أضر بك من تخذوك شعارا لهم ، وما كنت للجمود شعاراً ، ومن لبسوك على أوزارهم فحملوك أوزارا .

أيتها العمامة !

قد طغى عليك سيل الحديث ، فكثر خالعوك ، وقل لا بسوك ، بل شف جسمك النحول ، كما شفت البراقع ، ويوشك كلاكما أن يزول ، فى هذا التيار المتدافع .

أيتها العمامة !

أنت عزيزة على كل حال .

٩

فى سبيل أوربا*

الجموع زاخرة حول القطار الذاهب إلى بورسعيد بركاب الباخرة كأنك تشهد ركب المحمل . يومئذ كان لنا محمل يسافر إلى أم القرى فى مواسم الحج . غير أن ركب المحمل كانت تشيعه الموسيقى صداحة تضم إلى جلال الاحتفال الدينى بهجة السرور الدنيوى والطرب . وغير شىء آخر يسترعى النظر : هو أن المودعين لزوار بيت الله الحرام كانوا يكونون فى شبه عرس يجمع مظاهر الأفراح على حين يبكى الحجاج أنفسهم ويختلط شهيقهم بزفير البخار ثم يذهب شهيقهم وزفير القطار سدى بين أنغام الموسيقى وتهليل المهللين .

* السياسة : الثلاثاء ٢١ محرم ١٣٤٤ ، ١١ أغسطس ١٩٢٥ .

أما ركب السفينة المسافرة إلى أوربا فقد كانوا فى غبطة وابتهاج . وسالت دموع كثيرين من المودعات والمودعين . حتى لقد صاح صديق عزيز كان إلى جانبي : إنى لأجهش بالبكاء . ونزا القطار نزوة فإذا هو منطلق، وتركت صديقى لست أدرى أضحك بعد ذلك أم بكى ؛ ففى مصر مبكيات،وكم ذا بمصر من المضحكات !

* * *

جئتنا إلى الباخرة ومعنا شيخ معمم . يجمع ملبسه بين شتى الألوان الزاهية . يضيع فى ثناياها محيا شاحب يزيده وخط الشيب شحوباً . فكأنما هو لفافة من قماش معصفر .

وقف الشيخ بمكان عال من السفينة . وكانت جبته خضراء ، تضرب الريح فى جنباتها فتموج فى كل ناحية ويتضاءل إلى جانبها العلم البريطانى القائم هناك يخفق رويداً ، كأننا فى باخرة مصرية هامتها العلم المصرى الجديد .

التمسنا شيخنا بعد أن سارت السفينة وغاب عنا شاطئ بور سعيد ، فلم نجد فى السفينة شيخاً ولا شبه شيخ . ثم اهتدينا إلى رجل لم يبق له من المشيخة إلا تقاعس الجذع وتقلص الرقبة وانبطاح الجبهة فعرفناه . وقلنا سلاماً ، قال سلام ، ثم سألناه الخبر فقال :

ذهبت أشترى لنفسى ولبعض الرفقة كراسى مما يتخذ للسفينة . فلما جيء لى بما أردت إذا سيدة تنحدر إلى قصيرة غليظة عجوزاً مفرطحة الوجه بارزة الأنياب ، وجعلت تبادرنى بكلام لا أفهمه وأجيبها فلا تفهمنى . ومر بنا صديق فسألها ماذا تريد ؟ ثم جاءنى ضاحكا يقول إن هذه السيدة الإنجليزية حسبتك تبيع الكراسى .

قلت خبرها يا أخى إننا شيوخ قد نبيع كل شيء إلا الكراسى .

وزاد الشيخ : فخرجت للسيدة الإنجليزية من ثيابى . وكم أخرج الإنجليز الناس من ثيابهم !

* * *

وإذا كان صاحبنا قد اختفى فقد ظهر فى السفينة شىء آخر . سيدة من بنى إسرائيل ذات دعابة ومرح مع أنها فى منحدر العمر وممن له دنيا وآخرة على رأى أبى نواس. معها بنتاها فتاتان فى نضرة الشباب واتصلت بثلاثتهن سيدة تركية لطيفة كانت وحدها فانتظم منهن عقد جعل ركنا من أركان الباخرة مغدى ومراحاً للابتهاج والإيناس فى مقابل أركان لعائلات مصرية كان يخيم عليها سكوت عميق .

عز على الشيخة اليهودية أن ترى حفلات موسيقى ورقص تقام فى السفينة ثم لا يكون للشرق منها نصيب. فدعت بعضنا إلى حفلة موسيقية شرقية راقصة .

وهناك فى القاعة الكبرى. أخذنا مقاعدنا حول البيانو نستمع إلى الشابة التركية توقع ألحان قومها الحزينة الرزينة. ثم أتت بالألحان المصرية المنعشة . فانطلقت العجوز إلى بهرة الحلقة ترتج من خلف ومن قدام. وتجىء بالمتقن المؤسس على أصول الفن من الرقص المصرى . وثارت حميا الطرب فى الحضور وأخذوا يصفقون معاً مسايرة للأنغام والحركات . أما إخواننا الإنجليز خصوصاً فقد انصرفوا يعافون أن يروا امرأة تهزهز مابين يديها وما خلفها .

وإنهم ليرقصون فلا يبقى من جسومهم المياسة شىء لا يميل به النغم . ولو أنعم الله عليهم مثلنا ببطون لرقصوا فيما أظن ببطونهم أيضاً .

١٠

فى مارسيليا*

اشتقنا إلى البر بعد أن عشنا فى البحر أربع ليال . على أن سفر البحر لذيذ . يبعدك عن الأرض وما فيها من جن وإنس. وكأنما يبعدك عن السماء وما فيها من ملائكة وعوالم علوية. ولعل أهنأ العيش ما كان بعيداً عن الجن والإنس والملائكة .

تستطيع فى البحر أن تعرف لذة المطالعة فى سعة من الوقت وهدوء وصفاء بال . وتستطيع أن تعرف لذة النوم فى الهواء الخالص الطلق ولذة الاستلقاء فى كرسيك الطويل من غير نوم . لا يشغل بالك شاغل ولا يقطع أحلامك زائر وتستطيع أن تلعب القمار وغير القمار وأن تستمع بالحديث والسمر وتستمع بظلام الليل وغبش السحر .

وقد استمتعنا ببعض ذلك — والحمد لله — ثم غدونا إلى مارسيليا صبحاً .

وكان مع كثير منا سجاير مصرية يريدون أن يمروا بها من غير أن يؤدوا إتاوتها وتلك عقبة لا يذللها إلا ما فى عمال الجمرك الفرنسى من ظرافة تكلفك قروشاً معدودة .

ولما خرجت من الجمرك بما معى من السجاير شعرت بوخز فى مكان الفضيلة من نفسى . فإن هذه هنات مهما تمحلنا لها أعذارا لا نخلو من غمز فى قناة الخلق .

زرت فى مارسيليا كنيستها الشهيرة — نوتردام دى لاجارد — القائمة على ربوة عالية تشرف بك على تلك المدينة كلها وتريكها صورة ذات ألوان بديعة مرسومة بشوارعها وحدائقها ونجادها ووهادها وضواحيها . والبحر

---

* السياسة : يوم الأربعاء ٢٢ محرم ١٣٤٤ ، ١٢ أغسطس ١٩٢٥ .

الأبيض المتوسط حولها نطاق من سندس أزرق . . .

صعدنا فى مصعد تارة وتارة على أقدامنا . حتى بلغنا المعبد . وكنت أحسبنى لا أرى إلا أجانب يزورن الآثار الفنية ويشهدون منظر المدينة البديع من ذلك المكان العالى ، لكننى رأيت فى نواحى هذه الكنيسة الصعبة المرتقى فى جوف ظلامها المؤنس الرهيب عباداً يخرون للأذقان سجداً فى خشوع وإيمان متوجهين إلى ربهم بقلوب تدفعها صدمات الحياة إلى التماس العزاء فى كنف رحمته . فى سذاجة لا يعرف الشك سبيلا إلى يقينها .

فاللهم إيماناً كإيمان العجائز ! أليس الدين جميلا فى إخلاصه ويقينه ؟ وجميلا فى ما يمسح من آلام البشر بيمينه ؟

إنما يشوه الذين أولئك الدين يريدونه كيداً وتضليلا وقيدا للعقول والقلوب ثقيلا .

* * *

زرنا بيت الله فى الضحى . وعند الأصيل خرجنا إلى منتزه مارسيليا الأكبر — الكورنيش .

ولقد يخيل إليك حين تخرج من الميناء إلى المحطة أن مارسيليا بلد فيه فخامته وفيه حركته ، لكن جماله قليل . وأنت إذا طوفت فى الكورنيش رأيت نواص ظريفة . تكلل الغابات هامها الذاهبة فى السماء . ويمتد البحر من تحتها إلى غير مدى .

آوينا إلى مطعم هناك ، نرقى إليه فى جنة عالية ملتفة الأشجار تصل بك إلى بناء أنيق تحف به الجبال فى حال من الأزهار والرياحين .

وكأنك فى سفينة حين تنظر إلى البحر منبسطاً بين يديك ، تضطرب أمواجه . بيد أنك تشعر بأنس المقيم ، ولذة النعيم ، والموسيقى تصدح فى ناحية فترسل أنغاماً حلوة يحملها نسيم البحر ممزوجة بحفيف الأمواج والأشجار وهمس التناجى وابتسام الحسان .

كل ما حواليك هادئ باسم جميل يبعث فى نفسك عواطف هادئة باسمة جميلة .

المكان لطيف رشيق معد لنزهة الطبقة العالية من أهل مارسيليا يجدون فيه مشهداً يريح النظر وسكينة تجمع شتات النفس وعيشاً رغداً .

وقد خرجت من هاتين الزيارتين معتقداً أن فى مارسيليا تقى ، وفيها ذوقاً . وما أحسن التقى مع الذوق. على أنه فى مارسيليا غير الذوق والتقى أيضاً .

ودعت بعض الأصحاب فى المحطة منتصف الليل ثم ركبت سيارة إلى الفندق . ولما دفعت الأجر رضخت للسائق رضيخة رآها قليلة فصاح مغضباً .

أهذه رضيخة سائق بعد نصف الليل ؟ وقذف فى الأرض ما أعطيته . هنالك ثارت فى نفسى حفيظة وخالطها هلع من شر هذا السواحلى المفتول العضل المخمور من نبيذ آخر الليل .

وظن وقفتى الهادئة ونظرتى الساجية تحفزاً للبطش فطار بسيارته لا يلوى وتركنى أقول فى نفسى : أليس خوف الناس من مظاهر القوة وخنوعهم لها يكون فى كثير الأحيان هكذا وهما قائماً على ظواهر خادعة من ورائها ضعف وخور ؟

١١

المشية الجديدة *

كنت سمعت إذ أنا فى مصر أن قد جاءنا فيما يرد من مستحدثات أوربا نوع من المشى جديد تهافت عليه نساؤنا ويقال إن بعض شبابنا هفا إليه .

أردت أن أتعرف هذه « المودة » وأبحث مناشئها فى هذه البلاد التى ابتدعتها ثم أرسلتها إلينا فتنة فيما ترسل من فتن .

لاحظت منذ وطئت قدماى هذه الأرض أن فى مشية النساء بدعاً يكون فيه أحياناً جمال وانسجام ويخرج فى بعض الأحايين عن حدودهما .

ولما جئت ليون — وعهدى بليون بلداً ذا حشمة وجد — وجدت نساءها أيضاً ترقص بعض نواحيهن إذا مشين .

سألت إحدى السيدات : ما بال هذه المشية الجديدة ؟ فأجابت : أظن أن شغف النساء بالرياضة البدنية وعنايتهن بمظاهر القوة والنشاط حتى لا يظن بهن قصور عن مساواة الرجل فى قوته ونشاطه ، كل ذلك يبعثهن إلى سرعة الحركة والمشى على عجل . ولعل إسراع الخطو هو الذى يحرك ما تراه يتحرك من جسومهن .

قلت يا سيدتى إن الرجال فى كثير من البلاد يعنون بأنواع الرياضة البدنية ثم إن شؤون الحياة تدعهم دعا فلم لا يهتز من جسومهم شىء ؟

عندئذ ابتسمت السيدة وقالت : إن النساء على كل حال أقل جموداً وألين عوداً .

هذا رأى سيدة شيخة تمشى رويداً تحت السنين فلا يضطرب من بدنها

* السياسة : الخميس ٨ صفر ١٣٤٤ ، ٢٧ أغسطس ١٩٢٥ .

إلا ما يرتجف من الضعف والهرم .

أما السيدة الفتية فرأيها أن « الكرسيه » كان يشد أجزاء الجسم . فلا تتخاذل أسافله وأعاليه . فلما رأى النساء أن يخلعن هذا النطاق الضيق وهن خصرهن النحيل عن حفظ التماسك بين ما فوقه وما تحته ، فراحت الأرداف ترتج . ولم يكن ذلك فى أوله إلا يسيراً مهذباً تتضح به تقاسيم الجسوم الهيفاء وكان لا يخلو من نفحة جمال فنى . لكن بعض النساء أردن الاستزادة فأملن الاستزادة فأملن أعطافهن لتزداد أرادفهن اضطراباً . ثم أرسلن على الردف الحزام ، وكان ذلك سرفاً ضاعت فى ثناياه بهجة الجمال الأول. ويظهر أن النساء تنبهن أخيراً لذلك فهن يتراجعن لتلافيه رويداً .

وإذا كان هذا السبب أو ذاك منشأ لبدعة المشى الجديدة. فإن هذه الأسباب لا وجود لها بيننا فى مصر. ومن عجب أن تأتينا المسببات بلا أسبابها . على أن الحوادث تهزنا كل يوم رأساً على عقب ، فما لنسائنا — عفا الله عنهن — يزدننا هزا ؟

مهلا بنات النيل . فما كل جميل عند القوم يكون عندنا جميلا . ثم إن ما ينبغى من تلك الجسوم ضئيل ونحن نثير كثيباً مهيلاً .

١٢

فى جرينوبل*

هذه جرينوبل يجرى نهر الأيزر من تحتها وتحيط بها الجبال الرائعة فى زينتها . وجرينوبل مدينة لطيفة تعجب النظار . وأى شىء لا يعجب فى فرنسا الجميلة العظيمة لولا ما تثير من حرب على عبد الكريم ؟

وفى جرينوبل معرض للفحم الأبيض وما يتعلق بالسياحة يجعل توارد الزائرين عليها غير قليل فى هذا الأوان .

وقد زرت المعرض مراراً فى النهار فرأيت آلات كهربائية وأدوات بخارية ورسوماً جغرافية وأشياء صناعية ثم زرت المعرض بالليل وهو لجة من أنوار ومن جماهير .

قالوا إن هنا لفرعاً لمطعم باريسى شهير بطعامه ولهوه نتعشى فيه ثم نشهد الرقص .

قلت : أما العشاء فلى به حاجة ، وأما رقصكم فلا حاجة لى به . ودخلنا إلى أرمنون ڤيل — فوجدنا عقوداً من الأنوار مديحة وباقات من الأزهار منسقة تتلألأ بينها وجوه غراء . وعزف العازفون بآلات الطرب ، حتى إذا فاض المكان بالنور والبسمات وامتلأ أفقه نغماً وأنفاساً ودخانا تهيأوا للرقص ، ووزعت حبال من الأوراق ملونة وكرات صغيرة يتقاذفها الحاضرون تلهيا وتبسطاً . ثم رقص الراقصون وتقاذف المتقاذفون وانبعث السرور واللهو من كل ناحية . وخف كل شىء فى المكان إلا رجلا ظل ساكتاً كأنما يرزح تحت عبء ثقيل . وقد استرعى سكونه الأنظار فتساقطت عليه هذه المقذوفات تريد أن تزلزله فلا يتزلزل .

---

* السياسة : الأحد ١١ صفر ١٣٤٤ ، ٣٠ أغسطس ١٩٢٥ .

هناك تذكرت حكاية المرحوم السلطان حسين كامل حين دخل عليه رجلان من رجال النيابة العمومية . فقال لأحدهما : أنت ثقيل فخف . وقال للآخر : أنت خفيف فاثقل .

وقد خف أولهما ولم يزل يخف حتى صار وزيراً ، وثقل الثانى فلا أدرى أين هو الآن .

هممت أن أقول للرجل أنت ثقيل فخف. وإذا هو ينظر إلى بعض الراميات وينشد :

ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم

ثم جعلت روح البيئة تعمل فى نفسه وتؤثر فى حواسه وعصبه ، حتى لرأيت النغم يستفزه . وخيل إلى أن فى أعماق نفسه صبوة تريد أن تفور وأن تجد متنفساً .

قلت : يا صاحبى هون عليك مالك لا ترقص وتلهو وقد علمت أن لا أجد لمن لا يلهو .

قال : يمعنى من ذلك أمران :

شعرات بيض يصحن فى ناصيتى فهن يذكرننى بقول الشريف الرضى :

تخطى المشيب إلى رأسه وقد كان أعلى قباب الشباب

ثم إن لى طفلة أخاف إذا كبرت أن تدرى أن أباها رقص .

١٣

فى إكس ليبان*
عند أطلال فندق

فى العام الماضى زرت إكس ليبان لأول مرة . وقضيت فيها أكثر من شهر . وكان مقامى بها فى فندق من خير فنادقها يطلع على المدينة من ربوة متلألئا بأنواره وبزواره .

هذا هو نزل ألبيون. وقد التهمته النار فى الشتاء كما ذكرته الجرائد فى حينه .

ولما كنت كما يقول أبو الطيب :

خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

فقد رأيت مذ حللت إكس أن أقضى حق الزيارة لذلك المنزل الخراب الذى أنست به عامراً وعشت فى ظلاله دهراً .

وإذا كان الوفاء قد غاض فلا تكاد ترجو عند أكثر الناس وفاء للود . ولا وفاء للحق ولا وفاء للعدل ولا وفاء للذمم ، فإنا لا نريد أن نخون عهد هذه الجمادات التى إن لم تجز على الوفاء إحسانا ، فهى لا تجزى به — على كل حال — شرا .

عن يمينك إذا استقبلت الحمامات مطلع فوق جبهة الحديقة الكبرى يأخذ بك رويدا إلى الجانب العالى من إكس ليبان . فإذا سرت غير بعيد وجدت قصوراً وجنات يروعك حسنها وزينتها ، وهناك فوق ثنية عند منعطف السبيل

* السياسة : الاثنين ١٢ صفر ١٣٤٤ ، ٣١ أغسطس ١٩٢٥ .

جدراناً تركها الحريق متشحة بسواد ، وقد بقى فى أعلاها اسم ألبيون لم تمسه النار .

وما تنفع الأسماء — وإن كانت شامخة فى السماء — إذا كانت معانيها خراباً .

وقفت بين تلك الأطلال فمرت بخيالى صورة الفندق وهو عقد يزين جيد المدينة أيام ساحاته مراتع آرام ومورد عذب كثير الزحام . وأيام حجراته مطالع أنوار ، وأكمام أزهار . وأوكار أطيار ، ومستودع أسرار .

ثم تمثلته واللهب يتصاعد من نواحيه فخيل إلى أن ليست الأشياء المادية هى التى تحترق وحدها ، ولكن ذكريات شتى تأكلها النار فيما تأكل فينبعث لها لهيب مختلفة ألوانه ، ومختلفة نفحاته فههنا ذكرى لذة وهناك ذكرى ألم .

ثم سنحت عصافير ترعى بين الدمن كأن صفيرها الرقيق نغم آتية من مكان بعيد ، ولعلها ذكريات ، أعجز النيران أن تحرقها .

وعلى حين فجأة انفرجت الحشائش المتراكمة عن حيوان يثب بين الطلول ففزعت العصافير ، ووليت مسرعاً أحسبه الوحش الذى فر من حديقة الحيوانات بباريس . وإذا ثعلب ينفلت إلى حرم كنيسة هناك .

أعوذ بالله ! حتى فى عالم الذكريات ثعالب مفزعة تأوى إلى بيوت الله .

١٤

فى إكس ليبان أيضاً*

نركب « الأوتوكار » وهو من نوع الحلزون فى لسان قومنا ، إلى نزهة حول بحيرة « إنى » من النزهات اللطيفة ، تمتعك بالبديع من مشاهد الطبيعة . وكم من مشهد بديع فى هذا الجانب من فرنسا !

أما سائق السيارة فقد أقبل بعد فوات الموعد المضروب . وبعد أن أظهر الركب تبرماً وضجراً من الانتظار ، أظهروا ذلك تهامساً بينهم فإن أحداً لا يستطيع أن يجهر بالقول لسائق سيارة فى فرنسا أو يخاطبه فى غير إدهان .

وإذا كانت الشكوى عامة مما يبدو فى أخلاق الطبقات العاملة فى البلاد الفرنسية من الجفوة والتمرد فإن السواقين على اختلاف أنواعهم هم أشد الطبقات جفوة وتمرداً وقلة مبالاة أن يسوقوا الناس إلى هلاك أم إلى سلامة . وحوادث القطارات كحوادث السيارات شنيعة متكررة كل يوم تفيض دماء وأرواحاً .

استوى صاحبنا السواق على عرشه وسار ينتهب الأرض انتهاباً فى طرق صاعدة هابطة متلوية . وكانت المناظر اللذيذة تمر بنا ونحن عنها فى شغل بما يساورنا من خوف هذه العجلة .

وأقبلنا على فج منبسط يشق مروجاً وقرى ، فإذا فلاح وديع يقود عربة محملة يجرها حصان وبجانب الرجل كلبه الأمين يسايره لا يتقدم عنه ولا يتأخر تحسبهم جميعاً يتناجون لما ترى من تدانيهم وتبادل العطف بينهم .

داس السواق الكلب بسيارته فتركه جثة هامدة ومر كمر البرق . ونحن ننظر إلى الفلاح واقفاً بحصانه إلى جانب الأشلاء الممزقة جامداً لا يستطيع

---

* السياسة : الأربعاء ٢١ صفر ١٣٤٤ ، ٩ سبتمبر ١٩٢٥ .

تكلماً ولا حراكاً . ولو صوره مصور لشهدت الشكل شخصاً ماثلا .

وتصايح السيدات جزعاً ، فكان صياحهن تعزية يحملها النسيم إلى ذلك المحزون الواقف هناك محتاجاً إلى عزاء .

وظلت السيارة تنحدر انحدار السيل حتى شعرنا بها تترنح وتميل ، والمارة تهتف بالسواق والركاب يرددون الهتاف ليستوقفوه .

ثم بدا له بعد لأى فوقف ونزل السفر. وعندئذ سقطت عجلة كان مساكها قد تطاير .

لم يصب أحد بأذى. لكننا بعيدون عن المدن ، وإصلاح السيارة يحتاج إلى أدوات لا توجد إلا فى مدينة فلنذهب إلى إكسْ مشاة .

سار الركب ولا بد أن يتحدث السمار . فسمعت سيدة تقول لصويحباتها . لم يكن مقرونا باليمن طالع هذه النزهة !

قالت الأخرى : ألا يكون معنا قسيس من حيث لا ندرى ؟

وجعلت السيدات يتصفحن أوجه الرجال متضاحكات .

قال الشيخ : هنالك تذكرت قول شاعر الأزهر :

الشيخ والقسيس قسيسان   وإن تشأ فقل هما شيخان

فتصببت عرقاً ، وأخذت ألوى وجهى وأحرف ملامحه ، وأصد عن تلك النظرات اللاعبة مخافة أن يصبح لعبها جداً . ثم قلت فى نفسى : هنيئاً للشيخ على عبد الرازق قد خلصه الله من الشؤم فى نظر السيدات !

١٥

بين باريس ولندره*

تدخل باريس محزوناً فيذهب عنك الحزن وتدخلها ضجراً فيفارقك الضجر . وتكون مثقلا بأعباء الحياة فتخفف عنك باريس أعباء الحياة .

باريس بسامة فلا يعرف العبوس إليها سبيلا . وجميلة لا ترى فيها إلا جميلا .

إن صدئ ذوقك فباريس تصقله وإن خمد ذهنك فباريس تشعله .

إذا شئت جدها وجدت من باريس معيناً على الجد وإن شئت لهوها لم يقف بك اللهو عند حد .

أما معرضها معرض الزخارف فآية من آيات الذوق والجمال في موقعه على شاطئ السين في نهاية الميدان الأكبر ، ميدان الكونكورد ، ويتوسطه الجسر الأنيق ، جسر الإسكندر ، وهو آية من آيات الذوق والجمال في ترتيبه وتنسيق معروضاته وفي ما حوى من ظرف الصناعة وآثار الإبداع .

فإذا جن الليل كان المعرض سماء تتلألأ فيها الكواكب من كل جانب مختلفة أشكالها وألوانها على نسق يبهر الألباب ويثير كل ما في النفس من بهجة وإعجاب .

ولما قضينا من باريس كل حاجة ، ومسح بالأركان من هو ماسح ، قال رفيقي : « نذهب إلى لندره في طيارة » .

يغفر الله لك يا رفيقي ! وهل يناسب وصف العالمية أن نرقى بطيارة إلى الأفق

---

* السياسة : الاثنين ١٥ ربيع الأول ١٣٤٤ ، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥ .

الأعلى فنزاحم الملائكة بالمناكب عند أبواب السماء أو نتشبه بالجن فى استراق السمع ؟

قال : فالأمر هين نستفتى فى المسألة شيخ الجامع الأزهر أو مفتى مصر وننتظر الجواب .

يغفر الله لك مرة أخرى ! إن شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر وإخوانهما لم يردوا تحية الإسلام فى إدارة المعاهد الدينية ، وقالوا لمن ألقى إليهم السلام : لست مؤمنا . فهل تطمع فى الرد على استفتاء يرسل إلى حضرات أصحاب الفضيلة من باريس ؟

ثم قضينا أن نذهب إلى لندره من طريق البر والبحر وتركنا سبيل الجو لمن لا يدخلون فى حكم المادة ١٠١ من قانون نمرة ١٠ للأزهر والمعاهد الدينية .

تناولنا غداءنا فى القطار الفرنسى الذاهب من باريس إلى كالى . وكان على مائدتنا رجل إنجليزى فرغ من طعامه وعرف أن حسابه خمسة عشر فرنكاً ، فدفع للغلام ستة عشر . لكن الغلام رد الفرنك الزائد ، فأخذه الرجل بكل هدوء وانصرف هادئاً . وجعل الغلام ينظر إليه شزراً ويصيح : ما أعجب هذه الفطر !

وبهذه المناسبة حدثنى بعض الإخوان أنه كان فى لندره وركب سيارة فلما رفع الأجر ترك للسائق شيئاً زهيداً وأراد السائق فى لندره أن ينبهه فى لطف فقال له : إنك يا سيدى أخطأت الحساب فأديت فوق ما عليك . ورد إليه الزيادة وانصرف .

ثم ركبنا المانش من كاليه فعب عبابه واضطربت أمواجه حتى أخذ الدوار كثيراً من المسافرين . ولقد رأيت سيدة تسير متزلزلة فوق ظهر السفينة القلق ثم غلبها الدوخان فانتحت جانباً وبعد قليل شهدتها شاحبة . ورأيت بعض الخدم يعدو ومعه أدوات التنظيف ، ولو لم تكن السيدة إنجليزية لسمعت زفيراً وزحيراً وشهدت شيئاً كثيراً .

ودخلنا عاصمة الدولة البريطانية ، فإذا مدينة فخمة متباعدة الأطراف

تموج بساكنيها وتمتاز بالنظافة والنظام فى مظهر عزة وجد وحشمة .

كل شيء فى لندره إنجليزى يسير إلى غايته سيراً حثيثاً فى رزانة وسكون ونظام .

ليست الشوارع أقل من شوارع باريس حركة ولكنها أقل اضطراباً فأنت تخترقها مطمئناً لا تخاف سيارة تهاجمك ولا تراما يصادمك .

لندره ساكنة لا تسمع فى مجامعها ولا شوارعها ولا نواديها إلا أصواتاً متخافتة لولا آلات البخار .

أما باريس فكل شيء فيها يصيح كأنما هى دوحة تتجاوب الأطيار على أفنانها الراقصة وأول ما يصيح فى باريس الجمال .

وكم فى لندره من جمال لا يصيح .

أما معرض ومبلى فهو فى طرف من أطراف المدينة لم يراع فيه جمال الموقع كما روعى فيه اتساعه وصلاحيته لما أعد له . وقد أعد لأجزاء الإمبراطورية العظيمة تعرض فيه مناظرها ومواصلاتها وحيواناتها وحاصلاتها وصناعاتها .

مهدت فيه الأسباب للتنقل بين أنحائه وتعرف كل ما يحتاج إلى تعرفه فى يسر وراحة مهما تزاحم الناس وكثر عديدهم .

أظهر ما فى معرض باريس حسن الذوق ومظهر الجمال .

أما معرض لندره ففخم يجمع إلى مظهر العظمة تحقيق أغراض اقتصادية مادية .

قلت إنك واجد فى باريس كل ما تشتهى من جد ولهو . ولكن شيئاً واحداً لا تجده فى باريس وهو الراحة . لأن عاصمة الفرنسيس تهز قلبك هزا عنيفاً وتحرك عقلك تحريكاً شديداً ولا تترك لجسمك فترة فى ذلك المضطرب الهائج .

أما لندره ففيها سكون مريح وفى كل جوانب الحياة بها اعتبار للراحة من غير إخلال ببواعث النشاط والقوة والجد .

وإنى على شغفى بالراحة إلى باريس :

نصحتك علماً بالهوى والذى أرى ... مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو

١٦

فى لندره*

لم أكن رأيت لندره ولا شهدت حياة الشعب الإنجليزى . وكانت قد بقيت فى ذهنى صورة للجنود الاستراليين يسيرون سكارى فى شوارع القاهرة . فحسبت لندره تفيض بصرعى الباسو والويسكى ، وأنا أفزع من السكارى ويزعجنى مرآهم .

ولعل ذلك من الأسباب التى كانت تثبطنى عن زيارة البلاد الإنجليزية منذ زمان .

وأشهد ما رأيت فى مدة مقامى بلندره من تأخذ الخمر بلبه ويمشى بين الناس ، اللهم إلا مرة واحدة . كنت راجعاً من معرض ومبلى فى حلزون فركب معنا رجل من العمال كهل طويل نحيل رث الملابس يدل على السكر تقلب نظراته وتخاذل حركاته . لكنه جلس صامتاً حتى نزل . وقد يكون أثر البؤس فى اختلال ميزانه أكبر من أثر المدام .

ليس الشعب الإنجليزى من أقل الشعوب ولعاً بالشراب . لكنه من أقلها سكراً . أما نحن فى مصر فقد نكون من أقل الأمم شرباً للخمر ولكننا من أكثر الناس سكراً .

وحسبك أن تسكن بعض الشوارع المعروفة فيخيل إليك آخر الليل أن كل أهل القاهرة مخمورون يسيرون متصايحين فى شغب وعربدة ، حتى

* السياسة : الأحد ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٤ ، ١١ أكتوبر ١٩٢٥ .

حول دار الملك ، وتتساءل عن الشرطى والخفير ، وربما كان كلاهما صريع نعاس أو صريع كأس يعربد مع المعربدين .

ولا وجه للمقارنة بين شرطى لندره وشرطى القاهرة .

ذلك يقظ مهذب حازم ، لا تفوته فائتة ، وإذا أمر فأمره مطاع . أما بوليسنا فأمره عجب .

ركبت مرة سيارة من سيارات الأجرة وكنت متوجهاً تلقاء العتبة الخضراء ، فلما بلغنا الميدان المحاذى لدار البريد رأيت شرطيا ضخماً طوالا ، واقفا هناك متقلداً سلاحه كأنما هو جندى فى الميدان ، وهوى السائق بسيارته قاصداً إليه حتى إذا وجده لا يتزحزح له عن مكانه صاح به ، وقد دنا منه : « مالك واقف زى اللوح » .

وظل صاحبنا واقفاً « زى اللوح » تلمع البندقية فى كتفه ، ويلمع السيف فى منطقته ، وظل السائق يعتدى عليه بالقول والإشارة حتى تباعدا .

أما « هايد بارك » فإنك لا تجد بين زوار العاصمة الإنجليزية من تفوته زيارة « هايد بارك » منتزه لندره العظيم ، وجنتها المترامية الأطراف الفسيحة الأكناف .

« هايد بارك » رئة لندره — كما يدعونها — فى رحابها مجال الهواء الطلق يتنسمه أولئك المسجونون فى المصانع والحوانيت وبين الأبنية الشامخة . وفى رحابها أيضاً متنفس لجانب اللهو والتبسط المنظوم فى إنجلتره بتقاليد الاحتشام والنظام واللياقة .

« هايد بارك » حديقة ذات سياج حديدى تشقها فجاج ومناهج وميادين وفيها رياض وغياض وفيها بحيرة ظريفة لمن شاء النزهة فى الزوارق .

على عذارى طرقها مقاعد منثورة ، وفوق مروجها كراس مصفوفة وفى كل ناحية جموع تتبعها جموع ، منهم من يمشى متريضاً ، ومن يجلس متفرجاً ،

ومنهم من يطيب له الرقاد فوق تلك النمارق الخضراء فيرقد موحداً ، أو مثنى من غير أن يضايق أحداً أو يضايقه أحد .

وإنك لتلقى النظر على تلك الرياض الأنيقة فيستقل بلك بين زهرة يانعة وشجرة باسقة وخلان نيام ، كأن الأرض تنبت فتيات وفتياناً كما تنبت ورداً وريحاناً .

كأنا فى ساحة وغى سهامها الألحاظ ومراميها القلوب ، ويصرع فيها الغالب إلى جانب المغلوب . وكأنما ذلك العناق كفاح ، على أنه برد وسلام . فإن فى « هايد بارك » جدا ، فيها أعظم مظهر من مظاهر الحياة فى الشعوب الراقية وأكبر آية من آيات الفهم للحرية واحترامها .

تدخل « هايد بارك » عصر يوم الأحد فتجد منابر قد حف من حولها الناس ، هناك محاضرات فى تدبير الصحة ، ومحاضرات فى نظريات الأطباء فى علاج الأمراض ، وهنا خطب فى بث المذاهب الاشتراكية وخطب فى الصد عنها ، وثم هندى يبين معايب السياسة الإنجليزية فى الهند .

وتجد منابر لدعاة الأديان ، هذا يهودى يدعو إلى دين موسى ، وذاك كاثوليكى يشرح فضائل الكاثوليكية ، وذلك بروتستانتى يؤيد دين عيسى على ما ذهب إليه « لوثير » و « كالفان » والجماهير تغدو وتروح بين هذه المناهل فى سماحة لا يشوبها ضيق العطن ، حتى لتتمثلنا جوامع بغداد وهى زاخرة بدروس الدين والعلم والأدب فى حرية لا تحدها حدود ، ولا يقف فى سبيلها تعصب أو جمود .

ولما رأيت للأديان دعاة فى « هايد بارك » ما عدا دين محمد بن عبد الله ، ثارت فى نفسى غيرة وحمية ، فكدت أصدع بالدعوة إلى الهدى ودين الحق ثم نبهنى ناصح شفيق إلى أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين فى مصر ، فيخرج لها فى لندره من يدعو الكفار إلى الإسلام .

قال الناصح : ربما كان ذلك منافياً لوصف العالمية فتحقق به كلمة المادة ١٠١ .

جزاك الله خيراً أيها الناصح ، ذكرتنى وكنت قد نسيت .

ولو أن قومى انطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

١٧

فى مجلس سيدة*

دنا الموعد ووجب الذهاب لتناول الشاى ، تلبية لدعوة السيدة ، التى لم أرها من قبل ، ولكن زوجها صاحبى حمل إلى دعوتها الكريمة .

أخذ التهيب يملأ نفسى رهبة لأننى نشأت على الخوف من شيئين : العفاريت ، والسيدات ، وإن كان نوع الخوف ليس واحداً فيهما .

أما العفاريت فقد عدل الزمن تصورنا لهم ، فأصبحنا لا نرهبهم إلا لماماً ، حينما يعاودنا من غير تنبيه ما بثه الحواضن فى أذهاننا أيام الطفولة وبثه الشيوخ .

وأما السيدات فما زلت أهابهن ، كما يهاب الإنسان كل محجب من أسرار الكون .

وعندى أن فى المرأة جانباً من جوانب الغيب .

أقبلت على استحياء ، ودفعت بطاقتى للخادم ، فلم يلبث أن جاءنى الإذن ، ودخلت إلى قاعة تكاد تكون مستديرة الشكل ، قد فرشت أحسن

* السياسة : الاثنين ١٦ ربيع الثانى ١٣٤٤ ، ١ نوفبر ١٩٢٥ .

فرش ، فى بساطة وذوق ، وتقدمت إلى سيدة ليست قصيرة فى النساء ، نحيلة تلبس السواد يكاد يتلألأ فى ثناياه محيا عليه ظل الحزن، فى بوادر شيخوخة تطغى على شباب ، ويتوج هامتها موفور من شعر أصفر يخالطه مشيب ، فهو فضة ذهب .

وبعد التحية قدمتنى إلى سيدة بولونية عن يمينها ، وطبيب فرنسى يحدثها ، وقدمتها إلى ، ثم أشارت إلى مجلس بجوار الطبيب ، وجلسنا نتكلم فى مصر وطقسها وآثارها ، والزائرة البولونية ممن زار وادى النيل وعرف صعيده وريفه ، وحفظ العبارات الشهيرة الجارية على لسان أهله « معلهش » و « إن شاء الله » .

أما الطبيب فقد عرف المرحومين الدكتور علوى باشا ، والدكتور طلعت باشا وهو يثنى على فضلهما وكفايتهما وكلاهما كان كبير الأطباء فى وزارة المعارف المصرية .

ولقد خشيت أن يسألنى عمن خلف من بعد الأستاذين الكبيرين فى ذلك المنصب الجليل الشأن لأننى لم أر خلفهما الفنى « ولو أتى به إلى ما عرفته » على حد القول المأثور عن دولة يحيى باشا إبراهيم .

ثم قال الطبيب موجهاً إلى الحديث ؟ .

إنى سمعت الفيلسوف برجسن يذكر بالإعجاب عالماً من علمائكم اسمه منصور فهمى ، ويشهد له شهادة حسنة ، فهل تعرف منصور فهمى ؟ وهنا أرهفت الأسماع ، وخشعت الأصوات لذكر برجسن وتلميذ برجسن .

قلت : نعم يا سيدى ، ذلك أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية .

وشعرت ساعتئذ بشىء من الفخر لمصر الناهضة ، التى يشهد ليفيلسوفها الشاب إمام فلاسفة العصر .

ولم أكن أدرى ، ولا المنجم يدرى ، أن سيأتى لوزارة المعارف المصرية من يرى فى الدكتور منصور فهمى غير رأى الأستاذ برجسن فيزعجه من وكره العلمى فى الجامعة المصرية ، ويوزع مجهوده بين شتى المدارس .

على أن منصور فهمى سيظل فخراً لمصر ومظهراً من مظاهر مجدها العلمى حيثما طوح به أولئك المبددون لخير ما تدخره الأمم من فضل ونبوغ .

* * *

جئ بالشاى ، فنهضت السيدة بنفسها إلى الكئوس تملأها وتقدمها لزائريها وكان هذا اللطف يزيدها جلالا على جلالها .

ووفدت فرنسية من ذوات الأسنان ، لم تذهب السنون بلين جسمها ورشاقة حركتها وبشاشة محياها ، وانطلاق لسانها وسرعة خاطرها .

ووافت على أثرها باريسية حسناء هيفاء يختلط فى غرتها نور الجمال بنور الذكاء .

واتصل الحديث بالأعمال الخيرية والمشروعات النافعة للضعفاء والعاجزين فتبين أن ربة المنزل تتولى مع زميلاتها إقامة سوق خيرية لإعانة يتامى الحرب الكبرى.

أولئك سيدات جئن « إكس ليبان » يتبردن من حر المدن الكبيرة ويلتمسن الراحة والرياضة والاستشفاء ، لكنهن يعتبرن مساعى البر من وظائف المرأة التى لا ينبغى نسيانها فى أى وقت وعلى أى حال . فكان حقا عليهن أن يبذلن لتأمين هذا الإقليم نصيباً من جهدهن .

وانفض المجلس لم يجر فيه ذكر للأنماط المستحدثة فى تفصيل الثياب ، ولا حوار فى حق المرأة فى تولى مقاليد الحكم وفى الانتخابات .

كان فى السيدات من يرى ميدان البر أولى بالمرأة من كل ميدان ، وأجدى على بنى الإنسان .

وإنى وإن كنت أشتهى أن أرى فى كراسى الحكم وجوهاً يترقرق دماء الحسن فى جنباتها وأن أسمع من فوق المنابر أصواتاً تسيل الرقة من نبراتها ، فإننى أتمنى أن ينصرف النشاط النسائى إلى عمل البر ، والدعوة إلى الخير ، فقد فشا الشر فى بنى آدم ، فلم يبق للإنسانية إلا أن تولى وجهها شطر بنات حواء ، تبتغى الخير من حسان الوجوه .

١٨

على وشك الرحيل*

أول ما يفجأ المسافر من المشاعر المذكرة بقرب العودة نضوب المال، والحاجة إلى تدبير قليله الباقى بعد نفاد الكثير .

ومن عجيب أمرنا، أن أكثرنا إذا أتاه الله رزقاً لم يحسب لغد حساباً فيما ينفق منه ، وإنما كل همه متاع يومه ، وتوفير لذته الحاضرة .

وكثيراً ما تجد من المصريين فى أوربا أناساً ذهبوا لقضاء شهرين أو ثلاثة فيبددوا فى شهر واحد كل ما فى أيديهم ثم أخذوا يستعينون على متابعة البذخ والإسراف بالاستدانة من إخوانهم الذين يدبرون أمرهم تدبيراً يحفظ التوازن بين يومهم وغدهم ، وتنتهى الحال بهؤلاء وهؤلاء إلى الضيق بعد السعة .

من أجل ذلك تعرف ملامح الضنك فى وجوه العائدين من سياحتهم فى أوربا ، وتراهم يغدون بطاناً ويروحون خماصاً .

ولدينا صنف آخر يكنز الذهب والفضة ثم لا يجعل ليومه حساباً فى التمتع بنعمة الله عليه ، هو حقير الملبس وسيء المطعم قذر المسكن ، كل حسابه لغد ، وما غده إلا وارث يهلك هذا المال المركوم كله فى يوم ليس له غد .

ويلى الشعور بالنقص فى الرزق قبيل السفر ، ضيق فى الصدر كالذى يجده الصبي في عواقب البطالة المدرسية ، وكأنما يشير إلى ذلك أبو تمام حيث يقول :

---

* السياسة : الثلاثاء ١ جمادى الأولى ١٣٤٤ ، ١٧ نوفبر ١٩٢٥ .

عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما
يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل

تذاكرت مرة مع بعض الإخوان حديث هذا الشعور وما إليه :

قال قائل مهم : وددت لو أن لى مالا ، فأقضى العمر فى هذه البلاد ، مستمتعاً بنعيم الحياة النضرة ، ومستمتعاً بنعيم الموت حين أموت فأدفن فى حديقة من تلكم الحدائق المسماة مقابر .

وتصدى للقول بعده زميل له : أما أنا فلو كنت غنيا لاقمت شهور الشتاء فى مصر بين مينا هوس وحلوان والأقصر وأسوان . فإذا حل الصيف رحلت إلى أوربا كما يفعل الكثيرون من أمرائنا وعظمائنا .

وانتدب للرد عليهما ثالث الجماعة فقال : أما إنى لأعلم أن الحياة فى مصر فجة مرة من جميع نواحيها . فلا هى ترضى مطمع الرجل ذى الجد ولا هى تغذى عقل العاقل أو قلب الشاعر أو ذوق الفنان أو لهو الغزل .

كنا إذ نتجاذب أطراف هذا الحديث فى قاعة الطعام من الفندق الذى نتزله ، وهى قاعة مستطيلة نثرت فيها موائد صغيرة ، وكان المكان قد احتشد بأهله فلم تبق إلا منضدة خالية ، وعند ما بلغ صاحبنا ذلك الحد من قوله سكت بغتة ، ورأيناه يتوجه كليته ناحية الباب ، وإذا الجمع كله خاشع ينظر .

هذه سيدة باريسية فى زهرة عمرها ، وزوجها فتى باريسى فى زهرة العمر أيضاً .

آية من آيات الحسن الذى امتازت به الباريسيات . تحسبها قصيرة نحيلة ، فإذا دنت ألفيتها ملء أزارها وملء القلب والبصر . محيا دقيق الصنع ، شفاف البشرة ، أغر الجبهة ، فاتن العينين بسام الفم ، يتلألأ نضرة وشباباً وسحراً . أما هامتها فذات روعة وبهاء بما يتوجها من شعر بارك الله فيه فنما وزاد، ولم

تعبث به المودة الجديدة التى كثيراً ما تترك الوجوه الحسناء بدورا جردت من هالاتها ، شعر يموج بلينه وصفائه وبما يبدو من لطيف التجعد فى أثنائه .

كأن على إفرنده موج لجة تقاصر فى حافاته وتطـول

ركب ذلك كله فوق جثمان بديع ، يروعك حسن توازنه وتأليفه ، وأنيق الانسجام بين ثقيله وخفيفه ، ممتلئ رجراج على قلته ، أهيف بض رشيق كأنما حركاته نغمات موزونة ، كأنما كل جزء منه تحفة لم تترك قدرة الصانع وراءها إحكاماً ، حتى إذا اجتمعت كانت آية من المعجزات .

ولما ثاب القوم بعد ما بهرهم من روعة الجمال ما بهرهم ، قال صاحبنا من قبل أن يعود إلى وصل ما انقطع من حديثه : شهدت بأن الجمال خلافة الله فى أرضه وأنا فى دولة الجمال رعايا .

ثم أنشأ يقول :

مصر على ما ذكرت ؛ ولكن هل يستطيع امرؤ رويت أرض مصر من دمائه ، وسكنت فى أحشائها رفات آبائه ، واضطربت فوقها مهاد أبنائه ، أن يتمنى غيرها وطناً .

بلد خلقت به الطفولة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الفؤاد رأيتــه وعليه أغصان الشباب تميــد

وفرغنا من الطعام فانصرفنا إلى الحديقة نشرب القهوة فى ظل الشجر ونلتقى بمعارفنا من نزلاء الفندق . وأقبلت إحدى السيدات ، وهى ظريفة من العجائز تقول : هل رأيتم كيف يخشع الناس لصولة الجمال ؟ فقد دخل قاعة الطعام نساء ورجال فما ألقى لهم أحد بالا ، فلما تجلت تلك البنية لم تبق عين إلا نظرت ولا حركة إلا سكنت ، وجعلت تحدثنا عن الباريسية الحسناء وقالت :

إنها فى بداية السبيل إلى حرم الأمومة ، فابتهلنا إلى الله أن يرزقها أنثى

يشرق من جبينها الوضاء نور الحب والسلام ، لا ذكرا يحمل راية الحرب فى مراكش ، وراية الفتك فى الشام .

لم تغضب محدثتنا الفرنسية أن يلمز قومها بالحق ، فإن فى فرنسا بحمد الله ، من لا يغضب إذا لعن الظلم والظالمون .

وجاء على أثر الشيخة زوجها ومعه فتاتهما وصهرهما فانتظم عقد المجلس، وطال الحديث وطاب السمر .

وتفضل القوم بدعوتنا لزيارة ريف لهم فيه للصيد موضع فهم أصحابى بإجابة الدعوة ، أما أنا فتواردت على خاطرى ذكريات من الصيد مرعبة .

صاد جماعة من ضباط الإنجليز فى قرية من قرى المنوفية ، فزلزل مركز اللورد كرومر .

وصاد اللورد اللنبى فخرج من قصر الدوبارة إلى الحصن الذى يسكنه الآن فى لندره .

وصاد المستر كار فقذفت به الأقدار إلى بلاد اليابان .

وصاد المستر هندرسن أخيراً فرض أخوه فجأة وانصرف من مصر بليل ، ثم لم نسمع عنه ولا عن أخيه خبراً .

لا جرم إنى خفت عاقبة الصيد ، وما زلت انتحل المعاذير حتى تحللت من دعوة القوم .

وحمدت الله على النجاة من صيد البط والحمام ، وتفرق المجلس بعد ذلك بسلام .

١٩

حول العودة *

لما أزمعت العود إلى مصر فى العام الماضى ، ذهبت إلى باريس ، وطفت بشركات السفر المختلفة باحثاً عن سبيل إلى مصر قبل انتهاء الإجازة ، فأعجزنى ما أردت ، ولم أجد بعد لأى إلا مكاناً فى سفينة تصل متأخرة بضعة أيام .

مضى نحو شهر منذ أبت من سفري . ونسيت أمر الإجازة والسفر . لكن بعض الناس لا ينسى . فنى ذات جئ لى بأوراق تحوى أخذاً وردا بين وزارة الحقانية ووزارة المالية فى موضوع الأيام التى تخلفتها .

وكان لا بد لى من استيعاب جميع هذه المكاتبات . ولا بد لى بعد ذلك من بيان لسبب تخلفى .

وبعد نحو شهر آخر ردت إلى الأوراق متكاثرة وفيها تطلب المالية أن أبعث إليها ما دار بينى وبين شركات البواخر من الرسائل .

أجبت بما عندى ، ولبثت شهراً . ثم حملوا إلى وقراً من الصحف ينوء بحامله وخلاصة ما انتهى إليه البحث فى هذه المرة أن لوزارة المالية منشوراً صدر فى ١٩١٢ لا يبيح للموظفين الغائبين خارج القطر أن يعتذروا بعدم وجود أمكنة فى بواخر ترجعهم إلى مصر قبل انتهاء إجازاتهم .

فرددت على هذا الاعتراض بما فتح الله به .

ثم علمت أن وزارة المالية أبت قبول العذر وقال قائلها :

---

* السياسة : الخميس ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٤ ، ٣ ديسمبر ١٩٢٥ .

هل كان من الضرورى أن يتنزه الشيخ فى أوربا ؟

كان وزير المالية يومئذ شيخاً — وإن لم يكن معمماً — هو شيخ فى صورته ومعناه بل هو كبير الشيوخ .

أخضر الجلدة ، مغبر اللون ، ضخم الوجه مفرطحه ، ذو ملامح مبهمة ، لا يعرف ابتسامها من عبوسها ، فى عينيه تكسر كأنما هو حياء أو تقى ، لكنه يبعث فى النفس معنى غير الحياء وغير التقى . فى أنفه انبطاح .وفى فمه انفراج بين شفتين كظلتين سفلاهما مسترخية ، والأخرى نائية ، تنهض من فوق كاهله عرتمة مترجرجة وتتدلى فوق عنقه عرتمة مترجرجة ، متشابه إذا نظرت إليه من خلف أو نظرت إليه من أمام .

أذهب الله ريح الوزارة كلها قبل أن يمضى الشيخ الوزير ما أراد إمضاءه وحل محله وزير ليس بشيخ رأى رأياً جديداً ، أبقى عليه القدر حتى أنفذ قضاءه . ثم لم يلبث أن خرج من الوزارة ودخل مكانه شيخ .

ومن عجيب صنع الله أن وزارة المالية المصرية موعودة بالشيوخ . أليس يحيى باشا إبراهيم شيخ القضاة مثلا ؟

فى هذا العام أشفقت على وزارات الدولة فأخذت تذكرة الإياب مع تذكرة الذهاب ولم أكن أحسب أن تصاريف القدر تدخر للوزارة ما هو أدهى وأمر .

وعلى ذكر الشيوخ كنت أتحدث إلى صديق لى فارسى فسألته : هل فى لغة فارس نظير لما يوجد عند الفرنسيين من الخروج بكلمة « Jésuite » وما إليها عن أصلها فى الدلالة على صنف من رجال الدين لاستعمالها فى معنى الخبث والنفاق .

قال : أجل، فى الفارسية « آخوند» بمعنى شيخ و « آخوندى » بمعنى شيخة صرفها الاستعمال إلى الدلالة على ضيق العقل والكسل والشره .

ومن ألطف فنون الشره وأقربها إلى التقوى ما جاء فى كتاب رياض

الرياحين فى حكايات الصالحين للشيخ أبى محمد عبد الله بن أسعد اليافعى :

جنوا تمر خوخ الخوف فى روضة الرضا
وآجــاص إخلاص وتين التوكل
وأرطــاب حب قد جنتها يد الهوى
وأعناب أشواق بها القلب ممتلى
ورمــان إجـــلال وتفـــاح هيبـــة . . .
وموز الحيا مبدى رجاء السفرجل

وكلما ذكرت الشيوخ ذكرت أم كلثوم أميرة الغناء فى وادى النيل . فإن لها هى أيضاً شيوخاً يحفون بها فى عمائمهم المرفوعة وأكمامهم المهفهفة . وقفاطينهم الحريرية الزاهية اللامعة وجببهم الطويلة الواسعة . عن اليمين شيخان وعن اليسار شيخان حول فتاة معتدلة القوام لا يشتكى منها قصر ولا طول ، ولا يشتكى غلظ فيها ولا نحول ، تنظر بعينين فيهما شباب وذكاء ، وفيهما نزوة الدعابة ودلال الحسناء ، فى وجه ليست تفاصيله كلها جميلة ولكن بجملته روعة الجمال ، تحت ذلك العقال البدوى مكفكفاً على جبينها بطراز مذهب ومرخى وراء ظهرها منه هداب الدمقس المفتل ، فى ثياب حشمة تميل إلى السواد وفى مظهر بساطة ، كان على سجيته يوم إذ كانت الفتاة القروية حديثة عهد بسذاجة الريف ، ثم أصبح تأنقاً حضريا مقدراً تقديراً .

تظهر أم كلثوم بادئ الأمر رزينة ساكنة وتشدو بصوتها الحلو شدوا لينا ، من غير أن يتحرك طرف من أطرافها ، إلا هزة لطيفة ، تنبض بها رجلها اليسرى أحياناً ، ثم ينبعث الطرب فى هيكلها كله ، فتنهض قائمة ، وترسل النغمات متعالية ، تذهب فى الآفاق هتافاً مردداً ، أو تترجع رويداً حتى تتلاشى حنيناً خافتاً ، وتهزها أريحية الشباب والطرب فتساير النغمات فى حركاتها ،

مندفعة بوثبات الشعور وراء مذاهب الفن ، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ .

ويا ليت شعرى مالأم كلثوم والشيوخ ؟

أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا . فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس فى مظهر الآخرة ؟

٢٠

إلى مصر*

أقبلنا على مارسيليا والليل مرخ سدوله ، إن كان لليل أوربا سدول يرخيها ، إلا أن تكون بيضاء شفافة كما ترفل العروس فى يوم الزفاف .

ليل أوربا نور على نور. ولولا أن الحوانيت مغلقة ، وأكثر الأعمال معطل لحسبت الليل نهارا . غير أن الشمس تنزل من عالمها العلوى فتنتثر مصابيح كهربائية تملأ السهل والجبل .

دخلت المدينة خائفاً أترقب فقد كانت ضجة حول فرار الأمير سيف الدين من محبسه . وتحدث الناس بأنه ربما حاول الخلوص إلى البحر الأبيض المتوسط من مارسيليا ، كما تحدثوا بأن بريطانيا العظمى تتعقبه وأن الجمهورية الفرنسية تتعقبه ، وأن المفوضيات والقنصليات المصرية تتعقبه أيضاً.

ونشرت الجرائد صورة الأمير . والأمير — عفا الله عنه مرسل شعر وجهه

* السياسة : ٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ ، ١٨ ديسمبر ١٩٢٥ .

خفيف العارضين ، كيث اللحية على حسب السنة ! وشعره ، كما يقول الفرنسيون ، ملح وفلفل .

كان يساورنى ، حيثما توجهت ، خاطر الذعر من أن يشبه لهم فيأخذونى مكانه . وإذا كان الأمير لم يستطع أن يقنع القوم بأنه عاقل مدة سبع وعشرين حجة ، فهل أستطيع أن أثبت شخصيتى فى ما دون ذلك الزمن . وليس الفرق بين العقل والجنون بأخفى من الفرق بين صورة الأمير الغنى وصورة هذا الديمقراطى الفقير .

ولما احتوانى المضجع ، وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، استحالت الوساوس أحلاماً ، فرأيت فى ما يرى النائم أن جلاوذة غلاظاً شدادا يتبادرون إلى متصايحين : هذا هو الضالة المنشودة ! خذوه فغلوه ! وأحاول التخلص منهم صارخاً : يا ناس . . والله ما بى من إمارة . .. وما بى من جنة . . . ولكنى عاقل وشيخ من شيوخ الله .

وتنبهت بعد طول العناء فزعاً مجهوداً أجد ثقل الغل فى عنقى ، وأشعر بما يلقى من حصر وعى من يريد أن يثبت أنه شيخ عاقل .

* * *

قضيت على كل حال ليالى حلوة فى مارسيليا . ثم أزفت ساعة الرحيل فودعت من ودعت وانحدرت إلى الباخرة متمنياً الله أن يسعفنى الحظ بغرفة وحدى ، لكنهم حملوا متاعى إلى غرفة معدة لاثنين . وكان زميلى ركب السفينة من لندره فرتب أمتعته فى سعة كما شاء ، واختار لنفسه أمثل السريرين وهو سريرى .

سبق إلى ظنى أن رفيقى رجل معتد ، لا يبالى فى سبيل راحته بحق لغيره ، فجاشت فى نفسى كل معانى الحفيظة لدفع العدوان . ثم أقبل شاب هندى وديع يعتذر إلى فى رقة وأدب . هذا هو زميلى فى السفر وإذا نحن كالصديقين منذ زمان ، وإن لم تجمعنا رابطة جنس ولا لغة ولا دين .

ذلك بأن الذى نشعر به من ألم متحد وما نطمح إليه من أمل مشترك يسمو على كل اعتبار فى الحياة . وهل شىء فى الحياة أجدر أن يصل ما بين القلوب من شركة الآلام والآمال ؟

* * *

طوفت فى السفينة أتعرفها وأثبت فى خاطرى معالمها، كيلا أضل السبيل إلى غرفتى بين مشتبه المسالك فإنى رجل كالمذهول تتحير ذاكرتى بين الأشياء كما تتحير بين الأسماء كأننى فيلسوف أو شاعر أو فنان . وليس لى من ذلك — علم الله — إلا بصر زائغ وشعر سابغ وحافظة منهوكة .

وانتهى بى المطاف إلى ظهر السفينة فانتحيت مكاناً قصياً ، أقلب نظرى فى السماء ، كأنما ألتمس فى جوانب السماء ما أعيانى التماسه فى الأرض أربعين عاماً . لكننى لم أجد إلا الشمس تنساب فى حاشية السماء كرة من عسجد وهاج . فوق أفق متماوج كأنه التبر لما ينكسر فى خلاله من أشعة صفراء . ثم غابت عين الشمس ، وتركت فى صفحة المغرب أثراً يتراءى فى ثنايا السحب مختلفاً ألوانه حتى محاه الظلام حرفاً حرفاً فذهب العين والأثر . وغمرنا ليل من ليالى البحر فى أخريات الشهور لولا أننا لا نزال وقوفاً فى ثغر مارسيليا نلمح نور المدينة راجفاً متعاليا يكاد يتصل بالنجوم ، ونلمح فى أثنائه صنوفاً من الذكرى راجفة أيضاً ومصعدة فى السماء .

السفينة إنجليزية ومعظم ركبانها من الإنجليز الذين يقصدون إلى الهند ، وفيها عدد قليل من الهنود وعدد قليل من أمم شتى .

فى هذا الوسط قضيت أياماً لا أكلم أحداً ولا يكلمنى أحد إلا رفيقى فى الغرفة نتبادل التحية كلما التقينا أو نتبادل أحياناً كلمات نتفاهمها على عسر ، لأنه يكلمنى بالإنجليزية وأكلمه بالفرنسية .

لم يدركنى من هذا الصمت ضجر إذ قد أصبحت أجد فى الصمت راحة ولذة ، فإنى بلوت من الثرثارين ما جعلنى أشفق من كل متكلم أن يكون ثرثاراً ،

وأشفق على نفسى حين أتكلم فأفر من القول فراراً أو اختصره اختصاراً .

أستغفر الله . فإن فى المتحدثين من وهب بياناً حلواً وفهماً لطيفاً وذهناً واعياً ونوعاً من السحر يأخذك إلى المسامرة أخذاً . وفى المتحدثين من يفضى إليك بذات نفسه فيصغى قلبك إليه وتقبل نفسك عليه . أما وراء ذلك فصنف المتكلفين البغضاء .

وقد كان مجلسى إلى المائدة بين إنجليزية لا تنطق بغير لغة قومها وإنجليزى شغله أمر زوجه من سفر البحر عن كل حديث . حتى إذا كان آخر أيام رحلتنا نقلنى صاحب الخوان من مكان إلى مكان من غير أن يبخسنى من حتى شيئاً ، عن يسارى سيدة وليس عن يمينى أحد .

بدأتنى بالكلام جارتى فأجبتها : يا سيدتى ليس لى باللغة الإنجليزية من علم.

قالت : ولكننى أعرف الفرنسية .

ثم سألتنى : لم بدلت مجلسك ؟

قلت : إن صاحب المائدة بدله وليس فى قدرته أن يفهمنى السبب . وليس فى قدرتى أن أفهم عنه. على أننى لست شقياً بهذه النقلة . وأرجو أن لا أكون اشقيت بها أحدا .

وتحدثت إلى الخادم ثم ذكرت لى أن كرسى الأول تزلزل من مستقره ، فأصبح الجلوس فيه خطراً .

فحمدت الله أن حفظنا من عثرات الكراسى خصوصاً فى هذه الأزمان .

وخضنا فى حديث مختلف . ذكرنا مرة الحركة القائمة فى أمريكا وبعض بلاد أوربا بشأن محاربة الخمور فأثنيت على تلك الحركة . هنالك قالت السيدة ــ بعد أن جرعت جرعة من كأس كان أمامها :

إننى أخشى إذا ذهب الخمر أن يذهب كثير من فضل نشاطنا الذى لا غنى عنه لهذه المدنية القوية الجامحة ، ويذهب كثير من البشاشة التى تميز الحياة الغربية . ستقول إن ذلك نشاط صناعى ، وتلك بشاشة غير طبيعية ،

ليكن ما تقول . وهل فى العالم إلا صناعة تخرج الإنسان من سذاجة الوحشية إلى مراتب المدنية الراقية ؟ ثم تناولت كأسها وقالت بصوت صقل مخارجه الشراب :

أفهم أن تحاربوا الإفراط والسكر فإن ذلك شر لا خير فيه . أما حرمان البشر من منبع الإريحية وانتعاش القوى فهو مستحيل .

كنا فرغنا من غذائنا فصبت السيدة ما بقى فى كأسها وتحركت للقيام .

لم تمهلنى للرد على نظريتها . ومضت مسرعة إلى حيث لا أدرى وانصرفت إلى مضجعى لأهجع هجعة الظهر .

* * *

دنونا من مصر تفيض جوانحنا رحمة وحنينا ، كما تدنو من عزيز موجع تسمع أنينه مكظوماً وترى قروحه تمج دماً . وهل تبتلى أمة فى بداية عهدها بالحرية والتقدم بشر من فتن تريد أن تهدم كل حرية فيها وكل تقدم ؟

خففت الباخرة من وطئها وعلا صريخها وتجاوب الصفير من كل ناحية . ثم سكن كل شىء وتنفس من جانب المشرق شعاع متضائل تغالبه بقايا الليل وتتقاذفه الأمواج العاتية فتكاد تطفئه ، ثم اشتد ذلك النور وتعالى فى السماء شمساً منيرة قاهرة .

٢١

المرحلة الأولى *

خرجنا من القاهرة إلى بور سعيد والناس نيام .

الشمس ملء الأفق ترسل نورها وحرارتها على شوارع خالية إلا من الكناسين الذين يثيرون التراب فى الجو ويقذفونه يميناً ويساراً ، وإلا من العمال يسيرون أسراباً إلى الحوانيت ، وإلا من الشحاتين يتهافتون على دواوين الحكومة ، ويلقون رحالهم عند قصر عابدين .

ولم أر أكثر من الشحاتين داخل الوزارات وخارج القصر .

القاهرة خامدة صامة . فإن كل ما ذكرنا لا يحرك للقاهرة ساكناً ، إنما يحرك ساكن القاهرة كبار الموظفين يخرجون إلى دواوينهم فى جلال الحكم بعد الساعة العاشرة . ويحرك ساكن القاهرة رجال البرلمان ، إذ تضيق السبل بسياراتهم غادية رائحة فى أبهة تتضاءل بجانبها كل الأبهات . ويحرك ساكن القاهرة فتياننا يمرحون بين جروبى وسولت وليبتون فى زينة يحسدها الطاووس وتتمناها العروس .

وتحرك ساكن القاهرة قبل كل شىء سيداتنا تختال بهن الشوارع القاصدة إلى حوانيت البزازين ودور الخياطين ودكاكين المزينين ودانسنج الراقصين .

كانت العاصمة لا تزال نائمة . والشمس طالعة منذ ساعتين

ومن سوء النظام أن تكون ساعات البكور فى مصر فى الصيف ساعات

* السياسة : الجمعة ١٩ صفر ١٣٤٥ ، ٢٧ أغسطس ١٩٢٦ .

عطلة ونوم، ويكون ما بعد الزوال إلى منتصف الساعة الثانية من مواعيد العمل الرسمية .

وقد يكون تقديم الحساب الزمنى لليوم نحو ساعتين فى فصل الحر تدبيراً يزكو به العمل ويثمر ، ويقى العاملين أضرار الجهد فى سورة القيظ ، فهو علاج صحى واقتصادى معاً . وما يترتب عليه من نمو فى المحصول الأدبى والمادى أعظم مما يوفر للبلاد عدم السفر إلى الخارج إلا لطلب العلم أو للتداوى ، كما نصحت لجنة الميزانية فى تقريرها المرفوع إلى مجلس النواب .

وهل يدخل السفر للحج فى أحد هذين الوجهين ؟ اللهم إلا أن تكون لجنة الميزانية أرادت بالتداوى ما يشمل شفاء القلوب من أدواء الذنوب .

ومحطة القاهرة هادئة أيضاً إذ لا يسافر فى قطار الساعة السابعة صباحاً إلا المضطرون كموظفى الحكومة فى المديريات الذين لا تعجبهم سكنى الريف .

هؤلاء من غير شك قضاة شرعيون . تعرفهم بسيما هم ، يمشون على هون ، فى ثياب حريرية فضفاضة زاهية الألوان صفراء فاقع لونها غالباً . وما حب الشرعيين للأصفر من الثياب إلا كحبهم لتسويد وجه الشيب حين يضحك بلحاهم المشيب ويوشك أن تكون وردت آثار فى اللون الأصفر كما وردت فى صبغ اللحى آثار .

أما أولئك الأفندية فقضاة أهليون ، لهم أيضاً سمتهم . طرابيشهم فى الأكثر واسعة ، وملامحهم تميل إلى العبوس ، وبأيديهم حقائب تفيض بما فيها من قضايا يدرسونها فى الطريق . وقد تكون معهم منشات يذودون بها الذباب والناموس ، ويجلبون النسيم إذا سكن الهواء .

والتقى قاض شرعى بقاض أهلى ، فلما تصافحا كانت فى يمنى الأخير منشته وفى يسراه محفظته ، فعاب عليه زميله أن يصافحه بمنشته ، وتجادلا ، وأخذ شيخ ليس بقاض شرعى ينصر الشيخ ، وجعل أفندى ليس بقاض أهلى ينصر الأفندى .

هنالك تمثل لى كل ما بين العمائم والطرابيش من خلاف .

ثم نظرت فإذا مصريان ، على رأسيهما برنيطتان، أما أحدهما فأسمر اللون، ربعة فى الرجال ممتلىء ، بعيد ما بين المنكبين ، قريب إلى ذروة الشباب ، ولكنه فى نشاطه وتوقد ذكائه وقلة تهيبه لم يجاوز ميعة الشباب الأولى . والثانى وافر القامة من غير سرف ، خفيف الجسم ، رقيق الوجه ، زكى الجبهة ، مفكر العينين ، تدفعه إلى الحركة قوة صبياً فى ريعانه وتتراخى به هيبة وحياة .

تركنا العمائم والطرابيش فى جدالهما ، وتوجهت أنظارنا إلى القبعات المصرية تأخذ مكانها فى هدوء بين الأفندية والشيوخ ، من غير أن تعبأ بفتوى الرياسة الدينية العليا التى لم يجف مدادها ومن غير أن تنتظر الزى الجديد الذى تتأنق فى ابتداعه الرابطة الشرقية .

قال صديق لى يحدثنى : ألست ترى أن الذين يسارعون إلى لبس البرنيطة من قومنا هم شيعة المدنية الحديثة والآراء الجديدة . وهذه النزعة نامية فى ناشئة المدارس ؟

قلت : أجل !

قال : أما العمامة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الإسلامى فاتصلت بالروح الدينى من أول يوم . وأما الطربوش التركى فهبط إلينا من رؤوس المتسلطين لباساً رسمياً للجنود والموظفين فهو رمز التسلط والحكم . وهذه القبعة تنتشر فى الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة فهى تمثل لوناً خاصاً .

ليس النزاع بين العمامة والطربوش والقبعة ، ولكنه تنازع بين صور مختلفة من التفكير والذوق يريد كل منهما أن يسود .

ولم يكد صاحبى يتم حديثه حتى صفر القطار ، فإذا الناس خشع لموقف الوداع .

وفى موقف الوداع نفحة من الرهبة الدينية ، رهبة الغيب . فإن السفر على كل حال يسلمك إلى قدر مغيب .

وقف الناس لا ينبسون كأنهم قيام للصلاة ، وصفر القطار أخرى ، فكأنه والقلوب خفاقة فى ذلك السكون العميق مؤذن يصيح :

الله أكبر ! الله أكبر !

٢٢

مرحلة أخرى*

إذا جاوز بك القطار مدينة الزقازيق ، وانساب فى ما وراءها ، وجدت مهامه مبسوطة من حولك تترامى إلى غير مدى ، رمالا جرداء قحلاء . . لا زرع فيها ولا ماء ، إلا ما تنز به الأرض من رقراق مالح ، ينبت فيه قتاء ذو خضرة مغبرة وشوك كشوك القنافذ . وتضرب أشعة الشمس فى ذلك الأديم الأملس فتشمله سراباً .

فى جوف ذلك الخراب اليباب يمر بك القطار على مدن عامرة ذات جنات وعيون ، تلك هى معسكرات الجنود الإنجليزية المرابطة غرب القنال .

وسمعت بجانبى رجلين أجنبيين يتحاوران قال أحدهما لصاحبه :

هل كانت تشيد هذه المدائن فى هذه الصحارى لو لم تسكنها جنود بريطانيا العظمى ؟

---

* السياسة ١٣٤٥ ، ١٩٢٦ .

فأجاب الآخر :

إن يد العامل المصرى هى التى جعلت من هذا الخراب عمارا ، وفجرت خلاله أنهاراً .

قال الأول ــ صحيح الفلاح المصرى يبنى كل هذه المدن والقصور بيديه .

وسكت سكتة لطيفة ، ثم أخذ يقول فى تريث : ولكن الفلاح المصرى يعيش فى قرى تعسة وأكواخ حقيرة .

وعادا وعدنا ننظر إلى الصحراء والقطار يطير فى أنحائها ، فتذكرنا من اجتازوا الصحراء الكبرى على متون الإبل ، وتذكرنا الرحالة المصرى الكبير أحمد حسنين بك .

وقد قرأت فى الجرائد فصولا معجبة من رحلة حسنين بك ، لكننى لم أر الكتاب ، فإنه أرستقراطى فى الكتب ، غالى الثمن إلى الحد الذى تنكره الديمقراطية.

وأشد ما علق بذهنى مما قرأت من رحلة البك الرحالة إثباته وتوكيده أن السفر فى الصحراء يوطد دعائم الإيمان .

وإذا صح ذلك يكون من الواجب على الحكومة المصرية أن توفد إلى الصحراء كل عام بعثات تكمل هناك إيمانها ، ثم تعود ويذهب غيرها ، حتى ينتشر الإيمان ويقوى ، من غير حاجة إلى المعاهد الدينية ، والعكوف على الدرس فيها خمسة عشر عاماً أو تزيد .

بقى أن الصحراء قد سافر فيها من ليس مسلماً مثل (مس فوربس)

فهل وطنت الصحراء دعائم إيمانها هى أيضاً وإيمان أمثالها ؟

نسأل الله أن يكون الأمر كذلك كما نسأله أن يجعل كل سفر موطداً لدعائم الإيمان ، ولو كان سفراً إلى العاصمة الإنجليزية .

* * *

وهذه بورسعيد . ندخلها بحمد الله آمنين .

ولئن كان أول شىء يسترعى نظرك حينما تشرف على مدينة من مدن

القطر هو القبة العالية لأكبر ولى فى البلد ، فإن بور سعيد ليس فيها لولى قبة عالية تسترعى النظر . ولعلها البلدة الوحيدة من دون مدن القطر وقراه وكفوره وعزبه الخالية من مقامات الأولياء .

أول شىء يسترعى نظر كل غاد إلى بور سعيد أو رائح هو (سى رجب القصيفى) الذى يتولى أمر المسافرين حتى ينزلهم منازلهم فى الباخرة أو القطار ومعهم أمتعتهم .

رجل مستوف طولا وعرضاً ، ضخم الوجه محمره فى اسمرار ، على ملامحه مظهر الجد من غير عبوس ولا ابتسام ، يقظ نشيط بلا تسارع فى الحركات ولا إسراف ، نظيف يلبس البياض غالباً ، ويلبس قبعة من الفلين إذا اشتد الحر ، فإذا فترت حدة الشمس عاد إلى الطربوش .

تشرف على محطة بور سعيد فيكون أسبق شىء إليك سى رجب . وتصل بك الباخرة إلى ميناء بور سعيد فيكون أول داخل عليك سى رجب .

وتهتف باسمه فيتبادر نحوك الشيالون من كل جانب . فإن لم تكن تعرف ذلك الاسم السحرى انتظرت طويلا .

ويقال إنه إذا دخلت سفينة إلى الميناء ودخل قطار إلى المحطة فى وقت معاً ، رأى المسافرون سى رجب فى الميناء والمحطة .

وإذا كان لهذه الرواية أساس ، فإنما يعلم تأويلها الأستاذ الشيخ محمد بخيت . . .

يضطرب المسافرون ويحيصون ، وتختلط أمتعتهم ، ويخافون فقدها . أما سى رجب فرزين هادئ لا يغيب عنه شىء مما سلمته إليه . ولا يخاف عليه فقدا .

فقد أصبح سى رجب من ذوى الغنى . وهو يصرف إدارة كبيرة تجمع بين عربات وسيارات وزوارق بخارية وغير بخارية لها عمالها وما يلزم لها ، وليس يأبى مع ذلك أن يعين الشيالين على حمل الحقائب .

إن هذا الديمقراطى الناهض بنفسه من غير تجهيز بعدة علمية ولا رأس مال ، الناجح فى ميدان العمل الشريف نجاحاً شريفاً ، جدير بأن يكون أسوة حسنة لكثيرين من شباننا المجهزين بالعدة العلمية والمال والجاه، وهم عاطلون لا يلتمسون وراء الوظائف الحكومية مطلباً .

وقد يكون أمثال رجب أحق بأن تزين صدورهم النياشين ، أو تحلى ظهورهم كساوى التشريف ، إن كانت الأوسمة والخلع علامة تقدير الكفاية والعمل الناجح . لكننى أتمنى على الله أن يقى سى رجب وكل عامل موفق شر الرتب والنياشين وكساوى التشريف .

وبينما نحن نسير إلى الميناء ، وسى رجب أمامنا ، أخذنا نذكر ما فيه من خلال الهمة والعزيمة ومعنا شيخ مسافر فقال : سى رجب رجل طيب ، لكننى لا أدرى لم ينادينى يا عم الشيخ فلان ؟ فيجمع لى بين اللقبين ويلقى على حملين ثقيلين .

فتبادر الجماعة يقولون للشيخ : إن رجب يجمع لك الوصفين حتى إذا سحبت أحدهما هيئة كبار العلماء لم تبق من غير لقب .

هنالك جعل الشيخ ينظر إلى أولئك الفتيان وعيناه ساجيتان وهو يقول كأنما يناجى نفسه :

من لى بمن يسلخ عنى اللقبين معاً !

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى بعلمى الذى أعطت وتجريبى !

٢٣

مرحلة ثالثة*

المرحلة الثالثة هي الباخرة ، وقد وصلت إلى ميناء بور سعيد فى جوف الليل ، وفى جوف الليل ركبنا الفلك .

ومتى صعدت فى ذلك السلم المعلق فقد شعرت بأنك خرجت من مصر ودخلت فى دنيا جديدة .

لكننا لم نكد نقبل على السفينة حتى رأيناها ملئت شيوخاً وعمماً ، هذا قصير وهذا طويل ، وهذا غليظ وهذا نحيل ، وتشابهت علينا الأمور فحسبنا هيئة كبار العلماء قد أزمعت الرحيل إلى أوربا .

قلت : أعود؟

ثم انكشف الغبار عن أحد حضرات العمد بين المسافرين، وهؤلاء مشيعوه . عندئذ سكن عنا الروع ، فإن هذه عمائم بريئة .

وقيل لنا إن حضرة العمدة بالغ فى إخفاء موعد سفره ، فلم يفز بوداعه إلا القليلون .

ذهبنا ننظر فى دهشة إلى سيد هذه الجماهير ، ونغبط العمد على ما آتاهم الله من نعمة وفضل كبير .

وهل اهتم مجلس النواب المصرى بشىء مثل اهتمامه بالعمد ؛ إذ سارع إلى اقتراح نظام لاختيارهم ؟

---

* السياسة : الجمعة ٣ ربيع الأول ١٣٤٥ ، ١٠ سبتمبر ١٩٢٦ .

يريد مجلس نوابنا المحترم أن يكون تعيين العمد بالانتخاب العام على مثال النواب أنفسهم .

ولست أدرى إن كان خيراً لمصر الآن هذا الاقتراح ؟

ولكننى أخشى إذا صار العمد كالنواب منتخبين أن يطلبوا ستمائة جنيه فى السنة مكافأة كمكافأة إخوانهم ، فيذهب فى هذه العملية ما وفرته لجنة الميزانية .

وقف صاحبنا العمدة والمودعون يحيطون به إحاطة الهالة بالقمر ، والأنظار لا تتجه إلا إليه ، ووقف المسافرون فى حاشية السفينة ، يودون لو كانوا عمداً .

ثم أقبل أحد سعاة التلغراف ، يحمل إلينا رسائل تحية ووداع من بعض أصدقائنا المحترمين وإن لم يكونوا شيوخاً ولا نواباً .

مضى ساعى التلغراف يلتمسنا بين ركاب الباخرة ، ويسأل عنا الغادين والرائحين من أجانب ومصريين حتى اهتدى إلينا فى طرف من أطراف المكان بعد أن نبه إلينا الأذهان وجعلنا ممن يشار إليه بالبنان .

حمدنا الله على أن عوضنا خيراً من مودعى رفيقنا العمدة ، الذين انفضوا بعد قليل إلى البر وتركوه فى السفينة قائماً ، وبقيت لنا تلغرافات إخواننا .

* * *

السفينة بريطانية جديدة ولم تنزل البحر إلا منذ ثلاث سنوات ، وهى ليست من صغريات السفائن ولا من كبرياتها ، نظيفة ككل ما هو إنجليزى ، إلا السياسة أحياناً ، لطيفة ، إن صح هذا التعبير عن شىء إنجليزى بهذه الكلمة التى لا تصور معانى المتانة والهدوء والجمود المحيطة باللطف البريطانى ، ويخيل إلى أن الذى يمسك البواخر الإنجليزية أن تتزلزل فى غمرات البحار هو بريطانيتها العظمى .

* * *

ليس لى فى ما يتعلق بمسائل الميكانيكا ذوق ولا فهم ، فلست أهتم برؤية الآلات البخارية ولا بتعرف نظمها وحركاتها ولم أزر قط من السفينة إلا ما أعد للمسافرين .

وكنت أحسب أن الناس كلهم مثلى ، إذا أحبوا أن يتمتعوا بثمار هذه المبتدعات فهم لا يتطلعون إلى فهم أسرارها .

لكن من نعمة الله على الناس أن لم ينشئهم كلهم نشأة تباعدهم عن فهم ما فى الحياة من المعانى ، ليتفرغوا لأسرار العالم الثانى .

كان معنا شاب من المحامين — وربما صادفت بين شباب الأساتذة المحامين من يقدر أن ما وراء ما تعلمه علماً — ذهب إلى إدارة السفينة وطلب أن يسمح له بزيارتها كلها حتى أقسامها الفنية فأوفدوا معه مهندساً يبين له ، وفاز بما أراد .

ثم وجدنا أحد إخواننا المسافرين لا يجلس مجلساً ولا يلقى أحداً إلا أفاض فى وصف السفينة طولا وعرضاً ، وسماء وأرضاً ، وتبرع بإعطاء المعلومات ، عما فيها من عدد وآلات .

كل ذلك وصاحبنا المحامى بيننا يسمع مع السامعين ويذكر حكاية الثعبان فى كلمات قاسم أمين .

* * *

ليست الباخرة مزدحمة براكبيها وإن كان ركابها ليسوا قليلين . وفيها نساء ورجال من أمم شتى وبين المصريين عقائل مع أزواجهن ، يظهر بعضهن على سطح السفينة ، مثل سائر الناس ، يتمتعن بمنظر البحر وبنسيمه ويتمتعن بملكوت السموات إذا جن الليل ، فتجلى لراكب البحر ما فى ملكوت السماء من جلال وجمال .

وبعض السيدات المصريات مقصورات فى القمرات لا يشهدن إلا ما يلوح للعين من ثنايا تلك الكوى الضيقة التى تجعل الناظر ضئيلا والمنظور

ضئيلا وتجعل الحياة ضئيلة كلها .

تذكرت — والشيء بالشيء يذكر — أنني ذهبت مرة لزيارة صديق شاب متعلم على الطراز الحديث، وعائش على الطراز الحديث ، فلما ضربت الجرس ، خرجت إلى صبية خادمة ، وسألتها عن البك، فعادت تأذن لى بالدخول. ولما صرنا إلى مجاز سبقتنى إلى قاعة استقبال غابت فيها زمناً ثم أدخلتنى .

راعنى عندما جاوزت الباب أننى وجدت صوراً كانت قائمة على مناضد كبت على وجوهها ، وصوراً أديرت إلى ناحية الجدار .

ولاحظت صوراً بقيت على حالها، وهى صور رجال ، أو ما قد تكون ذهلت عنه الصبية فى عجلتها .

وتذكرت أيضاً أننى رأيت فى بعض المنازل المحترمة صوراً توضع فى إطارات كبيرة وتزين بها الصالونات ثم تسجى بقناع مزخرف .

كلما شهدت هذه الهنات عرتنى سورة غضب ، وهممت بالفرار من بيوت يتقى فيها نظر الأصدقاء إلى صورة حرم معروضة فى حجرة استقبال . وأذكر أننى فى مصر، فيسكت عنى الغضب وتهتف بى حسرة أشد إيلاماً :

من مبلغ قومنا أن الغلو خطر !

مذكرات مقيم

١

أرجو أن يسمح لى صاحب (مذكرات مسافر) بأن أتخذ هذا العنوان على مثال عنوانه التماساً للبركة ، فقد فهمنا من لحن القول أنه شيخ ، ترجى بركته ، وأنا ممن يستمد بركة المشايخ ، وإن كنا صرنا إلى زمن يفر فيه الناس من سمت الشيوخ .

وهل أتاك حديث إخواننا طلاب دار العلوم ، إذ أجمعوا أمرهم أن يخرجوا من سعة القفاطين والجبب ، إلى ضيق البنطلونات والجاكتات والياقات وأبوا إلا أن يكونوا أفندية ، يتوج جبهتهم طربوش أسطوانى ، يموج زره حراً كلما خطر النسيم ، مكان تلك الطرابيش الكروية المضلعة ، تغيب العمامة زرها فهو لا يستطيع حراكاً .

وإننى ليحزننى أن يحرم عالم العمامة من فتية دار العلوم ، الذين كانوا زينة المعممين رشاقة ونظافة ولطفاً ، يتجلى فى ملابسهم نوع من التأنق هو مظهر من مظاهر الذوق الجميل الشرقى ، يريد أن يتلاشى فى أذواق غربية فلا يبقى لنا إلا ما هو خال من الذوق الحسن .

ولوددت باسم الفن والجمال ، أن يتطربش كل معمم فى مصر ما عدا طلاب دار العلوم .

* * *

كم سمعنا من رجال الآثار عبارات الحسرة على أن يضاء بالكهرباء جامع

* السياسة : الأحد ٢٤ رجب ١٣٤٤ ، ٧ فبراير ١٩٢٦ .

المؤيد مثلا لأنهم يرون من حسن الانسجام أن تشعل فى جوانبه الفتائل ، لكن تيار الزمن لا ينظر إلى أمانى عشاق الآثار .

وإن الذي وضع الثريات والمصابيح الكهربائية فى بيوت الله العتيقة مكان القناديل لهو الذى يضع الطربوش مكان العمامة على رؤوس الشيوخ فى دار العلوم .

يخيل إلى أن الضجة التى يثيرها قوم فى صورة دينية حول تغيير الملابس فى دار العلوم ، هى شبيهة بالضجة الدينية ، التى أصموا بها الآذان يوم أريد جعل الحنفيات فى المساجد مكان الميضات . وقد ذهبت الضجة وذهب الميضأة وألفنا الأسلوب الجديد فى أماكن الطهارة حتى لو حاول اليوم محاول أن يعود بالمساجد إلى حالتها الأولى لضجت الأرض والسماء ضجة دينية أيضاً .

إذا كان ولع شبابنا المعمم بتغيير الزي مؤذناً بتغيير نفسى وبالتطلع إلى مظاهر الجد والنشاط التى لاتتسع للأكمام الطويلة العريضة والأردية الحريرية الناعمة الزاهية ، المفتحة النوافذ ، المنسابة من كل جانب، فليبرزوا إلى ميدان النهوض أفندية أو شيوخاً ، إن مصر تنظر إلى أعمالهم لا إلى ثيابهم .

أما إن كانوا يمدون أعينهم إلى مظهر من مظاهر المدنية ، يجعلهم بيكوات إذا مشوا فى الطرقات ، ويحل لميعة شبابهم ما يحرمه سمت الشيوخ ، فإنا نفزع إليهم أن يتريثوا فى القضاء على العمائم . إن العمائم على كل حال من ذكريات ماضينا .

٢

بين النساء والرجال*

عالجت محكمة مصر الأهلية معضلة من مشاكل الحياة الزوجية ، حار فى حلها رجال المحاكم الشرعية منذ زمان ، فقضت بالتعويض على زوج طلق

* السياسة : الأحد ١ شعبان ١٣٤٤ ، ١٤ فبراير ١٩٢٦ .

حليلته من غير سبب لتتى الزوجات المحصنات الغافلات شر العبث بالعصم ولتحول دون عبث الرجال بالنساء .

وجدنا كثيراً من الناس يحبذون هذا الحكم ، ووجدنا من أهل الشرع أنفسهم من يلتمس له بين مذاهب الفقهاء سبيلا ، ويتخذ من أصول الدين عليه دليلا .

شىء عظيم جداً أن تصبح الزوجة مطمئنة فى عيشتها الزوجية ، آمناً مفاجأة الطلاق ، أبغض الحلال إلى الله وإلى الناس ، فهى منذ الآن بين إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان يعطيه الرجل سماحة وبراً ، أو يعطيه تعويضة بحكم من محكمة مصر الابتدائية الأهلية .

نغبط السيدات على ما آتاهن الله من فضله بهذا المبدأ العدل .

لكن عدداً غير قليل من نساء هذا الزمن يشترطن فى عقود النكاح أن تكون العصمة بأيديهن ، ثم يطلقن الرجال أحياناً بلا سبب .

.. فهل يكون لرجل أرسلت إليه زوجه ورقة الطلاق على غير انتظار أن يطلب إلى محكمة مصر الأهلية تعويضاً ؟

وخسارة الرجل الذى تسرحه زوجه عبثاً بلا إحسان ليست أقل من خسارة المرأة المطلقة ، فكم فى مصر من رجال كل عزهم ومجدهم وكفايتهم قائم على زوجية إن زالت لم يبق عز ولا مجد ولا كفاية .

وليس على النساء حرج أن تطلب حماية الرجال منهن ، فإنا فى عهد « الفيمينيسم » والمساواة .

ومن أحدث مظاهر المساواة ما طالعتنا به الصحف المصرية منذ يومين .

فقد قرأنا أسماء سيدات يتولين أمر حفلة خيرية، بينهن (الأميرة فلان). وكنت أحسب أن فلاناً هذا من أسماء الذكران فلا يكون علماً على أميرة ، لأن لقب الإمارة لا يغير حقائق الأشياء، لكن يظهر أنه لم يبق فرق بين الرجال

والنساء فى الأفعال ولا فى الأسماء .

ولا يظن ظان أننى لست من أنصار الحرية والمساواة والإخاء بين بنى آدم وبنات حواء . والذى بيده نفس على ماهر باشا ، وبيده نفس صالح باشا عنان صاحب اليد الباطشة المسلطة على الطيور فى أعشاشها بإكياد، وعلى الرجال والنساء والأطفال فى بيوتهم بهليوبوليس ، إننى لمن أنصار الحرية التى تنشدها المرأة والمساواة .

ولقد غمنى ما رأيت فى برنامج الحفلة الخيرية بفندق « هليوبوليس بالاس » من أنه أعد للسيدات المصريات مكان خاص يرقصن فيه معاً على حين يرقص الرجال والسيدات فى المكان العام .

ولست أدرى كيف — رضيت سيداتنا بهذا العسف المزرى .

أفهم أن ترى السيدة المصرية أن الرقص ليس له مساغ من عادات قومنا ولا آدابهم ، وأنه ليس ضربة لازب لنهضة المرأة الجديدة ، أو ليس من عناصر الرقى الأولى التى يبدأ بها ، فتعف السيدة المصرية عنه كما يعف عنه بعض الناس فى بلاد الغرب نفسها .

وأفهم أيضاً أن تقلد المرأة المصرية أختها الفرنجية ، وأختها التركية فتأخذ عنهما قوانين الرقص المتعارفة كما تأخذ صوره وأشكاله .

لكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن سيدة تعد الرقص من كمال المرأة ، وترى من حقها أن ترقص ، فى ليلة حافلة ، فى فندق جامع ، ثم تهوى إلى سيدة مثلها لتخاصرها وتباطنها على أعين الناس ، كما تصنع غير ذوات المروءة فيما ليس محترماً من دور اللهو فى أوربا .

ليس ذلك من حسن الذوق ولا من الكرامة .

وإنا وإن كنا أنصاراً لحرية المرأة فإنا أنصار لحسن الذوق والكرامة وأنصار للفضيلة أيضاً .

٣

الجو مكهرب *

الجو مكهرب — كما يقول سادتنا المجددون فى اللغة — ولقد رأينا آثار الكهرباء ناراً تتلظى فى القسم الخاص بوزارة المعارف من المعرض الزراعى .

وإنا لا ندرى لم تكون الأسلاك الكهربائية فى وزارة المعارف مختصة بسرعة الاحتكاك وسرعة الالتهاب، وسرعة التدمير ، فهى تلتهم خمسين ألف جنيه فى ساعات معدودات .

سمعت جماعة يتحاورون فى هذا السر ، وهم ركوب فى الترام .

قال قائل : ذلك انتقام الله لطلبة دار العلوم ، المشردين فى الشوارع : تتعقبهم الشرطة لتقصيهم عن معهدهم كلما دنوا منه ، وليس لهم ذنب إلا أنهم قلدوا فى ملابسهم أولى الأمر وأهل الحل والعقد .

فأطرق شيخ معمم إطراقة ثم قال : بل ذلك مصداق الآية الكريمة :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

قال ثالث : فما بال الحريق فى قها ، تلك القرية الوادعة المسكينة ، التى ليس فيها إلا أوقاف خيرية ، مرفوع بشأنها قضية ، أمام المحكمة العليا الشرعية ، وهى مؤجلة إلى أوائل مارس الآتى ؟

كان مع بعض الجماعة جرائد المساء ينظر فيها ، فلما سمع ذكر المحكمة العليا الشرعية ، قرأ بصوت عال يسمعه المجلس : إن تلك المحكمة قررت أن

---

* السياسة : الخميس ٥ شعبان ١٣٤٤ ، ١٨ فبراير سنة ١٩٢٦ .

أول شعبان المعظم يوم الأحد . فنظر الناس إلى الهلال وهاجاً فى كبد السماء ، يكاد يكون بدراً ، وابتسم بعضهم إلى بعض وخيل إلى أن القمر يبتسم فى أفقه معهم .

ثم احتكت أسلاك الترام، فتطاير شرر لم يكن له بحمد الله ضرام، وسكت القوم عن الكلام .

ألم أقل لك إن الجو مكهرب ؟ وقد يكون من آيات كهربائيته هذه المؤتمرات التى يتحدث بها الناس .

مؤتمر وطنى ، يريد أن يوطد دعائم الدستور حتى لا يزلزلها مزلزل .

ومؤتمر للخلافة يريد أن يبايع إماماً ينوب عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى إقامة الدين وسياسة الدنيا به .

ومؤتمر للقضاء الشرعى يريد للشيوخ وزارة فى كيان الدولة ، ويريد لهم نيابة شرعية إلى جانب النيابة الأهلية والنيابة المختلطة .

أما مؤتمر الخلافة فإن كتاب الشيخ بخيت المنتظر سوف يحل الله به الإشكال ويكفى المؤمنين القتال .

ومن أجدر من الشيخ بأن يرفع عن الخلافة كل أسباب الخلاف ، ويوفق بين جميع الأصناف .

إن للشيخ بخيت سوابق فى هذا المجال ، تضرب بها الأمثال ، وهو القائل :

إنا مع الأمرا والوفد والوزرا   على اتحاد له فى القلب تحديد

وفى رواية : له فى القلب تأييد .

أما المؤتمر الوطنى ، مؤتمر الهيئات النيابية والأحزاب والنقابات ، فهو مظهر من المظاهر التى تعرب بها الأمم عن إرادتها ، فى ساعات التاريخ العصيبة.

هو الشعب يريد أن يهتف بما فى نفسه ، وإذا صاح الشعب فى الأرض ردد القدر صيحته فى السماء .

هى مصر تريد أن تقول كلمتها ، فلتخشع الأصوات ، ولتقل مصر .

٤

مناسبات*

روت الجرائد أن رجلا فى القاهرة حاول الانتحار لأنه لم يجد عملا .

وليس الانتحار جديداً عندنا ، إنما الجديد أن يوجد بيننا عمال عاطلون يدفعهم اليأس إلى الموت .

هذا هو الخطر الداهم ، ينبغى أن يفطن له من بيدهم تدبير شؤوننا الاقتصادية ، فإن العاطل اليائس قد يدفعه يأسه إلى ما هو أشد نكاية بالجماعة وأشأم أثراً من الانتحار .

وإذا كان تعقب الدعاة إلى الشيوعية هم الحكومة الآن ، فإن ترك مجال فى نظام حياتنا ليأس المرء من وجود عمل يقوته ، شر من دعاة الشيوعية وأسوأ عقبى .

ونعود إلى صاحبنا المنتحر تبرماً بالبطالة فنوجه إليه كلمة عتاب على هذا الهلع تخور به عزيمته عن تحمل البطالة وحدها ، مع أن رجال المفوضيات والقنصليات المصرية ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، يحتملون البطالة والاغتراب معاً من غير تبرم ولا ضجر .

وكانت للرجل مندوحة عن الموت للخلاص من هم الفقر والعطلة ، أن يأوى إلى مؤتمر الخلافة ، فإن فيه للعاطلين مرتعاً يدر السمن والعسل ، ولا يجشم عناء فيما يتطلب من عمل .

* * *

* السياسة : الخميس ٢٢ شعبان ١٣٤٤ - ٧ مارس ١٩٢٦ .

وبمناسبة الفقر والموت ، نذكر بالضرورة المال ، الذى هو أصل الغنى والفقر ، وقد أصبح غرضاً للحياة والموت فى زمن يعيش فيه الناس ويموتون من أجل المال .

نذكر المال ، فنذكر روكفلر ، ونذكر المليونين .

هبت الجرائد للكلام على تلك الهبة العظيمة وعلى شروطها التى كانت مثار نزاع بين الواهب وبين الحكومة المصرية ، ثم سكتت الجرائد ، وسكتت الحكومة ، وسكت الخواجة روكفلر .

ولقد تذكرنا حكاية النائم الذى رأى فى الحلم رجلا يحمل حقيبة مملوءة ذهباً ، حتى إذا دنا منه غرف غرفة بيديه لينفحه بها ، وكيف يقنع بملء اليدين دنانير من يبصر كنزاً فياضاً ؟ أبى النائم إلا أن يشاطر رب المال ماله ، وانتهى بهما اللجاج إلى عنف أطار عن عينيه الكرى فاستيقظ نادماً على مافاته ، وعاد إلى مضجعه يلتمس هجعة ترد إليه حامل الحقيبة الذهبية على ألا يجادله فيما يعطى ، لكن النوم المشرد لايعود ولا يعود الذهب .

* * *

ولعل الذى بعث أريحية الغنى الأمريكى إلى هبته الكبرى هو أنه لما نسخت الجامعة المصرية ، لتحل محلها جامعة أميرية مؤلفة من مختلف العناصر ، نسيت الدنيا الجديدة فلم يجعل لها من ذلك التراث نصيب ، وعز ذلك على الولايات المتحدة ، فقام رجل من أهلها يقسم لينشئن وحده من صفو ماله ، بين سحر القاهرة ونحرها ، معهداً علمياً عظيماً إلى جانبه متحف عظيم .

كنا نعجب فى أنفسنا ممن جعلوا نصب أعينهم ، عند تأسيس الجامعة الأميرية ، أن يرضوا أمم البسيطة باختيار أساتذة منها جميعاً ، كيف سهوا عن أمريكا ، لكننا ندرك اليوم أنهم كانوا أبعد مرمى وأسدسهما .

ونرجو أن تتأسى بالولايات المتحدة سائر الأمم التى غفل عن تمثيلها فى

جامعتنا الأميرية فتنشئ لنا تركيا مثلا معهداً يعلم أهل الشرق لبس القبعات وإلى جانبه مصنع يخرج كفايتهم منها .

وما أمس حاجتنا لذلك بعد ما صمم أبناؤنا أن يلبسوا البرانيط غير منتظرين إلا تنفس الصيف ، تخشى لفحات شمسه على تلك الجبهات النضيرة ، ويطيب تعريض اللمم لنسيمه العليل .

وليت شعرى ما بال فتياتنا يثبون طفرة إلى محاكاة الفرنجة ، على حين تسير فتياتنا هوناً فى هذا السبيل ؟

زار مرة أحد أساتذة الجامعات الفرنسية — وكان جاء مصر سائحاً — شيخاً من شيوخ الأزهر ، ورافقته فى هذه الزيارة زوجه ، وكانت امرأة تقية ، وخيل إليها أن الشيخ فى رواقه العباسى ، شبيه البابا فى الفاتيكان ، فجلست خاشعة لا ترفع الطرف إلا لماماً ، ولا ترد القول إلا تحية وسلاماً ، أما الرجل فأخذ يسأل الشيخ عن طلاب الأزهر وخريجيه وعن دار العلوم وطرق التعليم حتى أضجره ، ولما انصرفا قال الشيخ :

سبحان الله إن نساء هؤلاء القوم أعقل من رجالهم !

لا أذكر كيف كان يومئذ رأيى فى حديث الشيخ ، أما الآن فرأيى أن النساء أعقل من الرجال .

٥

مناسبات *

منذ بضع سنين ، كان الناس فى مشرب من مشارب الشاى فى مصر الجديدة ، وكانت هناك سيدة معها كلبها ، سيدة فرنجية بالضرورة ، فإن سيداتنا المصريات لحداثة عهدهن بألفة الكلاب ، لما يتعودن استصحابها إلى مشارب الشاى .

جعل الكلب يمرح فى المكان متنقلا بين الجموع ، يلاعب من يحب ملاعبة الحيوان ومن لا يحب ، وانتهى إلى ضابط إنجليزى بين الجالسين ، فأخذ يعبث بسراويله يكاد يمزقها ، ولم يكن للضابط فى الخلاص منه حيلة إلا أن يخوفه بعصاً فى يده .

ففزع الحيوان الأعجم ، وانطلق إلى صاحبته شاكياً باكياً. عندئذ وثبت السيدة مغيظة لا تجد شفاء لغيظها إلا بأن تلطم وجه الجندى .

والتفت الجموع فإذا رب السيف ينصرف من غير أن يفتح فاه بكلمة منهزماً هزيمة الشجاع الكريم بين يدى ربة القلم ، وتعود السيدة إلى الشاى تشربه .

تحدث الناس يومئذ بهذه الحادثة ، مثالا لما فى أدب الإنجليز من فرط الرعاية للسيدات والرفق .

وفى هذه الأيام ، ذكرت الجرائد أن وزير المعارف المصرية ، دعا إليه سيدة من كبيرات الموظفات فى وزارته ، ولم يكد يستقر بها المقام فى مجلسه ، بمحضر وكيل الوزارة حتى أخذ يجبهها بشتائم من رفث القول ، فسارعت السيدة إلى الانصراف منهزمة بين يدى رب اللسان ، وصنو صالح باشا عنان .

---

* السياسة : الأحد ٢٩ شعبان ١٣٤٤ ، ١٤ مارس ١٩٢٦ .

ونرجو أن لا يتحدث الناس بهذا مثالا لآدابنا القومية ، فإن وزارة زيور باشا لا تمثل الأمة فى قول ولا فى عمل .

ومن العجائب — والعجائب جمة — أن كلمات السباب التى وجهها صاحب المعالى وزير المعارف إلى السيدة نبوية موسى هى بعينها كلمات السباب التى دونها صاحب الفضيلة أحد كبار زمرة العلماء فى كتاب له ظهر أخيراً فى الرد على كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ولا نستطيع على التحقيق أن نقول أى الرجلين انتحل عبارات صاحبه ، وقد يكون ذلك من باب « توارد الخواطر » فإن النفوس الكبيرة تتلاقى وبين ماهر باشا والشيخ بحيث تشابه معنوى وجسمى مدهش .

وإذا أراد القارئ أن نلخص له كتاب الشيخ فسنلجأ إلى الشيخ نفسه فى هذا التلخيص، فإنه عفا الله عنه بعد أن كتب ما كتب نثراً فى أربعمائة صحيفة أو تزيد ختم بأبيات من الشعر تجتمع فيها معانى الكتاب كلها .

قال :

يا علياً كن عليا　　وتجنب كل حتف
وامحون ما فى كتابك　　فكتاب الله يكفى
فاتخذ منه طبيباً　　فلعل الله يشفى

ولما اطلع على هذا السفر الكبير بعض إخواننا من غير زمرة العلماء هم بالرد عليه مبتدئاً من آخره، فإن أظهر ميزة الكتاب أنك تأخذه من آخره إلى أوله أو تأخذه من أوله إلى آخره سواء .

شطر صاحبنا الأبيات كما يلى :

يا علياً كن عليـــا　　لا تنازل أهل سخف
دعهمو يسعوا لحتف　　وتجنب كل حتف
وامحون ما فى كتابك　　إن ترد للحق تخفى

وإذا شئت نصيراً فكتاب الله يكفى
فاتخذ منه طبيباً لقلوب ذات ضَعف
عالج القوم برفق فلعل الله يشفى

ثم سمع هاتفاً يقول : حسبك : حسبك . يا رمضان ، وألقى فى روعه أن الهاتف ليس بشيطان .

٦

صيام*

يقل عدد الصائمين عاماً فعاماً لكن عدد المتكلمين فى الصيام يزداد. ومن الظواهر الغريبة فى هذه السنة أن جرائدنا السياسية محشوة بفصول فى رمضان وليالى رمضان ، وفضائل الصيام على الرغم من أن أمين بك الرافعى — آنس الله وحدته — قد اعتزل الصحافة فى هذه الأيام .

ألا يكون ذلك إرهاصاً لمؤتمر الخلافة ؟ الذى يظهر أن جريدة الاتحاد تريد أن تحول وجهته إلى البحث فى شؤون دينية ، مثل فوائد الصوم .

وعلى كل حال فإن فى كثرة الكلام فى رمضان وصيامه نوعاً من الإحياء للمظاهر الدينية ، ولعل ذلك لقلة السادة الدينيين الذين يتهامسون بالشكوى ، من تعطيل تقاليد رسمية معتادة فى بعض شعائر الدين .

وأستطيع أن أؤكد لأولئك الدينيين ، أن مجلس الوزراء صائم ، فإن صدور قراره برفت السيدة نبوية موسى فى مستهل شهر الغفران ، لا يكون إلا غضبة ظامئ جوعان .

ونحمد الله على أن هدى وزراءنا إلى تأجيل الميزانية حتى ينعقد مجلس

* السياسة : ٨ رمضان ١٣٤٤ ، ٢٢ مارس ١٩٢٦ .

النواب فإن تقدير ميزانية الدولة يكون خطراً إذا تعرض لنزوات الجوع والظمأ .

أما الأوسمة والرتب ، فليصنع بها ما شاء مجلس الوزراء ، وليقررها فى ساعة رضى أو فى ساعة غضب وليمنحها لسبب ولغير سبب .

* * *

الناس فى هذا الشهر أقسام ثلاثة ، فنهم صائمون ومنهم مفطرون ومنهم من يظهر بمظهر الصيام وهو لا يصوم .

أما المفطرون فتشم رائحة الدخان من أفواههم وأيديهم وتلمح فى شفاههم لمعة ، لم يذهبها نضوب الريق .

أما الأخيرون ، فيقطبون جباهاً ليس فى أساريرها تقطيب ويكثرون من حديث التعب والهزال ، وكل مظهر من مظاهر أجسامهم الرابية يشهد عليهم .

والسابقون السابقون تجد فى أعينهم إحمراراً ، وفى نظراتهم ازوراراً ، وفى مناخرهم اتساعاً وفى أرنبة أنوفهم ارتفاعاً ، وفى أفواههم تقبضاً وجفافاً ، وفى سحنتهم طياً والتفافاً .

فى مسامعهم طنين ، فإذا حدثتهم مالت إليك آذانهم وهم لا يسمعون ، وفى مداركهم سهوة فإذا خاطبتهم نظروا إليك وهم لا يعون .

فى جسومهم وهن يجعل مشيهم دبيباً وفى أعصابهم توتر يدع غضبهم قريباً .

ويقبل الليل ، فيحل لهم ما كان عليهم حراماً من متاع الدنيا ، وكان من حق تلك الآلات المعطلة زمناً أن تحرك برفق ، ولكن ابن آدم لا يعرف الرفق فى إرضاء شهوته فهو يجهد بثقيل المطاعم معدة أنهكها عدم الغذاء ويفرغ المشارب فى جوفه حتى يفيض الإناء ، ثم ينثنى إلى سيجارة تبعث فى الجسم خدراً ولذاذة كتمشى البرء فى السقم ، وما هو إلا أن يترشف قهوته ، ويدخن سيجارته حتى يغدو ما بين يقظان ونائم وحتى تبدو له الدنيا كأحلام حالم .

٧

صيام أيضاً *

إذا كان للصيام أثر فى سحن الصائمين وجسومهم ، فإن له أثره أيضاً فى تفكيرهم وما يقولون وما يكتبون .

وإذا نظرت فى كتاب « حقيقة الإسلام وأصول الحكم تأليف الأستاذ العلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقاً » عرفت فى أكثر ما حوى ذلك السفر الضخم علامات صوم على الأقل . لكن الكتاب نشر على الناس قبيل شهر رمضان فلعل الشيخ بخيت يكون ممن يصومون الأشهر الثلاثة من حيث لا ندرى ، بل إن كثيرين ممن شهدوا ملامح الأستاذ وألموا بكتبه ، واستمعوا لقوله ، يرون أنه يصوم الدهر .

وهذا برهان من براهين .

قال الشيخ فى كتابه « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » ما نصه :

« فانظر إلى هذا المؤلف ما كفاه أن يحرف كلام الله تعالى ويحمله على غير معناه حتى عمد إلى كلام العلماء بعد موتهم فصنع فيه ما صنعه فى كلام الله وكلام رسوله ولم يكفه ذلك بل اعتدى على الأحياء فحمل كلامهم على غير ما يريدون فجعل كلام حضرة الشاعر الوحيد فى عصره شوقى بك دليلا لما يزعمه فساق قول ذلك الشاعر مدحاً فى الحضرة النبوية :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثت   بقتل نفس ولا جاءت بسفك دم

ولم ينظر هذا المؤلف إلى قول ذلك الشاعر :

---

* السياسة : ١٦ رمضان ١٣٤٤ ، ٣٠ مارس ١٩٢٦ .

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب تكفّل السيف بالجهّال والغنم

إلى آخر الأبيات . . . فإنها صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما قاتل الجهال الذين لم تنفع معهم الحجة والبرهان ، والأشرار الذين قال الله فيهم إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ، ولذلك عطف الغنم عليهم عطف بيان » ا هـ بحروفه من صفحتى ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

ليس فى بيت شوقى غنم ، والبيت منقول على وجهه فى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وإنما الغنم من خيال الشيخ بخيت . والذى فى شعر شوقى هو العمم بعين مهملة وميمين والعين مفتوحة فى ما نعلم ، أللهم إلا أن يكون أمير الشعراء يريدها مكسورة كرامة لمفتى الديار المصرية سابقاً ، ولرأيه الموفق فى عطف البيان .

وعلى ذلك المنوال ومن التحقيق البرئ من التحريف فى النقل والاعتساف فى الفهم نسج « العلامة الكبير » فى كتابه « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » .

* * *

هذا ما كان من أمر الشيخ محمد بخيت المطيعى . أما ما كان من أمر الرياسة الإسلامية العليا ، فقد أخرجت للناس كتاباً منشوراً ، فى لبس البرنيطة .

وليس لنا إلا السمع والطاعة لفتاوى السادة العلماء المتضمنة لنصوص المذاهب الأربعة فى تكفير من لبس القبعة ، غير أننا نذكر بكل خشوع لمقام الرياسة الإسلامية العليا ، أنه منذ نيف وعشرين سنة ، أفتت رياسة إسلامية عليا فى مصر بجواز لبس البرنيطة ، وألف أساطين علماء الأزهر لذلك العهد كتاباً معروفاً ، يتضمن نصوص المذاهب الأربعة فى حل لبس القبعة .

وعلى كل حال فإن الذى استرعى الأنظار من أمر الحركة التى وجدنا علماء الأزهر على حين غفلة يهرعون إليها مهطعين مقعى رؤوسهم شيئان :

الأول أن شيخ الجامع الأزهر والمفتى أعلنا فى المسلمين أنهما « الرياسة الدينية العليا » .

وكنا نعرف أن الرياسة الدينية العليا نصف الخلافة ، إذ الخلافة هى الرياسة العليا فى الدين والدنيا ، وكنا نعرف أن الخلافة وحدة غير مجزأة سينعقد لها مؤتمر ينظر فى من يكون الخليفة للمسلمين يتولى زعامة الدنيا والدين .

فهل جد للسادة العلماء مطمع فى اقتسام الأسلاب ، جعلهم يرون أن تكون الخلافة جزأين فاستأثروا لأنفسهم بالرياسة الدينية العليا ، وتركوا للمؤتمر خلافة الدنيا .

أما الثانى فهو أن فتوى العلماء الموضوعة لتحريم لبس القبعة قد ألحت فى الكلام على تغيير الشيب إلحاحاً ، حتى لتوهم قارئها أن الغرض الأهم منها هو إيجاب صبغ الشعر الأبيض لا تحريم البرنيطة .

قررت الفتوى أن التشبه بالكفار كفر ، وأن اليهود لا يصبغون شيبهم ، وأن من لا يغير شيبه متشبه باليهود فاستقام لهم أن من لا يغير شعره الأبيض فهو كافر .

وقد تحدث الناس أن بعض الشركات الغنية التى تتجر بصبغات الشعور تحتال لترويج بضاعتها بحيل مختلفة وتحدثوا أن شركة لبن نسله أذاعت منذ سنين فى أقطار الأرض فتوى صدرت لها خصيصاً من الرياسة الدينية العليا للترغيب فى تجارتها .

فإذا صح أن بين هذه الأحاديث صلة ، وأنها ترجع إلى أصل غير مكذوب فطوبى لصبغة الشعر وتجارها ، ويا أسفى على الشيب فى الإسلام ! .

٨

صيام أيضاً*

وكيف نتكلم فى غير الصيام ، وهذا رمضان ما فتئ يجرر ذيوله بيننا متباطئاً ، وحيثما يممت لاتجد إلا آثار الصوم ، ولا تسمع غير حديث رمضان ، بل قد حمل بريد أوربا إلى بعض جرائدنا المصرية حديثاً عن رمضان « لأمير من أمراء الأدب والحسب » .

ويقول العارفون إن الأمير (ش) هو من إخواننا الدروز أخذته النصرة للإسلام حين رأى مسلماً يقول فى بعض العبادات الإسلامية إنها « تعلو على متناول العقل » كما قال الشيخ عبده وقال الغزالى من قبل .

أما الشيخ محمد عبده فيقول فى رسالة التوحيد : « واتفق المسلمون كافة إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه. . . على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يأتى بما يستحيل عند العقل » .

أما الغزالى فيقول فى كتابه « المنقذ من الضلال »

« فكذلك بان لى على الضرورة ، أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل » . ويقول :

« فقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة »

---

* السياسة : الأربعاء ٢٤ رمضان ١٣٤٤ ، ٧ أبريل ١٩٢٦ .

ويقول أيضاً :

« وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب. وإنما فائدة العقل فى تصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين وإلى هنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه » .

ومهما يكن من شىء فى كلام الأمير (ش) فإنا لا نظن به شرا ، ولا نتهمه بحب الشهرة فى ما يحاول .

ونحن نشكره الشكر كله على تبرعه بالدفاع عن الإسلام ، وإن كان يدفع فى غير هوادة ولا رفق ، أقوال حجة الإسلام وأقوال الأستاذ الإمام .

وحاشا الله ! لا نقول إن الأمير (ش) لا يفهم العربية ، بل نحن أبر بالأمير وأعف قلماً من أن نقول إنه لا يفهم الدين .

* * *

هل يكون الأمير (ش) مثلا ممن تظهر فى مقالاتهم أعراض الصيام ، كما ظهرت فى تأليف أمير العلماء الشيخ محمد بخيت وكما ظهرت فى أعمال أمير الوزراء زيور باشا؟ أليس قد نسيت وزارة زيور باشا عند إصدار مرسوم الانتخاب أن تحدد موعدا لانعقاد مجلس النواب؟

وإنى لأخشى على الوزارة الزيورية عاقبة النسيان . فقد أخرج النسيان آدم وحواء من الجنة وهبط بهما إلى دار الشقاء .

نسأل الله أن يذكر الناس ويستفيق النيام كما نسأله أن يخلصنا من شهر الصوم بسلام .

٩

عجائب *

الشيخ محمد الأحمدي الظواهرى رجل معروف ، من هيئة كبار العلماء ، وشيخ معهد أسيوط ، له مظهر وجاهة دينية ، وله بين بنى جلدته سمت ممتاز .

هو أطول العلماء الأزهريين قامة ، وأطولهم عمامة ، وأطولهم لحية ، وأطولهم سبحة .

قالوا : إن الشيخ كتب للناخبين منشوراً ، يحضهم فيه على أن يختاروا لمجلس النواب أهل الدين ، ممن لهم حمية فى الذود عن حياض الإيمان ، وعزمة فى إعلاء كلمة القرآن .

قلنا : بارك الله للشيخ الأحمدى ، فقد رفع للعلماء صوتاً فى سبيل الله ، والناس يظلمون علماء الأزهر فى هذا الزمن ، إذ يرمونهم بأنهم لا يرفعون صوتاً لله خالصاً .

لكن أبى القدر أن يتم سرورنا ففوجئنا بنبأ عجيب :

ذلك أن رسالة نشرت منذ أسابيع اسمها « مذكرة الأزهر » ومحتوياتها :

« رجوع الأمة إلى التحاكم فى خصوماتها أمام كتاب الله عز وجل .

تطهير . البلاد من أعمال الدعارة والفسق .

إغلاق محلات الفجور .

مصادرة الخمور .

إبطال الربا الذى حرمه الله ».

---

* السياسة : الخميس ٩ شوال ١٣٤٤ ، ٢١ إبريل ١٩٢٦ .

« والقائم بطبعها ونشرها والإنفاق عليها خادمها عبد الرزاق عرفة بالأزهر مطبعة المدينة المنورة » .

هذه الرسالة الهاتفة بدعوة دينية من جنس ما ينبس به شيخ معهد أسيوط فى مجالسه ، لقيت حرباً عوانا من الشيخ الظواهرى وإخوانه ، فقطع ناشرها من الأزهر ونفى إلى بلده ، وصودرت هى حتى لا تقع عليها أعين القراء .

والناس معذورون إذا كانوا لايستطيعون أن يصدقوا أن كبار شيوخ الأزهر نهضوا بدافع من أنفسهم لاضطهاد مسلم يدعو إلى ما دعا إليه الشيخ عبد الرزاق عرفه .

والناس معذورون إذا حيرهم من الرياسة الدينية العليا أن تقول بلسان الشيخ الأحمدى للناخبين : لاتختاروا للنيابة عنكم إلا من يذود عن دينكم وينشر دعوته ويؤيد كلمته ، ثم تعمل من جهة أخرى على الصد عن سبيل الله ، وإيذاء الداعين إلى تأييد الإسلام .

وما جزاء من يفعل ذلك بالمسلمين ، ويفعله باسم الدين ؟

أما بعد ، فما نحن من ذوى الزعامة الدينية حتى نعرض للأمر من جانبه الدينى ، ولكننا ننكر على الحكومة هذا العدوان على ما كفله الدستور من حرية القول والكتابة .

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة التى لا قيمة لها فى ذاتها فإن مصادرتها ونفى صاحبها عدوان على حرية الفكر ، نستصرخ له كل حر فى هذا البلد يغار على الحرية .

وأما بعد، فلو أن لنا صوتاً كصوت الشيخ الأحمدي الظواهرى، يرن باسم الرياسة الدينية فى جوانب القطر ، لقلنا للناخبين :

« أيها الناخبون : تخيروا لمجلس النواب من له دين ، وله مع الدين خلق ».

١٠

عرائض*

كنا كلما أقبل الصيف ، واتقدت جمرة القيظ رأينا الشرطة فى شوارع العاصمة يضعون فوق طرابيشهم أغطية من قماش أبيض ، تنسدل من الوراء فتحمى رقابهم من شمس الهجير ، وتمتد من الأمام فتظلل جباههم وأعينهم حين ينحسر الظل عن الميادين والطرقات .

وقد هجم الحر فى هذا العام شديداً عنيفاً ، غير أننا وجدنا رجال البوليس فى العاصمة ضاحين ، على غير عادتهم ، تتلقى رؤسهم ووجوههم ورقابهم لهب الشمس ولفحات الهجير .

وسبق إلى ظننا أن حكمدارية العاصمة نسيت أمر هؤلاء الجنود المساكين كما نسيت رياسة مجلس الوزراء موعد انعقاد البرلمان فى مرسوم الانتخاب فهممنا برفع الأمر إلى لجنة المؤتمر الوطنى لتذكر رسل باشا، كما ذكرت زيور باشا بما نسيه ولا يزال له ناسياً ، لكن رسل باشا إنجليزى، والإنجليزى لا ينسى .

ليست المسألة إذن مسألة نسيان ، والموضوع محتاج إلى بيان ، وقد ذهب الناس فى تأويله مذاهب شتى ، فتحدث متحدثون بأن الصلة وثيقة بين فتوى العلماء فى الأزياء وانعقاد الخلافة وبين العدول بالشرطة عن ذلك الزى الشبيه بالقبعة .

ويظن ظانون أن حكمدار العاصمة خاف أن يشن عليه الشيخ محمد

---

* السياسة : الثلاثاء ٢٠ ذو القعدة ١٣٤٤ ، ١ يونية ١٩٢٦ .

الأحمدى الظواهرى الغارة بصرخة يرسلها من أسيوط فتردد صداها الإسكندرية ولا تزال تتجاوب بها الأصداء حتى تنعقد هيئة كبار العلماء ، كما يفعل الشيخ الأحمدى اليوم بمناسبة كتاب « الشعر الجاهلى » وكما فعل من قبل ، وكما يفعل من بعد إن شاء الله .

وإذا كان يوجد فى كثير من بلاد القطر رجال لهم فى كتابة العرائض شهرة يخشى بأسها المأذونون والصيارف والعمد ، ولا يسلم من شرها الحكام الإداريون ولا القضاة ، فإن فضيلة شيخ معهد أسيوط له فى كتابة العرائض والتقارير شهرة أكبر ومقام أظهر .

كان الأستاذ شيخاً لمعهد طنطا ، فلوحظ الازدياد فى عدد ما يقدم من العرائض فى بلاد الوجه البحرى ، ولوحظ أن أكثر مقدمى العرائض ممن لهم صلة بالجامع الأحمدى .

فلما نقل الشيخ إلى معهد أسيوط تناقص عدد العرائض فى الوجه البحرى وأخذ يتزايد فى أسيوط وما إلى أسيوط ببركة الشيخ وبركة أتباعه ومريديه .

وما على وزارة المعارف أن تؤسس فيما تؤسسه من المعاهد الجديدة مدرسة لفن العرائض الدينية كما تريد أن تنشىء مدرسة للآثار العربية مع وجود مدرسة للآثار عامة تابعة للجامعة المصرية ، وتختار الشيخ محمد الأحمدى لمدرسة العرائض وبذلك تحيي فناً من فنون الآثار يخشى عليه الاندثار وتنجى المعاهد الإسلامية من داء العرائض الذى يحمل جراثيمه الشيخ الأحمدى وينشرها حيثما حل أو ارتحل .

هذا وإنا نوجه إلى علماء الدين نصيحة خالصة ، أن لا يتخذوا الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أسوة لهم فى طريقة الدفاع عن علمهم ودينهم ، فإن العرائض والتقارير شر ما يلجأ إليه فى ميدان البحث والنظر وأبعد شىء عن كرامة العلم وكرامة الدين .

١١

بين القاهرة والصعيد*

إذا انحدر بك قطار الصعيد عن محطة القاهرة ، يمشي الهوينا ، فى ضجة ترسلها الصفارة موقعة على أنغام البخار ، حمدت الله على أن لم تكن فى ديار ابن السعود ورهط ابن السعود .

وإذا كانت أبواق محمود باشا عزمى من آلات الطرب فى ملة الوهابيين يحرم سماعها ، ويحل رمى سامعيها بالجمار ، فإن صفارة قطار الصعيد حين تهتف عالية متقطعة يصاحبها دوى أجش رتيب أحق بأن تكون معازف يجب أن تدمر تدميراً .

ولقد كنا نتبرم بدين هيئة كبار العلماء الذى يدفع بالكفر كل نزوع إلى العلم والفهم والذوق ، فلما جاءنا دين أهل نجد يهدم على من فيها قباباً قد تكون آثاراً فنية تاريخية ، يعرف خطرها أهل الفن والتاريخ ، ويقذف وجوه الجند بالحجر وبالرصاص إذ يتداعون بالبورى ، رضينا بدين هيئة كبار العلماء ، الذى إن جمد مرة استرخى مراراً ، ثم هو لم يبلغ بعد أن يقذف رصاصاً ويرمى أحجاراً .

وهب أم كلثوم ذهبت مرة تحج وتعتمر ، وبدا لها بين الصفا والمروة أن تشدو شدوها لتوقظ من سباتها تلك الكلاب التى يتركونها راقدة يتعثر بها الحجاج فى جوانب المسعى ، أكان سادتنا الوهابيون يعرضون بالأذى للموسيقية المصرية

* السياسة : الخميس ٢٠ ذو الحجة ١٣٤٤ ، ١ يولية ١٩٢٦ .

الحسناء ويخرسون مزماراً من مزامير الله ، من حقه أن يهتف فى حرم الله ؟

* * *

نترك رهط ابن السعود ، يسكتون كل صيحة مطربة ، ويخربون بأيديهم كل ما بنى الإسلام من قباب ، من غير أن تبنى أيديهم شيئاً ، ونترك هيئة كبار العلماء ، تبحث فى أنحاء الأرض عن مسلم تكفره ، ثم نعود إلى قطار الصعيد ، يسير رويداً يجتاز القاهرة ، بين خرائب وأكواخ تجمعت فيها أنواع القذارات ، ومظاهر الخراب وتصاعدت منها روائح مؤذية .

ما هذه الأرض المهملة فى وسط العاصمة ؟ حقاً فى الخط الحديدى الوحيد الذاهب إلى الأقصر وأسوان والسودان ، تترك بؤرة لجراثيم الأمراض وتعترض لأنظار الغادين والرائحين ، عيباً فى جبين القاهرة فضاحاً ، وشهادة غير مشرفة لمصلحة التنظيم ، ولا لمصلحة السكك الحديدية ، وأغلب ظنى أن الأرض ملك لوزارة الأوقاف وسلام لك من وزارة الأوقاف .

أليس العقل يقضى بأن نبدأ بهذه المفاسد أولا ؟ وأن يعنى بدفع مضارها وشناعتها من قبل أن توسع شوارع ليست ضيقة بأهلها ولا طارقيها ، وليس توسيعها إلا إسرافاً وبداداً ؟

سمعنا أن شارعاً قليل الحركة فى حى قليل الحركة تقرر جعل عرضه ٣٥ متراً وذلك يستوجب نزع ملكيات ، وهدم منازل ، بل يستوجب نقض البناء الفخم الذى شيد حديثاً للسيارات الملكية .

وبعض تلك النفقات يكفى لتنظيم وجه القاهرة من ناحية الصعيد ، وجعله لائقاً بالعاصمة المصرية ، وإصلاحه يصلح حياً من الأحياء الوطنية الكثيرة السكان المحتاجة إلى الرعاية .

كان جاراً لى فى السفر رجل عرفت أن مسكنه فى شارع جامع عابدين فقلت له : لابد أن يكون توسيع الشارع لم يسرك ، لأنه سيأتى على دارك !

قال: بلى . وحياتك سرنى ، فإن فى ذلك الشارع أمة من البرابرة يجتمعون قبيل نصف الليل إلى مائدة لهم يلعبون بالورق ، فى لبسة المتفضل ، فى حجرة مفتحة النوافذ ، فى هرج صخب . فإذا أخذت برأسهم سورة اللعب وغيره ، رأيتهم فى غير حشمة ولاحياء يصفقون ويرقصون ، متصايحين بأغان ينبو عنها السمع ، ولا تليق بجلال مكانهم ولا حرمة جيرانهم .

سألت الرجل :

ولم لا يشكو أهل الشارع أمرهم إلى حكمدارية القاهرة ؟

فأجاب فى خفوت حتى لم أكد أسمعه :

لا يستطيع السكان أن يشكوا ، ولا تستطيع الحكمدارية أن تسمع .

ثم سكت وسكت ، فما برحنا صامتين حتى افترقنا .

* * *

ولما فصل القطار عن المدينة ، تنسمنا عرف الريف نسيما زكياً ، ونظرت فإذا ترعة الإبراهيمية تسايرنا ، من عن يمين تارة وشمال ، تسقى الحرث والنسل من القاهرة إلى ديروط بمائها العذب وإن كان كدراً .

وإذا كان جميلا منظر الماء جارياً مضطرباً يحمل عناصر الحياة فى أثنائه ويمثل مظاهرها فى حركته فما هو بالجميل أن تشهد الرمم تطفو وترسب كلما وجهت عينيك إلى الإبراهيمية . كأنما هى مقبرة متحركة ، أو لجة من دماء مسفوحة ، تضطرب فى جنباتها حيوانات مذبوحة .

إن كان قومنا يجهلون أن إلقاء الميتة فى هذا الماء المشروب يضر بصحتهم ويخل بما ينبغى للموت من كرامة على كل حال .

وإن كان قومنا يجهلون أن دفن الرمم فى الأرض ينفع سمادا لها ، ويقى العيون مشهد الأشلاء الممزقة ، والأنوف رائحة اللحوم العفنة فما للحكومة لا تتولى بنفسها الأمر ؟ وهو لا يكلفها كبير عناء ولا كبير نفقة .

ومن عجب أن ترعة الإبراهيمية تمر بباب أكثر المراكز ، حيث يوجد

المأمور ويوجد الضباط والجنود والخفراء .

كل أولئك يرون ما نرى من هذه الشناعات ويشربون صديد الأموات .

* * *

تعبت من الأرض وما فى الأرض من آلام ، ومن بعض القادرين على التام ، ونظرت نظرة فى السماء فإذا البدر فى اكتماله ، مشرق متهلل يملأ الآفاق نوراً ، ويرسل أشعته البيضاء على المزارع الخضراء فتلمح لوزات القطن فى غلائلها المصفرة الرقيقة ، تختال فى تماوج النسيم بين نضرة حياتها الجديدة ، وبهجة الضياء السماوى يبعثه البدر .

سعيد أنت يا بدر فى أفقك الأعلى ، فليس فى السماوات خرائب قذرة كخرائب القاهرة يجتازها قطار الصعيد .

وليس فى السماوات برابرة يزعجون النوام فى غسق الظلام .

وليس فى السماوات رمم تقذف فى الماء ويشربه الظماء .

وبعد ذلك ليس فى السماء وهابيون وليس فى السماء هيأة كبار العلماء .

١٢

حديث ليدى دراموندهاى مع فضيلة المفتى *

حديث ليدى دراموندهاى مع فضيلة المفتى .

إذا كان فى بعض المناظر المصرية جمال جذاب يشفع لما فيها من نقائص ، كما يشفع كرم المصريين وحنانهم لزلاتهم فإن لليدى دراموندهاى من اللطافة والسحر ما هو أكبر أثراً وأعظم خطراً .

وماذا ينفع منظر الفاتنات الشرقيات فى أقنعتهن الجذابة ، ومنظر جماعة

---

* السياسة : الأربعاء ٢٦ ذو الحجة ١٣٤٤ ، ٧ يولية ١٩٢٦ .

الأفندية المتأنقين ، ومنظر المشايخ والسقايين والشحاذين والنساء، ذوات الجلاليب السوداء الحريرية ينتظرون السواح بباب الفندق إلى حيث يقودونهم إلى الصحراء ؟

ماذا يستطيع أن يفعل كل أولئك إلى جانب ما تستطيع أن تفعله صحافية جميلة إنجليزية ؟

وفى حديث المفتى الأكبر مع السيدة المحترمة من مخايل التسامح والمياسرة مالا عهد لنا بمثله من رجال الرياسة الدينية العليا حين يذكر السفور أو يذكر تغيير الأزياء .

كانت المسألة مسألة إيمان وكفر ، فلما مستها يد الليدى درامونده‌اى انقلبت إلى « مسألة عادة وسهولة أكثر منها قانوناً » .

وكذلك حلت لنا الصحافية العظيمة عقدة السفور والحجاب وعقدة القبعة والطربوش .

وياليت السيدة تتولى كل ما بيننا وبين الرياسة الدينية العليا من مشاكل لتفض أسباب الخلاف! فليس باقى مشاكلنا الدينية بأعسر حلا ، ولا أسمى فى الدين محلا ، وليس سائر كبار الشيوخ أصلب من مفتى مصر عوداً ، ولا أشد جموداً .

وما كان أحسن الشيخ الوقور مفتى الديار المصرية إذ يبين لسائلته الحسناء « أن الطبيعة البشرية ضعيفة ، والوجه الحسن سبيل قوى للإغراء » .

لم تصف الكاتبة الأديبة نبرات صوت الأستاذ عندما كان يلقى مواعظ الحكمة ولم تقل لنا كيف كان شعاع نظره يترامى ، وكل ما قالته إن المفتى كان يتحدث فى شيء من عمق الإحساس .

بيد أنها وصفت ثيابه الحريرية وعمامته الشفافة البيضاء ولحيته الرمادية اللون ثم قالت إنها حين ألقت عليه سؤالها أخذ تنشيقة طويلة قبل أن يأخذ فى الحديث .

ولو كنت مفتياً للديار المصرية،وكتب لى أن أجلس إلى لليدى درامونده‌اى

متحدثاً لأخذت التنشيقة الطويلة قبل دخول الايدى ثم جعلت أتنسم النشوق فى حضرتها تنسما خفيفاً مثل حسو الطير ماء الثماد .

بقى شيء واحد هو أن ليدى دراموندهاى تظن أن « المفتى الأكبر فى مصر أشبه ببابا محلى تسير كلمته ورغباته على المؤمنين ، وقراراته لا تقبل مناقشة » .

وليس المفتى الأكبر يا سيدتى شبيهاً بساكن الفاتيكان .

ووظيفة إفتاء مصر الآن كالأعضاء الأثرية التى تلبث ناتئة فى الجسوم من غير أن يكون لها عمل .

والمفتى موظف تابع لميزانية وزارة الحقانية يتقاضى كسائر الموظفين راتباً شهرياً ، وكل عمله أن يجيب من يسأله عن حكم فقهى كما يجيب أى فقيه يسأل عن حكم يعرفه .

والمحاكم الشرعية ممنوعة منذ عهد الشيخ بخيت – غفر الله له – من أن تجعل لفتواه اعتباراً فى أحكامها .

وقد يكون من المناسب أن يوجه نظر البرلمان إلى أن إلغاء وظيفة الإفتاء وما يتبعها يوفر لميزانية الدولة مالا من غير أن يضيع على الأمة نفعاً فى دينها أو دنياها ويمكن أن يستخدم ذلك الوفر فى إنشاء ما تقتضى حالة المحكمة العليا الشرعية إنشاءه من وظائف ضماناً لسير العدل من غير إبطاء ولا إرهاق لرجال القضاء .

من مصلحة الدين أن تلغى تلك الوظيفة ما دام وجودها يوقع فى وهم الناس أن فى الإسلام باباً تسير كلمته ورغباته على المؤمنين وقرارته لا تقبل المناقشة .

متفرقات

العام الهجرى *

كان قدوم النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وهو يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة .

وروي أنه لما قدم المدينة أمر بالتاريخ، لكن المشهور أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، هو الذي وضع التاريخ الإسلامى بعد مشاورة الصحابة وذلك فى سنة سبع عشرة أو ثمانى عشرة .

أجمعوا على التاريخ من الهجرة ثم قدموه شهرين واثنى عشر يوماً ليكون من المحرم ، فإنه منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام .

لم ير المسلمون الأولون حادثة أولى بأن تكون مرجع التاريخ الإسلامى من هجرة رسول الله وتركه أرض الشرك، فإن هجرته فرق بين الحق والباطل .

وروح الإسلام ظاهرة فى هذا الاختيار الحكيم ، لأن خروج محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، من مكة مولده ومثوي أهله وعشيرته ، فى سن كهولته، ومن غير مال ولاجنود إلا إيمانه بأن ما يدعو إليه هو الحق من عند الله ، وأن الحق لا غالب له « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ذلك هو الإيمان الصادق الذى يدعو إليه القرآن :

« إنما المؤمنين الذبن آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

تذكار الهجرة النبوية يعيد إلى أذهان المسلمين صورة نبيهم العظيم مطارداً من رجال مكة وأهل البطش والمنعة فيها، متسللا من بينهم مع صديقه أبى بكر،

---

* السياسة : الثلاثاء غرة محرم ١٣٤٢ ، ١٤ أغسطس ١٩٢٣ .

رضى الله عنه ، فى مسارب الجبال وأغوارها تتبعه العيون وتساوره الظنون ثم نراه وقد أدركته الصلاة صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف ببطن واد لهم. وكانت هذه أول جمعة جمعها فى الإسلام فخطب أول خطبة له فى المدينة يقول فيها :

« خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ويملك الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

* * *

قد لا يكون صحيحاً كله ما أحاط به كتاب السير حادثة الهجرة ، ولكن الذى لا شك فيه أن محمداً ترك أهله وماله ووطنه فى سبيل دعوته ، وأن محمداً لقى فى مكة كل أذى حتى من ذوى قرابته ، فلم يصل يأس إلى نفسه الكبيرة ، وقال لعمه أبى طالب وهو يحاوره :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن ترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أقضى دونه » .

وقد أظهر الله دينه ونصر عبده وصدق وعده .

* * *

مضت ١٣٤١ سنة منذ هاجر رسول الإسلام إلى المدينة خائفاً يترقب . ومع أن التاريخ الهجرى أصبح مقصوراً على العبادات والمواسم الإسلامية وقلما يتنبه إليه الناس فى شؤون حياتهم ، فإن تذكار الهجرة النبوية لا يزال فى فم الدهر ابتساماً ، ولتذكارات المجد والفخار إماماً .

وهذه مئات الملايين من المسلمين فى جوانب الأرض تستقبل غرة المحرم

وهى موجهة قلوبها إلى الروضة الشريفة فى الوادى المقدس بين مهبط الوحى ومظهر الجلال الربانى ومدرج الدين ومنبع الحكمة القدسية ومهبط السلام والعدل لتهتف فى أذن الأجيال بتحية الإجلال والإعظام لذكرى محمد ، عليه الصلاة والسلام .

تأبين المكباتى بك . . . *

فى سنة ١٩١٣ سمعنا أن قاضياً من ذوى الكفاية والخلق ، فى شباب يبسم أمامه الأمل قد استقال من منصبه ، ليضع مواهبه السامية ومطامح نفسه الكبيرة ، فى خدمة أمته فى الجمعية التشريعية .

القضاء يومئذ هو أمنع مركز فى مناصب الحكم ، ومستقبل أهل الكفاية والنزاهة فيه موفور الضمانات .

ولم يكن لأعضاء الجمعية التشريعية راتب ذو شأن ، ولا امتيازات مغرية . من أجل ذلك شعرت البلاد بتقدير العاطفة النبيلة فى نفس هذا النائب الشاب .

ثم جعلت مواقفه فى الجمعية التشريعية تكشف عن فضله ، حتى صار أحد أولئك الأفراد الذين يشار إليهم بالبنان من بين أعضاء الجمعية باعتبارهم قادة الحركة وأهل الرأى ، ولعله كان أحدثهم سناً .

كنا فى ذلك العهد شباباً فى معاهد العلم ، ننظر بإعجاب وفخر إلى وثبات عبد اللطيف المكباتى فى ميدان المجد والشرف .

ولم يكن الشباب فى عهدنا هو الذى يضع موازين الرجال ، ولكنه مع ذلك كان يرقب بعناية وروية كيف تبنى الأمة المجد الصحيح لصالح أبنائها .

* السياسة : الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٣ ، ١٩ أكتوبر ١٩٢٤ .

وكنا نفهم أن خير مجد الرجال ما يقوم على فضائل الأخلاق .

فلما برزت شخصية المكباتى ممتازة بالصراحة ، والشجاعة ، والأخلاق ، عرفنا سر عظمته ، فإن هذه الفضائل الكبيرة لا تكون إلا للنفوس الكبيرة ، وهى عزيزة خصوصاً فى الأمم الناهضة من عثار طويل .

ثم جاءت النهضة الوطنية الأخيرة ، وكان من زعمائها منذ فجرها الأول ، وظل عنصراً فعالا من عناصرها الطيبة ، ممتازاً بصدق عزيمته ، وقوة شكيمته ، واحترامه للحرية وحسن فهمه لها وشجاعته فى الدفاع عنها .

كانت شمائل عبد اللطيف المكباتى شمائل قوة يحيط بها النبل من جميع جهاتها .

صريح فى وطنيته ، صريح فى جهاده ، صريح فى صداقته ، صريح فى عداوته .

وكانت مخايل عظمته الخلقية تلوح فى مظاهر هيكله الجسمانى .

محيا منبسط ليس بضيق ، تتسع ملامحه لكل ما تجيش به عواطفه الكريمة ، وجسم ممتلئ وافر ، ومن غير أن يسرف فى ضخامة ولا طول ، مع تناسب الأعضاء وقوة العضل ونشاط الحركة .

وعينان فى بريقهما ذكاء وفطنة يفيضان نوراً وبشراً ، وقد يقدحان ناراً وشراً .

ينطلق فى مشيته بخطا مطمئنة من غير فتور ، مشرقاً عالى الرأس ، كأن به كبرا وليس به كبر .

فصيح اللهجة من غير تكلف ، فى صوت واضح ، سليم الرنة ، قوى التأثير .

وإذا كان المرحوم عبد اللطيف المكباتى قد أنفق كثيراً من نشاطه وتفكيره وقلبه ، فى خدمة مصر ، فإن عقله وقلبه وعزيمته كانت قوى لا ينضب معينها ، ولا يزيدها الجهاد ومحن الجهاد إلا قوة وحياة .

ولقد عصف الموت به من غير نذير ، فهدم به صرحاً رفيع العماد ، وأذوى أملا نضيراً من آمال البلاد .

فجع بالمكباتى أصدقاء كانوا يرون فيه أكمل معانى الصداقة ، وأشرف خلالها .

وفجعت به مصر مجاهداً ، صريحاً مخلصاً شجاعاً ، أحوج ما تكون إليه مصر فى جهادها للرجال ذوى الشجاعة والصراحه والإخلاص .

فى حفلة الرابطة الشرقية*

فى مبدأ سنة ١٩٢٢ تألفت « جمعية الرابطة الشرقية » ومهدت لعملها بوضع قانونها ولائحتها .

ثم لبثت ثلاث سنين تعمل لتحقيق غرضها فى أناة تكاد تبدو فتوراً ، نزولا على حكم الظروف التى اجتازتها البلاد المصرية ، وهى ظروف عصفت فيها الفتن ، فثبطت جهود الخير ، بل كادت تنسفها نسفاً .

* * *

عقدت « الرابطة الشرقية » اجتماعات للبحث فى شؤونها ، وفيما عرض من الشئون الهامة فى الشرق ، وألقيت فيها محاضرات مفيدة ، واتصل ذكرها بالأقطار الشرقية خصوصاً بواسطة من ساح فى تلك الأقطار من رجالها ، ولم تقصر فى التعرف إلى من زار مصر من عظماء الشرقيين .

وقد وسعتها « دار السادة البكرية » فكان لها مهد مبارك فى ظل ذلك البيت العتيق .

---

* السياسة : الجمعة ٢٥ شعبان ١٣٤٣ ، ٢٠ مارس ١٩٢٥ .

أقبل العام الرابع للرابطة وأعضاؤها مجمعون على أن ينهضوا بها نهضة جديدة ، راجين أن يكون قد آن لجمعيتهم أن تبرز فى ميدان العمل الجدى أداة قوية ذات أثر من أدوات الخير العام والإصلاح .

* * *

وكان أول مظهر من مظاهر هذه الحياة الجديدة أن أنشئ للرابطة الشرقية ناد لائق بها واحتفل بافتتاحه فى مساء يوم الجمعة ٩ يناير سنة ١٩٢٥ فى جمع من أهل الفضل والأدب .

وقد تفضلت معظم الجرائد التى تصدر فى مصر بوصف الحفلة وذكر ما ألقى فيها من الخطب تحبيذاً للعمل وتشجيعاً للقائمين به . وتلك عاطفة نبيلة تقدمها « جمعية الرابطة الشرقية » قدرها وتثنى عليها ثناء جميلا .

وبهذه المناسبة خصص بعض أفاضل الكتاب فصولا ضافية للكلام على « الرابطة الشرقية » بحثوا فيها أصول هذه الفكرة فى تاريخ مصر الحديث ، وبحصوا أغراض الجمعية وأعمالها ، ومنهم من أشار بلطف إلى مواضع للنقد ، فى هذا العمل الناشئ ، الذى نعد كل نقد خالص خدمة له ونصحاً .

وليس أدل على حسن تقديرنا لنقد الناقدين ، واستيضاح المستوضحين ، من أن تتقدم « الرابطة الشرقية » اليوم إلى هذا الجمع العظيم الراقى لتتحدث عن نفسها حديثاً ، نرجو أن يكون فيه بيان وبلاغ .

* * *

فى هذا الجانب الذى نسكنه من الأرض أمم متجاورة ، من ورائها ذكريات تاريخية متصلة ، ومن أمامها مطمح فى المدينة مشترك وتقوم نظم حياتها وتفكيرها على أسس متشابهة ، ولها فى السماء إله واحد تكاد تستوى فى عبادته على اختلاف أديانها .

هذا هو الشرق الذى تنتسب إليه هذه الرابطة ، لا حاجة فى تحديده إلى الجبال والأنهار .

كان الشرق فى جمود ، فلم يكن ممكناً أن تتحرك أطرافه بنزعات التعارف ، فى ما بينها والتعاون ، لأن الجمود ضرب من السبات ، والتعاطف نوع من الحياة ، بل هو من أرقى درجاتها .

وقد ظهرت فى الشرق نهضات منشودة لم تزل تعالج العوامل المحلية المعوقة ، وتكافح المصادمات الخارجية حتى اشتد ساعدها رويداً ، وأخذت تبدو لها آثار تقوى الأمل .

فى كل قطر من أقطار الشرق حركة رقى فى ناحية من نواحى المدنية .

وتلك هى عناصر ما نسعى إلى تشييده من هيكل المدنية الشرقية المشترك ، ومع ذلك فقد ظلت متناكرة لا يعرف بعضها بعضاً .

* * *

ثم شعر أهل الشرق فى الأقطار المختلفة بالحاجة إلى تعارف النهضات المنبثة فى شرقهم ليستفيد كل فريق من معارف الآخرين وتجاريبهم ، ولتتعاون جملة القوى الناهضة على إنعاش الروح الشرقى .

ووجد تعاطف بين المفكرين والمصلحين من الشرقيين ، ظهرت آياته فى مصر قطب الدائرة فى الشرق ، وملتقى الوافدين من جهاته المتباعدة .

وكان طبيعياً حينئذ أن تنهض جمعية لتحتضن هذه النزعة المباركة وتقوم على تعهدها ونمائها .

هذه هى « جمعية الرابطة الشرقية » التى أسسها جماعة من المصريين والسوريين والإيرانيين والأتراك والمغاربة .

* * *

وفى صدر قانون الجمعية ثلاث مواد تعرفها وتدل على أغراضها ووسائلها :

المادة الأولى : « ألفت فى القاهرة جمعية علمية ، اجتماعية باسم « جمعية الرابطة الشرقية » .

المادة الثانية : « غرض الجمعية ، نشر المعارف والآداب والفنون الشرقية وتعميمها ، وتوسيع نطاقها ، وتوثيق روابط التعارف والتضامن بين الأمم الشرقية على اختلاف أجناسها وأديانها .

المادة الثالثة: « تتوسل الجمعية إلى غرضها بالوسائل العلمية والاقتصادية، وتبث دعوتها بالقلم واللسان وتنشر ما ترى فيه المصلحة بأى لغة تراها .

لجمعية الرابطة الشرقية مركز دراسة ونشر وكل ما يخدم الثقافة الشرقية ويحقق بين أمم الشرق معنى التعارف الفكرى والتعاون على وجوه الإصلاح الاجتماعى .

وإذا كانت عصبة الأمم قد رأت مساس الحاجة إلى تعاون فكرى دولى ، وقالت بلسان مسيو « ليون بورجوا » فى تقرير قدمه إلى مجلس إدارة العصبة فأقره فى سبتمبر سنة ١٩٢١ : « لا يعقل أن تهتم عصبة الأمم بتحسين وسائل التبادل فى الحاصلات المادية ، ثم تغفل عن الأسباب التى تجعل تناقل الأفكار بين الأمم سريعاً . . .

وما أعظم الفائدة التى تعود من توفير أسباب السرعة والدقة ، فى تناقل الأبحاث العلمية التى يتناقش فيها المتنافسون بين جوانب الأرض المتباعدة .

ليس من غرضنا المساس بما للأمم من عبقريات خاصة يقوم على تباينها التقدم العام للأفكار الإنسانية بل الأمر على عكس ذلك ، إنما نريد أن نمهد لكل عبقرية سبيلها إلى الكمال فى حياة وقوة بما تستقى من معارف الناس جميعاً ومناهج بحثهم ، ومكتشفاتهم .

إذا كانت عصبة الأمم قد أحست بحاجة الغرب — على ما بين أهله من تواصل فكرى — إلى تحسين هذه المواصلات وتكميلها ، أفلا يكون الشرق أحوج إلى التساند فى معارفه وفى نهوضه الفكرى والاجتماعى ، من غير إجحاف بما لكل شعب من صفات وشؤون خاصة ؟

* * *

لسنا بذلك نسعى إلى تكوين عصبية فكرية فى الشرق تميل عن الغرب وثقافته .

إننا نعرف أن نهضاتنا الحديثة مقتبسة من المدنية الغربية ، ونعرف أن لا غنى لنا فى الكمال المدنى الذى ننشده ، عن الاستفادة من الأمم التى سبقتنا فى ميدان الرقى .

نعرف كل ذلك ونعرف مع ذلك أن الشرق والغرب هما شطرا الإنسانية ، فمن سعى بينهما بالفرقة كان عاقاً ، جانياً على الإنسانية ، وكان ممن يسعون فى الأرض فساداً .

وإنما نحن مصلحون نمهد للمودة والقربى بين شعوب البشر كلها .

وإذا كان همنا موجهاً إلى تحقيق التعارف والتعاون بين أمم الشرق ، فذلك لأن الاتصال الفكرى بين هذه الأمم على تجانسها أقل من الاتصال بالفكر الغربى الذى تقتحم به فجاج الأرض مدافع الجنود وبضاعة التجار ، وكتب العلماء .

ومتى عرف الشرق نفسه ، وتضامنت كتلته كان ذلك أكبر خطوة فى سبيل الوحدة الإنسانية ، والعدل العام .

ويدل على روح « الرابطة الشرقية » من هذه الوجهة أن قانونها يفتح أبوابها لكل ذى كفاية يريد خدمة غرضها الشريف من غير تفرقة بين شرقى وغربى ومن غير نظر إلى دين أيضاً .

* * *

إن لجمعية الرابطة الشرقية نزعة دينية ولا يدخل فى أغراضها ترويج لأى دعوة إلى أى دين .

وليس معنى هذا أننا نجهل مكان الأديان فى الشرق ، باعتبارها عنصراً من أقوى العناصر المؤثرة فى حياة الجماعة ونظام الأخلاق ، بل فى تكوين الذوق وتربية الفكر ، وشؤون الاقتصاد .

نحن نعلم أنك لا تستطيع أن تفهم نفسية شعب من الشعوب ، خصوصاً فى الشرق ، حتى تعرف مزاجه الدينى ، ونعلم أن الذى يحاول ما نحاول من تعارف الأمم الشرقية وتساندها فى النهوض الفكرى والاجتماعى ، لا بد له من دراسة ما فى الشرق من مالل مختلفة ونحل ، مع العناية بتعرف تطوراتها وآثار هذه التطورات فى الجماعة .

ولن تقصر « الرابطة الشرقية » فى النظر إلى الأديان بهذا الاعتبار .

والاهتمام بهذا النوع من البحث من خير ما يفيد فى تحقيق غرض الجمعية فإن اختلاف الأديان كثيراً ما فرق الجماعات فى الشرق ، وأورث العداوات ، وحال دون التفاهم والتآلف ، وعاق عوامل النهوض .

ذلك بأن كل فريق يجهل أديان الآخرين فهو ينظر إليها فى وحشة الجهل نظراً منكراً .

ومتى بدد نور العلم ما بين هذه المذاهب من ظلمات ، حل الأنس محل الوحشة وكان فى ذلك خير كثير وبركة .

ولقد ظن بعض المصلحين الدينيين أنه يستطيع بمثل هذه الوسيلة ، أن يوحد الأديان .

أما نحن فلا نسرف فى الأمل ، وبحسبنا أن تتعارف الأديان ، فلا تتناكر ، وأن تتعاون على الأخذ بيد البشر إلى الخير الأعلى .

* * *

أما السياسة فلا شأن « للرابطة الشرقية » بالسياسة من أى النواحى أتيتها .

ليس من أغراض الرابطة الشرقية تكوين وحدة سياسية فى الشرق ، من نوع ما سعى له السيد جمال الدين الأفغانى وقضى شهيداً معذباً فى سبيله ، ولا تريد الرابطة أن تكون لها صلة بالحركات السياسية التى تهب أعاصيرها فى أقطار الشرق .

الرابطة الشرقية أداة علمية هادئة للتفاهم والتآلف فما يكون لها أن تتصل

بالسياسة التى هى أداة عنف ، وفرقة وشقاء .

على أنه قد يكون لما تسعى إليه الجمعية من التفاهم والتآلف فى الشرق أثر فى تخفيف ويلات السياسة، وقد يكون ما تحرزه من المكان الأدبى فى نفوس الشعوب الشرقية معيناً على حسم الخصومات التى يجرد فيها الشرقى حسامه على أخيه .

ولما شجر ماشجر بين الحجاز ونجد، أهابت الجمعية بالطرفين، أن لا يضرجوا مناسك الله دماً .

ولئن كانت صيحتنا ذهبت بين صليل السيوف سدى ، فما وهن لنا رجاء فى أن تكون الرابطة الشرقية أداة تفاهم ، وأداة سلام .

هذه نشأة الرابطة الشرقية وتلك أغراضها ومراميها . وعسى أن يكون فى هذا البيان دليل على أن الجمعية نبتت نباتاً طبيعياً ، لتمثيل نزعة نبيلة نضجت فى الشرق وانبعثت انبعاثاً .

قال كاتب فاضل فى فصل عن الرابطة الشرقية نشر فى عدد ١٢ يناير من جريدة الليبرتيه بعنوان « نحو عصبة أمم فى الشرق » ما تعريبه :

« أمنية باهرة ، وحلم رائع ، ورجاء ساحر ، ولئن كان ذلك شططاً فإننا متى ذكر الشرق حميت قلوبنا وخيالاتنا ، وضلت سبيل الحقائق الراهنة ، وتحمست واستطردت لا تبالى أن تسخر منها موازين العقل وتفكيراته» .

ظن الأستاذ أننا نحاول أن ننشئ فى الشرق عصبة كعصبة الأمم الغربية. وقد تبين أن أمرنا غير هذا ، وأنه إذا صح أن يوازن بين شىء من عمل عصبة الأمم وبين الرابطة الشرقية ، فقد يكون فى ذلك مبدأ التعاون الفكرى الذى تسعى له عصبة الأمم على وجه أفخم ، وإن كان سعيها يتعثر فى عقبات الأهواء السياسية .

وإنا لنتمنى أن يؤيد بالنجاح هذا المسعى الذى يشعر بالحاجة إليه الشرق والغرب .

* * *

ليس فى ما نحاوله مطلب خيالى ولا شطط. إن الغرض الذى تتوخاه « الرابطة الشرقية من أسمى ما تتوجه إليه عزائم الناس ، وهو جليل الفائدة للشرق ، جليل الفائدة للعالم كله .

وإذا كان محتاجاً إلى جهود وكفايات، فما الشرق العظيم الناهض بمجدب من العزائم والكفايات .

* * *

لا تعتمد الرابطة الشرقية على حمى الخيالات والقلوب، ولكنها تعتمد على أهل الهمم الصادقة والعقول النيرة والقلوب الحية من بنات الشرق ومن أبنائه .

وتعتمد، قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله، على معونة الله .

عيد السياسة الأسبوعية

بدخولها عامها الثانى الجديد*

السياسة الأسبوعية وليدة حاجة شعرنا بها، نحن طلاب العلم والأدب ، أكبر شعور .

نشأت جرائدنا أول ما نشأت أدبية تتصل بها السياسة اتصالا يكاد يكون ثانوياً ؛ لأن شؤوننا السياسية كانت محدودة ولأننا كنا فى فجر نهضة أدبية تغلب كل نزعاتنا الأخر .

ثم نمت فينا العواطف السياسية ومظاهرها، وسبقتها الحوادث وفرعتها ،

* السياسة : الأحد ١١ رمضان ١٣٤٥ ، ٢٠ مارس ١٩٢٧ .

فأصبحت الجرائد السياسية بلهجاتها وفنونها وظروفها أضيق من أن تتنفس فيها عقولنا وقلوبنا بعيداً عن السياسة ووجهات نظرها .

وأذكر أنه فيما حوالى سنة ١٩١٤ دفع هذا الشعور جماعة منا إلى إنشاء جريدة السفور التى ، إن لم تكن تركت فى أفق الأدب المصرى إلا صدى متواضعاً ، فإنها كانت على كل حال فيض الشعور المتدفق فى قلب الطائفة المفكرة ، ذلك الشعور الذى ظل يجيش بين الجوانح حتّى وافته السياسة الأسبوعية بالمجال الرحب .

نشأت السياسة الأسبوعية نشأة طبيعية وتولتها أيد قادرة ، فكان طبيعيا أن ينصرها أهل العلم والأدب ، وأن تصبح فى عام واحد ركناً من أركان نهضتنا الفكرية وأملا من آمال حياتنا العلمية .

وإذا كان حقًّا علينا أن نلهج بذكر هذا النجاح حمداً لله على توفيقه وثناء على جهاد القائمين بأمر السياسة الأسبوعية وتشجيعاً لعزائمهم فإن فى الحق علينا أيضاً ألا ننسى ما لقيت السياسة الأسبوعية من كفاح خرجت منه ظافرة منصورة ، أريد الكفاح فى مغالبة الجمود العقلى والجمود الدينى . فقد نهض للسياسة الأسبوعية أناس يقولون إنها لسان إلحاد وبدعة ليضلوا من يستمع إليهم . وشر ما حارب به الجمود أهل النظر والفكر المستقل فى جميع الأزمان هو الرمى بالإلحاد .

لكن الجماعة أسرفوا فلم يعد أحد يسمع لهذا اللغو الذى يساقون إليه سوقاً .

قد تنبهت العقول وزالت غشاوة الغفلة عن بصائر الناس ففهموا أن الدين ليس غلا للقلوب ولا قيداً للأفكار ، ولكن الدين ، كما يقول الشيخ محمد عبده ، « قد كفل للإنسان أمرين عظيمين طالما حرم منهما ، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة

ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها » .

ويسرنا أن نرى فى شباب المعاهد الدينية والمدارس حرصاً على حرية التفكير واستقلاله لايزيده إلا احتراماً للدين وفضائله. ومن أسمى فضائل الدين الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة والبعد عن التكفير والتفسيق ورفث القول، خصوصاً فى مقام البحث والنظر .

إن الذين يخدمون الحرية الفكرية هم خدام الحق وأنصاره، فإن العقول المستعبدة لا تسمو إلى جلال الحقيقة وجمالها .

وإن الذين يفكون العقول من أغلالها إنما يمهدون لها السبيل إلى الحق، والدين من أسمى الحقائق فى هذا الوجود .

حيى الله خدام حرية الفكر واستقلاله وزادهم تثبيتاً وتوفيقاً ، وجزاهم عن الدين وعن العلم خيراً !

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة